كيف ينظر العرب لأمريكا؟

بحث في أسباب الكراهية

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

اندرو هممند

ترجمة :مصطفى عبد الرازق

IWSC
مركز دراسات الاسلام والغرب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أندرو همند

كيف ينظر العرب لأمريكا؟

بحث في أسباب الكراهية

** معروضات ** منتدى محلة الإبتسامة www.ibtesama.com/vb

ترجمة

مصطفى عبد الرازق

الناشر : مركز دراسات الإسلام والغرب
مدير المركز : مصطفى عبد الرازق

915 – الحي الثالث – 6 اكتوبر
هاتف : 38372309
محمول : 0100562956
E-mail:
Islam.west.sc@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز

تصميم الغلاف : ألفت الراعي
olfat.raee@yahoo.com

الترجمة الكاملة لكتاب :

What the Arabs think of America?

Andrew Hammond

Greenwood World Publishing – 2007
الطبعة الأولى - يناير 2011

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشر

مركز دراسات الإسلام والغرب

مركز بحثي مستقل يهدف إلى تعزيز الفهم المشترك والصحيح بين العالم الإسلامي والغرب من خلال نشر المعرفة التي تؤكد على هذا التوجه عبر أنشطته المختلفة على النحو الذي يمكن معه تجاوز حالة الصدام التي تسعى لفرضها أطراف مختلفة، سواء كانت تنتمي إلى عالم الإسلام أم الغرب.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
الفصل الأول : الحضور الأمريكي في العالم العربي	15
الفصل الثاني : أمريكا من الداخل	61
الفصل الثالث : القضية الفلسطينية	95
الفصل الرابع : المشروع العراقي	137
الفصل الخامس: مصر وقضية السلام	181
الفصل السادس: أسرة آل سعود	225
الفصل السابع: الورقة السودانية	265
الخاتمة	302

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

مقدمة المترجم

مع وصول إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى الحكم سادت الآمال لدى الكثيرين، خاصة في عالمنا العربي ، بأن يشهد العالم حقبة جديدة من السياسة الأمريكية تقوم على التخلي عن لغة القوة والغطرسة للإدارة السابقة التي أفرزت حالة من المواقف المناهضة للسياسات الأمريكية. وقد تزايدت هذه الآمال، عربيا وإسلاميا، مع إعلان أوباما عن دعوته للمصالحة مع العالمين العربي والإسلامي وطي صفحة إدارة مضت. فإلى أي حد ساهمت إدارة بوش في تقديم صورة منفرة للولايات المتحدة في العالم العربي أوجدت ما حاول البعض توصيفه بالكراهية؟ وما المتطلبات الضرورية لتغيير هذه النظرة؟

هذا ما يحاول هذا الكتاب تناوله بالتحليل من خلال رؤية موضوعية جديدة من قبل كاتب غربي بشأن التعاطي الأمريكي مع قضايا العالمين العربي والإسلامي . وعلى مدى صفحات الكتاب يسعى المؤلف أندرو همند مستفيدا من خبراته بالمنطقة التي عايشها كمراسل صحفي إلى تقديم صورة دقيقة بشأن رؤية العرب ـــ على كافة المستويات ـ سواء أكانوا حكاما أم محكومين ، هيئات رسمية أم غير رسمية ، دينية أم غير دينية .. للولايات المتحدة على صعيد أوضاعها الداخلية والخارجية.. تقدمها ونمط حياتها وسياساتها.

وينطلق المؤلف في مسعاه من محاولة لبحث صحة ما جري الترويج له أمريكيا، خاصة من قبل أركان إدارة بوش بشأن كراهية العرب والمسلمين للأمريكيين ونمط حياتهم وهي المقولة التي ازدهرت وراح الكثير من رموز الحكم الأمريكي يرددونها بكثافة بعد أحداث 11 سبتمبر. وعلى ذلك فالفرضية الأساسية التي يعمل المؤلف على البحث فيها هي : هل يكره العرب والمسلمون أمريكا أم ماذا؟

والإجابة التي يقدمها على مدى الفصول السبعة لكتابه هي تأكيد خطأ هذه الفرضية وأن أمريكا على العكس تحظى بالإعجاب والحضور الطاغي في العالم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العربي(*). وعلى ذلك يقدم همند من خلال فصله الأول ما يمكن اعتباره مجالات الاحتكاك العامة على نحو جعل من الولايات المتحدة ، بتعبيره ، الشغل الشاغل للعالم العربي وبشكل خاص بعد 11 سبتمبر وتداعياتها على صعيد غزو العراق وما تبعه من مساع أمريكية لفرض الديمقراطية ،الأمر الذي رأى فيه العرب تناقضا مع أولوياتهم المتمثلة في ضرورة حل القضية الفلسطينية أولا. وهنا يعرج المؤلف على الدور الحيوي الذي لعبته ثورة الفضائيات في تعزيز دور الرأي العام العربي الذي مثل عامل ضغط سواء على الأنظمة أم الولايات المتحدة ذاتها.

ثم يتطرق همند في الفصل الثاني إلى ما يعتبره مظاهر إعجاب عديدة بالولايات المتحدة في العالم العربي رغم وجود بعض القطاعات التي تتحفظ على الحياة الأمريكية، وهو ما يعكسه الحضور الأمريكي الطاغي على شاشات التلفزة العربية والإعجاب بنمط الديمقراطية الأمريكية.

من هذين الفصلين العامين ينطلق المؤلف في الفصول الخمس التالية إلى الغوص في قضايا محددة يعرض من خلالها الرؤى العربية للولايات المتحدة، وهو التناول الذي يكشف أن العرب لا يكرهون الولايات المتحدة لذاتها أو في العموم، بل يكرهون إزدواجية أمريكا وكيلها بمكيالين.

وعلى ذلك نتابع مع المؤلف في الفصل الثالث المواقف الأمريكية من القضية الفلسطينية وكيف تنعكس هذه المواقف بالسلب على الصعيد العربي وبشكل خاص في

---

* فيما يشير إلى ارتباط النظرة العربية والإسلامية للولايات المتحدة بسياساتها وليس تعبير عن كراهية مطلقة حسبما يحاول البعض الترويج لهذا الفهم أن استطلاعا أمريكيا للرأي أجرى إثر تولي الرئيس أوباما أظهر ارتفاع نسبة الرضا على القيادة الأمريكية في الشرق الأوسط ، رغم تدني الموافقة على أداء الإدارة الأمريكية في 11 دولة عربية. وأشار معهد "جالوب" الأمريكي، الذي أجرى الدراسة في هذه الدول، ومن بينها مصر ، إلى أن نسبة الموافقة على القيادة الأمريكية هي 25 في المائة، وتبلغ أدناها 7 في المائة في الأراضي الفلسطينية وأعلاها 56% في موريتانيا. وسجل المعهد ارتفاعاً ملحوظاً لشعبية القيادة بلغ معدلات قياسية بالمقارنة مع الأرقام المسجلة في عهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في السنوات الثماني الماضية. راجع : جريدة الحياة اللندنية، الثلاثاء, 20 يونيو 2009.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ضوء التصورات العربية التي ترى أن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية تصل إلى حد التوأمة والتماهي بشكل يجعل من الفلسطينيين المعادل العربي للهنود الحمر في الولايات المتحدة.

أما في الفصل الرابع فيستعرض المؤلف القضية العراقية والغزو الأمريكي الذي كانت له تأثيرات بالغة السلبية عززت النقمة العربية على الولايات المتحدة سواء من قبل أنظمة الحكم التي انتابها قدر من الخوف على أوضاعها أو على مستوى الجماهير التي رأت في الغزو قدرا من الاستهانة والإذلال وعودة لأسلوب الاستعمار الذي مضى زمنه.

وفي الفصل الخامس يستعرض المؤلف مسيرة العلاقات المصرية الأمريكية في ضوء محورية الدور المصري على صعيد قضايا المنطقة وكيف تحتل هذه العلاقات مكانة حيوية في السياسات الداخلية المصرية بشكل ألقى بتأثيره البالغ عليها، وهو ما يقدم همند معه جوانب عديدة من الحياة السياسية المصرية بشكل يلمس معه القارئ صحة هذه الرؤية.

ولأن العلاقات التي تربط السعودية بالولايات المتحدة قوية وبالغة الأهمية يفرد المؤلف الفصل السادس من كتابه مستعرضا نشأة المملكة ودور أسرة آل سعود وبدايات العلاقة الخاصة للسعودية مع الولايات المتحدة التي حلت محل بريطانيا في وراثة دورها الاستعماري. وكيف تدهورت هذه العلاقة بشكل درامي، لأن أغلب من قاموا بهجمات سبتمبر كانوا من السعوديين.

وأخيرا يستعرض المؤلف في الفصل السابع الموقف الأمريكي من السودان وتطورات علاقات واشنطن مع الخرطوم منذ الاستقلال وانتهاء بأزمة دارفور، وهى القضية التي صبت المزيد من الغضب العربي على الولايات المتحدة حيث اعتبرها البعض بمثابة تأكيد على استهداف العرب في سياق المساعي الأمريكية لإحكام سيطرتها على مقدرات المنطقة ومن ثم النظام الدولي .

وقد حاول المؤلف التزام أكبر قدر من الموضوعية والحياد في تناوله لمادته بشكل يكسب كتابه المزيد من الأهمية في موضوعه، بغض النظر عن الاختلاف أو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاتفاق معه في بعض تحليلاته، مع الإقرار في الوقت ذاته ببعض الشطحات التي قد لا يقرها الكثيرون في عالمنا العربي والإسلامي لا سيما بعض الجوانب التي حاول من خلالها توسيع نطاق موضوعه والعودة به إلى أعماق التاريخ.

وقد أقام المؤلف مادته حسبما أشار هو في مقدمته، على الكثير من المصادر العربية سواء المكتوبة أم المرئية أو من خلال اللقاءات الحية التي أجراها مع عدد من الشخصيات التي رأى أنها تثري موضوعه، وعلى ذلك يلحظ القارئ أن الكتاب يمثل مزيجا يجمع بين ما يمكن اعتباره صيغة أقرب للبحث العلمي والتحقيق الصحفي.. بين الرصد والتحليل.. نجحت في النهاية، في رأينا، في تقديم صورة متكاملة لموضوع الكتاب.

بقيت كلمة تتعلق بالترجمة، فإزاء كون الموضوع يتعلق بقضية يمثل الجانب العربي الطرف الأساسي فيها، فقد مثلت المصادر العربية المراجع الأساسية التي قام المؤلف بالاستناد إليها في تناوله لموضوعه، الأمر الذي استلزم، في مسعى لالتزام الدقة، العودة إلى هذه المصادر ما أمكن. وقد نجحنا في ذلك بشكل جزئي حيث لم تتوفر لنا العودة إلى كافة الأصول وبشكل خاص بعض أعداد الصحف العربية وكذا البرامج التليفزيونية التي استند إليها المؤلف، الأمر الذي عمدنا معه إلى الاكتفاء بترجمة النص الإنجليزي على أمل أن نكون قد وفقنا في إعادته إلى أصله العربي بشكل أقرب إلى الدقة. ومع ذلك فقد وضعنا النصوص المقتبسة بين مزدوجين أو علامتي تنصيص للتحديد وللتمييز بين طرح المؤلف وبين رؤى أصحاب هذه النصوص، دون أن يعني ذلك أنها تمثل النص الحرفي للأصل العربي.

وفي النهاية لا أملك سوى تقديم الشكر لكل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى النور، مع التأكيد على أننى المسئول ، وحدى ، عن أى تقصير .

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مقدمة المؤلف

في موسم حج عام 1424 هجرية الذي صادف شهر يناير عام 2004 (1) تجمع مئات الآلاف من الحجاج في الخيام التي يقيمون فيها في منى، الممر الجبلي الضيق، لأداء مناسك الشعيرة المقدسة ومنها رمي الجمرات الثلاث، حيث يقال إن الشيطان ظهر للنبي إبراهيم الذي تتفق بشأنه الديانات التوحيدية الثلاث اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وتذكر الروايات أنه عاش في مدينة أور جنوب العراق.

وحسب الشعائر الإسلامية، يقوم الحجاج في مكة المنطقة الجبلية المترية والتي تقع جنوب غرب السعودية، برمي الشواخص الثلاث بشكل رمزي رجما للشيطان. ولدى ممارسة هذا الطقس الشعائري تتزايد الرغبة لدى بعض المسلمين لتشخيص قوى الشر، وعلى ذلك لم تجد فلاحة مصرية وسط فوضى الأحجار المتطايرة سوى أن تخلع "الشبشب" لترمي الشاخص به في غضب ضد الأزواج الذين يسيئون معاملة زوجاتهم. ووسط انهماك الحجاج في هذه المناسك مرتدين ملابس الإحرام البيضاء، والاندفاع من أجل الاقتراب من الجمرة الوسطى قدر الإمكان في هذا الموسم ، كان يمكن لأي حاج أن يلاحظ قطعة من الصخر أسفل قاعدة الشاخص وقد كتب عليه بالإسبراي الأحمر كلمة واضحة مكونة من أربعة حروف لاتينية هي : BUSH "بوش". فعلى خلاف كل المقاصد التي يمكن أن يعكسها رمز شعيرة رمي الجمرات، فإن أحد الحجاج اعتبر بوش، والذي كان يقدم نفسه على أنه زعيم العالم الحر، الشيطان الذي يجب على المسلمين الذين يخشون الله أن يقذفوه بحجارتهم خلال شعائر الحج.

قد يكون من الصعوبة أن نصادف موقفا كهذا يعبر بقوة عن مشاعر الغضب والسخط السائدة في الدول العربية والإسلامية بعد الغزو الأمريكي للعراق. لقد استهدفت عملية الغزو، والتي جاءت تحت دعوى "الحرب الوقائية"، حسبما أعلنت الولايات المتحدة آنذاك، الإطاحة بأحد قادة العالم الثالث الأقوياء الذي تتمتع بلاده باحتياطات نفط كبيرة. كما استهدفت فرض الديمقراطية من خلال نمط من "الحكم الجيد" للمواطنين العراقيين الذين عانوا طويلا. غير أن هذه العملية الانقضاضية من خلال العمل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العسكري أزالت قشرة الاستقلال التي حرصت الدول العربية على إقامتها بعناية على مدى الخمسين عاما الماضية، منذ القضاء على الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية بمساعدة قوى غربية.

أما على صعيد العالم العربي، فقد جاء الغزو في وقت استحكم فيه العداء بين العرب وأمريكا، بفعل التناقض الواضح والجلي بين آمالهم وأحلامهم من جهة، وحقائق السياسة الخارجية الأمريكية من ناحية أخرى.

لقد تدهورت العلاقات العربية مع الولايات المتحدة من السئ إلى الأسوأ في السنوات الأخيرة. فعندما انتفض الفلسطينيون ضد الاحتلال الإسرائيلي في سبتمبر 2000، وجه الرأي العام اللوم للولايات المتحدة لمساندتها الشاملة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية لإسرائيل ، ومساعي هيمنتها على السكان العرب في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967 ، دون أن تسعى مقابل ذلك لمنح الفلسطينيين الاستقلال أو حتى وضع المواطنة المساوي لليهود في إطار الدولة اليهودية.

وقد مارست الولايات المتحدة بعد هجمات 11 سبتمبر 2001 ضغوطا على الدول العربية للتعاون معها بشأن الأمن وإصلاح أنظمة التعليم التي تحتشد بالتوجهات والقيم الإسلامية، في خطوة من الواضح أنها استهدفت مصر والسعودية بشكل أساسي. كما شعر العرب في الوقت ذاته برياح السخرية تنال من كل ما هو عربي ومسلم في الغرب، بشكل كشف عن تزايد الازدراء والاحتقار القائمين بالفعل، وعلى ذلك كانت الحرب على الإرهاب في المنظور العربي حربا على الإسلام والعرب.

ومن الجوانب الثابتة في هذا الخصوص، أن السياسة الرسمية لجورج بوش وتوني بلير رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت، قامت على أساس أنهم يخوضون حربا عادلة في العراق، وأنهم على هذا الأساس يجب أن يكسبوا الحرب في النهاية، وأن الصدام ليس فقط على فكر الأطراف المنغمسة في النزاع، الإسلاميين والقوميين وآخرين ممن حملوا السلاح في العراق، ولكن مع الخطاب العام عبر العالم العربي، وعلى خلفية هذا الموقف أصبح من الصعب تخيل موقف سلمي يسود العراق طالما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

اتبعت الولايات المتحدة وحلفاؤها سياساتهم الجارية. فيما تؤكد الولايات المتحدة أن "العنف الإسلامي" الموجه ضدها يعكس وضعا سيئا لم تكن طرفا فيه.

وحسب تصريحات للرئيس بوش في ذلك الصدد: " نحن لا نواجه مجموعة مظالم يمكن لنا التعاطي معها وتخفيفها، نحن نواجه أيديولوجية راديكالية ذات أهداف أصيلة تقوم على استعباد الآخرين وإشاعة الرعب في العالم. لم نقم بأي موقف يدعو إلى السخط من قبل القتلة، ولن يغير أي تنازل أو تجاوب أو مهادنة من جانبنا، خططهم للقتل"(2).

ويتفق بعض الكتاب العرب مع هذه الرؤية ، فيما تؤكد الأغلبية أن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية (*) والتواجد الأمريكي السياسي والاقتصادي والعسكري الكبير في أقطار مثل السعودية قبل 11 سبتمبر ، شكل جزءا من اقتراب ثقافي وسياسي أوسع للمنطقة يستهدف تقويض سياداتها وتدمير وحدتها لخدمة المصالح الأمريكية والإسرائيلية. وبشكل عام تتمحور الرؤية العامة في العالم العربي حول أن الراديكالية الإسلامية إنما تمثل رد فعل على الضعف العربي والاستقواء الأمريكي. فيما يذهب المثقفون إلى أن العالم العربي لا يريد من الولايات المتحدة أو الغرب تعليمه الديمقراطية، مشيرين في ذلك إلى الخبرة البرلمانية الديمقراطية في مصر قبل 1952 كمثال يوضح كيف أن التدخل الأجنبي في رأيهم قوض الديمقراطية وأعطاها مسمى سيئا.

ومع ذلك، فإنه في الوقت الذي يعاني فيه العرب من السياسات الأمريكية، فإنهم يبدون اهتماما بالموسيقى الأمريكية ويتتبعون خطوط الموضة القادمة من هناك، ويشاهدون البرامج التليفزيونية الأمريكية ويحرصون على اقتناء مخترعاتها، بل يبحثون عن كافة السبل التي تمكنهم من محاكاة أساليب الحياة الأمريكية الناجحة. ومن جانبها قامت الولايات المتحدة بجهود مكثفة من أجل كسب ود العالم العربي عبر مشروعات

---

* يبدو من الغريب أن يقصر المؤلف حديثه في هذا المجال على الضفة الغربية حتى يبدو أن إسرائيل لا تحتل سواها مع ما هو معروف ومقر به دوليا من إضفاء صفة الاحتلال على كافة الأراضي التي احتلتها بعد حرب 1967.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مثل راديو "سوا" وتليفزيون "الحرة"، الأمر الذي تذهب آراء إلى أنه لا حاجة كبيرة إليه، في ضوء أن العالم العربي في غالبيته يبدي نوعا من القبول والارتياح لتبني أدوات الثقافة الشعبية الأمريكية أيا كانت سواء ما يسمعه عبر راديو "سوا" ويأمل أن يكون لديه الكثير من ثقافتها السياسية الديمقراطية يستطيع أن يمارسه عبر "الحرة". غير أنه لا يوجد سوى علاقة ارتباط محدودة، كما يسعى هذا الكتاب إلى تبيانه ، بين الاتجاهات العربية نحو الثقافة الأمريكية والسياسات الأمريكية، هذا إذا وجد مثل هذا الارتباط من الأصل. وهو ما يعبر عنه المحلل الإعلامي جهاد فخر الدين، من مركز البحوث العربية في دبي حيث يقول: "الناس يقدرون الثقافة الأمريكية، وجوانب الترفيه فيها والى حد ما القيم الأمريكية، خاصة الديمقراطية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالسياسات الأمريكية تجاه المنطقة، فإن الأمر يبدو مختلفا إلى حد كبير. وهذا ما لا تتوافر لدى الولايات المتحدة القدرة على فهمه"(3).

إن الصفحات التالية تهدف إلى تحديد كيف ينظر العرب لأمريكا ولماذا؟. ومن أجل إنجاز مثل هذا الهدف، استخدمت مواد كثيرة حية من الفضاء الإعلامي الجديد الذي برز في العالم العربي على مدى العقد الأخير، الماثل في القنوات التليفزيونية الفضائية، حيث تناقش هذه القنوات يوميا ومن خلال كتاب وسياسيين وأفراد عاديين من مختلف أنحاء العالم العربي، كافة القضايا السياسية والدينية والثقافية الرئيسية. كما استعنت بمواد تمثل حصيلة مقابلات أجريتها من خلال عملي كصحفي والأحداث التي كنت شاهدا عليها، وكذلك كتابات محللين سياسيين وروائيين. إن العرب يشيرون إلى أنهم يجدون صعوبة بالغة في توصيل وجهات نظرهم إلى الدول الغربية وبشكل خاص الولايات المتحدة، حيث تبدي وسائل الإعلام هناك على ما يبدو رفضا لوجهات النظر العربية ما لم يكن أصحابها من المهاجرين إلى الغرب من أمثال الأكاديمي اللبناني فؤاد عجمي أو الكاتب العراقي عدنان مكية اللذين لا يريان في العالم العربي جوانب إيجابية تذكر، ويدافعان في الوقت ذاته عن قيادة الولايات المتحدة لعملية التغيير في المنطقة العربية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

على الجانب المقابل، لم يبد صانعو السياسة الخارجية الأمريكية الكثير من الاهتمام بمحدودية معرفتهم بشأن ما يذهب إليه العرب الآخرون خارج نطاق أولئك الذين يقيمون بالولايات المتحدة ويعكسون التفكير الليبرالي، وهو ما يعود جزئيا إلى ذلك الرأي الذي يتمتع بقدر من المصداقية بأن الطبيعة التسلطية للحكومات العربية تعني أنها ليست ذات قيمة بشكل يعتد به، أو أن وجهات النظر العربية ليست مهمة جزئية بسبب الازدراء الغربي لها، أو أن أمريكا لها رؤيتها الخاصة القائمة على معرفة ماذا يدور في عقول هؤلاء البرابرة. وفيما بعد 11 سبتمبر ساد زعم ساذج مؤداه أن فرض التغيير الديمقراطي، بعد سنوات من مساندة الأنظمة الديكتاتورية والاهتمام الظاهري بالنزاع الإسرائيلي الفلسطيني الذي طالت تأثيراته الكارثية، يمكن أن يمرر الخديعة. وهو ما لن يكون.

وبينما توجد وفرة من الدراسات المتعلقة بوجهات النظر الأمريكية تجاه العرب، ومنها على سبيل المثال دراسة روبرت كابلان "العرب" فإنه لا توجد سوى أعمال محدودة تتناول المواقف العربية تجاه الولايات المتحدة (4). وحسبما كتب عالم السياسة مارك لينش في رؤيته التي استهدفت تصحيح بعض الرؤى العامة: " إن الرأي العام العربي ظاهرة أكثر تعقيدا مما يسود بشكل تقليدي، النخبة التي تثير السخرية، والقوميين والشارع العربي، إن من بين المسائل التي تتجاوز نطاق الشارع، وفي بعض الأحيان تتجاوز الحكام، هو الإجماع فيما بين النخبة والرأي العام للطبقة الوسطى عبر العالم العربي.. هنا تجري فعليا وقائع معركة الأفكار بشأن الإصلاح الداخلي والعلاقات مع الولايات المتحدة، وهنا ما يجب أن يتم الفوز به"(5).

بقيت كلمة بشأن أسلوب تحرير هذا الكتاب: لقد تجنبت استخدام العلامات المميزة، في ترجمة الأسماء العربية وحافظت على الأشكال النمطية للكثير من الأسماء والمصطلحات كما تظهر غالبا في وسائل الإعلام. وأما علامات المزدوجين فتشير إلى التأكيد في النطق في هذا المقطع، على الرغم من أنني حاولت تجنب ذلك ما أمكن. وفي النهاية، لا أملك سوى أن أتوجه بالشكر لكل من ساعدني في إعداد مادة هذا الكتاب،

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وأخص بالذكر سيمون ماسون، رولا محمود، محمود قاسم، أميل خان، عبد الله خان، باراث بارثاساراثي .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الأول

الحضور الأمريكي في العالم العربي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العلاقات العربية الأمريكية قبل 9/11

تمثل الولايات المتحدة الشغل الشاغل للعالم العربي منذ 11 سبتمبر. ماذا تريد أمريكا من العرب، من يؤثر على تفكيرها، كيف يمكن جعلها أكثر ميلا لسماع المخاوف العربية؟ وكيف يمكن التخلص من هذه المخاوف تماما؟ ومثلت هذه التساؤلات تفكيرا حظي بقدر كبير من الاهتمام منذ ذلك اليوم الموعود عندما أقدم 19 شابا عربيا على القيام بعملية أسفرت عن ضحايا يقدر عددهم بنحو 3 آلاف شخص ، انتقاما لما اعتقدوا أن أمريكا فعلته مع المسلمين. وبدأت أمريكا بدورها الإعداد لضربة انتقامية مضادة. كان العالم العربي ، وكذلك أمريكا، يدركان أن علاقاتهما وصلت إلى مرحلة تاريخية من التدهور، أو على الأقل إلى حالة من التوتر تصل إلى حد الغضب. ربما يرى البعض الأمر باعتباره نزاعا تواصل لنحو ثلاثة عقود على الأقل وصل أخيرا إلى مرحلة الانفجار، على النحو الذي فرض على كلا الطرفين أن يسأل كل منهما نفسه بدقة عما يريده من الآخر. هذه العلاقة المضطربة، بشكل غير قابل للنقاش، شهدت تحولا كبيرا بفعل حادث تفجير برجي مركز التجارة العالمي والهجوم على واشنطن، بشكل يتم توصيفها اليوم من خلال عدد من الاتجاهات المختلفة بشأن القضايا الأساسية، باعتبارها تعكس الجهد الأمريكي لتعزيز الديمقراطية في المنطقة، الحرب على العراق، الحرب على الإرهاب، والنزاع الفلسطيني الإسرائيلي.

ورغم محورية حدث سبتمبر، إلا أن علاقات الطرفين كانت قد تدهورت بشكل ملحوظ فقدت معه تلك البراءة النسبية التي كانت سمة مميزة لهذه العلاقات بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كانت الدول والشعوب العربية الصاعدة آنذاك تأمل في أن يكون للولايات المتحدة – كقوة عظمى جديدة على المسرح العالمي تعزز انتشار قيم الحرية والعدالة ـــ دور يساعد في تحريرهم من قيود القوى الاستعمارية العالمية القديمة. كان ذلك مفتاح تدخل الولايات المتحدة خلال أزمة السويس عام 1956 ، وهو ما أدى إلى فشل الغزو الذي جرى بمؤامرة بريطانية فرنسية وإسرائيلية من أجل استعادة السيطرة على قناة السويس، والإطاحة بالزعامة الكاريزمية لجمال عبد الناصر ذى الاتجاهات العروبية . لقد كانت سيطرة بريطانيا وفرنسا على ممر مائي حيوي من خلال شركة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

قناة السويس أثرا من الحقبة الاستعمارية، ولكن امتياز قناة السويس كان من المقرر أن ينتهي في 1968. وقد قرر ناصر تأميم الشركة إثر موقف الولايات المتحدة عدم تمويل مشروع السد العالي. كانت بريطانيا وفرنسا تدركان أن التأميم يشير إلى تراجع قوتهم ونفوذهم في المنطقة، فيما أن إسرائيل، التي ظهرت إلى الوجود منذ ثمانية أعوام فقط، في ذلك الوقت ، كانت ترفض إعادة الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين ولها أسبابها الخاصة التي تدفعها للعمل على تقويض مصداقية ناصر وإسقاطه، وعلى ذلك كان غزو قناة السويس الحدث الذي تم إحباطه.

وعندما بدأت الولايات المتحدة تدريجيا شغل الفراغ الذي تركته القوى الاستعمارية، كان من المهم أن تدرك أي نوع من العالم العربي ترث، لقد أعادت بريطانيا وفرنسا رسم الخريطة الأساسية للمنطقة. ويصدق ذلك بشكل كامل بالنسبة للحدود الخاصة بدول مثل الأردن وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين (حاليا إسرائيل إلى جانب الأراضي المحتلة) ، وهو ما تم من خلال الاتفاق السري عام 1916 والمعروف باسم سايكس – بيكو لتقسيم مناطق النفوذ فيما بين بريطانيا وفرنسا. وفي 1917، عملت بريطانيا التي كانت تواجه ضغوط الحرب آنذاك، على محاباة الحركة الصهيونية الصاعدة فأصدرت وعدا بوطن قومي لليهود في فلسطين، رغم أن المستوطنين اليهود كانوا يقدرون في ذلك الوقت بنحو 10% من عدد السكان. وفي 1947، صوتت الأمم المتحدة لصالح منح الحركة الصهيونية اليهودية نحو 55% من الأرض، وكان عدد السكان اليهود قد قفز آنذاك إلى نحو الثلث - واتخذ القرار بمعارضة 13 دولة غير غربية وتم إقراره بموافقة 33 دولة غربية (من بينها دول كانت تحكم أكثر من 120 دولة حصلت على عضوية المنظمة فيما بعد وكان يمكن لهذه الدول الأخيرة أن تصوت ضد القرار).

لقد سمحت بريطانيا لحليفها ممثلا في أسرة آل سعود، بتشكيل مملكة صحراوية في شبه الجزيرة العربية تشمل عددا من المدن المتميزة على شاطئ البحر الأحمر، مثل جدة ومكة والمدينة والطائف. وعلى طول الشاطئ الخليجي – وفي المناطق الخلفية المنعزلة منه – عقدت بريطانيا سلسلة معاهدات مع عدد من الأسر البدوية لتأمين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مصالحها التجارية الاستعمارية، وهى المناطق التي باتت تشكل اليوم الإمارات العربية المتحدة ، قطر، البحرين، والكويت، حيث هيمنت الرغبة الشديدة والمتزايدة من قبل السياسيين الغربيين في السيطرة على النفط العربي، كما يقول الكاتب الغربي الرحالة تيم ماكينتوش سميث (1).

وعملت الأيديولوجيات السياسية الكبرى للعالم العربي في القرن العشرين ممثلة في الإسلام والقومية العربية والشيوعية، خلال فترة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية، على تجاوز ما قام به الاستعمار.وفي ذلك الصدد اتحدت مصر مع سوريا لمدة ثلاث سنوات، فيما خاضت سوريا والأردن تجربة الاتحاد مع العراق، وحاول هذا الأخير احتلال الكويت ، كما مارست سوريا ، بذكاء ، تقويض استقلال لبنان . كما يشارك الكثير من الغربيين النخبة العربية حيرتها بشأن استمرار الكيان السعودي حتى الآن. وقد أثبتت بني الدولة التي أقيمت في المنطقة مرونتها بشكل ملحوظ في مواجهة تطورات الأحداث، غير أنه فيما تنامت المشاعر والروابط التي تتجاوز النطاق القطري يتراجع السخط بشأن ما يعتبر الحدود الوهمية التي تم فرضها من قبل أطراف خارجية.

ومع نهاية حقبة الخمسينيات، انغمست الولايات المتحدة فعليا في لعبة مساندة بعض الأنظمة على حساب الأخرى. كان دافعها مواجهة النفوذ السوفييتي في المنطقة. ومن أجل تحقيق ذلك حاولت توجيه السياسات الخارجية العربية والتحكم فيها للنأي بها عن طريق السوفييت عبر حلف بغداد 1955 (والذي ضم بريطانيا وتركيا وإيران وباكستان والعراق). لقد عملت السي أي إيه على دعم النظام الملكي السعودي، والذي تآمر مع القوى الإسلامية ضد مصر ناصر، وأرسلت قوات إلى لبنان للحيلولة دون وقوع الدولة في أيدي المساندين لناصر وأيدت انقلابين عسكريين في العراق، أدى الأخير منهما إلى وصول صدام حسين إلى السلطة. وقد تعززت المصالح الأمريكية مع تطور ظهور حقول النفط في الخليج والتحدي الفلسطيني والعربي لدولة إسرائيل. وأصبحت الولايات المتحدة أكثر التزاما بإسرائيل بعد حرب 1967 – السياسة التي تم ممارستها بدهاء من قبل هنري كيسنجر – غير أنه كان هناك على مستوى العرب أنفسهم قدر من القلق الشعبي بشأن المدى الذي ستصل إليه أمريكا في مساندة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإسرائيليين إلى أن كانت ثورة الإعلام العربية في التسعينيات ، حيث سمحت القنوات الفضائية مثل الجزيرة بحرية الوصول إلى المعلومات، وعززت عملية التأثير المتبادل لمثل هذه المواقف تبادل الرأي، بطول العالم العربي وعرضه .

كانت حرب الأيام الستة في يونيو 1967 كارثة للعرب، وما زالت نتائجها ملموسة حتى اليوم، فمصر لم تفشل فقط في مواجهة الهيمنة الإسرائيلية في الشرق ومياهه ــ رغم حماقة دخول القيادة المصرية الحرب دون وجود مبررات واضحة ــ بل فقدت سيطرتها على قطاع غزة وخسرت شبه جزيرة سيناء، فيما فقد الأردن الضفة الغربية، والقدس الشرقية، وفقدت سوريا مرتفعات الجولان. وقد تحول الصراع العربي الإسرائيلي إلى قضية دولية أصبحت معها القوى الرئيسية تنظر إلى إسرائيل باعتبارها ضحية، كما أن هذه الأخيرة أصبحت قوة قائدة في الشرق الأوسط بفعل المساندة الأمريكية، فيما لم تقف واشنطن بشكل ملموس في كثير من المواقف، إلى جانب الفلسطينيين الذين يعتبرون الخاسر الأكبر في الصراع.

وخلال السبعينيات قام الرئيس جيمي كارتر بمحاولة شجاعة استهدفت الضغط على الإسرائيليين للتوصل مع الفلسطينيين إلى اتفاق عادل في محادثات كامب ديفيد مع مصر عام 1978 غير أن جهوده وقد انتهت إلى عدم تحقيق شيء، لم تلق الاهتمام اللائق بها في العالم العربي، الأمر الذي أشارت إليه دراسة صدرت عام 1998 باللغة العربية للكاتب السياسي المصري وحيد عبد المجيد (2).

وفي التسعينيات، عندما تزايد الانغماس الأمريكي في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وأصبح أكثر مباشرة ووضوحا على المستوى العام، حظيت هذه السياسة بتقدير كبير من قبل الرأي العام العربي خلال مراحل معينة من هذه الفترة. كان ذلك خلال حقبة الدبلوماسية العامة التي اتبعتها وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت والمبعوث الخاص للشرق الأوسط دينيس روس، عندما أشرفت الولايات المتحدة على رعاية إعلان المبادئ الذي جرى توقيعه في واشنطن عام 1993 في ختام محادثات أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد جاء هذا التحرك في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ضوء موقف إدارة بوش(*) بإحياء محادثات السلام في أعقاب حرب الخليج عام 1990 – 1991 حيث قادت الولايات المتحدة تحالفا دوليا من أجل تحرير الكويت من الاحتلال العراقي.

وقد بدا أن الإدارة الأمريكية ترحب بفكرة أن إنهاء الاحتلال العراقي يجب أن يقابل بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وتراجعت هذه السياسية في الفترة التي خبا فيها نفوذ الإتحاد السوفييتي في المنطقة تاركا الساحة للولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة. وباختصار احتل بوش الأب مكانة بارزة في العالم العربي جعلت منه بطلا نظرا لتهديدات إدارته لإسرائيل في 1992 بتأجيل بعض المساعدة لها بسبب بنائها المستوطنات في الأراضي المحتلة. وفي هذا الخصوص تحدث الرئيس بيل كلينتون أمام المجلس الوطني الفلسطيني في غزة في ديسمبر 1998 متبينا اللغة الفلسطينية المتمثلة في "الطرد" من قبل الصهيونية، وحاول أن يتوسط بشأن إقامة دولة فلسطينية بين يوليو 2000 ويناير 2001(3).

وفي مواجهة ذلك، وإثر دخول الهجمات الانتحارية الفلسطينية معادلة الصراع، راحت أولبرايت تعلن بجرأة في 1996 أن بناء المستوطنات لا يمكن مقارنته على أي نحو وبأي معيار ، بتفجير الأبرياء المدنيين. وبعد نحو خمس سنوات، ألقت إدارة جورج بوش الابن باللوم على الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات جراء استمرار حالة العنف التي لحقت بالعلاقات الفلسطينية الإسرائيلية، وأعلنت بالتالي، صعوبة قيام دولة فلسطينية دون وضع حد للصراع الفلسطيني المسلح ضد إسرائيل.

وفي 2003، راح العالم العربي العاجز عن تقديم المساعدة يتابع مساعي إسرائيل، تشجيع عملية غزو العراق، الحضارة القديمة والمهيبة التي ترمز إلى التاريخ الجمعي والضمير الثقافي للعالم العربي. وهو الغزو الذي وصفه المعلق السياسي المصري حمدي قنديل بأنه أكبر كارثة تواجه العالم العربي منذ عام 1948 – حيث أسفر القتال في فلسطين عن هجرة جماعية لأكثر من مليون فلسطيني من السكان العرب

* جورج بوش الأب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأصليين وإقامة دولة إسرائيل (وتقدرها الإحصاءات بما يتراوح بين 700 ألف إلى مليون).

الدخول إلى 11 سبتمبر

أصبحت المجتمعات والعقليات العربية بعد 11 سبتمبر فجأة مهمومة بالولايات المتحدة. وأشار معلقون مثل فريد زكريا من "النيوزويك" وتوماس فريدمان من "النيويورك تايمز" إلى "التيارات الخبيثة أو السامة " التي تتحكم بالمجتمعات العربية التي تتسم بالعجز في دول مثل مصر والسعودية، الدولتين اللتين ينظر إليهما على أنهما الحليفان الأساسيان لأمريكا في المنطقة، فيما أنهما كانتا تربة خصبة للعناصر التي قدمت الدعم الأساسي للقاعدة (4). ويذهب صناع السياسة والمحللون الأمريكيون الآن إلى أن الغرب لا يقاتل من أجل استئصال الإرهاب. إن الإرهاب مجرد أداة، إنه حرب من أجل هزيمة الأيديولوجية: التوتاليتارية الدينية، حسبما كتب فريدمان (5). وهذا التحليل صحيح إلى حد كبير، فمشاكل العالم العربي المستفحلة أصبحت حيوية بالنسبة للمصالح الأمريكية نظرا لما تنتجه من سخط مستفحل.

وعلى ذلك فإن كتاب الرأي الأمريكيين قدموا تعبيرات جديدة في معرض السعي للدراسة النقدية المفصلة لثقافة المنطقة والتي أصبح إعادة بنائها أحد المشروعات الأمريكية المستقبلية. ومن التعبيرات الجديدة التي بدأت في الظهور عبر الخطاب الإعلامي وصف "الجهادي" أو "الجهاديين" كتطوير لتعبير "المتشدد" في وصف الإسلاميين الراديكاليين الذين يمثلون تهديدا شاملاً في مواجهة الإيديولوجية الغربية ويؤيدون استخدام العنف. وقدم بوش صفات سايرت الموضة السائدة باستخدام مصطلحات مثل " المتشددين الجهاديين" أو"الإسلاميين الفاشيين" (6). وتعمل واشنطن من خلال إذاعة راديو "سوا" وقناة "الحرة" اللتين تمولهما الخارجية الأمريكية على تقديم أجندة إخبارية وأخلاقية خالية من اللغة المستخدمة من قبل وسائل الإعلام العربية الرسمية والقنوات الفضائية مثل قناة "المنار" التابعة لحزب الله والجزيرة القطرية ، وتعيد تسليط الضوء على أهداف السياسة الأمريكية. كما أنشأت الخارجية الأمريكية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أيضا في عراق ما بعد عهد صدام حسين ، قناة "العراقية "التليفزيونية الرسمية، وكذلك صحيفة "الصباح" اليومية.

وبعد الحرب على العراق، أطلقت إدارة بوش حملة لإقناع الحكومات العربية بالديمقراطية، والسماح بمزيد من المشاركة الشعبية الحقيقية في الحكم، وتطبيق حكم القانون وإصلاحات اقتصاد السوق. كما سعت الإدارة كذلك لتشجيع إقامة علاقات ودية مع إسرائيل، ولم يكن لدى الكثير من الحكومات العربية، إن لم تكن كلها ، اعتراض ملموس على ذلك من حيث المبدأ، ولكن الرأي العام كان هو المشكلة. ويؤكد المعلقون العرب بشكل عام أن الولايات المتحدة ليس لها مصلحة كبيرة في ظهور نظم ديمقراطية على شاكلة تلك التي في أوروبا أو الموجودة بها، في ضوء أن ذلك يمكن أن يشكل خطرا لجهة تولي قوى معادية للأمريكيين والإسرائيليين السلطة.

وفي إشارة إلى ذلك الفهم أعرب الدكتور حسن نافعة أستاذ العلوم السياسية المصري عن اعتقاده بأن الولايات المتحدة غير جادة على الإطلاق بشأن الديمقراطية في الشرق الأوسط، حيث يمكن أن يأتي ذلك بأنظمة لديها القدرة على أن تقول "لا" بشكل أكبر للولايات المتحدة خاصة بالنسبة لسياستها تجاه إسرائيل(7). وهنا فإنه من الصحيح أن بعض المحللين الأمريكيين المتخصصين في قضايا الشرق الأوسط- الكثير منهم ، من أتباع مفكري مجموعة المحافظين الجدد الموالين بقدر كبير لإسرائيل- يعتبرون أنه قد يكون من المفيد لواشنطن فرض الحلول التي تراها على الثقافة السياسية العربية سريعة التغير، المناهضة لإسرائيل والمفتقدة للتنظيم بشكل يحسن معه عدم تركها لآلياتها الخاصة.

على المستوى العربي ، ثمة اعتقاد محدود بأن الولايات المتحدة تعمل على التوصل إلى اتفاق عادل بشأن القضية الفلسطينية، فيما يوجد في الوقت ذاته قدر كبير من الحذر عن ذلك الذي وجد منذ 1976 ، بشأن طبيعة السياسات الأمريكية، وتأثير إسرائيل، والتعاطف الكبير لدى الكثير من الأمريكيين تجاه الدولة اليهودية، لأنها تعكس المشروع المسيحاني الرائد للهاربين من الاضطهاد. وفي ذلك راح غسان سلامة أستاذ العلوم السياسية في باريس ووزير الثقافة اللبناني السابق، يقول خلال حديثه أمام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المنتدى الإستراتيجي العربي في دبي ديسمبر 2004 أنه إذا كان لديك عولمة عبر العالم العربي، وإذا كان لديك حكومة ديمقراطية، فإنك سترى أن العرب العاديين مهتمون بفلسطين أكثر من الحكومات.

إن الفكرة القائمة على أن معظم العرب يهتمون بالنزاع العربي الإسرائيلي انطلاقا من دور الحكومات غير حقيقية. إن العكس هو الصحيح. إنني أعرف أن هناك موضة سائدة في واشنطن حاليا تقوم على الاعتقاد بأن هذا الاهتمام سيتلاشى حال وجود الديمقراطية. إن الكثير من العرب لديهم قدر كبير من الاهتمام بالنزاع أصيل ومشروع. إن الإجابة لا يمكن أن تكون ، بأي حال من الأحوال، محاولة العمل على نسيان فلسطين(8). وهنا فإن أمل القائمين على السياسة الأمريكية أن تقلل المكاسب المتحققة على الصعيد الاقتصادي وأسلوب الحياة نتيجة العلاقات الجيدة مع الولايات المتحدة من محورية قضية فلسطين عربيا خاصة إذا تم تعزيز الهوية المستقلة لكل دولة عربية على حدة.

ويعد العراق إلى حد ما نموذجا لهذا التصور الذي يقوم على فكرة: أزل نظاما قوميا عربيا ديكتاتوريا، ومن يمكن أن يدور في فلكه. لقد تخيل أولئك الذين دعموا فكرة الحرب ودافعوا عنها مجئ حكومة علمانية متحالفة مع الولايات المتحدة إلى السلطة، غير أن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن ذلك بقدر كبير (مارس 2007) حيث قامت سلطة جديدة شيعية حليفة لإيران. وقد وجدت إدارة بوش نفسها ملزمة بالتعامل مع النتائج غير المقصودة لأفعالها، على أمل أن تحيد البراجماتية والمنافع الاقتصادية الناجمة عن العلاقات الجيدة مع الولايات المتحدة أي دافع لتوجهات سياسية متشددة معادية للغرب. ومع ذلك، فإن التطبيق الصحيح للديمقراطية يمكن أن ينتهي إلى نتائج كارثية على أمريكا في الشرق الأوسط . إن الكثير من أجزاء المنطقة تحكم من قبل أقليات طائفية مثل سوريا حيث العلويون ، أو أقليات أخرى تعكس نخبا عسكرية وغيرها، مثلما هو الحال في مصر والجزائر والسودان أو الملكيات القبلية مثل الوضع في السعودية حيث يقوم حكم أسرة آل سعود على أساس التحالف مع فئة دينية سنية متزمتة هي الوهابية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كما أن إعادة صياغة العلاقة بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية بشكل ديمقراطي يمكن أن يؤدي إلى قيام دولة واحدة يتزايد بها السكان الفلسطينيون بشكل يتجاوز عدد السكان اليهود. كما أن المسلمين الشيعة (أو على الأقل المسلمين) يمكن أن يهيمنوا على الأوضاع في لبنان هذا إذا لم تنته الأوضاع، في الواقع، إلى الاندماج مع سوريا. فيما يمكن أن يؤول الحكم في الإمارات العربية المتحدة إلى الهنود.

الأنظمة العربية وحملة الديمقراطية الأمريكية

أثارت حرب العراق قدرا كبيرا من المخاوف لدى القادة العرب، غير أنه رغم التحذير من نتائج الحرب، لم تقف أية دولة عربية على أية حال في طريق أمريكا لإحباط خططها بشأن العراق. لقد انطلقت العمليات الجوية الأمريكية من القاعدة الأمريكية المثيرة للجدل في السعودية والتي سمحت الأسرة الحاكمة بالإبقاء عليها كجزء من وجود أوسع في المملكة بعد أزمة الخليج في 1990 – 1991، رغم ما تسبب فيه هذا الوجود من سخط واسع في المجتمع السعودي بشكل جلب للنظام العار من قبل الإسلاميين والقوميين العرب في المنطقة ، نظرا لوجود الأماكن المقدسة في السعودية. فضلا عن ثروتها النفطية، الأمر الذي كان يؤهلها لاحتمال أن تكون قوة سياسية رئيسية تتحدي السياسة الغربية.

على المستوى المعلن ، عارضت الرياض الحرب، ولكنها على المستوى الخاص يبدو أنها شعرت بالارتياح بمتابعة مشهد سقوط نظام حسين، فيما كانت الدول الخليجية الأخرى ذات الكثافة السكانية الأقل، والأوضاع الأقل حساسية مقارنة بالسعودية واضحة بشكل كبير في تحديد موقفها، فقد استضافت قطر مركز القيادة الرئيسي للحرب، فيما ظلت البحرين مركز الأسطول الخامس الأمريكي. أما الكويت فكانت نقطة الدعم الرئيسية لانطلاق الحملة الأمريكية، باعتبارها الدولة التي أنقذتها العسكرية الأمريكية من العدوان العراقي عام 1991. كما كانت الحالة الأكثر تطرفا لنظام عربي انحاز بتبجح إلى جانب الولايات المتحدة فهي الدولة الوحيدة التي بدا أنها تدفع أمريكا علانية من اجل الغزو، وإسقاط صدام حسين الذي تكن الكراهية له، وتسبب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في هرب الأسرة الحاكمة إلى لندن لدى غزوه للبلاد عام 1990. أما على مستوى الدول العربية الأخرى، فقد سمح الأردن للقوات الخاصة الأمريكية بأن تعمل من أراضيه، فيما سمحت مصر للآليات الأمريكية بالعبور من قناة السويس في طريقها إلى أرض المعركة.

ويقاوم القادة العرب الضغوط الخارجية والداخلية من أجل الديمقراطية ليس فقط خشية على مصالح أسرهم المباشرة ، والزمرة الحاكمة، ولكن لإدراكهم أنها يمكن أن تفتح المجال السياسي للمشاعر الجماهيرية ضد إسرائيل بشكل يمثل تحديا لتوجه أنظمتها القائم على الولاء للغرب. وعلى ذلك فالسيناريو الكابوسي لهذه الأنظمة والقائم على الخوف من أن تقوم الجماهير بوحي من تجربة القضاء على الحكم الديكتاتوري في العراق، بثورة مخملية بطول العالم العربي وعرضه لم يتحقق بعد. كما أن الدبابات الأمريكية لم تتجاوز العراق، غير أن القادة العرب وجدوا أنفسهم مضطرين لخوض حوار مع واشنطن بشأن التغيير الديمقراطي. وجراء الحماقة السياسية الشديدة فقدت سوريا سيطرتها على الأوضاع في لبنان، الذي لم يتجاوز على الصعيد الديمقراطي الأوضاع التي كانت سائدة عام 1990، عندما أنهت اتفاقات الطائف الحرب الأهلية. وقد اتهم أشخاص قياديون في النظام السوري وكذلك لبنانيون متحالفون مع سوريا في اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في فبراير 2005، ما عزز الضغط الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة لإجبار سوريا على سحب قواتها من لبنان في العام ذاته (*). وعلى نحو مماثل توجد مظاهر قليلة ولكنها خادعة في مصر والسعودية وتونس والجزائر وعدد من الدول الأخرى. والسؤال الحقيقي الذي يفرض نفسه يدور حول المدى الذي تريد واشنطن دفعهم اليه.

إن القادة العرب يتحدثون في هذا الخصوص لغة مزدوجة، فمن ناحية يعلنون اعتزامهم الانفتاح، فيما يزعمون من ناحية أخرى وجود خصائص واعتبارات ثقافية

* يبدو المؤلف هنا وكأنه يتبنى وجهة النظر الغربية والتي تلصق تهمة اغتيال الحريري بسوريا رغم الأبعاد السياسية التي تحيط بهذه الاتهامات ما يزيد من الشكوك في طرحها . ولعل أوضح دليل على ذلك ما ذكره سعد الحريري سبتمبر الماضي من أن شهود الزور في التحقيق باغتيال والده ضللوا التحقيق و"ألحقوا الأذى بسوريا ولبنان وخربوا العلاقات بينهما وسيسوا الاغتيال". في أوضح رجوع حتى الآن عن الإتهام الموجه لسوريا.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خاصة تقوض إلى حد ما من احتمال تطبيق النموذج الديمقراطي الغربي في إطار الثقافة العربية. خذ مثالا على ذلك ما ذهب إليه الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد دبي(**).. ففي المنتدى الإستراتيجي العربي الخاص الذي عقد في دبي ديسمبر 2004، والذي تم دعوة عدد من الصحفيين البارزين إليه مثل فريد زكريا وتوماس فريدمان وفؤاد عجمي ، قدم عبارة بليغة بشأن الحاجة إلى الإصلاح: "أقول لإخواني المسئولين العرب، إن لم تغيروا ستتغيروا. إن لم تبادروا إلى إصلاحات جذرية تعيد الاحترام للعمل العام وترسي مبادئ الشفافية والعدالة والمساءلة ستنصرف عنكم شعوبكم وسيكون حكم التاريخ عليكم قاسيا"(9). ومتحدثا وفي ذهنه الوضع في العراق، راح الشيخ محمد بن راشد يحذر من فرض هذا التغيير من الخارج: "نحن فعلا بحاجة إلى المساعدة، ولكن الإصلاح لن يتحقق بالمشاريع الأجنبية والقوالب الجاهزة، ولا تساعد على تحقيقه جنازير الدبابات وهدير المدافع وإثارة الأزمات بدلا من حلها". ولكن، في تعليقات تالية باللغة العربية لوسائل إعلام محلية أشار إلى أن الديمقراطية الغربية غير متوافقة مع الثقافة العربية الإسلامية. وعلى المنوال ذاته قدم الرئيس المصري حسني مبارك تصريحات مشابهة، قبل وبعد الحرب العراقية. ومما قاله في هذا الشأن إن الشعوب العربية تعمل بجد من أجل تحقيق الديمقراطية طبقا لمعاييرها(10). وقاد القوميون العرب دولهم لعقود مستمدين الإلهام من الحركات الفاشية في أوروبا، من خلال حكام كانوا يرون أن الطغاة المستنيرين هم السبيل الأفضل لتجاوز المعايير الغربية بشأن التقدم الاقتصادي والحفاظ على الاستقلال السياسي في مواجهة أطماع القوي الغربية.

وبضغط من الولايات المتحدة وبعض دعوات التغيير من الداخل، نظمت السعودية انتخابات محلية محدودة عام 2005، رغم منع المرأة من التصويت أو الترشح للانتخابات، كما تم الإبقاء على حق الملك في اختيار نصف أعضاء مجلس الشورى. وقد نظر إلى ذلك، انطلاقا من الرؤية السعودية ، باعتباره يتجاوز الديمقراطية المتعارف عليها .. تلك القيمة المستوردة والغريبة عن روح الإسلام ، ويعزز المشاركة في الحكم. وكما ذكرت المعلقة السعودية مي يماني يفترض أن الديمقراطية تقوم على حق التظاهر

** تولي حكم دبي إثر وفاة أخيه الشيخ مكتوم بن راشد في 2 يناير 2006

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في الشرق الأوسط ولكن الديكتاتوريين العرب، يخشون الديمقراطية الحقيقية، بما تقدمه حرياتها المدنية، وانتخابات تقوم على التنافس، ولذلك يعملون على اجتزائها والعمل ببعض مبادئها في الحدود التي تحافظ على الوضع الراهن، من خلال اختيار بعض جوانب النماذج السياسية الغربية وإضفاء بعض التفسيرات الدينية عليها لتأكيد أصالة الشرعية الإسلامية. (11).

بالنسبة لمصر، وعد مبارك بإصلاحات ديمقراطية، بدأت بدعوته المفاجئة تعديل الدستور والسماح بخوض أكثر من مرشح الانتخابات الرئاسية. غير أن القواعد التي تم العمل بها كرست الوضع القائم على نحو حقق فوزه في انتخابات سبتمبر 2005، وإن كان الأكثر أهمية أنه لم يفعل شيئا يوازن صعود نجله جمال مبارك، وفي الواقع فإن موقف جمال قد تعزز.

وكرئيس للحزب الوطني الديمقراطي الحاكم استطاع مبارك تعيين جمال في منصب أساسي في الحزب الوطني عام 2002 ومن خلاله تمكن من ممارسة تأثير هائل في الحكومة بمساندة وسائل الإعلام الحكومية. وفي 2006 عزز وضع جمال من خلال تعيينه الأمين العام المساعد بالحزب الوطني الديمقراطي (*). وتخشى المعارضة من أن يخلف جمال ، بطريقة أو بأخرى والده، في ضوء عدم تعيين نائب للرئيس حتى الآن. وقد أشارت العديد من التقارير إلى أن الإدارة الأمريكية، على الرغم من أنها لم تحسم موقفها بشأن التعامل مع صعود جمال، إلا أنها مستعدة أن تتعايش مع ذلك إذا تولي جمال في نهاية المطاف منصب رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء.

حتى معاقل رفض الغرب، على شاكلة نظام صدام حسين في العراق شهدت فترات من الانسجام مع الولايات المتحدة، فإدارة بوش (الأب) فضلت في وقت من الأوقات الصمت على استخدامه الأسلحة الكيميائية في الهجوم على قرية حلبجة الكردية في 1988، التي أسفرت عن مقتل أكثر من خمسة ألاف شخص. وأشار معلقون عرب

* أمين السياسات وقد تطور وضع جمال مبارك إلى حد تزايد الحديث في السنوات الأخيرة عن ترشيحه لإنتخابات الرئاسة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في هذا الشأن إلى أنه لم يكن لديهم شك في أن النظام العراقي كان مستعدا للتقارب مع الولايات المتحدة خلال مراحل مختلفة بعد حرب الخليج 1990- 1991.

وقد أشار الكاتب الفلسطيني سعيد ابو الريش إلى تلك الملاحظات في يومياته بشأن صدام حسين (12). وقد حققت ليبيا حوارا حيويا مع أمريكا إثر موافقة الرئيس معمر القذافي على التخلي عن طموحاته بشان الأسلحة النووية والكيميائية في أعقاب الغزو الأمريكي للعراق عام 2003.

لقد كانت مصر الرائدة في ذلك المجال، حيث حظيت بصداقة الأمريكيين والدعم الاقتصادي إثر السلام مع إسرائيل عام 1979. وكان الإبقاء على علاقات طيبة مع واشنطن أمرا حيويا بالنسبة للحكومة المصرية على مدى طويل قبل 11 سبتمبر، ما يشير إليه حقيقة أن السياسيين الذين تحدوا ذلك الأمر دفعوا ثمن مواقفهم. فالسياسي المخضرم ، عمرو موسى تم إقصاؤه من منصبه كوزير للخارجية بعد فترة غير قصيرة من إعلانه الجرئ في مؤتمر صحفي مع وزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولين باول أوائل 2001 أنه لا يوافق رؤية إدارة بوش بشأن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، واتجاهها لإلقاء اللوم على الفلسطينيين. إن توجه موسى الصريح تجاه الولايات المتحدة وإسرائيل يفسر أسباب شعبيته والقبول الذي يتمتع به على المستوى الشعبي، على الرغم من النتائج التي تقدم انطباعا آخر مختلفا والناجمة عن وظيفته التالية كأمين عام للجامعة العربية التي ينتابها العجز.

لقد دافع موقع مصري على شبكة الإنترنت أنشئ عام 2004 ويعارض رئاسة مبارك عن موسى باعتباره اختيار الشعب في تصويت حر على قيادة الدولة. إن القواعد الجديدة التي تم إقرارها 2005 حالت بشكل ملحوظ دون احتمال خوض مرشحين مستقلين للرئاسة. وكان السؤال الذي قدمه الموقع بشكل بلاغي ، وهو واحد من بين عشرات يعارضون النظام، "لماذا عمرو؟". " بسبب موقفه المشرف تجاه القضايا العربية والدولية، بشكل جعله واحداً من قلة تعاملوا مع القضايا السياسية المعقدة على النحو الذي تستحقه. .. إنه الخيار الأفضل لمواجهة الحكومة والتي من المحتمل أن تفرض المزيد من القيود على الحرية والحفاظ على الأوضاع كما هى، وفي مواجهة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المرشحين الآخرين الذين بدا واضحا إمكانية مساندة الحكومة الأمريكية لهم ، حفاظا على مصالحها في المنطقة، حتى لو كان ذلك على حساب مصر وشعبها، كما يحدث دائما". (13).

النزاع الإسرائيلي الفلسطيني

تعتبر النخبة المثقفة العربية أن الحل العادل للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي وليس تغيير الأنظمة هو الذي يمكن أن يحقق الديمقراطية في العالم العربي . وتسود على نطاق واسع لدى دوائر الفكر العربي والرأي العام والنخب الحاكمة والمثقفة العربية فكرة أن الحقوق الديمقراطية مرتبطة بالتوصل إلى حل للنزاع. فبمجرد التوصل إلى هذا الأمر، سيكون المجال متاحا لإنهاء الحكم الأوتوقراطي العسكري، والذي من بين أهداف وجوده الرئيسية توفير الأمن للأنظمة في مواجهة الحركات العابرة للوطنية ذات المشاعر المؤيدة للفلسطينيين التي تهدد الاستقرار والنظام في المنطقة ، وكذا خريطة الدول ـــ الأمة في العالم العربي.

وقد كانت حرب العراق علامة على تحول جوهري في العالم العربي في ضوء قلبها لهذا الزعم رأسا على عقب. فرسالة واشنطن الجديدة تتمثل في أن العالم العربي، بما فيه الفلسطينيون، بحاجة الى الديمقراطية أو دمقرطة أنفسهم من أجل استحقاق دولة فلسطينية، بشكل عمق الفجوة بين الرؤيتين العربية والأمريكية.

وفي ذلك قال سيناتور أمريكي في المنتدى الاقتصادي العالمي في الأردن " أحد الألغاز التي تحيرني يتمثل في أسباب عدم مبادرة الدول العربية إلى الفعل في أراضيها قبل أن يتم تسوية القضية الفلسطينية، إن أحد أكبر التزاماتنا الواضحة تجاه الشعب اليهودي ودولة إسرائيل محاولة إدارة عملية السلام الصعبة وتأمين هذه الدولة، والتوصل إلى ذلك بطريقة تكون عادلة للفلسطينيين ما أمكننا ذلك"(14). ولكن الدبلوماسي السعودي تركي الفيصل، لخص الاتجاه العربي على النحو التالي : في الغرب ربما تأتي حرية الفلسطينيين في مرتبة ثانية أو ثالثة أو رابعة، ولكن بالنسبة لنا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فهي تحتل مكانة مركزية. ولا يؤثر هذا الجرح الذي يتجاوز الستين عاما أو أكثر علينا فقط، ولكنه يلقي بتأثيره على الطريقة التي نتصرف بها – كأنظمة سياسية(15).

وتتراوح اتجاهات الأمريكيين تجاه التركيز العربي على فلسطين من التعاطف الكامل، إلى الدهشة من هذه الحالة التي تعكس قدرا من الوقوع في أسر الماضي، إلى تأكيدات خبيثة بضرورة عدم السماح لأي شئ أو شخص بتهديد دولة إسرائيل. وفي مناقشة للاتجاهات العربية تجاه إسرائيل ، كتب فريد زكريا بعد هجمات 11 سبتمبر في "النيوزويك" قائلا : "من الواضح أن إسرائيل واحدة من أكبر المشاكل المركزية في المنطقة. ولكنها مشكلة لا يمكننا مساندة العالم العربي من أجل حلها – بالقضاء على هذه الدولة. فلا يمكن لنا بأي حال قبول تراجع التزامنا بوجود وبقاء إسرائيل.

لقد كان عنوان مقالة فريد هو " سياسات الغضب: لماذا يكرهون الولايات المتحدة؟"، ولكن العرب يقلبون هذا الطرح بدورهم ويسألون لماذا يكرههم الغرب؟ لقد مضى نحو 56 عاما منذ قيام إسرائيل(*)، ومضى نحو قرن أو شئ من هذا القبيل منذ بدء الإعداد لخطط إقامة إسرائيل. ومع ذلك فإن قيامها ما زال يؤجج النزاع الذي تتواصل تداعياته بشكل يتسبب بفوضى هائلة, وسط احتمال استمرار هذا الوضع". فيما أشار المحلل السياسي المصري حسن نافعة قائلا(16) إلى إن الهدف الرئيسي لهذا المشروع كان وما زال هو إنشاء دولة في فلسطين، يمكن لأي يهودي في العالم العودة إليها والإقامة بها، ويتمتع بجنسيتها.لم يتخل عنه القائمون عليه ولن يتخلوا. لقد استخدموا وما زالوا يستخدمون كل الوسائل المتاحة، الشرعية وغير الشرعية، للوصول بالمشروع إلى غايته، ومن أجل تحقيق ذلك سيستخدمون كل أو بعض التكتيكات التدريجية حسب الظروف الداخلية والإقليمية والدولية (17) .

إن الصهيونية بالنسبة للعالم العربي حركة استعمارية تفرض مجالا آخر أساسيا للصدام تسود معه الاتجاهات الأمريكية. وكانت الولايات المتحدة مررت في 2004، قانونا أمريكيا بشأن معاداة السامية عرفها على النحو التالي : التحريض على المشاعر المعادية لإسرائيل وإلحاق الضرر بالصهيونية". وكانت أعداد كبيرة من المستوطنين

* 62 عاما حتى الآن .

www.ibtesama.com/vb Exclusive

اليهود بدأوا منذ نهاية القرن التاسع عشر التحرك للاستيلاء على ما وصفه الأب الروحي للحركة تيودور هرتزل خطأ " أرض بلا شعب".

وقد حققت الصهيونية نصرا كبيرا عندما جعلت بريطانيا من مساندة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين سياسة رسمية دون العودة إلى وجهات نظر سكانها الذين يتكلمون العربية من المسلمين والمسيحيين والدروز واليهود. وقد كتب وزير الخارجية البريطاني اللورد بلفور عام 1919 ، إثر الإعلان الذي تم إطلاق اسمه عليه: " بالنسبة لفلسطين، فإننا لا نقترح حتى محاولة تلمس رغبات السكان الحاليين في الدولة... إن القوى العظمى الأربعة ملتزمة تجاه الصهيونية، وسواء كانت على صواب أم خطأ، جيدة أم سيئة، هي متأصلة في التقاليد الموغلة في القدم، في الاحتياجات الحالية، وآمال المستقبل ، للمؤسس الوافد ذات أهمية أعمق بكثير من رغبات وأهواء 700 ألف عربي يقيمون الآن في الأرض القديمة"(18).

وقد استمرت أعداد المستوطنين الأوروبيين صغيرة لعدة عقود قبل 1948 ، بالمقارنة مع السكان العرب، ورغم قوتهم الاقتصادية التي كان يعتد بها. ومن خلال قناة مباشرة من التمويل والتكنولوجية الأوروبية طور هؤلاء مدنا رئيسية مثل تل أبيب. وأدت الانتفاضة الفاشلة التي قام بها السكان الفلسطينيون الأصليون عام 1936 ببريطانيا إلى طرح عملية تقسيم الأرض بشكل يمنح المستوطنين اليهود نحو نصف الأرض، بما فيها قطاع الشاطئ الخصب، وهى الرؤية التي تم الأخذ بها بشكل تام في خطة التقسيم من قبل الأمم المتحدة عام 1948(*) وبمقتضاها وعد اليهود بنحو 55% من إجمالي أرض فلسطين. وقد تمكن نحو 70 ألف لاجئ يهودي فقط من الوصول إلى فلسطين بين نهاية محاولة النازي إذلال الشعب اليهودي الأوروبي خلال الحرب العالمية الثانية، وحرب 1948. ولكن سكان إسرائيل لدى ميلادها الذين قدر عددهم بنحو 600 ألف تضاعفوا خلال عام في ظل قيام الدولة الجديدة باستقدام يهود من أوروبا، والأكثر أهمية بتهجير يهود من الدول العربية والإسلامية المحيطة. وأصبح وجود هؤلاء اليهود الشرقيين في الواقع أمرا حيويا لاستمرار الدولة الوليدة.

---

* هكذا وردت في النص والصحيح أن خطة التقسيم كانت سنة 1947

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كان العالم العربي، وسط حالة الانقسام التي تجتاحه وخضوعه للاحتلال من قبل قوى استعمارية مختلفة بين انتداب وحماية، يتابع وقوع هذه الأحداث دون القدرة على التأثير على مسارها. وكانت الحكومات العربية قبل الحرب العالمية الثانية، مثلما هي على عادتها في تلك الفترة إما متواطئة أو صامتة بينما كانت جماعات المعارضة في صفوف الجماهير تشتعل غضبا. فقد سادت مصر قبل ثورة 1952 حالة من التحفظ تجاه العروبة والحماس مع الصهيونية (التي تشكلت جمعيات مؤيدة لها في مصر خلال العشرينات والثلاثينيات) خشية أن تثير الحركات القومية الفلسطينية المشاعر المعادية لليهود في مصر وتؤثر بالسلب على بيئتها الاجتماعية المتعددة. وقد آلت "الإخوان المسلمون"، الجماعة الإسلامية الرائدة التي نشأت في مصر عام 1928 على نفسها الاهتمام بالقضية بشكل كبير ونظمت احتجاجات ضخمة في شوارع القاهرة أواخر الثلاثينيات، وتمكن الإخوان من إرسال مجموعات لقتال الصهاينة خلال حرب 1948 والتي انتهت بقيام إسرائيل.

منذ هذه المرحلة المبكرة ، احتلت قضية فلسطين مكانة مركزية في إطار الإسلام السياسي – الحركة السياسية التي تدعو إلى أسلمة الحياة العامة والخاصة – على النحو ذاته الذي احتلته القضية في إطار اهتمام القومية العربية. ولكن هذه الأخيرة كان لها قصب السبق في هذا الصدد. ومنذ الخمسينيات وحتى السبعينيات كانت القومية العربية العلمانية المصطلح السياسي الأكثر انتشارا في العالم العربي. غير أن الأمور بدأت في التغير بعد هزيمة 1967، حيث بدأ الإسلام السياسي، منذ ذلك الوقت، وبشكل تدريجي يحتل مكانة مركزية ، وعزز من ذلك اندلاع الثورة الإيرانية عام 1979، إثر استيلاء علماء دين مسلمين على السلطة . واعتبر المراقبون أن أيديولوجية تسييس الإسلام تمثل القوة السياسية الأكثر تأثيرا في العالم العربي اليوم (لهذا السبب فإن الاتجاه السائد يشير إليها غالبا بوصفها "إسلاموية" وليس إسلامية – حيث إن الكثير من قادتها، إن لم يكونوا كلهم، ليسوا علماء أو رجال دين.

وقد تم القضاء على المجتمع الفلسطيني إثر اقتلاع أكثر من 700 ألف شخص من أراضيهم خلال القتال الذي تلا رحيل البريطانيين عنها وما استتبعه من رفض إسرائيلي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السماح لهم بالعودة. وكانت تلك بالنسبة للفلسطينيين نكبة يتم إحياؤها في الخامس عشر من مايو كل عام. ورغم أن معظم اللاجئين اندمجوا في الدول المحيطة ، في الأردن ولبنان وسوريا ومصر .. فإن الكثير من الفلسطينيين تم إعادة توزيعهم جغرافيا في إطار فلسطين التاريخية نفسها، حيث تدفقوا إلى قطاع غزة والضفة الغربية، اللتين بقيتا خارج سيطرة إسرائيل حتى عام 1967. ولهذا فإن الكثير ممن يعيشون في هذه المناطق اليوم يطلق عليهم لاجئون، حيث يعيشون في مخيمات خاصة تمولها الأمم المتحدة. على الجانب الأخر، كان من الأمور بالغة الحيوية لإسرائيل واستمرار وجودها كدولة وصول مئات الآلاف من اليهود من دول الشرق الأوسط معظمهم من الدول العربية مثل المغرب واليمن والعراق.

وقد غادر هؤلاء إلى إسرائيل جراء الاضطهاد الذي لقوه من قبل حكومات الدول العربية المستقلة حديثا، وبتشجيع حملة صهيونية سرية تمثل في سلسلة تفجيرات في المناطق العامة مثل دور السينما التي يملكها يهود في مصر والعراق. وبقي فلسطينيو الشتات الذين يقدر عددهم الآن بنحو ثلاثة ملايين، في حالة من التجاهل القومي في دول الشرق الأوسط، فيما يعيش أكثر من ثلاثة ملايين آخرين في كانتونات في إطار الإدارة المدنية الفلسطينية وفي إطار الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، على مساحة الـ 22% من فلسطين التاريخية التي تمارس إسرائيل الحكم عليها منذ 1967(رحلت إسرائيل مستوطنيها من قطاع غزة سبتمبر 2005).

وفي الوقت نفسه يعيش أكثر من مليون فلسطيني في إسرائيل كمواطنين في إطار الدولة اليهودية. وقد طرد اليهود أعدادا كبيرة من الفلسطينيين إلى مناطق نائية بعيدا عن المدن، لإفساح الطريق للوافدين الجدد من المستوطنين اليهود الذين سيطروا على السهل الساحلي، حيث تمت إقامة مدنهم الرئيسية. ومع حلول القرن الحالي يتواصل النزاع القديم دون أن يبدو في الأفق أين سينتهي؟. وبينما يمسك الإسرائيليون كل الأوراق السياسية والاقتصادية، يحتفظ الفلسطينيون بالورقة السكانية، والتي تعتبر واقعيا السلاح الوحيد الذي ما زال في حوزتهم.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وثمة رأي قوي في الولايات المتحدة يقلل من الدور الذي تمثله إسرائيل في تفسير الشعور المعادي للأمريكيين في العالم العربي. وفي مقالة مؤثرة، ذهب برنارد لويس منذ نحو عقد مضى إلى أن جذور معاداة الأمريكيين لا تكمن في مساندة دولة إسرائيل أو مساندة الولايات المتحدة للأنظمة الطاغية، ولكن تكمن في الغضب والشعور بالخزي بشأن قوة الغرب المسيحي (19). وفيما يتعلق بإسرائيل يقول لويس إن الإتحاد السوفييتي الذي كان في وقت ما أحد حلفاء العرب كان من أوائل المناصرين لإسرائيل، فيما أن الولايات المتحدة أجبرت التحالف الثلاثي المكون من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب من مصر خلال أزمة السويس عام 1956*.

وإزاء حذرهم البالغ من أطروحات كتلك التي يطرحها لويس، يشير العرب إلى أنه لم يكن بوسع أحد في المنطقة عام 1948 أن يتخيل أنه بعد 50 سنة لن يكون للاجئين الفلسطينيين حق العودة إلى أراضيهم، أو أن القدس وبقية الأراضي المحتلة ستقع في أيدي الإسرائيليين بعد نحو 19 عاما. كما لم تكن هناك وسائل فضائية إعلامية تتسم بالحيوية كتلك الموجودة اليوم، لتساعد في بلورة رأى عام عربي بشأن هذه القضايا. وفي كتاب لويس" أين الخطأ" الذي يعد من أكثر الكتب مبيعا بعد أحداث سبتمبر، يتم الإشارة إلى إسرائيل ثلاث مرات تقريبا في فهرس الكتاب الذي يحدد هدفه الأساسي بالإجابة على سؤال: أين الخطأ؟ في المجتمعات العربية الإسلامية (20)، وهو ما يجعل من فكرة استثناء المشروع الصهيوني من مثل هذه المناقشة مثيرا للسخرية في رؤية المثقفين العرب.

* تعد هذه من الرؤى الزائفة التي يقدمها برنارد لويس وتكذبها القراءة الدقيقة والمتأنية لتطورات ومجريات الصراع العربي مع إسرائيل منذ بداياته والتي تكشف عن محورية الدور الأمريكي في دعم إسرائيل وهو الدور الذي تطور وبلغ أوج وضوحه خلال عقد الستينيات وما زال متواصلا حتى الآن على ما يشير المؤلف في صفحات مقبلة من الكتاب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الرأي العام العربي
ووسائل الإعلام العربية الجديدة

شهد العالم العربي ثورة إعلامية منذ منتصف التسعينيات عندما ظهرت القنوات الفضائية العربية الحرة من قيود الإعلام الرسمي والتي تتمتع بموارد جعلتها تتكافأ في نشاطها مع التغطية الغربية سواء في المدى أو النوعية، فبدت كعاصفة على الصعيدين السياسي والإعلامي. من وجهة نظر عربية خالصة، فإن هذه القنوات ، ليست فوق مستوى اللوم ، وقد مثلت "الجزيرة" القطرية في تغطياتها، أحد جوانب هذه الثورة، ومثلت "العربية" السعودية عاملا آخر كبيرا في توجيه مخرجاتها ، ولكنها سمحت برد فعل عربي حاد وشامل على السياسات الأمريكية التي تلقي بتأثيرها على العرب والمسلمين حول العالم.

لقد لعبت هذه القنوات دورا حيويا في الثورة المعلوماتية العربية على مستوى المنطقة حيث تأثير الإنترنت أقل مما هو عليه الوضع في مناطق أخرى من العالم، وفتحت المجال لمناقشات حيوية بين المحللين الذين تتراوح اتجاهاتهم لتشمل مختلف ألوان الطيف السياسي والأيديولوجي. الأكثر من ذلك، أنه من وجهة نظر خارجية، وبسبب ثورة الإعلام ، لم تعد هناك أسرار بشأن " كيف يفكر العرب؟". ولم يعد الأمر يتطلب من المرء سوى إدارة مفتاح التليفزيون لكي يتابع تنافس ممثلي وكالات الإستخبارات والدبلوماسيين والصحفيين والأكاديميين بشكل محموم على تحديد الاتجاهات والأطر الفكرية على صعيد العالم العربي، على مدار 24 ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع.

لقد لعبت ثورة الإعلام الفضائية دورا حيويا في تعزيز الشعور المشترك بين العرب بالهوية وتوليد إجماع كبير في الرأي، عما كان عليه الأمر من قبل عبر العالم الناطق بالعربية، بشأن قضايا السياسة الخارجية، مثل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني والعراق. وكانت فلسطين دوما قضية محورية بالنسبة للقومية العربية الحديثة، ولكن فيما كانت تمارس تأثيرها في الماضي على المستوى السياسي من القمة، فإنها اليوم تمارس تأثيرها من المستوى الشعبي، بشكل تجد معه الحكومات نفسها مضطرة لالتزام موقف

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجمهور ضد إسرائيل، نظرا لقوة وسائل الإعلام الجديدة. وعندما بدأ الفلسطينيون انتفاضة عام 2000 ، فإنها استحوذت على الخيال الشعبي بشكل تفاعل معه الشارع العربي – المستويات الشعبية بشكل أساسي ممثلة في الرأي العام والناشطين السياسيين – بطرق جديدة في غرف المعيشة العربية.

وإذا كان من الأمور المعهودة في العالم العربي محدودية تأثير الإحتجاجات الجماهيرية على النخبة السياسية العربية في ضوء قدرة هذه الأخيرة على الحيلولة دون ذيوع أنباء هذه الحشود لاحتكارها الإعلام، فإن صناع السياسة في الوقت الحالي ينتابهم القلق من نجاح التليفزيونات الفضائية العابرة للحدود ، والتي لا تخضع لسيطرة الحكومات على النحو الذي تمارسه هذه الحكومات مع إعلامها الخاص، في خلق رأي عام لا يحبذه أولئك الذين في السلطة سواء أكانوا أمريكيين أم حلفاءهم من العرب.

لقد كشفت ثورة الإعلام العربية مواقف الحكومات الموالية للأمريكيين، وقدمت صوت الأغلبية التي ترفض هذه المواقف أو على الأقل تتحفظ بشأنها، خاصة في ضوء حقيقة سيطرة الحكومات منذ ظهور الدول العربية المستقلة على الصحافة المطبوعة والمرئية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وفيما لم يكن هناك على المستوى الفعلي مجال لما يمكن اعتباره تليفزيونا مستقلا، كانت توجد صحافة معارضة تتسم بالحيوية في بعض الدول. غير أنه حتى في مصر، التي تزدهر فيها الصحافة ، فإن قدرتها على تحقيق التغيير السياسي محدودة، حيث تعمل في إطار خطوط حمراء وبقوانين ديكورية، غالبا ما ينتهي الأمر معه بالصحفيين إلى المحاكمة والسجن، ولعل هذا ما يجعل بيروت تعمل كنقطة رئيسية على مستوى العالم العربي لمطبوعات المعارضة من الدول العربية الأخرى، فيما تعمل الصحف العربية التي تتخذ من لندن مقرا لها ممثلة في صحف الحياة والشرق الأوسط، على تقديم تغطية نزيهة وشاملة وغير منحازة لقضايا المنطقة ، رغم أن ملكيتهما تعود إلى السعودية، وإن كانتا تتحاشيان الأخبار ووجهات النظر المعارضة للنظام السعودي.

ومع ذلك ، ومع ظهور البث الفضائي الإعلامي العربي الذي تقوده الجزيرة اختلت المعادلة منتصف التسعينيات. وخفت حدة المعركة بين الرأي الرسمي وغير

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الرسمي في إطار الصحافة المطبوعة، نظرا لتصاعد دور القنوات الفضائية التي لا تملك الحكومات العربية سلطة إيقافها أو إسكاتها. ولم ينبع ذلك من عدم الرغبة في المحاولة. فلقد شنت الحكومات حربا على الجزيرة بوسائل مختلفة، وحرمتها من عائدات الإعلانات، وأغلقت مكاتبها أو أطلقت حملات من أجل تقويض تغطيتها. ومع ذلك، فإن هذه الحكومات لم تجد في النهاية أمامها من خيار سوى الانخراط سياسيا في هذا المجال التنافسي الجديد.

وعلى وقع هذا التطور تراجعت قناة إم بي سي التي يملكها سعوديون إلى الوراء عام 2003 لصالح قناة "العربية"، المنافسة الإخبارية للجزيرة. كما أطلقت مصر قناتها الفضائية الإخبارية.(*) كما تم منح عراق ما بعد صدام قناة "العراقية" من قبل الولايات المتحدة، والتي دخلت أرض المعركة إلى جانب قناة الحرة التليفزيونية الأمريكية. واتهم محللون معارضون مصر والسعودية وعددا من الحكومات المتحالفة مع واشنطن بمحاولة تشتيت الرأي العام وصرفه عن الاهتمام بالسياسة من خلال إنشاء العديد من قنوات الترفيه.

وقد احتلت قناتا "الجزيرة"، و"العربية" التي بدأت بثها في ذات الوقت الذي اندلعت فيه الحرب عام 2003 أهمية كبيرة في صناعة الرأي في المنطقة، ويمكن للمرء قياس تأثيرهما من خلال الاهتمام الذي أولته إدارة بوش لهما، حيث اتهمتهما بتعزيز "الكراهية ضد الأمريكيين" وفيما خففت إدارة بوش موقفها بشأن "العربية"، ومنحتها مقابلتين حصريتين مع الرئيس بوش(**) تم تجاهل "الجزيرة" باعتبارها، الناطق باسم أسامة بن لادن، لقد كانت القناة تبث مشاهد للدمار خلال الحرب على العراق بشكل يسئ لموقف الولايات المتحدة، ويوفر مناخا إعلاميا للمقاومة العراقية ويعزز عمليات الرفض للسلطة القائمة في بغداد المدعومة أمريكيا.

ومع عمليات الحراك السياسي في العالم العربي، بدا أن قناة "العربية" تمارس دورا تلطيفيا تجاه الولايات المتحدة يقوم على الحوار مع إدارة بوش، بينما أخذت

---

* قناة النيل للأخبار أو Nile News

** لم يقتصر هذا الموقف على إدارة بوش فقط ، إنما انسحب كذلك على إدارة أوباما الذي خصها بأول حوار يجريه مع وسيلة إعلامية عالمية وليس عربية فقط

www.ibtesama.com/vb Exclusive

"الجزيرة" التي تعكس الخط الراديكالي المتشدد التقليدي، تعزز سياسات المقاومة. ويعكس هذا الاختلاف المتعلق بالنبرة طبيعة مالكي كل قناة. فالمملكة السعودية مكروهة من قبل القاعدة والإسلاميين الآخرين نظرا لتحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة، ولذلك تعمل "العربية" على تعزيز الاعتدال، فيما تتمتع "الجزيرة" التي يملكها قطريون بمجال حر سمح به مالكوها للحديث عن أوضاع العالم العربي على حقيقتها كما هي ، باستثناء الهجوم على قطر وقد عكس ذلك المدى الذي وصلت إليه معارضة السياسات الأمريكية، بغض النظر عمن يقود هذه المعارضة.

وبالقدر ذاته الذي سببته "الجزيرة" من مضايقات لواشنطن، أثارت حالة مماثلة من الغضب عليها من قبل الحكومات العربية. ففي السنوات التي أعقبت افتتاح القناة مباشرة في 1996، أغلق الأردن مكاتبها لنحو أربعة شهور، بسبب تطرق أحد ضيوف برنامج حواري إلى التعاون بين الملك حسين وإسرائيل. وقد ذكر معارضون سياسيون أن الجزائر قطعت الكهرباء بأجزاء من الدولة للحيلولة دون متابعة قطاعات من الشعب لبرامج تتحدث عن الصراعات التي تسود البلاد. كما تم إغلاق مكتب القناة في الكويت لمدة شهر تقريبا بسبب إهانة مشاهد عراقي للأمير السابق الشيخ جابر أحمد الصباح، خلال محادثة هاتفية من النرويج على برنامج كان يتم بثه على الهواء. كما تم حظر عمل "الجزيرة" في السنوات الأخيرة بالعراق بدءا من أغسطس 2004 بسبب تغطيتها للتمرد ضد الدعم الأمريكي للسلطات هناك. وواصلت السعودية فرض حظر غير رسمي على الإعلان في القناة بسبب انتقاداتها على الهواء للمملكة وتخصيص وقت كبير للراديكاليين الإسلاميين مثل أسامة بن لادن ضمن برامجها.

ورغم ذلك، توظف كلتا القناتين مجموعات من العاملين ذوي التوجهات المؤمنة بالقومية العربية ، مثل القنوات الأخرى ما تعكس نوعا من رد الفعل الطبيعي، بشأن الشعور القومي العربي العادي الذي يمكن للمرء أن يجده بين المتعلمين في أي دولة عربية. وبدلا من اتهام هذه القنوات بتأجيج المشاعر المعادية للأمريكيين في المنطقة، كما تزعم واشنطن، ربما يكون من الأكثر دقة القول إن هذه القنوات تعكس المشاعر السيئة والقائمة بالفعل. وحسبما ذهب الأكاديمي الفلسطيني الذي يقيم في الولايات المتحدة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

هشام شرابي إلى أنه في التاريخ العربي الحديث، بما في ذلك الأيديولوجيات الثورية في الستينيات والسبعينيات، ليس هناك ما يوازي قوة القنوات الفضائية العربية، في تغيير طبيعة الوعي الشعبي، وربما في تغيير الممارسات السياسية لدى القوى الشعبية في العالم العربي(21).

فالإعلام الفضائي، بما يتسم به من قوة توحيدية على اتساع المنطقة العربية يقدم وجهة نظر عربية إلى العرب، على عكس الاعتماد في الماضي على خدمات شبكة الإذاعة العالمية "بي بي سي" أو تليفزيون "السي إن إن". لقد أصبحت هذه القنوات حيوية في صياغة الجدل الدائر بشأن الوجود الأمريكي في العراق، من خلال إتاحة الفرصة للعرب بشكل يمكنهم من المشاركة معاً في مناقشته، والقناتان تقدمان شهادة بشأن الحقيقة الأساسية الماثلة في أن العالم العربي يعتبر أن حل النزاع العربي الإسرائيلي شرط مسبق من أجل الانتقال من النظم العسكرية الأوتوقراطية إلى أنظمة ديمقراطية.

الاتجاهات العربية السياسية الأساسية

يقدم معظم المشاركين في النقاش الدائر بشأن الولايات المتحدة وجهات نظر انتقادية أكثر مما تذهب إليه الحكومات التي تخشى في الواقع إغضاب أمريكا. ويمكن تصنيف السياسيين والمثقفين اليوم، وفقا للأيديولوجيات التي يعتنقونها، إلى ثلاث فئات: الإسلاميون، القوميون العرب، الليبراليون الديمقراطيون. وهذه ليست تقسيمات حصرية. فالإسلاميون دائما ما يؤكدون اليوم أنهم ديمقراطيون، والكثير من القوميين العرب ذوو رؤى علمانية، فيما يبدي الليبراليون الديمقراطيون شكوكا بشأن المدى الذي يلتزم به القوميون العرب والإسلاميون تجاه قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان. كذلك تثور الشكوك لدى الإسلاميين بأن أياً من القوميين العرب أوالليبراليين الديمقراطيين مؤهلون للتعاطي بقدر من الوسطية بشأن الدور المركزي للقيم الإسلامية التقليدية عندما يصلون إلى الحكم.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لقد كان الشيوعيون قوة رئيسية في العالم العربي خلال الخمسينيات والستينيات – قاد الخوف من قوتهم حزب البعث في سوريا إلى الاتحاد مع مصر 1958، لتشكيل الجمهورية العربية المتحدة، وهى التجربة التي انتهت بشكل درامي بعد نحو ثلاث سنوات – ولكن صعود الإسلام السياسي وسقوط الاتحاد السوفييتي أدى إلى تراجع دور اليسار بشكل كبير إلى حد تحول معه إلى مجرد ظل لذاته السابقة . ورغم استمرار وجود الكثير من الأحزاب السياسية التي توصف نفسها اسميا بأنها اشتراكية ، فإن معظم اليساريين يدرجون باعتبارهم سواء في إطار القوميين العلمانيين (تفضيلهم سيطرة الدولة على الاقتصاد) أو الليبراليين الديمقراطيين اليوم. كما أن رجال الأعمال أيضا يعتبرون قوة رئيسية في العملية السياسية، ولكنهم التحقوا دوما بالأنظمة الموالية للأمريكيين، مشكلين طبقة أصبح يطلق عليها في الغالب "حلفاء الإمبريالية".

الإسلاميون

يعتبر الإسلام السياسي حركة ضخمة ذات جذور في المجتمعات العربية تعود إلى تطورين تاريخيين أساسيين: تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام 1928، والحركة المتشددة للتيار العريض من الإسلام السني المعروف بالوهابية، والتي استخدمتها الأسرة السعودية كأيديولوجية هلامية في عملية تأسيس المملكة الصحراوية التي جمعت بينهما أوائل القرن العشرين في شبه الجزيرة العربية. وقد التأمت الوهابية والإخوان المسلمون منذ السبعينات عندما وجد الآلاف من كوادر الإخوان عملا في السعودية خلال الطفرة النفطية الرئيسية الأولى. في ذلك الوقت كان الإسلاميون يعتبرون أن الذهب الأسود نعمة من الله في الأرض الإسلامية المقدسة – وبالمزج بين عقول مفكري الإخوان وسواعد رأس المال السعودي، أفرز هذان الاتجاهان الأصولية الإسلامية باعتبارها القوة الأكثر فعالية في السياسات والمجتمعات العربية على مدى العقود الثلاث الأخيرة. وتسعى هذه الحركات الإسلامية السنية إلى العودة إلى أساليب المسلمين الأوائل خلال فترة بعثة النبي والخلفاء الراشدين الأربعة، أو قادة الأمة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإسلامية، ولذلك فإن المصطلح المفضل لديهم ،حيث يعكس ما يمثلونه، هو السلفية .. اتباع أساليب السلف الأولين.

وتعد الجماعات الإسلامية السنية التي تدعو إلى الصراع المغلف بالعنف ضد النفوذ الغربي والحكومات ذات التوجهات الغربية، فروعا لهذا التيار العريض الذي يعكس الفكر السلفي في مصر والسعودية. ويجد هذا الاتجاه للعنف جذوره في مصر ممثلا في فكر سيد قطب منظر أيديولوجية التشدد لجماعة الإخوان المسلمين.. إن قطب أول من قدم مقولة إن الأنظمة العربية بعد الحقبة الاستعمارية – والتي كانت عمليا ذات توجه قومي عربي علماني –أنظمة كافرة، مستبدة، مسوخ أقيمت بفعل مجموعة من الظروف القاسية المتقاربة. ولكن الأكثر أهمية من ذلك، تأكيده، أن المجتمعات العربية التي تحكم من قبل هذه الأنظمة هي أيضا كافرة.

وصل قطب إلى هذه الرؤى عندما تحول إلى ضحية مثل الآلاف من الناشطين السياسيين المصرين الآخرين، لنظام ناصر القمعي ، الذي افتقد الرحمة في معاملته للإسلاميين والشيوعيين. لقد سمحت التكنولوجيا والأساليب الحديثة للنظم السياسية في القرن العشرين بمستوى من الوحشية أرعب قطب، بشكل بدا له في إصرار تلك الأنظمة العسكرية القومية العربية على تقليد علمانية الغرب. وحسبما كتب فإن العالم لم يتم تطهيره من البيزنطيين والفرس من أجل تهيئة الأوضاع للحكم من قبل العرب – إنما كان ذلك من أجل حكم الله.. إن المجتمعات الكافرة تشمل تلك التي تدعي أنها مسلمة ولكن تقر بالحكم لغير الله (22). وفيما بعد إعدام قطب عام 1966، تطور استخدام توصيف التكفير أو توصيف من يعتبرون مسلمين بالاسم كمرتدين عن الإسلام، إلى مستوى أيديولوجية شاملة بالغة التعقيد على أيدي عدد كبير من الجماعات المتشددة بما فيها القاعدة في وقتنا الحالي.

إنها تلك الجماعات التي يصفها المعلقون والسياسيون مثل جورج بوش الآن بأنهم "الجهاديون" و"الإسلاموفاشيون". ويسوق أتباعهم تبريرات لقتل مسلمين أثناء هجمات على أهداف غربية (مثل المجمع السكني الأجنبي الذي تم تفجيره في الرياض عام 2003). كما يبررون قتل الشيعة المسلمين في العراق، معتبرين أن ما يبديه الشيعة من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

توافق مع مشروع الغزو الأمريكي يؤكد هرطقة عقائدهم الشيعية – الفكرة التي تعكس أصولا وهابية واستعملت بشكل كبير في العراق بعد الغزو عام 2003. في المرحلة الأولى ، قامت فرضيتهم على تأكيد أن الله اختار الضحايا الأبرياء كشهداء غير مستهدفين لقضية سوف يكون لهم بسببها مكانهم في الجنة (الطرح الذي تم بثه ذات مرة على الملأ في قناة تليفزيونية عربية من خلال مناقشات من قبل رموز مثل المصري الإسلامي هاني السباعي).

وبالنظر إلى الحالة الثانية ، فقد كان زعيم القاعدة الفعلي في العراق أبو مصعب الزرقاوي (قتلته القوات الأمريكية في 2006) يحذر في الغالب العراقيين العاديين مناشدا إياهم أن ينأوا بأنفسهم عن القوات الأجنبية أو المكاتب الرسمية مثل مراكز الشرطة والوزارات ومراكز التجنيد العسكرية. وأعلنت المجموعة في سبتمبر 2005 حربا مفتوحة ضد الشيعة لمجرد أنهم شيعة، حيث قتلت المئات من العراقيين العاديين في هجمات انتحارية، رغم أنها أبدت تسامحا خاصا تجاه الميليشيات الشيعية التي اتخذت موقفا ضد الاحتلال الأمريكي، مثل جيش المهدي(*) التابع لمقتدى الصدر(23). لقد كان يطلق على تنظيم الزرقاوي "جماعة التوحيد والجهاد" غير أنه عندما تحالف الزرقاوي الأردني مع زعماء القاعدة أسامة بن لادن والظواهري غير الاسم إلى " تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين" وتعكس الإشارة إلى التوحيد النزعة الوهابية للنظر إلى الشيعة على أنهم ليسوا موحدين حقيقيين باعتبار أنهم يعبدون عليا ابن عم النبي محمد ونسله بوصفهم أشخاصا نصف مؤلهين. وينظر الإسلام بشكل عام إلى اليهود والمسيحيين على أنهم انحرفوا عن التوحيد الذي كان يعكسه الإيمان الحقيقي للنبي إبراهيم وصححه الإسلام.

وتعارض المجموعات الشيعية الإسلامية مثل حزب الله اللبناني والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة في العراق وغيرها من الأحزاب والتنظيمات، ذات الأذرع العسكرية النفوذ الغربي إلى حد كبير. ولذلك يبقى المدى الذي يتواصل معه تحالف المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة مع الأمريكيين موضع تساؤل.

* تم خوض معارك شرسة معه بعد ذلك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فيما أن جماعة الصدر على الصعيد الفعلي اتخذت موقفا معارضا بشكل واضح ضد الوجود الأمريكي.

وفيما بين الفلسطينيين توجد حماس السنية المسلمة، وهي تختلف تماما عن القاعدة في أنها نتاج إطار وطني خاص كشكل مقاومة لقوة غزو أجنبية. وهنا ، من الجدير بالأخذ في الاعتبار أنه تم الإقرار من قبل علماء السياسة بشكل كبير بأن حكومة إيران الشيعية ذات الطابع الديني تمثل رد فعل على التدخل الغربي في الحياة السياسية لإيران، إنها نوع من احتواء الانقلاب المنظم من قبل السي أي إيه للإطاحة بالحكومة الوطنية التي كان يرأسها محمد مصدق عام 1953 رغم وجاهة المناقشة حول مدى قدرة خصوم مصدق الداخليين على إسقاطه في أي الأحوال.

وفيما كان صعود الإسلام السياسي في العالم العربي، على مستوى ما، رد فعل على الهيمنة السياسية الغربية، والتجارية، والاستهلاكية والفكرية، فقد كان للولايات المتحدة دور هامشي في تطويره وتحويله لقوة متشددة بين المسلمين السنة في مراحله الأولى. وفي ذلك يشير محللون مثل الكاتب المصري صلاح عيسي الذي تناول بالبحث قضية تنامي الحركات الإسلامية في الفترة الناصرية، إلى أن الوحشية الممنهجة من قبل نظام ناصر العلماني القومي في تعامله مع الإسلاميين هي التي دفعت بسيد قطب ومساعديه إلى تثوير أيديولوجيتهم. ومن المثير هنا أن الولايات المتحدة كان لها دور من وراء الكواليس، وإن كان غير مباشر في توصل قطب إلى آرائه ومواقفه تلك، في ضوء حقيقة أن رحلة قطب الفكرية ضمن مرحلة التشدد السياسي بدأت مع زيارته للولايات المتحدة التي كان لها وقع الصدمة عليه بشكل كبير، وهو ما يفسر جزئيا انتقاده الشديد لما اعتبره نزعة استهلاكية، وأنانية وانعدام قيمة الحضارة الحديثة بشكل عام. وفي ذلك كتب قطب (*) إن العالم كله يعيش اليوم في جاهلية من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها .. جاهلية لا تخفف منها شيئا هذه التيسيرات المادية الهائلة وهذا الإبداع المادي الفائق.. إن المجتمع العربي واحد من أسوأ المجتمعات وفقا

* أورد المؤلف نص قطب في كتاب "معالم في الطريق" بتصرف في الأصل الإنجليزي عن أصله العربي وقد حاولنا في سياق الترجمة التوفيق بين النصين ما أمكن.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لمتطلبات توزيع الثروة والعدالة، فهناك أقلية ضئيلة لديها الثروة والأعمال وتزيد ثروتها عبر الربا الفاحش، فيما أن الأغلبية ليس لها سوى المشقة والجوع. ومع ذلك فلدينا تصور جديد نملك إعطاءه للبشرية (الإسلام) وهو رصيد لا تملكه البشرية، لأنه ليس من منتجات الحضارة الغبية وليس من منتجات العبقرية الأوروبية شرقية، كانت أم غربية. (24).

وخلال الفترة التي كتب فيها قطب هذا العمل، كانت الولايات المتحدة تعزز التوجه الإسلامي في مواجهة الشيوعية والقومية العربية. كما أبقت على علاقات قريبة مع السعودية والإخوان المسلمين (25). وتلقت الأطراف الإسلامية الهامشية المزيد من الدعم الأمريكي مع قرب نهاية الحقبة السوفيتية، عندما جرى تمويل جيش المجاهدين العرب الذين تجمعوا في أفغانستان من أجل قتال الاحتلال السوفيتي في الثمانينيات. وقد أشار مسئولون حكوميون في مصر والسعودية في مرات مختلفة، بمرارة إلى مساندة السي أي أيه لهؤلاء الثوريين الإسلاميين الأصوليين الذين شنوا إثر عودتهم تمردا كبيرا في مصر والجزائر في التسعينيات قبل التحول إلى مهاجمة الولايات المتحدة في سبتمبر 2001. وقد صرفوا أنظارهم بشكل متقطع إلى السعودية في التسعينيات، وبعد حرب العراق 2003 أطلقت منه جماعة داخلية معركة مفتوحة ضد النظام السعودي. وانطلقت في تحديد شعارها للحرب على الأمريكيين والغربيين الآخرين من الاستشهاد بمقولة للنبي : "أخرجوا المشركين من شبه الجزيرة العربية" في ظل النظر إلى الوجود العسكري والمدني لهؤلاء في المملكة على أنه يمثل دعم للنظام الملكي الفاسد الذي يعتمد على الولايات المتحدة من أجل بقائه(26).

وقد دارت الكثير من المناقشات تركزت على التساؤل بشأن أبعاد رفض هؤلاء للغرب وما إذا كان ينطلق من الأيديولوجية الإسلامية أم أنها تمثل فقط أيديولوجية ذات مواصفات مناسبة لهدفهم في مقاومة التدخل الأجنبي في العالم العربي. وتتبنى الحكومات الغربية وكذلك مجموعات محدودة من المثقفين العرب الطرح الأول، بينما يميل معظم الكتاب في العالم العربي إلى تبني وجهة النظر الأخيرة، حتى إذا رأوا أن العنف الإسلامي المتزايد كارثي وله نتائج سلبية . وقد أشار الروائي اللبناني والمؤرخ

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أمين معلوف إلى أنه لدى ملاحظة الحركات الإسلامية المتشددة اليوم، فإنني أستطيع بسهولة ، أن أرى تأثير العالم الثالث في الستينيات، سواء أكان ذلك في الخطاب، أم في الوسائل. وفي نفس الوقت، بغض النظر عن كيفية النظر في عمق التاريخ الإسلامي، فإنني لا يمكن أن أصادف أشباها لهم. إن هذه الحركات ليست نتاج التاريخ الإسلامي الخالص، إنها نتيجة عصرنا، وتوتراته، وتشويهاته، وممارساته، واحباطاته(27).

وبشكل مماثل، فإن عبد الرحمن الراشد مدير قناة "العربية" التي يملكها سعوديون، قال ما لم تسمع شخصا يشير مباشرة إلى ماركس أو ينقل عن ابن تيمية، فإنك لا تستطيع أن تحدد في بعض الأحيان ما إذا كانوا إسلاميين متشددين أم متشددين ماركسيين أو قوميين متشددين(28). ومع ذلك فإنه على خلاف ذلك لدينا آراء تم التعبير عنها في وسائل إعلام باللغة الإنجليزية مثل إفتتاحية "الديلي ستار" التي تصدر في بيروت وجاء فيها: " حتى وقت غير بعيد كان من الممكن تحليل القاعدة أو تفسيرها باعتبارها مظهرا لعدم الرضاء العربي، أو رد فعل عنيف من أجل الإصلاح السياسي، أو رفض عدائي للهيمنة الأمريكية أو الصهيونية. وفي إعلانها الحرب ضد شيعة العراق، أثبتت القاعدة أنها ليست أكثر من عصابة طائفية عديمة الرحمة"(29).

من المثير هنا، أن الزرقاوي نفسه خاض غمار هذا النقاش في واحد من تسجيلاته الصوتية وتم بثه على الإنترنت، حيث انتقد الجمع بين المسلمين السنة والشيعة والقوميين العلمانيين، باعتبارهم مظاهر مختلفة لشئ واحد ، هو مقاومة الغرب التي يصعب التمييز بين وحداتها. وحسب قوله : "الكثير من المسلمين تأثروا بهذه الحملة وبدأوا يشعرون بالخجل من استخدام هذا المصطلح – الجهاد - خشية اتهامهم بالإرهاب. وقد استبدلوه بدلا من ذلك بمصطلح المقاومة. لقد لوث ذلك سمعة الجهاد ومؤيديه وأدى إلى شموله لجماعات وفصائل ليس لها علاقة بالجهاد مثل المعارضين من حزب الله الشيعي، وكذلك حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" مشيرا إلى جماعات المقاومة اللبنانية والفلسطينية. وأضاف أن كل هذه الحركات تعمل في إطار تقوم من خلاله بالدفاع عن دولتها ضد العدو ومقاتلة المحتل وانخرطت في المقاومة. ولكن الجهاد شئ أكثر عمقا من ذلك(30).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومع ذلك فإن الزرقاوي لم يتجاوز في أغلب الأحوال اهتماماته التي تكتسي الصبغة القومية، حيث أشار إلى ذلك في خطبة تم نشرها على المواقع الإسلامية مصحوبة بصور لجنود ينتهكون فلسطينيين وعراقيين يعانون جراء العمليات العسكرية الأمريكية في العراق، وقد راح يقول بأسلوب مؤثر إن آلام الأمة ما زالت تطاردني - الأمة الإسلامية - الأمة العظيمة .. والتي تم الإساءة إليها من قبل الغادرين والعملاء المأجورين الأشرار، ولذلك ساد فيما بيننا الخزي والعار، فيما تم تنحية الأحلام جانبا وانتشر المرض في الجسم الذي لزم الأرض فيما تجمعت حوله الحشرات تنهش أطرافه.(31). وإذا كان توصيف "الجهادي" لم يرد في السياق الفلسطيني أو القومية العربية، فإن ذلك لا يعني أن الإهتمامات الأساسية للجهاد لم تكن قومية بمعنى معارضة للسيطرة الأجنبية والاستعمار الجديد. وسيدرك العرب بشكل تلقائي إشارة بن لادن إلى فلسطين في خطبه رغم أنها لا تتطرق إلى القضية بشكل واضح وملموس. ويعتبر الزعم الذي ساد بعد هجمات 11 سبتمبر بأن بن لادن لم يول على الإطلاق أي إهتمام خاص بالقضية الفلسطينية خاطئ تماما، ففلسطين هي الجرح الذي يمزق قلب كل حركات المقاومة ضد الغرب في العالم العربي على مدى القرن الماضي، سواء كانت إسلامية أم عربية قومية علمانية.

لقد أصبحت المقاومة في العراق مثار جدل كبير عبر العالم العربي. فمن ناحية أبدى الكثير من القوميين العرب والإسلاميين الذين يمكن أن ينظر إليهم على أنهم معتدلون، رفضهم بشكل واضح للطرق التي يتبعها الإسلامويون بقطع رأس الأجانب، والعراقيين الذين يتعاونون مع الأمريكيين، والقتل العشوائي للشيعة، فيما تعرض "الجزيرة" غالبا برامج حوارية يدافع فيها الضيوف بشكل كبير عن خطط الزرقاوي. وفي ذلك أشار الأردني الإسلامي مروان شحادة في مناقشة من هذا القبيل إلى أن الحركة الأصولية – السلفية الجهادية – والتي يمثلها تنظيم القاعدة، وتعد القاعدة في العراق جزءا منها، تمكنت من كسب الشعب نظرا لكونها تمثل الضمير الحي للأمة الإسلامية وتستطيع أن تعيد الحياة الإسلامية إلى العالم"(32).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبعد نحو عامين من هجمات 11 سبتمبر، وفي أعقاب غزو العراق، كان هناك تحول ملموس في الطريقة التي يتطرق بها المعلقون إلى القاعدة. فالمتعاطفون مع بن لادن كان لديهم ذلك القدر من الثقة الذي يجعلهم يشيرون إليه مرجعيا بـ "الشيخ أسامة". وقد أجرى موقع "الجزيرة نت" استطلاعا في أغسطس 2004 سأل خلاله : هل تساند حرب القاعدة على الأوروبيين؟ وقد أجاب 60% بلا و40% بنعم. كما كتب حسن حنفي أستاذ الفلسفة المشهور الذي ينظر إليه على أنه لديه نزعة إسلامية في ذكرى الهجمات (33) أن 11 سبتمبر كان صرخة ضد الطغيان والعبودية: برجى مركز التجارة العالمي، والبيت الأبيض والبنتاجون.. فرغم مشاهد الأرض المدمرة والمنازل المنهارة والنساء القتلي، والأطفال والأسر (في الأراضي الفلسطينية)، لم تشهد معظم العواصم العربية أية حركة. إن المرء يجب أن يصرخ في وجه العالم الذي يمارس مثل هذا النوع من غياب العدالة" وخلص إلى أن 11 سبتمبر في رأيي، رغم أنها ألحقت الضرر بنا، لجهة ربط الإسلام بالإرهاب والعنف، أظهرت أنه يوجد أناس يستطيعون التعامل مع أمريكا بنفس لغة القوة".

كما أن رموزا من الإخوان المسلمين، الذين يمثلون أقصى وجوه الإسلام السياسي المعتدل، دافعوا بشراسة عن المقاومة رغم أنهم كانوا حريصين بقدر كبير على تجنب مدح مواقف الجماعات المنتسبة إلى القاعدة على سبيل المثال. ولقد تمثل موقفهم في أن مواجهة الاحتلال الأمريكي في العراق والاحتلال الإسرائيلي في فلسطين أمر مشروع بكل الوسائل. فيما اتسم موقف خصومهم المعتدلين بالثبات على هذا الدفاع خلال المناقشات الفضائية التليفزيونية . ففي واحدة من هذه المناقشات، اختتم عبد المنعم أبو الفتوح ، القيادي في الإخوان المسلمين، عرض موقفه باقتباس من كتاب الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون " الفرصة السانحة" قائلا: إننا نعرف بالضبط من عدونا الحقيقي، سواء أكان إسلاميا أم قوميا أو يساريا" وقال أبو الفتوح: "إن الرئيس الأمريكي نيكسون ذكر في كتابه أن مصلحة أمريكا الوحيدة تكمن في الشرق الأوسط، حيث النفط وإسرائيل، وأن المسلمين الأصوليين الذين تحركهم الكراهية الشديدة للغرب قرروا استعادة حضارتهم الإسلامية القديمة من خلال إعادة إحياء الماضي. لقد قال أن هدفهم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

هو تطبيق الشريعة الإسلامية والدعوة للإسلام كدين ودولة وأنهم فيما ينظرون إلى الماضي يفعلون ذلك كمرشد لهم من أجل المستقبل، ولهذا فإنهم غير محافظين. إنهم ثوريون(34).

وقد استخدم الإسلاميون الإنترنت بكفاءة لتعزيز مواقفهم، فهناك العديد من المواقع الإسلامية على الشبكة، ويعتبر موقع إسلام أون لاين" أكثرها نجاحا ، وهو موقع باللغة الإنجليزية * يديره الإخوان المسلمون بالاشتراك مع الداعية يوسف القرضاوي وعدد من العلماء الآخرين. ممثلا للتيار الإسلامي العريض، فقد أنشئ في قطر والقاهرة في عام 1999 ، وتصل معدلات الدخول إلى أبوابه الإخبارية ووجهات النظر بشأن الإسلام والسياسة يوميا نحو 2.8 مليون متصفح. كما تنشر الجماعات الإسلامية الراديكالية أفكارها وآراءها عبر عشرات المواقع، على أمل أن تلعب الإنترنت بالنسبة لابن لادن الدور الذي مثلته أشرطة الكاسيت بالنسبة لآية الله الخميني في إيران.

ويملأ المساندون لعمليات المقاومة الجارية في العراق، والسعودية وأفغانستان، والشيشان غرف المحادثة بعشرات المواقع الإسلامية الشعبية حيث يمكن نشر مختلف التقارير والبيانات. وإن كانت جماعات المقاومة أصبحت أكثر حنكة، حيث تنشئ مواقع خاصة بها أو تستخدم مواقع خاصة مع حق مرور محدود لأفراد معينين بشكل يمكن لهم معه بث شرائط الفيديو التي تعرض عمليات قتل الرهائن الأجانب، بما في ذلك قطع الرأس بشكل مرعب، فضلا عن شرائط صوتية لخطب خاصة بقادتهم. كما يتم كذلك إنشاء مواقع لمجلات مثل موقع مجلة صوت الجهاد السعودية والبيطار، وفي سبتمبر 2005 بدأت جماعة من أنصار القاعدة بثا تليفزيونيا أسبوعيا على النت سمي "صوت الخلافة".

كما تحمل غرف المحادثة روابط حتى لصفحات شبكة الإنترنت تعرض أساليب تدريب يدوية على صنع القنابل، والتعامل مع الأسلحة، وكيفية التخطيط لعملية اغتيال. وقد دخلت هذه الجماعات في لعبة "الاستغماية" مع مزودي خدمة الإنترنت، غير أنه يوجد كذلك مجال كبير في فضاء الشبكة العالمية الواسعة لكبح نشاطهم. وفيما يشير إلى

* واللغة العربية كذلك وقد واجه الموقع مشكلة مؤخرا يتوقع أن تؤثر على نجاحه.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

دهائهم، يلمس المتابع لأنشطتهم إجادتهم في اختيار غرف دردشة مقبولة ، على شاكلة موقع موسيقى عربي للإعلان عن عملية اختطاف أو جريمة قتل أو احتجاز رهينة، بشكل يمكن معه لأنصارهم الوصول إلى البيان بيسر وبثه من خلال غرف الدردشة الإسلامية المعتادة إلى العالم لكي يتابعها.

لقد اتسم الإسلام السياسي بشكل عام بالمهارة في التعاطي مع التكنولوجيا الحديثة. وعندما بدأت الحكومة المصرية للمرة الأولى(*) الانقضاض على الإسلاميين في 1995، زودت وزارة الداخلية الصحافة الرسمية بتقارير تحبس الأنفاس بشأن العثور على معدات كمبيوتر وأدوات حديثة أخرى، لا توجد عامة في المكاتب الحكومية التي يعلوها الغبار ؛ وجدت بين المنشورات الراديكالية المزعومة والكتب التي تم الاستيلاء عليها في منازل الإخوان المسلمين – ما أدى إلى تنامي حالة من الخوف المبالغ فيه بشأن ما أطلقت عليه إحدى الصحف مازحة على أنه "الإخوان الافتراضيون"(35). ولذا فإنه على صعيد مقارنتهم بالحكومة يبدو الإسلاميون أكثر قدرة على التعاطي مع العالم الحديث، الأمر الذي يعتبر العنصر الأساسي في إغرائهم للشباب اليوم.

القوميون

تطورت القومية العربية كأيديولوجية أوائل القرن العشرين. وقد ساد الخلاف بشأن التعريفات التي تعرف العرب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية إلى أن تم نحت مصطلح "القومية العربية" في إشارة إلى الأقطار التي تتحدث اللغة العربية، رغم استبعاد بعض أصحاب الطرح القومي الأوائل مصر والسودان وشمال أفريقيا من العروبة. وساهمت القوى الاستعمارية خلال تلك الفترة، في إقامة تجارب ديمقراطية محدودة، في الدول التي تهيمن عليها في الشرق الأوسط. ولكن الديمقراطية لم تخدم قضية الاستقلال وخلقت بدلا من ذلك صفوة استفادت من علاقاتها الوثيقة مع القوى الاستعمارية.

* لم تكن تلك المرة الأولى كما يشير المؤلف، وإنما تمثل هذه المرة بالتحديد عملية ضبط قضية "سلسبيل" التي استخدم فيها الإخوان الكمبيوتر.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كما أدت مقاومة بريطانيا وفرنسا إلى رحيلهم التام، إحتلت الكوادر العسكرية مكانة مركزية وبدأت في القضاء على الأجانب والنظم السياسية التي ساعدت في إقامتها. ولام هؤلاء الثوريون العسكريون الحكومات الديمقراطية التي كانت تتمتع بما يمكن اعتباره نصف استقلال على فشل الجيوش العربية في الحيلولة دون قيام دولة إسرائيل، خلال القتال الذي دار في الفترة من 1947 وحتى 1949 في فلسطين(*). وقد احتلت مصر مكانة محورية بفضل انقلابها العسكري في 1952 ، والنظام الثوري المصري – العربي الاشتراكي والتوتاليتاري – بشكل ساهم في إحداث تغييرات مماثلة في الجزائر وليبيا والسودان وسوريا والعراق واليمن. وترجع أصول الأنظمة القائمة في معظم الأقطار العربية اليوم إلى هذه الفترة وتعكس نفس توجهاتها.

ثم ظهر الإسلام السياسي بشكل أدى إلى تراجع القومية العربية العلمانية كأيديولوجية مقاومة. وكانت النقطة المرجعية على طريق هذا التغير الأيديولوجي الرئيسي في العالم العربي الهزيمة العربية المدوية في مواجهة إسرائيل عام 1967، والتي تمثل الحدث الذي أثر بعمق على النفسية الجمعية العربية لنحو جيل بأكمله. فرغم عدم استعدادهم الكامل وقلقهم من عدم تحقق النصر , وعلى وقع الآمال الكاذبة التي كانت تعكسها البلاغة القومية خلال تلك الفترة ألقى الزعماء العرب بأنفسهم فيما وصفه الكاتب الفلسطيني سعيد أبو الريش "انتحارا جماعيا" من خلال جر إسرائيل لحرب لم يكن معداً لها جيداً أو تستند إلى أهداف موحدة تقوم فى أساسها على صعيد الجانب العربي. وعلى وقع تأثير ناصر الذي كان يحلق على "البساط السحري للعروبة" حسب تعبير أحد المراقبين، سحرت القومية العربية شعوب المنطقة ونومتها مغناطيسيا (36). في ظل وضع لم يكن لأي شخص أن يتخيل معه عدم قدرة العرب على إلحاق الهزيمة بالدولة الصغيرة.. إسرائيل.

وقد كان لوقع الهزيمة تأثيرات هائلة على الحياة السياسية والثقافية ما زالت متواصلة في العالم العربي حتى اليوم. هذه الهزيمة الشاملة للفلسطينيين ومصر والأردن

* جرت حرب 1948 لأسابيع محدودة بدأت بعد انتهاء الانتداب، وعلى إثر ذلك دخلت الجيوش العربية الحرب في مواجهة إسرائيل.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وسوريا، والتي جرى توصيفها فيما بعد بـ "النكسة" دفعت بالإسلام السياسي إلى القمة الشعبية التي يتمتع بها اليوم. كما أدت بإسرائيل إلى تجرع سم احتلال الأراضي التي عملت على ضمها باعتبارها جزءا من "حقها التوراتي" رغم أن أكثرية قاطنيها من غير اليهود. ومن وجهة النظر العربية، فإن الخسارة الناجمة عن الفشل undoing damage ظلت المفتاح الذي يمكن اللعب عليه من أجل حل الصراع العربي الإسرائيلي.

كما كان للهزيمة أصداؤها في مناح أخرى ، فالمخرج السينمائي التونسي نوري بو زيد مثلا راح يطلق على ما أنتجته السينما العربية منذ ذلك التاريخ بـ "سينما ما بعد الهزيمة". ولم يفلت الكثير من المثقفين الذين اندمجوا في إطار الأنظمة وبشكل خاص النظام المصري في ظل ناصر وعملوا على دعمها من خلال قدراتهم الإبداعية، من تأثيرات الهزيمة التي قوضت من مصداقية هذه الأنظمة. ومن أمثلة هؤلاء الشاعر ورسام الكاريكاتير صلاح جاهين الذي قدم أغانيه عبد الحليم حافظ المطرب الذي خفقت القلوب له ، ومنها أغان أشاد فيها بمشروع السد العالي في أسوان، اشتراكية ناصر، وحلم الوحدة العربية بشكل ألهب المشاعر، وما تزال جزءا من الأثار الثقافية العربية المعاصرة. ويقول الكثير من المقربين لجاهين الذي انتحر عام 1987(*)، أنه لم يتعاف تماما من الصدمة، وأنها لم تكن قاصرة عليه وحده ، بل على جيل بأكمله. وهو المشهد الذي تكرر فيما بعد، حينما اعتقد البعض مرة أخرى أنهم وجدوا ناصرهم الجديد: عندما برز العراق كقوة محورية في السبعينيات تحت قيادة صدام حسين، حيث وضع الكثير من المحترفين العرب في مجالاتهم أنفسهم في خدمة نظامه، بما فيهم علماء مصريون في المجال النووي، وشعراء وكتاب فلسطينيون. وفي مقابل ملحمة المخرج المصري يوسف شاهين بشأن صلاح الدين (1963) التي اعتبرت بشكل أو بآخر تمجيدا لناصر، باعتباره صلاح الدين الجديد، الذي ثار ضد الصليبيين الإسرائيليين، قدم المخرج المصري توفيق صالح فيلم "الأيام الطويلة" (1980) الذي دارت أحداثه حول أيام صدام الثورية المبكرة.

* لم تثبت صحة رواية الانتحار من عدمها ، لكن الثابت أنه مات عام 1986

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفي دراسة صدرت عام 2003 تحت عنوان " ثقافة الهزيمة" تناول المؤرخ الألماني وولفجانج شيفيلبوش بالبحث كيفية تعامل اليابان وألمانيا مع الإنهيار السياسي والعسكري الذي انعكس في مظاهر أخلاقية ومادية هائلة بعد الحربين العالميتين، وكيف أنهما وجدا نفسيهما في حالة تفرض عليهم بدء عملية إعادة تشكيل للذات شاملة بشكل استطاعت معه الدولتان الصعود مرة ثانية (37). أما في العالم العربي ، حيث معظم الأراضي ما زالت محتلة، فإن النجاح الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه يتمثل في تلك الدول الصغيرة التي تمكنت من النأي بنفسها عن الصراع العربي الإسرائيلي والتحركات الثورية القومية العربية مثل تونس وعمان والإمارات العربية المتحدة من أجل مواجهة نتائج كارثة 1967، وإيجاد مناخ معاكس للحالة التي تسببت فيها. كما عملت مصر وسوريا على تمجيد حرب 1973 عندما شنت الدولتان هجوما ضد إسرائيل لاستعادة الأراضي التي خسرتها في حرب الأيام الستة، غير أن الدولتين لم يحصلا على أي شئ مباشر عبر الحرب، فقد اختار الرئيس المصري أنور السادات أن يستخدم النجاح المذهل المفاجئ للقوات المصرية الذي تحقق في الأيام الأولى من أجل إطلاق عملية دبلوماسية طويلة المدى تهدف إلى الحصول على دعم مالي أمريكي مكثف، مقابل مفاوضات سلام مع إسرائيل. واستغلت وسائل الإعلام الحكومية دور الرئيس حسني مبارك كقائد للقوات الجوية في تلك الحرب باعتباره صاحب الضربة الأولى لتأكيد استحقاقه قيادة الدولة منذ 1981.

ولعبت الحرب والتي ما زالت موضع مساءلة على مدى ثلاثة عقود بعد وقوعها، دورا في حملته الرئاسية لاستمراره في الحكم لفترة خامسة خلال عام 2005. لقد راح الناصريون يعزفون على النغمة التي تربوا عليها .. الطعن من الظهر – مثل ألمانيا فيما بعد الحرب العالمية الأولى – من أجل إبراء البطل ناصر، ملقين باللوم على تقصير عبد الحكيم عامر زير النساء قائد القوات الجوية خلال الهزيمة والمعروف على نطاق واسع على امتداد العالم العربي وللقائمين على الدراما التليفزيونية والأفلام والروايات. والرأى الكلاسيكي الذي يتم تقديمه في هذا الخصوص أن إهماله في أداء واجبه، انعكس على الصعيد العسكري في عدم جاهزية الجيش المصري للحرب. وقد انتحر عامر في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ظروف غامضة بعد أشهر من هزيمة يونيو 1967، فيما تواصلت المناقشات ووصلت إلى حد التذمر بشأن من يجب لومه على الأداء بالغ السوء للجيش المصري.. عامر أم ناصر.

لقد لجأ العراقيون، بعد الغزو الأمريكي، والفلسطينيون، تحت الاحتلال الإسرائيلي، إلى العامل النفسي القائم على البطولة وإن كان في الوقت ذاته يعكس مواقف عسكرية عقيمة لتيسير مهمة قبول المكاسب التي تحققت بثمن باهظ. وقد حقق الأجانب للعراقيين ما لم يحققه العراقيون لأنفسهم خلال نحو ثلاثة عقود من الديكتاتورية القاسية وجرى الإطاحة بنظام صدام حسين من خلال عملية غزو سريعة للعراق. واستطاع الشيعة رغم النفور القوي من الهدية الأمريكية مواساة أنفسهم من خلال الانتفاضات المتكررة لحركة مقتدى الصدر ضد القوات الأمريكية. وعلى الصعيد الفلسطيني فإن المفاوضات بشأن المستقبل مع إسرائيل، لا توفر لهم، وفق بعض الرؤى، وضعا أفضل مما كان عليه الموقف خلال الانتفاضة التي اندلعت عام 2000، غير أنه عندما جرت المحادثات كان يمكن لهم على الأقل القول إنهم حاربوا من أجل مطالبهم. ويتم الإشارة في وسائل الإعلام العربية لهذه التوجهات من حين لآخر.

إن قوى المقاومة، من الإسلاميين أو القوميين، تحاول التغلب على صدمة ثقافة الهزيمة التي لحقت بالعالم العربي منذ 1967 ، وهما يؤكدان بصوت مسموع أن الدول العربية لديها من القوة ما يمكنها من الوقوف في مواجهة الواقع الأمريكي الإسرائيلي، في حال التوقف عن معزوفة حال الضعف وافتقاد القوة التي يرون أن الغرب أوصلهم إليها. وفي ذلك دعا الكاتب الصحفي المصري محمد حسنين هيكل، الذي كان ذات يوم الذراع الأيمن لناصر ، ويعتبر الآن من أكثر المثقفين تأثيرا في العالم العربي، مرارا العرب إلى إعادة النظر بشكل حاسم في روابطهم مع الولايات المتحدة بما يعزز من انضمام القوى العربية الرئيسية، مصر والسعودية من وجهة نظره، معاً لتحريك الدول

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العربية ضد السياسات الأمريكية المؤيدة لإسرائيل. وحسبما يذهب في البرنامج الذي يتم بثه على الجزيرة(*).

وفي كتبه الأخيرة، فإن الخطة الأمريكية الإسرائيلية، تعمل على "دفن" القضية الفلسطينية في الإطار العربي، بالشكل الذي لا يجد الفلسطينيون في النهاية أنفسهم سوى أمام دولة ضعيفة على فتات من الضفة الغربية وغزة غير قادرة على استيعاب النمو السكاني، وهكذا تبقى إسرائيل القوة الوسيطة السياسية والاقتصادية الرئيسية في الشرق الأوسط الجديد في ذات الوقت الذي يتم فيه حل مشكلتها السكانية، الأمر الذي يعتبر هدفا أساسيا للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة الذين يعملون على تحييد سوريا والعراق كقوى راديكالية توفر الدعم لتواصل قدرة الإرادة الفلسطينية على المقاومة والذين من أجلهم يحتل التحالف الأمريكي مع إسرائيل مرتبة بالغة الأهمية(38).

الليبراليون الديمقراطيون والأقليات

تطور التيار الليبرالي الديمقراطي بشكل كبير في مصر على يد حركة حقوق الإنسان في التسعينيات التي اجتذبت الكثير من الناشطين الذين خاب أملهم بشأن أحزاب المعارضة. غير أنه وعلى شاكلة ما جرى مع حركات حقوق الإنسان، تم مساومتهم على خلفية الدعم الذي يتلقونه من قبل واشنطن والمنظمات والأفراد الأمريكيين، وهو الدعم الذي يسر مهمة الحكومات ووسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة، في النيل من مصداقيتهم في عيون الجمهور. وينظر الديمقراطيون تقليديا إلى الغرب والولايات المتحدة باعتبارهما مصدر الدعم والإلهام. ومثلت حرب العراق مجالا لساحة معركة جديدة على صعيد هذه النظرة، فقد كان ليبراليو مصر، على سبيل المثال، يأملون جني فوائد من الاهتمام الأمريكي الجديد بالمنطقة ويريدون فرض الديمقراطية.

ومع ذلك فإنهم غامروا بتعريض أنفسهم للنقد اللاذع من قبل الإسلاميين والقوميين، بشكل وجدوا أنفسهم معه في تحالف صعب ضد النظام. وقد ساند بعض الديمقراطيين الجدد، بشكل سري، الغزو الأمريكي، وكان مصدر خوفهم الأكبر عدم

---

* هو برنامج "مع هيكل"

www.ibtesama.com/vb Exclusive

جدية واشنطن بشأن فرض الديمقراطية في المنطقة، معتقدين أن رهانات دول مثل مصر والسعودية كانت آمنة في ظل قيادتهما الحالية. ويذهب الديمقراطيون ذوو الحضور القوي في البرامج الحوارية الفضائية إلى أن نقص الديمقراطية يؤثر بشكل كبير على قدرة العالم العربي على تحدي إسرائيل، سياسيا واقتصاديا، وعلى دعم الفلسطينيين. ومستشهدين بأدلة دامغة على شاكلة تقارير الأمم المتحدة حول التنمية البشرية،والتي تشير إلى أن العالم العربي ، حيث يشكل من هم تحت سن 14 سنة فيه 38% من إجمالي عدد سكانه الذين يقدرون بنحو 300 مليون نسمة تقريبا، يعيش أزمة متعددة الأبعاد بشكل يتطلب تعزيز الديمقراطية على مستوى كل دولة عربية على حدة. فيما يتهمهم الإسلاميون والقوميون ممن يدينون مواقفهم بتعزيز "ثقافة الإستسلام" نقلا عن عنوان أخر كتاب لبلال الحسن الكاتب في جريدة "الحياة" الذي يناقش انتشار فكرة عدم جدوى معارضة الهيمنة الأمريكية (39).

وقد دفع البعض ثمنا غاليا جراء التحاقه بالولايات المتحدة. ويعد وضع الأكاديمي المصري سعد الدين إبراهيم، الصديق العربي لوسائل الإعلام الأمريكية، مثالا للتعامل مع أولئك الذين يحظون بمساندة أجنبية من أجل تعزيز الديمقراطية. فقد تم القبض عليه عام 2000 بتهمة تشويه سمعة مصر بانتقاداته للنظام السياسي المصري واعتزامه مراقبة الانتخابات البرلمانية، وهى التهم التي قادت إلى محاكمته، تلك المحاكمة التي نال البراءة في نهايتها. ولكنه هوجم بضراوة في الصحافة والتي ركزت على تمتعه بجنسيتين، وفي ذلك تناوله كاتب في صحيفة مستقلة قائلا: سعد الأمريكاني، المعروف أيضا بسعد الدين إبراهيم ضبط متلبسا بالاتجار في شرف الأمة.. عندما قال إنه قرر – ليس مزاحا ، هو قرر! – أن يشكل لجنة من أجل مراقبة الانتخابات البرلمانية المقبلة، مضيفا إنني آمل من سعد الدين الأمريكاني أن يفهم جيدا أنه لم يعد له أي مستقبل على أرض هذه الأمة أو في أي بيت أو قبر في بر مصر. إن مصر العظيمة تخرج كل أولئك الذين ينتهكون شرفها ويتاجرون بكبريائها وينحازون إلى صفوف الأعداء. سبب ذلك أن سعد الأمريكاني حتى لو كان مولودا في مصر، يتلقى تعليماته من السفارة الأمريكية ووكالات الاستخبارات. (40).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وينظر الكثير من الناشطين الديمقراطيين إلى عنف الإسلاميين باعتباره الخطر الأكبر على العرب أكثر من السياسة الخارجية الأمريكية أو اسرائيل. ويعتبر مأمون فندي ، الأكاديمي المصري الذي يقيم في الولايات المتحدة وله منبر دائم في جريدة "الشرق الأوسط" اليومية صوتا بارزا في هذا المجال. فخشية التعاطف الكامن مع القاعدة في المنطقة وفي وسائل إعلامها، راح يؤكد على ضرورة اتخاذ الدعاة موقفا أقوى: " حان الوقت لإصدار فتوى لإخراج أسامة بن لادن وأتباعه من ملة الاسلام . ونحتاج في الواقع , في الوقت الذي تنتشر فيه الأعمال الإرهابية في المدن من نيويورك إلى الدار البيضاء الى القاهرة إلى لندن وشرم الشيخ , إلى سلسلة من الفتاوى المضادة تؤكد أن الإسلام لا يؤيد العنف ضد الأبرياء , أو أن الإسلام يدين مثل هذه الأعمال , وهذا ليس كافيا , بل نحتاج لاستبعاد حتى هؤلاء ممن هم بيننا من الذين يرون ضرورة الدفاع عن الإسلام بهذه الطريقة , واعتقد كمسلم أننا نحتاج إلى الوضوح التام , ونحتاج للرد على الفتاوى التي تصدر باسمنا"(41).

كما يرى المحلل المصري عبد المنعم سعيد أحد المؤيدين البارزين الآخرين للإصلاحات الديمقراطية، أنه استثناء من بين الشعوب المستعمرة فإن العرب والمسلمين كان رد فعلهم عبارة عن عنف لا معنى له، لا يعرف حدودا ولا يعترف بتشريع يتعلق بحدود بشأن الأخطاء المدركة التي يتم ارتكابها.

ومقارنا ردود فعل اليابانيين والصينيين للاستعمار أضاف: "هنا فإن الحالة الهندية - كما كانت الحالة الصينية من قبل - تقدم لنا مثالا تاريخيا لافتا للنظر إلى تجربة للقهر الاستعماري والاستبعاد الاقتصادي والاستيطان السكاني والتجزئة الجغرافية, ومع ذلك فلم نجد هنديا واحدا بين الجماعة التي قتلت الناس في لندن أو نيويورك أو مدريد , أو بين الصفوف "المقاومة" في العراق , أو الشيشان , أو غيرها من ميادين "الجهاد" المتعارف عليها"(42). وسيرد منتقدوه ممن يذمون آراءه بأنه فيما أن الهند تركت حرة من قبل الأجانب منذ 1947 فإن الدول العربية لم يحدث معها الأمر ذاته.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بعيدا عن الناشطين الحقوقيين والإصلاحيين الديمقراطيين، توجد جماعات تعكس أقليات معينة في العالم العربي تناضل بوضوح لإقناع واشنطن بالتدخل لأجل مصلحتهم. وهم يأملون في تحقيق نجاح يوازي ما حققه الإسرائيليون في الولايات المتحدة، حيث تعد لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك) واحدة من أكثر جماعات الضغط التي تحظي بالقوة السياسية (يقوم المعهد الأمريكي العربي على أمور العرب الأقل عددا مقارنة باليهود، رغم أنه توجد تجمعات أخرى تمثل العرب مثل اللجنة العربية الأمريكية المناهضة للتمييز العنصري). وفي العراق ، نجحت جماعات تعكس توجهات مختلفة، بما فيها الأكراد والشيعة وناشطون ديمقراطيون، في جذب الانتباه الأمريكي خلال التسعينيات بسبب اهتمام النظام بالأسلحة النووية وتحديه للسياسة الأمريكية في المنطقة، بشكل انتهى معه الأمر بغزو الولايات المتحدة للبلاد عام 2003. كما لقيت الجبهة الشعبية لتحرير السودان اهتماما أمريكيا إثر اندلاع الحرب الأهلية عام 1982، وتعاطفا مع قصص اضطهاد المسلمين للمسيحيين وانتهاكات العرب تجاه الأفارقة السود.

وخلال توليها منصب وزارة الخارجية من 1997 وحتى 2001 لم تحاول مادلين أولبرايت إخفاء إعجابها بزعيم الجبهة جون جارانج. وقد حصل الجنوبيون على صديق جديد يتمتع بالسلطة ممثلا في المسيحيين المحافظين، وكذلك أنصار إسرائيل الذين يتحكمون بأذن أركان إدارة بوش إثر وصوله إلى السلطة عام 2001. وكان الضغط الأمريكي أداة في التوصل إلى اتفاق سلام نهائي عام 2005 ، بشكل ضمن للجنوبيين حق التصويت بشأن الانفصال. وجاء ذلك على خلفية سياسات الخرطوم التي أدت إلى نبذها جراء تبنيها أيديولوجية إسلامية متشددة واستضافتها أسامة بن لادن لفترة من الوقت أوائل 1990. وتساعد جماعات الأقليات بعضها البعض في أغلب الأحوال. وفي ذلك أدلي على آل أحمد ، معارض سعودي من السكان الشيعة الذين يمثلون أقلية تتعرض للقمع بشهادة أمام لجنة فرعية بالكونجرس الأمريكي حول حقوق الإنسان في الشرق الأوسط، متهما الحكومات العربية خلال مناقشة نزاع دارفور غرب السودان "بالصمت ووسائل الإعلام بالتعتيم".قائلا:" إن دارفور ليست استثناء، ولكنها القاعدة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يوجد الكثير من الثقافات غير العربية والشعوب يتم اضطهادها في المنطقة بشأن المعتقد أو العرق"(43).

وفي لبنان، ساهمت المساعدة الأمريكية في إجبار سوريا على التخلي عن قبضتها على الدولة، التي تعتبر فرنسا الصديق التقليدي لمارونييها المسيحيين فلصالحهم أنشأت الكيان اللبناني خلال فترة ما بين الحربين. لقد كان الصراع على قلب لبنان وروحه طويلا وقاسيا، فبعد نحو 15 عاما من الحرب الأهلية التي انتهت في 1990، بدأ المارونيون المسيحيون يلمسون تراجع قوتهم ونفوذهم في الوقت الذي بدأ عددهم يتراجع بالمقارنة مع الطوائف الأخرى. وبشكل رئيسي مع الشيعة المسلمين الذين يعتقد الآن أنهم يمثلون أكبر المجموعات. ومن المحتمل أن يفوق عدد المسلمين من السنة والشيعة مسيحيي لبنان في الوقت الحالي رغم أن إجراء إحصاء سكاني لدعم هذه الحقيقة مستحيل سياسيا. وقد مثل الغرب تقليديا قبلة مسيحيي لبنان الذين اعتبروه مصدر الدعم والإلهام، فيما كان العالم العربي قبلة مسلميه. وكانت كل من فرنسا والولايات المتحدة وراء قرار مجلس الأمن رقم 1559 الذي تم إقراره في سبتمبر 2004، وطالب سوريا بإنهاء احتلالها للبنان.

وبعد اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في فبراير 2005، في واحد من سلسلة هجمات على أولئك الذين عملوا من أجل انهاء السيطرة السورية، أرغمت دمشق على سحب كل قواتها. ولكن القوى الإسلامية والقومية يقودها حزب الله عارضت ما رأته محاولة لأمركة لبنان, وجعله محمية موالية لإسرائيل، مستشهدين باتفاقية السلام التي تم وأدها مع إسرائيل ووقعها الرئيس الماروني المسيحي أمين الجميل في ذورة الحرب الأهلية في مايو 1983، حيث جرى إلغاؤها في مارس 1984 بسبب معارضة السنة والشيعة والدروز وبعض المارونيين وسوريا.

وقد حقق الأقباط المسيحيون المصريون في الولايات المتحدة نجاحا محدودا في إجتذاب الدعم الأمريكي للضغط على الحكومة المصرية بشأن وضع الأقلية القبطية. وقد نجحت جماعات تمثلهم مثل الهيئة القبطية الأمريكية، في تنظيم مظاهرات ضد الرئيس حسني مبارك خلال زياراته لواشنطن. ولكن رغم التجاوب الكبير الذي حصلوا عليه من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإدارة الأمريكية، إلا أن ذلك لم ينعكس بشكل عملي على أرض الواقع. وقد أنشأ الكونجرس عام 1998 ، اللجنة الأمريكية للحريات الدينية ، التي قامت برحلات تقصي حقائق إلى مصر لبحث أوضاع الأقباط، ورغم ذلك ركزت اللجنة بشكل أساسي على السودان والصين وإيران والعراق وميانمار. وقد تغافلت اللجنة عما تمارسه السعودية، بشكل منفرد، من عمليات إضطهاد لمواطنيها من الشيعة وحظر الكنائس رغم وجود مئات الآلاف من الوافدين على أراضيها.

وزارت اللجنة التي تعتبر وليدة ميثاق الحرية الدينية الدولية مناطق مختلفة عبر العالم لمتابعة الأوضاع في المناطق التي تمثل بؤر توتر ومدى مراعاة الحرية الدينية فيها. ولكن الحكومة المصرية نجحت في تحييد موقف اللجنة. فعندما زار ثلاثة من أعضائها مصر في مارس 2001، انتقد مساعيهم عدد من الشخصيات العامة البارزة الذين وافقوا على استقبالهم بما فيهم بابا الأقباط الأرثوذكس الأنبا شنودة الثالث نفسه، وتحفظوا في تناول المشاكل القبطية، فيما رفض معظم السياسيين والعلماء والناشطين مقابلتهم وحاول بعض من التقاهم الإبقاء على الأمر في إطار السرية. ومع ذلك فما زالت مشاكل الأقباط قائمة وتشمل العراقيل التي يلقونها في الحصول على تصاريح بناء أو توسيع الكنائس وتمثيلهم الرمزي في الحكومة والعنف الذي يقع بين حين وآخر مع المسلمين(*).

وهناك جماعتان رئيسيتان في العالم العربي واجهتا فشلا مخزيا على صعيد مساعي تعزيز موقفيهما في الولايات المتحدة هما بربر شمال أفريقيا، والأشوريون المسيحيون في العراق. فرغم التأثيرات المدمرة التي لحقت بهم كجماعة تمثل أقلية، جراء هجرتهم إلى الغرب، فإن الأشوريين الذين يمثلون أقل من واحد في المائة من سكان العراق، ما زالوا يحتفظون بلغتهم القديمة، التي تعد في الواقع لهجة محلية من نفس اللسان الآرامي الذي كان يتحدث به المسيح. أما البربر الذين يمثلون نحو 50% من

* يقدم المؤلف هنا في حديثه عن مشاكل الأقباط إطارا بالغ العمومية يعتمد على الإتهامات الغربية الجاهزة في أوساط مختلفة سياسية أو بحثية وهو الأمر الذي قد يزيد من سوء فهم القضية ما يتطلب تناولا أكثر تفصيلا نحسب أن الرؤية البانورامية التي عمل المؤلف على تقديمها من خلال كتابه في تناوله لموضوعه الأساسي الذي يدور حول نظرة العرب إلى أمريكا حالت دون القيام بها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المغرب وخمس سكان الجزائر، فقد فشلوا بدورهم في بلورة اتجاهات بشكل يقدم قضيتهم للولايات المتحدة ، وهم تقليديا يوجهون أنظارهم إلى فرنسا .. الدولة التي استعمرتهم في مرحلة سابقة والتي أصبحوا، فيما بعد الاستقلال، يتحدثون لغتها ويتعاطون ثقافتها بشكل تراجعت معه لغتهم وثقافتهم العربية. وإذا كانت أفلام هوليوود تعزز الاتجاه العام الصهيوني القائم على أن اليهود هم الذين بنوا أهرامات مصر، فإن فيلم "المصارع Gladiator" الحائز على جائزة الأوسكار عام 2001 ، جاء على النقيض، وعزز صورة غير حقيقية لصالح العرب، وعلى ذلك فإنه ، وفي ضوء عدم معرفته بالبربر من العرب، صور سكان شمال أفريقيا في الحقبة الرومانية، على شاكلة الناطقين بالعربية العراقية، بينما يعتبر البربر أنفسهم السكان الأصليين لشمال أفريقيا ، حيث لم يكن العرب قد وصلوا إلى هناك حتى نهاية القرن السابع الميلادي، رغم أن الفينيقيين الذي استعمروا تونس في مرحلة تاريخية مبكرة وأرسلوا هانيبال وجيوشه للحرب مع روما ، كانوا شعبا ساميا.. نفس عرق ولغة إخوتهم من العرب فيما بعد.

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثاني

أمريكا من الداخل

الإعجاب العربي بالثقافة الأمريكية

تحظى أمريكا بقدر كبير من الإعجاب في العالم العربي بما في ذلك أوساط الإسلاميين الذين يبدون تحفظات بشأن نمط حياتها، حيث يتمنى الكثير من العرب لو أنهم حظوا بذلك القدر من الحرية والتكنولوجيا التي مكنت الولايات المتحدة من أن تصبح على ما هي عليه من القوة الآن. وعلى ذلك فليس هناك أساس للفكرة السائدة التي انتشرت على المستوى الشعبي بعد أحداث 11 سبتمبر بأن العالم العربي والمسلمين بشكل عام يكرهون أمريكا. من الصحيح أن هناك اتجاها قويا على صعيد الرأي العام الإسلامي والقومي العربي يعيش حالة من الفزع بشأن تصوره لاتساع نطاق الغزو الثقافي الأمريكي – انتشار الموسيقي والسينما الأمريكية، على سبيل المثال، بين الشباب الذين يبدون أقل اكتراثا بالثقافة العربية من شعر أو أدب أو موسيقى وأفلام . وفيما بين هؤلاء يمكن للمرء الحديث عن ازدراء أكيد للكثير مما تمثله أمريكا.

غير أنه يسود الإعجاب في العالم العربي بالديمقراطية الحديثة والتعددية السياسية عامة. وهناك الكثير من الفئات في العالم العربي مؤهلة للتعاطي معها على النمط الأمريكي بشكل خاص، وذلك رغم أن الأوروبيين لديهم الكثير مما تمثله أوروبا بشكل يجعلهم مصدرا لهذه الأفكار عما يمثله أي مكان آخر. ويتوجه الجدل الدائر في العالم العربي إلى الإشارة إلى أن مشكلة العرب مع أمريكا تتمحور حول سياستها الخارجية القائمة على معاييرها المزدوجة تجاه النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، حيث تساند المواقف اليهودية، فيما تتخذ مواقف أخرى مناوئة بحق الفلسطينيين، وكذلك قيام الولايات المتحدة بالتدخل في العراق عام 2003 الذي جاء ،حسب هذه التصورات، من أجل النفط وإسرائيل وليس من أجل الديمقراطية.(*)

---

* يمكن التأكيد على أن هذا الموقف يعتبر موقفا أصيلا من الجانب العربي على مختلف مستوياته تجاه الولايات المتحدة بشكل خاص والغرب بشكل عام منذ ما بعد مرحلة استقلال الدول العربية ونشأة إسرائيل والتي تمثل العامل الأساسي في توتير العلاقات بين الجانبين، الأمر الذي نلمسه مثلا في رؤية الرئيس جمال عبد الناصر والذي يتصور البعض أنه كان بالغ الكراهية للولايات المتحدة والغرب، وهو تصور غير حقيقي. وحول هذا المعنى يقول الدكتور جلال أمين مثلا "إن هجوم عبد الناصر العنيف على الغرب لم يكن مبعثه مجرد كراهيته للسيطرة الغربية ومن ثم نلاحظ أنه كلما وجد عبد الناصر أنه حقق بعض التقدم في التحرر من هذه السيطرة راح يقلد النموذج الغربي بحذافيره وبقدر ما تسمح به ظروف المجتمع الذي يحكمه، فعندما رفع عبد الناصر شعارات التنمية مثلا في السنوات الأولى للثورة لم يكن يدور بخلده أي مفهوم للتنمية غير مفهومها الاقتصادي الشائع في الغرب". وهنا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ويثير نمط الثقافة الاستهلاكية الأمريكية شعورا بالضيق في العالم العربي الآن، في ظل انشغال المجتمعات العربية بما يفعله الأمريكيون، وما يلقيه ذلك من تأثيرات سلبية تجعلهم في حالة قلق بشأن المدى الذي تسمح لهم تقاليدهم الثقافية بتقليد الأمريكيين؟ ولكن المثقفين في معرض تناول هذه المشكلة، يشيرون إلي عدم إمتلاكهم القدرة الكافية على وقفها. وفي مجال الإشارة إلى حساسيات العلاقات العربية الأمريكية أوقفت مجلة "ريدرز دايجست" الأمريكية طبعتها العربية مرتين بسبب الموقف العدائي السائد بشأن الحرب العربية الإسرائيلية خلال عام 1948 والحرب العربية الإسرائيلية عام 1967 عندما نظر إليها المثقفون على أنها منبر لنشر نمط الحياة الأمريكي"(1). ومع ذلك فعندما قدمت "النيوزويك" طبعة عربية منها عام 2000، راحت الصحف حينذاك تسخر من أنه بعد مرحلة "الكوكلة" و"المكدنة"(*) فإن العرب يعيشون الآن مرحلة "النزوكة"(2).

غير أنه يمكن الإشارة إلى أنه بالنسبة للقسم الأكبر من السكان في العالم العربي، يجرى التمييز الواضح بين الثقافة الأمريكية والسياسات الأمريكية، وما يثير غضب العرب هو السياسة الخارجية الأمريكية، فضلا عن أن هناك بعض الحنق تجاه عناصر مختلفة من نمط الحياة الأمريكية في ضوء تأثيرها وانعكاسها على الأوضاع المنطقة. فرموز الثقافة الغربية التي تحتل مكانة كبيرة كقدوة وينظر إليهم باعتبارهم أبطالا بالنسبة للشباب في الولايات المتحدة وفي أماكن أخرى مختلفة من العالم، يحظون بتأثير مماثل في العالم العربي. ومن بين هؤلاء مايكل جاكسون، ومادونا، وديمي مور(في أيام عزها) بريان آدامز، شاكيرا، سلفستر ستالوني، وبروس ويلز.

غير أن الثقافة الشبابية في العالم العربي لم تصل إلى حالة صاخبة تماثل تلك التي عاشها الغرب خلال الستينيات – فقد ألقت الشرطة في مصر عام 1996 وفي المغرب

يشير الدكتور أمين إلى ملحوظة بالغة الأهمية تتمثل في أن "الأذكياء من المعلقين الغربيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن وراء كل هذه العداوة للغرب الذي أبداها عبد الناصر كان يكمن إعجاب خفي من جانبه بنمط الحياة الغربية". (راجع: د. جلال أمين، ماذا حدث للمصريين، القاهرة، دار الشروق، الطبعة السابعة، ص 68 و 69) وهو الأمر ذاته الذي نجده لدى الكثير من الرموز السياسية والفكرية في عالمنا العربي والإسلامي بما في ذلك سيد قطب حسبما يشير المؤلف ضمنا في سياق إستشهاداته على مواقف الإسلاميين.

* من كوكاكولا وماكدونالدز

www.ibtesama.com/vb Exclusive

عام 2003 القبض على مجموعات شباب تتحلى بسلاسل معدنية، الأسلوب الذي يعكس سلوك بعض أبناء الطبقة الثرية، بدعوى الاشتباه في ممارستهم "عبادة الشيطان". وعلى صعيد توزع عمر السكان في العالم العربي، تشير الأرقام إلى ترجيح ارتفاع أعداد فئات صغار السن. وفي ذلك تشير الإحصائيات إلى أن نحو 38% على الأقل من مواطني دول الجامعة العربية، التي يقدر عدد سكانها بنحو 300 مليون نسمة، قاصرون وفق تقرير التنمية البشرية العربية الصادر عن الأمم المتحدة. هذه المجموعة الواسعة تتبنى إلى حد كبير مظاهر الحياة الأمريكية بشكل أصبح سمة مميزة للحالة العامة خلال العقد الماضي، رغم التراجع الذي يسود الاتفاق عليه بشأن صورة الولايات المتحدة على خلفية سياساتها على الساحة العالمية.

وعلى ذلك فإن ما يذهب إليه المعلقون الأمريكيون من حديث عن توجهات رافضة تسيطر على الثقافة العربية تجاه الولايات المتحدة، يمثل رؤية خاصة تقوم على الربط بين السياسة الخارجية الأمريكية من ناحية والحياة الأمريكية ذاتها من ناحية أخرى (3). ولعل فشل الأنظمة المتحالفة مع الولايات المتحدة في تحدي السياسة الأمريكية يمثل السبب الأساسي وراء امتداد موقف المتشددين الإسلاميين والقوميين العرب من السياسة الأمريكية إلى الحياة العامة هناك بشكل عام. أما على مستوى الجماهير غير المسيسة، فإنها تتمسك بالثقافة الأمريكية بشكل كبير، على نحو ما يتبدى في سلوك العلمانيين وناشطي حقوق الإنسان الذين يرون دورا كبيرا للسياسات الأمريكية على صعيد إمكانية حمايتهم من ديكتاتوريي وأوتوقراطيي المنطقة، بغض النظر عن مشاعرهم تجاه السياسة الأمريكية على صعيد القضية الفلسطينية. بكلمات أخرى، عندما يستمع الكثيرون من العرب، إن لم يكونوا كلهم، إلى راديو "سوا " في سياراتهم فإنهم سيتمتعون على الأقل بأحدث ألحان الموسيقى الأمريكية ،وإن كان ذلك لن يجعلهم في الوقت ذاته أقل اقتناعا بانحياز واشنطن تجاه إسرائيل، أو أن العمليات الاستشهادية يمكن أن تمثل ردا مشروعا من قبل المقموعين في مواجهة القوة المهيمنة، بغض النظر عن مدى إعجابهم أو حسدهم لتلك القوة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفي ذلك كتب جهاد فخر الدين مدير البحوث الإعلامية بمركز الدراسات العربية في دبي والذي يتابع ويراقب أداء وسائل الإعلام العربية في صحيفة "ديلي ستار" البيروتية إن زيارة إلى أي منزل عربي ميسور الحال في الخليج خاصة بيوت المغتربين العرب، تكشف كيف أن الثقافة العالمية أو بشكل خاص الأمريكية تشكل أسلوب حياة واتجاهات الشباب وصغار السن. كما أن المواطنين الأثرياء الخليجيين يتابعون هذه التطورات بشكل كبير. ويمكن رؤية مظاهر ثقافية متشابهة في الشرق. ومع ذلك فإنه رغم الطابع الغربي الذي يسم ثقافة أطفالهم وإقبالهم على وجبات الماكدونالدز، فإنهم لا يرون غضاضة في السماح بمواقف تتسم بالعداء للولايات المتحدة في ضوء السياسات الأمريكية غير محسوبة العواقب في المنطقة (4)

التليفزيون الأمريكي على الشاشات العربية

يبدو الحماس للثقافة الأمريكية في العالم العربي بشكل واضح من خلال إنتشار البرامج الأمريكية على التليفزيون العربي. لقد غزا التليفزيون الأمريكي الشاشة العربية الصغيرة بقوة عبرعدد من القنوات الفضائية المجانية تبث الكثير من المسرحيات الهزلية والبرامج الحوارية، حتى الأخبار المباشرة والبرامج الحوارية مثل "وقت الذروة" لـ ايه بي سي و "الأخبار العالمية الليلة" و"الأخبار المسائية" لسي بي إس و60 دقيقة، و " من الداخل" وكذا ثرثرة النجوم مثل " التسلية الليلة" و"الداخل". The insider.

ومنذ عام 2002 وسعت هيئة تليفزيون الشرق الأوسط التي تعود ملكيتها إلى السعودية نطاق بثها الإخباري وبرامج التسلية على قناة "إم بي سي 1 " ليشمل قناة مخصصة لأفلام هوليوود، "إم بي سي 2" وكذلك قناة أخرى مخصصة كليا للبرامج الأمريكية الهزلية والتوك شو وهى "إم بي سي 4".

وقد اتبعت إمارة دبي هذا النهج كذلك أواخر 2004 من خلال إطلاق قناة "وان تي في" والتي تقدم نفس المزيج من الأفلام الأمريكية بتكلفة لم يتم الكشف عنها، على شاكلة القنوات العربية الجديدة. وقد حظيت القنوات الثلاث بشعبية كبيرة في العالم العربي ويحاول المعلنون أن يجدوا لهم مكانا على هذه الشاشات بشكل يمكنهم من الإعلان فيها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خاصة في ضوء ما تتمتع به من شعبية في دول الخليج العربي بالذات. ويرى القائمون على إدارات هذه القنوات أنهم يتيحون للعرب نافذة على العالم في وقت حرج أصبحت فيه المنطقة توصف من قبل الغرب، بسبب ظاهرة تنظيم القاعدة، بأنها خطرة ومتخلفة عن اللحاق بركب العالم الحديث في سياساتها وثقافتها ودينها.

وحسبما يقول محمد الملحم مدير العلاقات العامة في الـ "إم بي سي".. نحن مجرد مزود، نحن نقدم لك ميزة أن يكون لك إطلالة على العالم وأن تعرف ما هى وجهة نظر الغرب. إن برامج التسلية الغربية تناسب الشباب، ويحصل المستهلكون على إشباع يجعلهم يشعرون أنهم يجدون من خلالنا ما يسعون إليه. نحن نحاول أن نرضى أذواق الجمهور(5). وتقدم "إم بي سي" شهريا تقارير تسويقية ترصد الاتجاهات في العربية السعودية ، بشكل خاص. وتحتل السعودية في ظل ارتفاع الدخل القومي، وعدد السكان الذي يقدر بنحو 24 مليون بما يسمهم من ثقافة استهلاكية، مكانة متقدمة على صعيد الإنفاق على التسلية، ما يجعل منها هدفا أساسيا للإعلان على الفضائيات العربية الوفيرة عبر القنوات التليفزيونية خارجها. ففي السعودية، الدولة التي خرج منها 15 من 19 من الخاطفين الانتحاريين في أحداث 11 سبتمبر، يتمتع المشاهدون بحرية النقر بأصابعهم للتحول من المحطات الإسلامية لتليفزيون الدولة التي لا تقدم برامج تحظى بالقبول الواسع، إلى قنوات التسلية التي تقدم البرامج الحوارية لأوبرا وينفري وتعيد بث مسرحيات هزلية مثل "الأصدقاء".

وتعتبر " قناة وان " التي تبث من دبي نفسها في وضع أقل حرجا، الأمر الذي يبدو في إبدائها الإعجاب بأمريكا بشكل يلمسه المشاهد بسهولة مثلا في الفقرات الترويجية بين البرامج، حيث يتطرق المقدمون كثيرا باللغة العربية إلى نجوم هوليوود بشكل يبدون معه كعمالقة وسط مزج في التصوير بينهم وبين أبراج دبي فيما يبدو محاولة للمماهاة بين طموح المدينة وما هو عليه الوضع في مانهاتن مثلا. وفي فاصل ترويجي آخر، تسهب مرأة لبنانية في حوار ملئ بالإعجاب بهوليوود قائلة كيف يمكن لي أن أنسى هذا الفيلم الوجه، الإطلالة – براد بيت! شين بين، أندي جارسيا. فيما يقطع صوت رجل قائلا : ديمي مور، ساندرا بولوك، مونيكا بيلوسي!

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم يتم العودة إلى مشاهد آخر يبدي قدرا كبيرا من الإعجاب بالتألق الأمريكي قائلاً حقيقة لقد انتابني الرعب، لقد تأثرت، ، ضحكت، أعنى أنني حقيقة استغرقت في الفيلم، وحتى إذا ما تم عرضه آلاف المرات سوف أشاهده، من أجل أن أرى .. جون ماكلوفيتش، دينزل واشنطن، توم كروز. ثم ينطلق صوت رجولي مرة أخرى: شارون ستون، بينيلوب كروز، نيكول كيدمان. فيما تقول إمرأة: الألوان، المصور .. أشياء مذهلة. الأضواء الديكور، الموسيقى – وجورج كولوني، وكيفين سبيسي، وبين أفليك. صوت رجل : لوسي ليو، كيجريان، أنجلينا جولي. إمرأة ألا يعكس هذا شيئاً حقيقياً ؟ التمثيل من الصعب تصديقه، والأكشن أو الإثارة، والتشويق، والكوميديا ، جيم كاري، جوني ديب – فيما موسيقى هوليوود تصل إلى نهايتها.

هذا المونتاج الذي يعكس قدرا من العلاقات العامة يناقض بشكل كبير ما نصادفه على قناتي "الجزيرة" و"العربية" والفواصل التي تقدم فيما بين البرامج حيث يرى المشاهد العربي صوت رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أرئيل شارون يعلن أنه "جئنا من أجل السلام" فيما تشير الخلفية إلى جنود ودبابات إسرائيلية خلال الانتفاضة أو ضيوف من عروض قديمة معينة يتم اقتباس مقاطع محددة من أحاديثهم على شاكلة: لماذا يعتقدون أن دمهم له قيمة أكثر من دمنا؟ ما الذي يجعلنا أرخص منهم؟(6).

وحسبما يقول راشد مروشد مدير قناة " وان تي في ":إننا نبحث عما يفضل المشاهدون رؤيته وما يجذب النشاط التجاري. وحسبما يعترف مروشد فإن صناعات التسلية البريطانية وغيرها من تلك الناطقة باللغة الإنجليزية لا تحظى بإقبال كبير، وعلى ذلك فالبرامج أمريكية بالكامل تقريبا (7) مضيفا يجب علينا أن نعترف بأن هوليوود تعد واحدة من أكبر وأفضل منتجي الأفلام، والمسرحيات الهزلية والعروض الشعبية. إن مستواهم عال، ويتم تلقيه بشكل جيد وبسهولة في هذا الجزء من العالم، نظرا للغته الإنجليزية". ما يثير الدهشة أن عدم استساغة المشاهدين السياسة الخارجية للدولة التي تنتج هذه المادة الشيقة ، أمر ليس له أهمية. بالنسبة لمروشد يقول لست في موقف يسمح لي بأن أقرر ما هي الثقافة التي يجب على الناس أن يشاهدوها، ذلك يعود إلى الناس، ولكن المعلنين يحبونها بسبب أن المشاهدين يحبونها. إن النية تتجه لتقديم مايفضله

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مشاهدونا، والبرامج التي يحبونها ويشعرون بالسعادة لمشاهدتها، ولكننا لا ننوي أن نتوغل في القيام على مهمة العمل كجسور ثقافية .

وتعكس أبراج دبي ما تخطط له حكومتها لما تريد أن تكون عليه المدينة خلال سنوات، عندما تنتهي مجموعات المشروعات العمرانية التي يجري تنفيذها حاليا. باختصار، تقود دبي العالم العربي في رغبته لمحاكاة العولمة الرأسمالية الأمريكية، وتعكس جاذبيتها للعرب من الأقطار الأخرى مثل مصر وسوريا ولبنان، والتي تعد دولا فاشلة بالمقارنة .. نجاحها في هذا الصدد(*)، فهي تمتلك الجرأة والاندفاع وفيها الجديد والشوارع النظيفة، يسودها حكم القانون وينعم المرء فيها بحريته الشخصية ، حيث لا يواجه حكما بالإعدام لمجرد أنه اتبع أمريكا، وهي أشبه بالنعيم، بالنسبة للعرب الهاربين من البطالة والفساد والفقر والتلوث واليأس. دبي أيضاً تريد جذب اهتمام أمريكا.

وقد نجح مهرجانها الدولي للسينما فيما لم ينجح فيه مهرجان القاهرة السينمائي العريق ، من حيث جذب نجوم من هوليوود. وفي ذلك راحت الممثلة سارة ميتشيل جيللر تقول للصحفيين في ديسمبر 2004 : "لقد أحببت هذه المدينة. إنها جميلة وغاية في النظافة"(8). ورغم أنها تعترف بأنها لم تتمكن من مشاهدة أي فيلم عربي، إلا أن الخطوة التالية لدبي ربما تكون العمل على إقناع هوليوود بالمجيء إلى الإمارات والتصوير في مجمع استوديوهات، قيد الإنشاء؛ ومعفى من الضرائب. وعندما بدأ طيران الإمارات رحلاته اليومية إلى نيويورك، عام 2004، قام بعملية ترويج هائلة في المدينة من خلال إعلان مثل ملصق ضخم بالحجم الطبيعي لتمثال الحرية غطي واجهة برج سكني يطل على الطريق الرئيسي في المدينة (**) وبالقرب من هذا الموقع توجد لوحة إعلانية كبيرة تعلن أن المنطقة هي أرقى كيلو متر مربع على وجه الأرض حيث يشاهد المرء تسارع وتيرة العمل في مشروعات مكثفة وطموحة تأمل حكومة دبي من

---

* تحول تقييم هموند إلى النقيض تماما حيث راح يعلق على الأزمة المالية التي لحقت بدبي نتيجة الأزمة العالمية العام قبل الماضي قائلا أن ما يجري في المدينة من بنات أفكار رجل واحد أخفق في تطبيق قواعد الشفافية والحوكمة، مضيفا أن النمو السريع للإمارة – المدينة تمحور حول شخص حاكمها الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم الذي عرض أفكاره في كتاب بعنوان "رؤيتي" حث فيه دولا عربية أخرى على محاكاة نجاح دبي. والآن يبدو هذا النموذج – والكلام لهموند - على وشك السقوط بعدما أثار الكثير من الجدل بين عرب الخليج بما يتضمنه من بناء مدن براقة في الصحراء بسرعة فائقة عن طريق استقدام السكان والتمويل والعمالة من الخارج.

** شارع الشيخ زايد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خلالها أن تحول المدينة لتكون منتجعا للأغنياء. وهى العبارة التي قد تثير في ذهن المرء مانهاتن على الفور.

ويرى بعض المعلقين في الصخب المتعلق بثقافة البوب التليفزيونية الأمريكية تعبيرا عن الأزمات السياسية والاجتماعية العربية التي جرى تناولها من قبل كتاب أمريكيين مثل توماس فريدمان وفريد زكريا في استعراضهم للاختلال الوظيفي العربي، وتم التوسع فيها من قبل كتاب عرب في تقرير التنمية البشرية العربية في السنوات الأخيرة. وفي ذلك يقول المحلل الإعلامي جهاد فخر الدين إن مالكي قنوات التسلية الغربية فضلوا البرامج الأجنبية الجاهزة بدلا من استغلال أموالهم في تطوير أشكال مختلفة من برامج التسلية العربية، والتي يوجد طلب كبير عليها. إن الأمر يعكس الإفلاس الشامل لصناعة الترفيه العربية. فمن الأرخص لهم أن يشتروا إنتاجا جاهزا سواء كان ذلك سيارات أو ثلاجات أو حتى برامج ترفيهية(9).

فيما ذهب معلقون آخرون إلى أن الجمهور العربي يجد ضالته في برامج الترفيه الأمريكية باعتبارها مجالا للهروب من المشاكل السياسية في المنطقة، التي تعد الولايات المتحدة، للمفارقة، جزءا أساسيا منها. ووفق ما يشير إليه طارق شيخ الشباب الباحث في التسويق بشركة "إيبسوس ipsos-stat" في دبـــــي " فإنه "بسبب الموقف السياسي في المنطقة لا يريد الناس فقط مشاهدة الأخبار السياسية (10) فمعظم المديرين الذين يديرون المحطات الجديدة سعوديون تلقوا تعليمهم أمريكيا. إن "إم بي سي" تعكس تفكير السعوديين ذوي الثقافة الأمريكية، حيث يعود الشباب السعودي الذي تلقى تعليمه هناك إلى وطنهم ويلازمه الحرص على متابعة المسلسلات والأفلام والبرامج الأمريكية.

الترفيه العربي يقلد أمريكا

لقد حاول العالم العربي تقليد التليفزيون والموسيقى والسينما الأمريكية مع درجات متفاوتة من النجاح (*). فقد اجتاح تليفزيون الواقع العالم العربي خلال عامي 2002

* في محاولة لتقييم أداء التليفزيون العربي في مواجهة التطورات الجديدة التي نحياها أشارت إحدى الدراسات إلى أن الإعلام العربي الخاص في أغلبه تبنى توجها تجاريا محضا يقوم على الإيقاع السريع والمغري والإثارة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

و2003. وتعد معظم برامج تليفزيون الواقع نسخا من برامج دولية مثل "ستار أكاديمي" و"الأخ الأكبر" وعلى الرغم من أن "الأخ الأكبر" تم إيقافه من البث على الهواء بعد نحو أسبوع بسبب ما يعتبر خطأ ارتكبته "إم بي سي" بتنظيمه في البحرين حيث تتمتع المعارضة الإسلامية بنفوذ كبير(*)، فإن "ستار أكاديمي" حقق نجاحا هائلا. وعلى وقع شعبيته الكبيرة التي حظي بها في السعودية أدان أحد رجال الدين المعروفين البرنامج باعتباره دعوة إلى الرذيلة، ولكن الشباب والفتيان والفتيات الصغار يلاحقون أصحاب البرنامج حيثما توجهوا في المراكز التجارية في بيروت.

ويعرب بيير ضاهر مدير محطة الترفيه اللبنانية "إل بي سي" عن اعتقاده بأن ذلك هو مستقبل التليفزيون العربي خلال السنوات المقبلة. في الوقت ذاته يأمل رجل الأعمال محمد العبار من دبي رئيس مجلس إدارة شركة إعمار العقارية والذي زار إسرائيل في فبراير 2005 لبحث ترتيبات شراء المستوطنات الإسرائيلية في غزة، أن يقدم نسخة عربية من برنامج "المتدرب" الذي يقدمه دونالد ترامب (11). ومع ذلك فمن الصعب تخيل برنامج على قنوات البوب العربية مثل برنامج "Dismissed" لقناة إم تي في والذي يشجع الشذوذ الجنسي وفيه تقوم امرأة في مقتبل العمر بالاختيار بين شاب أو فتاة وتقبلهم بحرارة في عملية تهدف إلى اكتشاف أيهما تفضل (**).

إن القنوات الموسيقية العربية تقلد ،بشكل متسارع ، نظيرتها الأمريكية منذ أواخر التسعينيات. ويوجد الآن عدد كبير من القنوات الفضائية الموسيقية مثل "الـ إم تي في" التي تمزج ما بين برامج مصورة للموسيقى الغربية والعربية ، مثل روتانا وميلودي

الجنسية المقصودة والترويج الإستهلاكي من خلال الفضائيات ذات التوجه الغنائي التي تنتج نمطا معينا من الرقص والغناء، وأنه سواء كان الإعلام رسميا أم خاصا، فمن الواضح أنه لا يتوفر على مسلتزمات ثنائية الصمود والإقناع في مرحلة العولمة الإعلامية المتسمة بكثير من الهيمنة والتأثير في العقول والسلوكيات. راجع : المنصف وناس، القيم المدنية من خلال الفضائية العربية، في : ثورة الصورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص 55.

* سميت النسخة المعربة من هذا البرنامج بإسم "الرئيس" وقد تم توقيف تصوير الحلقة الأولى من هذا البرنامج عندما أظهرت أحد المشاركين يقبل إحدى المشاركات، وهو ما أدى الى مظاهرات تطالب بتوقيفه وتحول إلى قضية كبرى طرحت على البرلمان البحريني مما أدى إلى توقيفه. راجع : نصر الدين لعياضي، تليفزيون الواقع في المنطقة العربية، في المرجع السابق، ص 146

** لم يتم الاكتفاء بهذا الحد في مثل هذه النوعية من البرامج ، بل وصل الأمر ببعض برامج تليفزيون الواقع في الغرب إلى حد قيام المشاركين في أحد البرامج بإظهار أعضائهم التناسلية ملء شاشة التليفزيون. المرجع السابق، ص 145 وهو ما يؤكد ما يذهب إليه عالما مثل هربرت شيلر من أن وسائل الإعلام لا تقوم بتحديث المجتمعات وإنما تعتبر عاملا نشيطا في غربنته أو بالأحرى أمركته. المرجع السابق كذلك ص 139.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومزيكا وإم – بلس، وزين ، والتي يعتقد بعض المعلقين أنها يمكن أن تكون بمثابة المؤشر بوصول الشباب إلى قيادة الليبرالية العربية.

إن أمريكا تقف في خلفية مشهد الحرب الثقافية الجارية في العالم العربي بين الشباب الذين يسعون لأن يكون صوتهم مسموعا ، ويعملون على تعزيز وضع الموسيقى والموضة، والقوى الرجعية المختلفة التي تشمل الحكومات والقوميين واليساريين والإسلاميين سواء أكانت تنطلق من الوعي الذاتي أو التأثر بوجهات نظر أمثال سيد قطب.

وحسبما كتب تشارلز بول فروند في مجلة "reason " – العقل – فإن "الكثيرات من المطربات العرب يقدمن أنفسهن وفق وضعيات تتسم بالإثارة على شاكلة النجوم الذين يعبرون عن أنفسهم بشكل جنسي مثير عبر الموضة والحركات والتعبير والصوت"(12). وسيحقق العالم العربي حتما هدفه الذي تأخر طويلا على صعيد تحرير عملية التحديث، وربما يمكن أن يرقص بشكل مماثل لما يجري هناك. ويقود لبنان بشكل عام هذا الطريق على طريق تقديم الغرب وبشكل خاص الاتجاهات الأمريكية للعالم العربي، حيث يلعب دور الوكالة لجهة استقبال وتلقي هذه التأثيرات الأجنبية حيث يتم غربلتها وإعادة تصديرها إلى المشاهد العربي.

وفي مجال الحديث عن تاريخ الموسيقى العربية على مدى نصف القرن الماضي، يمكن الإشارة إلى مرحلتين تعكس أولاهما العصر الذهبي للمطربين الكلاسيكيين ، الذين تواكب ذيع صيتهم مع فترة الآمال التي كانت انعكاسا للقوميين العرب، المطربين الذين جعلهم أسلوبهم جزءا من نهضة التراث العربي، وثورة موسيقى البوب منذ الثمانينات. ويعتبر النقاد الثقافيون من الإسلاميين والقوميين أن المجموعة الأولى تعكس الأصالة العربية والثانية تقليد ساذج للثقافة الاستعمارية الأمريكية. وقد هيمنت المجموعة الثانية كاملة بشكل كبير خلال السنوات الأخيرة جراء تنامي التعاون بين الفضائيات العربية ومنتجي الفيديو كليب، بشكل كان بمثابة جرس إنذار بين المثقفين. وفي ذلك أشار الأكاديمي المصري أشرف جلال في انتقاد لفيديو للمطربة اللبنانية نوال الزغبي إلى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

غياب الهوية العربية وتمرير واضح للمبادئ الغربية وغياب البيئة العربية وهناك إلغاء تام للمعاني والقيم الجميلة (13).

وفي أول فيديو كليب للمطربة اللبنانية نانسي عجرم عام 2002 "أخاصمك آه" نجدها ترقص وتهز بطنها فيما تمشي وسط رجال في مقهى مرتدية ملابس عارية وهو ما أثار الاحتجاجات عندما قدمت الأغنية في البحرين ودعوات في عدد من البرلمانات العربية لحظر إذاعة هذا الفيديو. كما أثارت المغنية المصرية روبي جدلا كبيرا وحالة مماثلة من الغضب بأغنيتها التي قدمتها عام 2004 "ليه بيداري كده" حيث ترتدي قطعة خفيفة أسفل جسمها وتتلوي بثدييها أمام الكاميرا. وحسبما يقول الملحن حلمي بكر آسفاً على أن الأغاني اليوم ينقصها القيمة الحقيقية، في الصوت الذي يؤديها أو المؤلف الذي كتبها.إن الأمر يعتمد تماما على الرؤية، ولكن الأغاني يجب أن تكون أكثر من أن تجرنا إلى الأسفل (14).

وفي لبنان تم تحقيق قفزة بالمزج بين الموسيقى الكلاسيكية وأشكال مختلفة من الموسيقى الغربية، غير أن ذلك لم يلق سوى المعارضة مرة أخرى. وفي ذلك راح الكاتب إبراهيم العريس يشكو من أن هذا الاتجاه لتحديث كلاسيكيات الموسيقى يشوه تراثنا (15). إن سبل العمل على تسويقها في أمريكا هو القضية التي تشغل بال وعقل كبار نجوم البوب العرب ومدرائهم. لقد حققت الموسيقى العربية نجاحا محدودا، وسادت توقعات مجال صناعة الموسيقى الدولية بأن هذا الأمر سيؤدي في النهاية إلى إختراق هذا القطاع على غرار الموسيقى اللاتينية، إثر نجاح أغنية "وردة الصحراء" للمغني البريطاني ستينج مع المغني الجزائري الشاب مامي. غير أن تزايد الاشتباه بشأن كل ما هو عربي فيما بعد 11 سبتمبر وضع نهاية لهذا التصور.

كما أن صناعة السينما العربية التي تتركز في مصر، خاضت محاولات صعبة لتقليد الثقافة الأمريكية الليبرالية منذ انفتاحها بشكل كبير خلال الستينات. ويقوم صناع الأفلام والممثلون في المنطقة بمحاولات متواصلة لجس النبض للوصول إلى ما يريده الرأي العام، الأمر الذي ينتهي بهم إلى صعوبات إزاء تعرضهم للانتقادات من قبل النقاد والمعارضين الإسلاميين من معالجتهم لقضايا جنسية. وقد لحق الضرر بالكثير من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

هؤلاء جراء هذه التصورات الإجتماعية المحافظة. ففي مصر، تم اقتياد الممثلة يسرا إلى المحكمة عام 1995 على خلفية مشهد في فيلم "طيور الظلام" بسبب ظهور أقدامها عارية بشكل كان بمثابة صدمة للأصوليين الإسلاميين. كما صدر حكم بالسجن على معالي زايد عام 1997 في قضية رفعها مشاهد استفزه مشهد لها في غرفة النوم مع فتاها الصغير في فيلم "أبو الذهب".

كما اتخذت إجراءات قانونية أخرى ضد عدد من أفلام المخرجة المصرية إيناس الدغيدي التي تبدي سعادتها بتجاوز الحدود (*) حيث تقول في ذلك الشأن أنا لا أعترف بكلمة عيب في الفن. لسوء الحظ فإن الناس تحكم على الفن من منظور عيب أو حرام وحلال.. الله قال هذا، الله لم يقل ذلك. أنا أؤمن بأن السينما ليس لها علاقة بالدين. الدين شئ والفن شئ آخر. والفنان يجب أن يكون قادرا على تحقيق كل شئ يتخيله.. يوجد العديد من الأشياء التي أحب أن أكون قادرة على أدائها أو فعلها (16). كما شهدت المغرب مشاكل مشابهة في التسعينيات، مع عبد القادر لقطع "حب في الدار البيضاء"(1991) و"الباب المغلق" (1995). وفيلم محمد لطفي "القرد". (1995) والذي تم حظره بسبب مشاهد القبلة الفرنسية فيه. كما تم حظر فيلم "المهاجر" للمخرج المصري يوسف شاهين (1995) كذلك لفترة محدودة في كل من مصر والمغرب. ويبدي المخرجون استياءهم من القيود التي تواجههم، ويبدو واضحا عزمهم على مقاومة مثل هذه القيود ،وصولا إلى تحقيق أهدافهم القائمة على الحفاظ على حرية العمل السينمائي على النمط الأمريكي.

وفى تعرية للقيود القائمة تضمن الفيلم المصري "مواطن ومخبر وحرامي" الذي انتج عام 2001 مشهد فتاة تكشف عن نفسها وقد تخلت عن الجزء العلوي من اللباس الذي يغطي صدرها مع استخدام واضح لما يشبه المرآة بشكل كشف عن صدرها، بما يحقق هدف المخرج من تقديم ما يريد دون أن يلجأ إلى تصوير المشهد من الأمام.

---

* تعد إيناس الدغيدى من اكثر المخرجات في السينما الصري اثارة للجدل بسبب أسلوبها الفني. كما أثيرت اسئلة حول علاقتها بالولايات المتحدة بعد ان اختارتها مجلة نيوزويك الأمريكية ضمن أكثر الشخصيات تأثيراً فى الوطن العربي إذ تم تكريمها وتسليمها تمثالا ضخماً من الكريستال يحمل صورتها كتب عليها جائزة التفوق الفني من " النيوزويك " راجع د. محمد حسام.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ويشير الناقد السينمائي المصري على أبو شادي ،الرئيس السابق لجهاز الرقابة على السينما ، إلى أنه حتى الستينيات والثورة الجنسية في الغرب، كان لدى كل من العرب وهوليوود قدر من التوازن بين الاعتدال والحرية. وبالنسبة للعالم العربي، مثل ذلك الفترة التي قادت مصر فيها النهضة... كنا نتحرك في الاتجاه ذاته، الذي يسير فيه العالم آنذاك (17). ربما نستطيع العودة إلى حيث كنا في الستينات، ولكن حتى ذلك يمثل نوعا من الطموح. وعليه يمكن ، فقط في أطر محدودة سواء من خلال المؤسسات الثقافية أو الندوات المتخصصة ، مشاهدة أفلام دون تعرضها لمقص الرقيب سواء تضمنت ألفاظا تخدش الحياء أو قدرا كبيرا من مشاهد العري، وإن كان كل من لبنان وتونس يمثلان استثناء في هذا الخصوص.

وقد كان فيلم "بيروت الغربية" الذي أنتج عام 1998 أول فيلم عربي يتم عرضه على الجمهور في أمريكا الشمالية. وقد عرض في بيروت، ولكنه لم يعرض في مصر سوى مرة واحدة في مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، حيث يقبل المشاهدون عليه لغياب مقص الرقيب. وحسبما يقول أبو شادي إن الناس يمكن أن تحب أشياء مثل تلك ولكنهم سيقولون بأريحية إنه لا يجب عرضه على العامة. إن ذلك يعكس شكلا من أشكال الازدواجية في الشخصية، ولكن هذه غريزة طبيعية موروثة في في ثقافتنا (18)، وهو ما ينعكس في أن سياسة قنوات مثل "وان تي في" و"إم بي سي 2" و"إم بي سي 4" ، التي تقدم أكبر نسبة من البرامج الأمريكية تقوم على حذف مشاهد القبلات ، سواء في الأفلام الكوميدية أو الدرامية.

لا يعني ذلك أن كل الأعمال الدرامية العربية تبدي إعجابا بالولايات المتحدة حيث يمكن رصد فيلم من بين تلك الأعمال ينتقد الإعجاب العربي بأمريكا ، ففيلم "أمريكا شيكا بيكا" والذي شارك في بطولته المطرب محمد فؤاد (*) وأنتج في التسعينيات يعبرعن مزيج من الرهبة والخوف تجاه أمريكا. ومن المفارقة أن مخرجه خيري بشاري يريد أن يقول إن الذهاب إلى أمريكا ليس بهذا السوء . أما فيلم يوسف شاهين الذي قدمه

* أورد المؤلف خطأ أن عمرو دياب هو المطرب الذي شارك في الفيلم.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

عام 2004 "إسكندرية.. نيويورك" فيعرض لتناقض مثير للاهتمام بين عصر الرهبة والإعجاب بأمريكا والإتجاه الحالي القائم على التحرر من هذا الوهم. فالفيلم يعرض لمخرج عربي طاعن في السن يعود إلى نيويورك بعد عدة سنوات فيلتقي حبه القديم ويكتشف أنه أنجب طفلا منها. ولكن الابن يرفض الأب وفي النهاية يرفض الأب الابن في انعكاس للعلاقة بين العرب والولايات المتحدة ، حيث يصرخ الأب عند نقطة معينة مشيرا إلى استخدام أمريكا السلاح في اليابان قائلا إن العنف الذي بدأ في هيروشيما ينتهي معك.

عندما بدأ شاهين امتهان العمل السينمائي عام 1940 حيث كان يدرس في باسادينا وقع في حب الولايات المتحدة، وكانت مساندة أمريكا لإسرائيل ووحشيتها للفلسطينيين تحت الاحتلال ــ التي يجري متابعتها دوما في غرف المعيشة العربية من خلال القنوات الفضائية ــ السبب في تحول موقفه، فيما كان استخدام القوة الأمريكية بشكل كبير خلال قصف بغداد ضمن حرب الخليج عام 1991، سببا لما يمكن اعتباره انفصالا كاملا على طريق هذه العلاقة.

ومع تطورات حرب العراق عام 2003، بدا لشاهين، كما لمعظم المعجبين بأمريكا، أن اللجوء إلى استخدام التقدم التكنولوجي آنذاك ضد عاصمة عربية يؤكد النظرة السائدة بشأن الغطرسة الأمريكية ورفضها للحلول الوسط ، وأنها ليست سوى قوة تفضل استخدام العنف في العالم. وقد غامر شاهين بخوض هذا الطريق عام 1999 من خلال فيلمه "الآخر"، الذي تقوم فيه نبيلة عبيد بدور أم أمريكية تجسد نموذجا لامرأة تتسم بالنهم في مجال الكمبيوتر تميل للشرب وتتدخل في حياته وتسخر من هويته العربية. كما قدم شاهين نفس هذا الطرح الجماهيري في السيرة الذاتية "إسكندرية.. نيويورك" راصداً هذا التطور من الإعجاب إلى التحرر من الوهم تجاه أمريكا. وكان شاهين قد شارك كذلك في إنتاج فرنسي يمثل 11 فيلما قصيرا بعنوان " 11ـ 9 ــ 2001 : 11 سبتمبر" وتم عرضه في 2002 وفيه يقدم 11 مخرجا من مختلف أنحاء العالم 11 دقيقة وتسع ثوان، بشكل زمني متساو. ساهم شاهين في الفيلم بتقديم منتج سينمائي يستفز خلال مؤتمر صحفي لدى سماعه تقارير عن هجمات 11 /9 حيث يدخل حينئذ في حوار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مع عفاريت مارينز أمريكيين قتلوا في العملية الاستشهادية لحزب الله واستشهادي فلسطيني قتل خلال الانتفاضة الثانية، مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن شاهين ليس أصوليا وأن معظم أعماله خلال العقد الأخير سخرت من الإسلام السياسي وتأثيره المدمر على العلمانية في العالم العربي التي يؤمن بمبادئها منذ الستينيات.

التوجهات العربية نحو الديمقراطية الأمريكية

تحظى الديمقراطية الأمريكية، بما تتسم به من انفتاح وقوة، بالإعجاب في العالم العربي. وبالنسبة لمعظم العرب الذين يعيشون في أقطار محرومة نسيبا من الحرية السياسية، وفي ظل غياب حكم القانون، وتآمر النخبة الاقتصادية والدينية والتقليدية والبيروقراطية من أجل وأد الإبداع، والحراك الاجتماعي، والفرص الاقتصادية، فإن أمريكا هي دولة "العمل". ورغم وجود مجتمع عربي أمريكي يعتد به في الولايات المتحدة ويمكن له أن يساهم في تعزيز الفهم الثقافي المتبادل، فإن القنوات الفضائية لعبت دورا بارزا على صعيد إعلام العالم العربي بماهية الولايات المتحدة، فـ "الجزيرة" و"العربية" تقدمان برنامجين حواريين سياسيين أسبوعيين تستضيفان فيهما صحفيين وأكاديميين عرباً مقيمين هناك وكذلك جمهوريين وديمقراطيين عرباً يتمتعون بحكم صفتهم تلك بالقدرة على التواصل باللغة العربية.

إن الديمقراطية تعني وسائل إعلام أكثر حرية، أكثر من أي شئ قائم في العالم العربي ، وهذا هو ما يصدم إلى حد ما المعلقين العرب طول الوقت منذ ووتر جيت إلى فضيحة أبوغريب. فعندما خرجت إلى النور أنباء فضيحة قيام جنود أمريكيين بانتهاك حقوق المعتقلين العراقيين عام 2004 ، كتب معلق مصري يقول إن وسائل الإعلام الأمريكية قد تساند موقف إسرائيل ضد الأقطار العربية، ولكن بالنسبة للقضية العراقية فقد عبرت عن موقف مختلف، حيث وصفت الجرائم الأمريكية في العراق بأنها غير إنسانية وكتبت بطريقة واضحة وموضوعية. لقد صدم الكتاب والمثقفون الأمريكيون بما جري في العراق وأدانوا السياسة الأمريكية (19).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومثل دبي، فإن أمريكا ينظر إليها على أنها مكان يمكن أن يتحول الحلم فيه إلى حقيقة. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة للسياسات الخارجية الأمريكية، فإن الطبقة الوسطى العربية تأمل أن يتمكن أبناؤها من التعلم هناك، الأمر الذي يؤكده الإقبال الذي يحظى به التعليم الأمريكي من قبل المقتدرين ، سواء عبر فروع الجامعات الأمريكية في الدول العربية أو عبر المقار الرئيسية في الولايات المتحدة ذاتها. وفي ذلك يعترف سمير خضر كبير منتجي الأخبار في قناة الجزيرة خلال البرنامج الوثائقي "غرفة التحكم" الذي تناول عمليات الجزيرة خلال حرب العراق، أمام الكاميرا في واحد من أكثر لحظات الفيلم جدية بأنه يأمل أن يتمكن يوما ما أن يعيش في أمريكا ويتمكن أطفاله من الدراسة هناك لاستبدال الكابوس العربي بالحلم الأمريكي ، وهو يقول ذلك رغم تهكمه البالغ حول أبعاد التدخل الغربي ، وكيف أن عقودا من هذا التدخل أدت إلى تدمير العالم العربي وتشويه مجتمعاته. ويضيف ، في إشارة إلى التليفزيون الأمريكي الذي يعكس توجهات الجناح اليميني: "فيما بيننا إذا ما عرض على عمل في قناة فوكس للأخبار، سوف أقبله". وفي آخر جزء من اعترافاته أمام الكاميرا يقول : لا يجب عليك أن تبرر موقفك طالما كنت المنتصر .. هذه هي الحياة .

لقد أصبح الهرب إلى أمريكا أكثر صعوبة فيما بعد 11 سبتمبر. لقد تراجع تدفق السياح العرب ورجال الأعمال والطلبة بشكل ملحوظ ، بسبب الصعوبات التي يواجهونها في الحصول على التأشيرات، كما أن قدرا معينا من الأموال العربية المستثمرة في الولايات المتحدة عاد إلى المنطقة. وحسبما ذهبت صحيفة "ديلي نيوز" البيروتية: " أن تكون عربيا في شمال أمريكا أمر ليس بالسهل هذه الأيام. فبعد نحو ثلاثة أعوام ونصف من أحداث سبتمبر وعامين من الغزو الأمريكي للعراق، فإنك مالم تكن تتلقى تدريبا في ضيافة الحكومة الأمريكية كعربي أو كمسلم فمن المحتمل أن تواجه عقبات في كل شئ ، بدءا من التقدم للحصول على رخصة قيادة وانتهاء بإيداع شيك باسمك في البنك"(20).

وبينما يعتبر الفصل بين الدين والدولة في أمريكا مصدرا للإبداع بالنسبة للعلمانيين العرب من قوميين وليبراليين، فإن الكثير من الإسلاميين يصفون أمريكا بأنها مجتمع

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بدون إله ولا يصلح أن يكون نموذجا للعالم العربي. وطبقا ليوسف القرضاوي، رجل الدين المصري المستقل الذي يظهر في برنامج أسبوعي على شاشة الجزيرة(*) فإن الإسلام يجب أن يأخذ بالتطورات العلمية الغربية، ولكننا لا نريد قيمهم، ونمط فهمهم ورؤيتهم للأمور، وفلسفتهم. نحن نريد فقط التطور التقني الذي وصلوا إليه في ضوء أننا نعرف كيف نبني على ما أنجزوه (21). وفي ضوء الاستشهاد الذي يتم غالبا بالإشارة إلى تركيا وتونس باعتبارهما نماذج لدول معتدلة، فإن القرضاوي يقدمهما كأمثلة للعلمانية المتطرفة التي تقلد الغرب على حساب الثقافة الإسلامية بشكل خاص. وحسبما يقول ليس هذا هو المزيج الذي نريده0

ولم يقبل الإخوان المسلمون الذين يعتبرون أساس التيار الإسلامي في العالم العربي بفكرة الديمقراطية البرلمانية سوى خلال الثمانينيات، وكان قرارهم المشاركة في الانتخابات في ظل قيادة عمر التلمساني مثيرا للاضطرابات بشكل أدى ببعض الإسلاميين، على نحو ما يشير الناشط الحقوقي هشام قاسم مازحا، إلى الانتحار بإلقاء أنفسهم من شرفات المنازل قلقا من هذا التطور(22)، فالسلطة النهائية بالنسبة لهم تتمثل في شرائع الله، كما تم الإشارة إليها في القرآن وعبر التجربة الحية التي تمثلها فترة النبي محمد. وهي، حسب رؤيتهم، لا تكمن في البرلمان المنتخب شعبيا بشكل يجوز له معه التمتع بسلطة سن القوانين التي يراها مناسبة حتى إذا ما تعلقت بحقوق الشواذ جنسيا أو إباحة الإجهاض. أما في المملكة السعودية فيعتبر مجلس الشورى هيئة استشارية وليست تشريعية تقوم على سن وإصدار القوانين ، في ضوء أن الشريعة تقوم على هذه المهمة وأن تفسيرها يعتبر مهمة علماء الدين، وليس لهم الإضافة إليها أو تعديلها.

كما يعتقد الكثيرون من الإسلاميين والقوميين العرب أن المزيد من الديمقراطية أدى إلى تحول أمريكا إلى الرخاوة. وهم يتصورون ، ويأملون، أن تكون الثروة الأمريكية هي العنصر الجامع بين مكونات الولايات المتحدة، وأن الانهيار الداخلي والصراع فيما بين العرقيات والمناطق المختلفة أمر حتمي. ويتهم بيان لتنظيم القاعدة في العراق ،

* هو برنامج "الشريعة والحياة".

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأمريكيين بالاختباء خلف التكنولوجيا من أجل الدفاع عن أنفسهم ، حيث إن الوسائل الحديثة المريحة جعلتهم يتصفون بالرخاوة. وعندما فتحت القوات الأمريكية النار على المعتقلين في البصرة في فبراير 2005، راحت مجموعة الزرقاوي ترد قائلة: ما الخطأ الذي ارتكبه معتقلون لا يملكون الدفاع عن أنفسهم، سوى حماية الله لهم، بالشكل الذي يجعلكم تعاملونهم بمثل هذه المعاملة؟ إننا لن ندع طغاة العصر يفلتون بجرائمهم وسوف نحقق هدفنا, وسنأتي لكم بإخوة يحبون الموت كما تحبون الحياة رهبان بالليل فرسان بالنهار، لحماية كتاب الله ويكرسون أنفسهم لنيل رضاه(23).

كما يتردد الخطاب ذاته فيما يتعلق بإسرائيل، حيث ينظر إلى انسحابها من جنوب لبنان عام 2000 على أنه جاء نظرا لطابع الحداثة الذي يسم مجتمعها ، والذي يساير الأفراد فيه الاتجاهات الغربية في الزواج المتأخر وإنجاب عدد قليل من الأطفال بشكل يتيح لهم نوعية حياة أفضل، وقد انعكس ذلك في عدم قدرتهم على التعاطي مع حالات القتل المحدودة التي وقعت بسبب إطلاق حزب الله صواريخ كاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية بالقرب من الحدود اللبنانية. كما عزز الفشل الإسرائيلي في دحر المجموعة المسلحة خلال حرب يوليو وأغسطس 2006 هذه الرؤية تقريباً.

وتكشف متابعة غرف المحادثة عبر الإنترنت عن موقف الإسلاميين من الديمقراطية وما تعكسه فى رأيهم من شرور . وحسبما كتب أحد المستخدمين على موقع يتمتع بشعبية "ما الخطأ في أن تكون هناك معارضة وحرية رأي، وأن يتلقى الحاكم راتبا معينا وأن يتم تحديد فترة بقائه في الحكم، وتشريع يتضمن عدم تعيينه خليفة من بعده؟ أين الكفر في الدعوة إلى أي من هذه الأفكار؟ (24).

فيما أجاب مستخدم آخر واصفا نفسه بأنه أخ مسلم من مصر: إن الديمقراطية في هولندا أقرت زواج المثليين جنسيا، وتعاطى المخدرات الخفيفة مثل الحشيش، كما أقرت كندا كذلك زواج مثليي الجنس وأقرت أمريكا الحرب على أفغانستان والعراق. وبعد كل ذلك تأتي أنت وتحاول الدفاع عن الديمقراطية؟ ؟ آخر ، يدعى ابن عمر، أضاف إن الديمقراطية هي التي زرعت إسرائيل في أرضنا بدعوى الحقوق التاريخية لليهود. هل تعرف أن إسرائيل الديمقراطية الأكثر نجاحا في الشرق الأوسط طبقا لجماعات حقوق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإنسان؟. وإذا ما نظرنا إلى الديمقراطية الثانية الأكثر نجاحا والتي هى المغرب، أليست هى النظام الوحيد الذي قدم الكثير لإسرائيل وللثقافة الفرانكفونية وهو النظام الذي نشر الدعارة والمخدرات رغم معارضة الشعب المغربي.

وحسبما يشيرون كذلك سمحت الديمقراطية الأمريكية للمسيحيين الأصوليين بامتلاك قدر كبير من التأثير. ومن المثير للدهشة في هذا الخصوص أن معلقا ذهب إلى حد القول إن صعود اليمين المسيحي كان أحد أسباب تشجيع الإخوان المسلمين في مصر، على اعتبار أن هذه التجربة قد تمثل نموذجا لهم، وكذلك في ظل محدودية ثقتهم في مزايا السماح لهم بالعمل كحزب سياسي رسمي الأمر الذي ظل هدفا طويل الأمد للجماعة وفي ذلك يقول جميل مطر أنه في الولايات المتحدة حصل الأصوليون المسيحيون على أكبر مساحة من التأثير السياسي بعد أن تطوروا إلى حركة كانت تتطلب زخما واحتشاداً جماهيرياً على قاعدة الحملات المنظمة ضد أوضاع اجتماعية وأخلاقية معينة.

وعلى ذلك فإن هذه الحركات تمتعت بالقدرة على تحقيق معظم أهدافها دون الاعتماد الكامل على السلطات الحكومية، أو الدستور أو تقاليد الحزب السياسي. فهي بالتأكيد لم تحاول تشكيل حزب سياسي على أساس ديني كان يمكن أن يؤدي إلى هز أسس النظام الأمريكي. لقد زادت التطورات في الولايات المتحدة من ثقة الإسلاميين السياسيين في العالم العربي بإمكانية حصولهم على فرصة هائلة لتعزيز نفوذهم السياسي إذا تخلوا عن فكرة الحزب السياسي الديني. ولعل ذلك التفكير من قبل هؤلاء جاء باعتبار أنه قد يكون البديل الأفضل إنطلاقا من تراجع دور الحزب السياسي من ناحية، وباعتبار هذا السيناريو يمكن أن يقلل من المغامرة بالمواجهة مع السلطات لتحقيق هدف فقد قيمته والأهمية التي تم تعليقها على إنشاء الحزب السياسي لعقود (25).

لا أخلاقية الثقافة الأمريكية

لم تبد االديمقراطية الأمريكية بشكل تتسم معه بالتفاهة والعجز بالنسبة لبعض العرب أكثر مما بدت عليه خلال فضيحة مونيكا لوينسكي. ولم يكن افتقاد البعد الأخلاقي في ذاته هو الشئ الذي اهتم به الناس، ما اجتذب اهتمامهم عدم قدرة الرئيس على الحيلولة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

دون أن تتحول قضيته ،الخاصة بفضيحة متدربة البيت الأبيض، إلى قضية رأى عام قد تهدد رئاسته .. لقد بدا ذلك الأمر مدهشا، خاصة لانقلاب المدعي الخاص الذي عينه كلينتون للعمل في الوظيفة المستقلة ضده فيما بعد. كما بدا مثيرا للدهشة على المستوى العربي كذلك سعى وسائل الإعلام والثقافة السياسية الأمريكية إلى ما يمكن اعتباره توبيخا للذات أمام العالم من خلال الاستغراق في تناول قضية كان يجب أن تبقى في الإطار الخاص. وإذا كان من الصحيح أن جماعات الإسلام السياسي فقط هى التي تنظر إلى المجتمع الأمريكي على أنه يفتقد الأخلاق ، فإن القوميين الذين ينتابهم الشعور بعدم الرضا تجاه الولايات المتحدة نظرا لدورها في إنقسام العرب، ودعم إسرائيل رأوا كذلك في الفضيحة فرصة لتعزيز وجهة نظرهم وراحوا يؤكدون على المكانة العالية التي تمثلها الأخلاق في الثقافة العربية.

وبينما اعتبر الكثير من الليبراليين الأمريكيين القضية مؤامرة من الجناح اليميني فإن العديد من المعلقين العرب رأوا فيها مؤامرة من قبل إسرائيل لإسقاط كلينتون إزاء مساندته لعملية أوسلو للسلام والتي كان من المنتظر أن تؤدي إلى قيام دولة فلسطينية يقودها ياسر عرفات، وهو التصور الذي نجم عن كون لوينسكي يهودية ، فيما أبدى آخرون تعجبهم من حق المرأة في الولايات المتحدة في أن تعمل، وفكرة أن كلينتون هو الذي يجب لومه وانتقاده وليس لوينسكي نفسها، وهنا فإنه من الملاحظ على صعيد رد الفعل العربي أنه لم يكن هناك الكثير من الحماس مع الفتاة. ويعبر هذا التعليق من صحيفة بحرينية عن ذلك في فقرة واحدة، حيث يتساءل : أي نوع من الفتيات مونيكا لوينسكي تلك؟ لقد دخلت البيت الأبيض كمتدربة غير معروفة وبين ليلة وضحاها تحولت إلى فتاة تجري خلفها شبكات التليفزيون من أجل الحصول على معلومات داخلية... هل هى عاهرة تبحث عن الشهرة بعد أن فشلت في أن تجدها في البيت الأبيض؟ هل هي طعم من قبل السي أي أيه لتدمير صورة الرئيس الذي تجاوز الخطوط الحمراء؟ هل هي عنصر من استخبارات أجنبية أخرى ربما تكون إسرائيل، تم تجنيدها من أجل هز البيت الأبيض لأن شاغله قال لا بشأن بعض الأشياء التي طلبت منه؟ من الصعب تخيل كيف سينجو الرئيس من مزاعم هذه الفتاة الطائشة؟ لا أحد يعرف ما حصلت عليه مقابل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

دورها القبيح في هذه المسرحية المعدة جيدا؟(26). كما تم تقديم مسرحيات عربية حول القضية – اثنتين في الواقع –إحداها "أنا ومراتي ومونيكا" والتي طافت العالم العربي، وحققت نجاحا كبيرا قبل حرب العراق مباشرة ، حيث أدت عقوبات الأمم المتحدة والحصار الدولي إلى الإجهاز على كل شئ باستثناء الحياة الثقافية.

على النحو ذاته يتم تصوير إسرائيل في الصحافة العربية على أنها نموذج للنمط الأخلاقي الأمريكي على صعيد اتباعها الصخب الغربي المتمثل في الإصرار على التدخل فيما يدخل في نطاق الحياة الخاصة. ويمثل الشذوذ الجنسي الهدف المفضل في هذا الخصوص. وفي ذلك أشارت صحيفة تابلويد مصرية إلى أن الشواذ جنسيا من اللواطيين والسحاقيات يوجدون في كل مكان. وقد تم الكشف عن قيام نحو عشرة آلاف إسرائيلي من الجنسين يمارسون هذا الانحراف خلال حفل أقيم في تل أبيب. وقد كشفت إسرائيل عن وجهها الفاحش اجتماعيا خلال هذا الاحتفال المشين. فالشباب من الذكور كانوا حريصين على تبادل القبلات والانغماس في أوضاع تعبر عن الفحش والتقاط صور تذكارية تعبر عن تلك الحالة. وهناك إحصائية تكشف عن أن نحو 25 % من السكان في الدولة العبرية يمارسون الشذوذ (27). وقد كانت المغنية الإسرائيلية دانا انترناشيونال الشاذة جنسيا تتمتع بشعبية محدودة في مصر خلال منتصف التسعينات إلى حد أنها قامت بزيارة سرية للقاهرة. كما نشر صحفي مصري كتابا بشأن هذه القضية ذهب فيه إلى القول أن المغنية التي شاركت في مسابقة نظمتها "اليوروفيجن" عام 1998، أرسلت إلى مصر من قبل الموساد لتطلق آهاتها الجنسية وكلماتها المثيرة من مدينة الألف مئذنة (28).

وتصور إسرائيل في وسائل الإعلام باعتبارها دولة منحلة ومصطنعة، على العكس من الصورة العربية عن الذات بشأن الإلتزام الأخلاقي والغنى التاريخي والتراثي. كما ينظر إلى الولايات المتحدة على أنها تفتقد العمق الثقافي على شاكلة إسرائيل. وقد ذهب الدبلوماسي المصري مصطفى الفقي في نقاش يعكس قدرا من الجدية في هذا الصدد ، إلى أن أمريكا تمثل انعكاسا تاما للتاريخ والأساطير الدينية الإسرائيلية القديمة مضيفاً أن القرارات تنطلق في الولايات المتحدة من منطلق إدراك القوة والثراء البالغين اللذين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تتمتع بهما الأمة، فضلا عن تقدمها على ما عداها، غير أنها تفتقد إلى استنادها إلى تاريخ أو تراث ثقافي عميق ، ولهذا فقد وجدت في إسرائيل النموذج حيث يتوحد التاريخ والسياسات في الدين. إن مساندة أمريكا لإسرائيل قامت على موقف مقدس وتجاوزت الرابطة السياسية لتعكس رابطة أكثر عاطفية. وقد تم تطوير فرضية الطبيعة المنحلة والفارغة للمجتمع الأمريكي على يد الإسلاميين بشكل خاص مقتبسين ما ذهب إليه سيد قطب في كتاباته، فأمريكا بالنسبة لهم هي القوة التي تقود عملية تقويض المجتمع الإيماني الذي كان عليه الغرب في وقت ما، حتى لو كان هذا الإيمان يتمحور حول المسيحية.

"الحداثة ، أو " ما بعد الحداثة" لا فرق، كلمة مرفوضة من قبل العديد من المتشددين على صعيد الالتزام الديني (فرضت وسائل ، الإعلام السعودية حظرا على استخدام كلمة حداثة خلال عقد الثمانينيات). وقد أشار مترجم سابق عمل في معتقل جوانتامو الأمريكي في كوبا ، حيث تحتجز الولايات المتحدة عناصر القاعدة بدون أي سند من النظام القضائي الأمريكي أو حتى معاملتهم إنطلاقا من مواد ميثاق جنيف لمعاملة الأسرى ، في كتاب له بعنوان "داخل السلك" كيف أن المحققات الأمريكيات حاولن اللجوء إلى الجنس من أجل الحصول على اعترافات من المعتقلين (30). ففي إحدى الوقائع مسحت محققة ما يبدو أنه دم دورة شهرية على وجه معتقل سعودي قائلة : هل هذا يرضي ربك. هل هذا يرضي الله؟ وتركته حينئذ مع كلمات معبرة فاصلة : استمتع بمحاولة الصلاة الليلة بدون ماء في جسدك؟ إن التفكير الذي يقف خلف هذا السلوك – يقول المؤلف إيريك سعار Eric Saar– كسر إرادة المعتقل بإنكار قدرته على استمداد القوة من خلال علاقته المباشرة مع الله من خلال الصلوات والتضرع إليه. وفي النهاية فإن مثل هذا السلوك لن يؤثر في إنسان مسلم ملتزم في ضوء كونه يثبت له ببساطة ما يعرفه سلفا وهو أن أمريكا مجتمع يفتقد إلى الإيمان وغارق في الضلال.

الرؤية ذاتها نراها على صعيد آخر ولكن في عمل أدبي هذه المرة ففي رواية صنع الله إبراهيم التي صدرت عام 2004 "أمريكانلي" يبدو على وجه بطل الرواية وهو أستاذ مصري زائر يدرس التاريخ في جامعة أمريكية الامتعاض لدى إبداء إحدى طالباته

www.ibtesama.com/vb Exclusive

رغبتها في المقارنة بين القاهرة وسان فرانسيسكو حيث يشيح بيده في إستهانة قائلا: هذه مقارنة تصلح للصحف، فتاريخ المدينتين مختلف، وطبعا الإختلاف يمكن أن يكون هو نفسه موضوعك لكن لا بد أن يقول شيئا. ماذا لديك؟ مدينة عريقة عمرها أكثر من ألف سنة قامت على أنقاض حضارة قديمة عمرها عدة آلاف آخرى ومدينة حديثة لا يزيد عمرها عن قرنين (31). وفيما بعد فإن بطل رواية إبراهيم يؤخذ في جولة خارجية من خلال صديق أمريكي إلى إحدى المناطق البائسة في سان فرانسيسكو حيث يتابعان كل أنواع وأشكال الانحراف الاجتماعي.

وحسبما كتب صنع الله:" قادني في شوارع امتلأت بالحانات الرخيصة وصالونات المساج والبقالين الفيتناميين وحوانيت الأشياء المستعملة والتالفة والشبان الذين ثقبوا آذانهم وشفاههم وحواجبهم بمختلف أنواع الحلقان، والنائمين داخل معاطفهم فوق الأرصفة. وهاجمتني رائحة بول القطط من مدخل أحد البيوت مختلطة برائحة الكاري وصوت أوبرا قديمة من مدخل البيت التالي وكدت أتعثر في كيس نوم ملفوف مستند إلى الحائط أسفل ملصق الطفل الذي يلتهم "البرجر" بشراهة.. ولاحظت أن كل الحوانيت محاطة بقضبان حديدية متينة"(32). إن الأستاذ الذي يدرس التاريخ مر مرور الكرام على كل ما رآه. ومع سخرية سوداوية تتواصل في النص يقدم إبراهيم يقدم نوعا من التقابل بين الواقع الذي عليه المدينة والصور النمطية التي يعرف أنها موجودة في أمريكا بشأن الهوس الجنسي العربي ومعاداة السامية. ويترك الأستاذ تلاميذه حائرين بين الكلمات فيما ينسج حكايات بشأن تجاربه الجنسية وسط تأملات فكرية في التاريخ المصري والعربي والأمريكي.

العالم العربي والمسلمون الأمريكيون

شهدت مدينة نيويورك في 18 مارس 2005 حدثا مفصليا في تاريخ الإسلام الحديث، فلأول مرة تؤم سيدة المصلين خلال شعائر صلاة الجمعة ويمثل من تؤمهم خليطا من الجنسين، ذلك أن المتعارف عليه تقليديا أن الرجل يؤم الصلاة وأن الرجال والنساء يتخذون مواقع منفصلة من المسجد أو يتم فصلهم بحواجز تجنبا لأي احتكاكات يمكن ان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ينتج عنها أي نوع من الاستثارة الجنسية، خلال لحظات التواصل مع الله. ولهذا السبب أيضا فإن المرأة ترتدي الحجاب خلال أداء الصلوات اليومية، وهو ما يفسر أسباب تغطية المرأة في أديان أخرى شعورهن. لقد أثار هذا الحدث البارز قدرا كبيرا من الجدل فيما بين المسلمين في الولايات المتحدة وعلماء الدين المسلمين في الشرق الأوسط، وهو ما أثار مناقشة رئيسية تتركز على الجيل المقبل بين الإسلام التقدمي في الولايات المتحدة والذي يقوده بشكل أساسي السود، والأمريكيون من غير العرب، وبين الإسلام الذي يمثله التيار العريض من المسلمين والذي يعبر عنه العلماء العرب في العالم العربي والمجتمعات العربية المهاجرة في الولايات المتحدة. لقد تم البث الحي للصلاة المشار إليها عبر الإنترنت. وذكر المنظمون أن الحدث بمثابة "استعادة المرأة لمكانتها الحقيقية في الإسلام" وأنه "يؤسس لمجتمعات مسلمة تقوم على تحقيق المساواة الطبيعية في الإسلام"(33).

وقد أشار المعارضون للصلاة، والتي كانت تؤمها سيدة تدعى أمينه ودود وهى أمريكية تنحدر من أصول هندية، إلى أنها لا تستند إلى نص مستمد من الشريعة الإسلامية، وأنه إذا ما تم تجاوز الشريعة وضوابطها التي تتحدد بشكل أساسي وفق ما يدعو إليه القرآن باعتباره كلمة الله الموحى بها والسنة التي تمثل الأحاديث المروية عن النبي صلي الله عليه وسلم ، فإن الممارسات التي يتم أداؤها لا يصح أن توصف بأنها إسلامية. إن إستباط المبادئ والقواعد من هذا التشريع القديم والممارسات السلوكية التي تم الاتفاق عليها يسمى في اللغة العربية اجتهاداً.

وقد كتبت هنا عزام، وهى مسلمة متحمسة وأستاذة للشريعة الإسلامية في جامعة تكساس إن القاعدة التي تقرر أن النساء يمكن أن تؤم الرجال في صلاة الجمعة تنتهك العديد من النصوص الأساسية ومبادئ التفسير التي درجنا عليها، والمنادون بها لا يستندون إلى رؤية متكاملة يمكن على أساسها التخلي عن هذا التشريع، فضلا عن أنهم لا يقدمون أخرى ذات أساس أفضل لتحل محلها. والانطباع الذي يمكن أن يخرج به المرء أنه لا يوجد أسس دينية متماسكة، في الواقع، للقاعدة التي تجرى محاولة العمل بها، المتمثلة في السماح للمرأة بأن تؤم الرجال في صلاة الجمعة مع اختلاط بين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجنسين خلال شعائر الصلاة يمكن الاستناد إليها في تفسير النصوص على هذا النحو. إن الله يعلم أنني أتمنى أن يكون في مقدور النساء أن تؤم صلاة الجمعة، غير أن التفكير الذي يعبر عن أمنيات لا يقوم على أسس منهجية (34).

وفي رد على هذا الطرح راح علماء أمريكيون يشيرون إلى أنه انطلاقا من هذا التفكير يمكن للمرء أن يعيد العبودية في ضوء ورودها في القرآن. فيما ذهب كاتب آخر هو حسين إيبيش، نائب الاتحاد التقدمي للمسلمين، أن هذا الاتجاه الذي يعكس نوعا من الخضوع للتشريع الإسلامي يمثل قدرا من العجرفة تمارسه النخبة الأكاديمية في محاولة للجم اختيارات الشعوب الأخرى – اللغة والتفكير الذي يميز الأمريكيين القائم على رفض التقاليد الإسلامية المهيمنة في العالم العربي بكل ما في الكلمة من معنى ، حسبما يقدمها ويدعو إلى التمسك بها معظم ممثلي علماء السنة مثل الدكتور يوسف القرضاوي. وفي الحقيقة فإن القرضاوي يعد رمزا يزدريه إيبيش ويعتبره عنصرا مناقضا لكل ما يريده المسلمون التقدميون في أمريكا. وحسبما يقول:" وإذا ما كان ذلك هو ما تعرضه هنا عزام ، فإننا نستطيع أن نعود مباشرة إلى القرضاوي، ونستغني عنها تماما"(35).

كان رد الفعل في العالم العربي على إمامة ودود للصلاة نفسها غاضباً . وحسبما ساد في المناقشات العامة العديدة التي جرت على خلفية هذه القضية فإن مثل هذه العملية الشنعاء لم تكن لتركتب سوى في أمريكا وحدها. وقد وصفت صحيفة المساء المصرية الحكومية ودودة بأنها امرأة مختلة عقليا. وكتبت في صفحتها الأولى بالخط العريض ما اعتبرته تلويث الإسلام في أمريكا (36). وفي السعودية أكد مفتي المملكة الشيخ عبد العزيز آل شيخ للمصلين إن المدافعين عن هذه القضية يتنهكون شريعة الله وأن أعداء الإسلام يستخدمون قضايا المرأة من أجل إفساد المجتمع . أما جريدة الأسبوع المصرية المستقلة فقد ذهبت إلى أن المؤامرة الأمريكية لأمركة الخطاب الديني الإسلامي تتم عبر تحويل المساجد إلى مراكز اجتماعية تمارس فيها مختلف أنواع الأنشطة، والسماح للمصلين بخوض حوار مع الإمام ضمن أداء الفريضة يوم الجمعة بما يسمح لكل الآراء بأن تطرح نفسها ولأمريكا بأن تكون اللاعب المركزي في تطوير تعليم الأزهر من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خلال تنظيم دورات تدريبية للدعاة في واشنطن لتعليمهم أصول الدين.. إن هذا جزء من مؤامرة لتدمير الإسلام وانتزاعه من قلوب المسلمين (37).

ومن المتعارف عليه أن إمامة المرأة للمصلين التي تتضمن السجود والانحناء يمكن أن يؤدي إلى تشتيت انتباه المصلين من الرجال. ورغم ذلك فقد كانت هناك ردود فعل أخرى مختلفة تتسم بالتفهم ، حيث تم دعوة ودود للحديث عبر قناة الجزيرة. وقد كان الشئ المؤثر في الواقع هو تلك الحالة التى وجد فيها العالم العربي نفسه مضطرا إلى الخوض بشكل غير مسبوق في جدل بفعل قضية أثارها مسلمون يعيشون في الغرب. كما تمت استضافة إسراء نعماني وهى أمريكية مسلمة تنحدر من أصول باكستانية وصديقة ودودة التي نظمت جلسات صلاة النساء من خلال منظمتها لتحرير المرأة ،على قناة الجزيرة كذلك، على الرغم من أن المقدم في أحد البرنامجين علق على ما اعتبره غلافا مثيرا لإحدى الطبعات الإنجليزية لكتابها "الوقوف بمفردنا في مكة" (38). وكانت نعماني الصحفية السابقة في وول ستريت جورنال ذكرت أن المساجد في أمريكا الشمالية يهيمن عليها الإسلام الذي يسيطر عليه الطابع الوهابي السعودي.

وعرض الخصوم من العالم العربي والغرب حلولا وسطا يمكن للنساء بمقتضاها أن تؤم نساء أخريات في الصلاة ،وأن يكون لهن مساجدهن الخاصة، الأمر الذي أيده القرضاوي نفسه. إن التراث الإسلامي يشير إلى أن السيدة عائشة زوج النبي صلي الله عليه وسلم كانت تؤم النساء خلال الصلاة في بعض الحالات ، وتم التوسع في ذلك الأمر إلى الحد الذي أصبح معه جائزا. كما يوجد أيضا حديث تنصح فيه امرأة بأن تؤم صلاة الجماعة في بيتها ومن بينهم رجل، نظرا لكونها الأكثر معرفة ودراية بالقرآن. (من سنن أبو داوود). ويوجد لدى بريطانيا بالفعل مثل هذا الوضع .. المرأة التي تقوم بالإمامة وهى سلمى قريشي.

وكان الجدل بشأن إمامة المرأة المواجهة الرئيسية الأولى التي تواجه العالم العربي ضمن التوجهات الجديدة التي يمثلها الإسلام الأمريكاني، حيث كان لدى أمريكا على مدى القرن الماضي تاريخها الخاص فيما يتعلق بالإسلام من خلال السود وحركات الأفارقة الأمريكيين مثل كنيسة تيموثي دروي أو المورمون الأرثوذكس أو نوبل دروي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

علي (1886 - 1929) وأمة الإسلام التي وجدت من قبل والاس فرد محمد Wallace Fard في عام 1930.

وانطلاقا من الأوضاع التي كانت تعيشها من حيث الاضطهاد والإبعاد الذي كان يعيشه الأمريكيون السود في أمريكا فإن هذه الحركات سنت معتقدات تعتبر نوعاً من الهرطقة في نظر القطاع العريض من المسلمين. لقد ادعى علمه بما زعم أنه القرآن المفقود ويؤمن من ينتسب لـ "أمة الإسلام" بأن مؤسسها يعد الأخير في سلسلة مبعوثي الله إلى الأرض. ويتمثل مصدر الاهتمام الرئيسي لهذه الجماعات في تعزيز وضع السود عبر نموذج – غير أبيض - إسلامي. وقد وجد الإسلام الأسود نفسه مهمشا عندما تم فتح باب الهجرة بشكل كبير في عقد الستينيات من القرن الماضي إثر نمو المجتمعات المهاجرة المسلمة التي جلب أفرادها معهم قيمهم وبناهم الاجتماعية الإسلامية. إن المجتمعات المهاجرة تميل إلى معاملة المسلمين الداخليين باعتبارهم جزءا من الثقافة الغربية المنحلة ، فيما ينظر الأمريكيون المسلمون في المقابل باحتقار إلى المجتمعات المهاجرة.

ولدى الأمريكيين السود المسلمين ممارساتهم ومبادئهم الأكثر ليبرالية حتى إن البعض ذهب إلى أنه جرى تحريف القرآن من أجل تبرير النصوص التي تقر ممارسات مثل العبودية وضرب الزوجة خلال زمن النبي. وتهدد هذه التفسيرات ، حسبما يرى لوري سيلفز الأستاذ المساعد لدراسة الأديان في كلية سكيدمور، التيار الإسلامي العريض في أمريكا في ضوء أنها تتلاقى مع الانتقادات الحادة الداخلية من قبل الثقافة البيضاء للإسلام ، وتقوض المزاعم الخاصة بأرثوذكسية الإسلام (39).

لقد كانت أول إطلالة للعالم العربي على الإسلام الذي يمثله الأمريكيون السود في تسعينيات القرن الماضي، عندما أطلق لويس فاراخان مسيرته المليونية عام 1995، وهى الحملة التي استهدفت تشجيع الأفارقة الأمريكيين على توصيل صوتهم إلى القائمين على صنع السياسات والمجتمع الأمريكي، ومن ذلك على سبيل المثال، التسجيل للتصويت والعمل على تغيير صورة الرجال السود عبر المزيد من الاهتمام بالمرأة والأسرة. وقد قام فاراخان فيما بعد بجولة حول العالم شملت السودان وليبيا ومصر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

والأردن والعراق والأراضي الفلسطينية معلنا عن موقف عام من قضايا تتراوح من حقوق السكان الأصليين في استراليا إلى ليبيا والعراق في ظل العقوبات الأمريكية، إلى الحلم السوداني في أن يصبح قوة إسلامية في أفريقيا. وتمثل موقفه الأساسي في الهجوم بنبرة انتقادية عالية على السياسة الخارجية الأمريكية واستعباد غير الغربيين والشعوب غير البيضاء.

ويوجد على ما يبدو نقطة التقاء بين هذه الرؤى المختلفة للإسلام، لجهة صعود اتجاه تقدمي جديد في الولايات المتحدة، غالبا ما يقوده المسلمون الشباب الذين ينحدرون إما من أصول عربية أو أفريقية أمريكية. ففي 2004 انطلق موقع الكتروني على شبكة الإنترنت من الولايات المتحدة بعنوان : ""muslim wake up"" يستهدف تشجيع تقديم نظرة جديدة للإسلام يمثل، حسبما ذكر مؤسسوه، الأغلبية الصامتة بين سبعة ملايين أو ما يقرب من ذلك من مسلمي أمريكا الشمالية. وفي دعوة من أجل تحسين العلاقات الإسلامية اليهودية، شجع الموقع قراءه على اعتناق اليهودية، ونشر مقالات بشأن قضية اضطهاد المسلمين الأفارقة في منطقة دارفور السودانية، ويدعو إلى تعزيز وضع النساء المسلمات، وراح يهجو التفكير التقليدي ورجال الدين الذين يمثلون هذا النوع من التفكير. وتتمثل رسالة الموقع في تشجيع تفسير للإسلام يقوم على الإحتفاء بوحدة الله ووحدة الإنسان الذي خلقه الله، عبر تشجيع الإنسان على الإبداع والتبادل الحر للأفكار، في مناخ ملئ بالتعاطف وخال من التخويف، الأوتوقراطية والدوجمائية. وفي كل أنشطته فإن "muslim wake up" يحاول أن يعكس الإيمان القوي بالعدالة في مواجهة كل أشكال القمع والتعصب والجنسية، والعنصرية (40).

ومع افتقاد الإشارة إلى الإيمان بالله ، ربما لم يستطع جيل الستينيات، تقديم الأمر بشكل أفضل. وفي استطلاع أجرى على شبكة الإنترنت في أكتوبر 2005 طلب من القراء أن يدلوا بأصواتهم حولَ ما إذا كان معظم الزعماء الدينيين المسلمين فاسدون ولا يشعرون بالمسؤولية وجهلة أو أنهم جميعا غير ذلك ، فقد أختار أكثر من 58% إجابة "أنهم غير ذلك". وتوجد منتديات الكترونية أخرى بارزة للأمريكيين المسلمين منها "الت مسلم" www.altmuslim.com ويركز بشكل كبير على المشاكل السياسية التي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تواجه المسلمين الأمريكيين بعد أحداث سبتمبر 2001 ، فيما أن موقع ((www.theamericanmuslim.org "المسلم الأمريكي". يعتبر أكاديميا بعض الشئ. بينما يواجه المسلمون في العالم العربي الذين يحاولون تقديم فكرا مشابها، المشاكل واحتمال تقديمهم للمحاكمة وتعرضهم للسجن وحظر الكتب والاستبعاد والموت.

محاولات فهم أمريكا

منذ 11 سبتمبر والانتفاضة الفلسطينية عام 2000، أصبح "فهم أمريكا" موضوعا رئيسيا للنقاش العام في العالم العربي. وقد دعا المحللون ذوو الخبرة بالشؤون الأمريكية العرب دوما إلى العمل من أجل فهم أفضل لطبيعة السياسات والمجتمع الأمريكي. وفي هذا الصدد كان هناك جهد ملحوظ لربط عرب الشرق الأوسط بنظرائهم الذين يعيشون في الولايات المتحدة عبر برامج مثل " من واشنطن" الذي تبثه قناة الجزيرة وبرنامج قناة العربية "عبر المحيط". كما دعت وسائل الإعلام باستمرار العالم العربي والحكومات العربية إلى تكثيف الجهد من أجل التعريف بالقضايا العربية على مستوى الرأي العام الأمريكي. وفي هذا الإطار أعدت الجامعة العربية خطة عام 2001 تقضي بإنفاق نحو مليون دولار على إعلانات مطبوعة في الصحف العالمية الرئيسية.

بدت الخطة وكأنها نوع من المداهنة للرأي العام أكثر منه مشروعا حقيقيا، حيث تحول إلى فكرة تمويل زيارات للعواصم الغربية الرئيسية والمدن الأمريكية من قبل الفلسطينيين العاديين – أطباء، طلبة، ومتعطلين عن العمل، ووعاظ – ممن جرحوا خلال الانتفاضة. كان من المقرر أن يكون ذلك جزءا من حملة قيمتها 25 مليون دولار تستغرق نحو العامين بالتعاون مع المجموعات العربية الأمريكية في الولايات المتحدة، على أن ترأسها الناشطة السياسية الفلسطينية المقربة من الإعلام حنان عشراوي, والتي كان تم تعيينها في منصب جديد أطلق عليه الممثل الإعلامي للجامعة العربية. كانت الآمال كبيرة في ذلك الوقت بأن تكون تلك بداية لاتجاه جديد لتعزيز الاهتمام بالقضية الفلسطينية في الغرب، غير أن عشرواي بقيت في رام الله، فيما تعثر الجانب التمويلي والتنظيمي الذي من المفترض أن يجعل هذا التحرك موضع التطبيق، وعزز ذلك أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاهتمام السياسي العربي تركز بعد ذلك على الأزمة العراقية والمحاولات العربية العقيمة لمنع الحرب.

ربما كان أكثر التحركات الفردية على المستوى الدعائي فعالية ، وإن تمت بعد فوات الآوان ،تلك التي قام بها الأمير عبد الله عاهل السعودية فيما بعد عام خلال لقاء جمعه مع الرئيس بوش في مزرعته في تكساس أبريل 2002 حيث عرض له خلاله صور فلسطينيين تم اغتيالهم أو تشويه أجسادهم، من قبل الجيش الإسرائيلي والتدمير الذي لحق بمنازلهم ومدنهم. وحسبما صرح الأمير عبد الله فيما بعد بأنه شعر أنه كان من واجبه قضاء أطول وقت ممكن من أجل أن يلخص له الحقائق مباشرة ودون أي وساطة . وقد أشار الملك عبد الله كذلك إلى أنه لمس تأثر بوش بشكل كبير بما رآه (41). وكان مما قاله عن بوش إن له صفات وخصائص نبيلة، وهو أمين وشجاع ويتمتع بعاطفة جياشة. إن هذه كلها أنباء جيدة للفلسطينيين. إنه يستمع ويناقش الأمور بلباقة، ولكنه لم يكن على إطلاع كامل بشأن الأوضاع الحقيقية في المنطقة، خاصة الأوضاع التي يعاني من جرائها الشعب الفلسطيني (42).

ومع ما قد تتسم به من شجاعة وابتكار على شاكلة الجهود التي يجب أن تبذل، فإنها تبدو ضعيفة بالمقارنة مع الضغوط التي لا تتوقف التي يبذلها المناصرون لإسرائيل في واشنطن. وقد أقر فريد زكريا بذلك في لقاء جمعه مع حضور عرب عام 2004: "إن اللوبي الصهيوني بالغ القوة فضلا عن أنه منظم بشكل جيد ويعرف كيف يكون مؤثرا، وأن يستفيد على مستوى مجتمع في مواجهة مجتمع أكثر منه دولة في مواجهة دولة. إذا ما أردت أن تقارن بين أسلوبين في التعامل بشأن هذا الأمر.. أنظر كيف يدير السعوديون علاقتهم مع الولايات المتحدة، وكيف تقوم إسرائيل بذلك. إن السعوديين يعتقدون أنه طالما لديهم علاقات جيدة مع 25 شخصا في واشنطن، ويقدمون لهم الخمر والعشاء ويقومون بأشياء أخرى معينة، فإن الأمور ستكون على ما يرام. فيما أن الإسرائيليين يعتقدون أن ما يجب أن تقوم به هو روابط أكثر بين الرأي العام الأمريكي والإسرائيلي. إن الأمر يبدو بالغ الاختلاف"(43).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد انقلبت بعض الجهود الفردية من أجل تحسين الصورة العربية وتعزيز القضايا العربية إلى النقيض وجاءت بنتيجة عكسية. كان من بين هذه المحاولات ذلك التبرع الذي قدمه الأمير السعودي الوليد بن طلال بنحو عشرة مليارات دولار لأسر ضحايا هجمات سبتمبر. وقد رفض عمدة نيويورك ردولف جولياني تلك المبادرة على خلفية بيان الأمير الوليد الذي أصدره وربط فيه الهجمات بما دعاه بالانحياز لإسرائيل في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

وحسبما قال الأمير الوليد إن الحكومة الأمريكية يجب أن تعيد النظر في سياستها في الشرق الأوسط وتتبني موقفا أكثر توازنا تجاه القضية الفلسطينية. إن إخواننا الفلسطينيين ما زالوا يذبحون بأيدي الإسرائيليين فيما يدير العالم لهم خده . وقد رد جولياني بقوله إن هذه التصريحات ليست هي الخاطئة فقط، بل إنها جزء من المشكلة .. لا يوجد أي مبرر أخلاقي لهذا الهجوم. لا يوجد ما يبررها .. أحد مبررات حدوثها على ما اعتقد أنهم انخرطوا في مساواة أخلاقية تقوم على عدم فهم الاختلاف بين الديمقراطيات الليبرالية مثل الولايات المتحدة وإسرائيل والدول الإرهابية وأولئك الذين يتغاضون عن أنشطة الإرهابيين (44). وقد ساندت إدارة بوش موقف جولياني.

وقد أبدت وسائل الإعلام العربية سخطها بشأن الحادث والذي أكد بشكل حقيقي عدم أهمية القضية الفلسطينية وسلب الفلسطينيين ممتلكاتهم ومعاناتهم بالنسبة للأمريكيين، غير أنه لم يوجد من يقترح صيغة أكثر فعالية للتعاطي مع الولايات المتحدة. وحسبما ذكرت صحيفة الخليج الإماراتية إن سلوك رودولف جولياني غير المتوقع جاء كتحذير بشأن مستوى الكراهية الناجمة عن مجرد الحديث عن معاناة الفلسطينيين (45). وكما قال الوليد نفسه فيما بعد نحن لدينا قضية واضحة ويجب أن ننقل معركتنا الإعلامية إلى واشنطن، مركز الولايات المتحدة ومركز صناعة قرارها السياسي (46). وفي الأيام التي تلت الهجمات مباشرة ، كان الكثيرون في المنطقة يحبسون أنفاسهم ليروا ما اذا كان من الممكن أن تلقى بتأثيرها على تعكير إدارة بوش لجهة المزيد من الاهتمام بالفلسطينيين أكثر مما تصرف أنظارها عنهم. وبعد كل ذلك، وفي التفكير العربي، فإن تطرف إسلاميي القاعدة كان رد فعل ثقافة عالمية تشعر بالفخر جراء سلسلة منغصات

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تاريخية في مواجهة الغرب والولايات المتحدة يمثل في القلب منها الألم المادي والنفسي الناجم عن فقدان فلسطين.

وقد كان يمكن قراءة الهجمات في واشنطن كنتيجة للمساندة الكبيرة لإسرائيل وتجاهل المعاناة الفلسطينية، أو النظر إليها على أنها دليل على أن العنف الإسلامي بين الفلسطينيين يمثل مظهرا واحدا من مظاهر التهديد الأوسع الذي تمثله القاعدة، ونموذجا بشأن كيف يمكن التعامل معه. وفي ذلك قامت وسائل الإعلام الإسرائيلية بتشويه موقف عرفات بالتبرع بدمه أمام وسائل الإعلام العالمية والذي جاء كمحاولة للإشارة إلى التضامن مع الأمريكيين، حيث راحت تعتبره أمرا لا يتجاوز الخداع في محاولة إسرائيلية لإقناع واشنطن بأن الهجمات الفلسطينية بالقنابل الانتحارية تماثل في جانبها الأخلاقي الكريه اختطاف الطائرات خلال أحداث 11 سبتمبر.

وربما لم يكن هناك تصور بشأن وجهة النظر التي يمكن أن تسود في إطار فهم الأمور بعد وقوع الحدث. إن إسرائيل القوية المحمية من تهديد الوجود الفلسطيني كانت بمثابة عامل الاهتمام المركزي بالنسبة للمحافظين الجدد الذين بنوا صرحا أيديولوجيا تم على أساسه مشروع العراق، حيث كان الغزو والاحتلال يمثلان الرد الأعظم لإدارة بوش على 11 سبتمبر. وكان الإطار الذي تم تأسيسه فيما بعد الوصول إلى نهاية للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، الأمر الذي احتل مرتبة مهمة وبمقتضاه كانت فكرة إمكانية حصول الفلسطينيين على دولة إذا وضعوا حدا لعقيدة القنابل الانتحارية.

لقد حكم الحذر والبساطة المزمنة التي سيطرت بشكل أساسي على الاتجاهات العربية تجاه الولايات المتحدة ، الرغبة في محاولة الوصول إلى فهم أفضل لأمريكا. وكان السياسيون والمحللون يأملون أن تكون الإدارة الجمهورية التي خلفت إدارة كلينتون أكثر موالاة للعرب. وعلى هذه الخلفية ووقع هذه التصورات ساندت الحكومات العربية إلى حد ما تؤيدها في ذلك وسائل الإعلام العربية، عدم توصل القيادة الفلسطينية إلى اتفاق سلام مع الحكومة الإسرائيلية خلال فترة أوسلو رغم عدم وجود ما يفيد تبنى القيادة الفلسطينية وجهة النظر تلك. وقد انتهى الأمر بالعرب إلى إدارتين متشابهتين تعكسان الجناح اليميني على المستويين الأمريكي والإسرائيلي فكان تشكيل الإدارة الأمريكية عام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

2001 يعكس هيمنة الجناح اليميني الموالي للتفكير الإسرائيلي في السياسات الأمريكية والذي لم يكن يريد حلا يقوم على أساس حدود 1967 يلزم إسرائيل بالتخلي الكامل عن انتهاكاتها في الأراض المحتلة منذ عام 1967.

وقد أعلنت إسرائيل بشكل واضح أن ذلك يمكن أن يثير حرباً أهلية في إطار الدولة اليهودية. وحسبما كتب الكاتب ماهر عثمان في صحيفة "الحياة" العربية قبل نحو شهر من انتخاب أرئيل شارون صاحب الاتجاهات اليمينية فيما يتعلق بضرورة تعزيز حركة الاستيطان كرئيس للوزراء في فبراير 2001 أن القيادة الفلسطينية أحسنت جراء محاولتها الالتزام بالمبادئ المتعلقة بشعبها وأن تعطي نفسها فسحة من الوقت يمكن لها معها أن تأمل أن تجعل التطورات الجديدة في إسرائيل ومن يساندها يدركون أنه لا يمكن الوصول إلى حل لا يقوم على قرارات الأمم المتحدة (47). وقد كان يشير إلى جهود اللحظة الأخيرة للوصول إلى اتفاق برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون خلال أيامه الأخيرة في البيت الأبيض. وهى الجهود التي تضمنت إستراتيجية " خذها كلها أو اتركها كلها" الإستراتيجية التي كانت من وجهة نظر عربية بالغة الغموض والتسرع. وقد كتبت صحيفة الجمهورية المصرية الحكومية في ذلك الوقت قائلة تحية للعرب على هذا النصر الجديد. فقد رفضوا الاستسلام وأن يخضعوا لسباق الزمن وأظهروا شجاعة في مواجهة أمريكا و52 دولة كانت تريد فرض الأمر الواقع على الفلسطينيين بشكل يتناقض تماما مع مستقبلهم ومع خمسين عاما من النضال (48).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الفصل الثالث

القضية الفلسطينية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فلسطين والرؤى العربية لأمريكا

ترتبط وجهات النظر العربية تجاه الولايات المتحدة في المقام الأول بالسياسة الأمريكية تجاه النزاع العربي الإسرائيلي، والحدود التي تصل إليها مساندة الولايات المتحدة لإسرائيل، على حساب الفلسطينيين. لقد كان ينظر إلى الولايات المتحدة بشكل إيجابي في أعقاب حرب السويس عام 1956، حيث تدخلت لوضع نهاية للتدخل العسكري البريطاني الفرنسي الإسرائيلي من أجل انتزاع قناة السويس من السيطرة المصرية. غير أن التطور آنذاك كان يؤشر إلى استبدال بريطانيا وفرنسا كقوة أجنبية مسيطرة في المنطقة بالولايات المتحدة، كما لم يؤثر على مواقف هذه الأخيرة التي التزمت دوما بمساندة الجانب الإسرائيلي الأمر الذي أثبتته الحروب العربية الإسرائيلية عامي 1967 و 1973، وهي الحروب التي رغم أنها انتهت بسيطرة إسرائيل على الأراضي العربية التي لم تحتلها خلال معارك عامي 1947 و 1948، إلا أنها عززت صورة إسرائيل في نظر الغربيين باعتبارها دولة تتسم بالشجاعة ومحاصرة تقع وسط أجواء وبيئة معادية.

وكان ذلك يعكس إلى حد كبير الصورة عن إسرائيل في أوروبا أيضا. وتشير القراءة الدقيقة لتطورات مواقف الدول المختلفة في هذا المجال إلى أن الدولتين اللتين حرصتا على تقديم نفسيهما كأصدقاء للعرب لعبت دورا أساسيا في مساندة إسرائيل. فقد كانت روسيا الدولة الأولى التي تعترف بإسرائيل في الأمم المتحدة وكانت الكتلة الشيوعية المزود الأساسي بالسلاح للحركة الصهيونية. فيما تآمرت فرنسا لمساعدة إسرائيل على بناء قدرتها النووية. وكانت صورة العرب في الوسط الثقافي الغربي العام سلبية بشكل كبير فيما بعد حرب 1967 وازدادت سوءا إثر استخدام السعودية الحظر النفطي جراء اندلاع حرب 1973، عندما شنت مصر وسوريا هجوما مفاجئا على إسرائيل، في محاولة لاستعادة الأراضي التي احتلتها خلال حرب 1967. وقد كان ينظر إلى القضية في المنطقة على أنها حرب كل العرب، وليس فقط الأقطار المنغمسة في الحرب، وفي ذلك ذهب الكاتب البريطاني جوناثان رابان إلى " إن العرب شعوب آلية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يمكن السيطرة عليهم عن بعد .. فهم إما أن يعسكروا في خيام مع الجمال ويكونون مادة غنية للمصورين المغامرين، أو أن ينطلقوا كالحشد بشكل بهيمي مهددين سيادة دولة إسرائيل (1). إنهم الآن يملأون شوارع لندن ويشترون العقارات".

ومما ساعد على إيجاد نوع من الاختلاف والتنوع في الصورة، نمو حركة التحرير الفلسطينية، ممثلة في منظمة التحرير التي مثلت إطارا جامعا لمجموعة المنظمات الفلسطينية من ذوي التوجهات السياسية المختلفة، والتي وحدت جهودها عام 1964. وقد برز الفلسطينيون في أوروبا ومناطق من آسيا وأمريكا الوسطى والجنوبية، باعتبارهم شعباً متميزاً، له هويته الخاصة والقضية التي يناضل من أجلها، حيث كان تعزيز تنمية وتحرر العالم الثالث من الاستعمار يعكس أطروحات شعبية ونابضة بالحياة. فيما تحولت الصورة السيئة للعرب في أوروبا بشكل خاص إلى عرب الخليج. كما حصل الفلسطينيون رغم الحملة التي قاموا بها ممثلة في اختطاف الطائرات والتفجيرات التي نفذت من قبل بعض المجموعات الهامشية على قدر كبير من الاحترام والتقدير بين الكثيرين من ممثلي التيار اليساري في أوروبا.

غير أن شيئا مشابها لذلك لم يحدث في الولايات المتحدة، فمع تمتع الفلسطينيين بوضع لا بأس به في أوروبا، عززت أمريكا تحالفها مع إسرائيل بعد حرب 1967 وبدأ ينظر إلى إسرائيل من قبل العرب على أنها وكيل أمريكا في الشرق الأوسط تحافظ على نوع من توازن القوى الإقليمي وفق الرؤية الأمريكية وتعمل على تقويض الراديكالية العربية. وحسبما ذكر المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم : "على النقيض من الإدراك الذي ساد لدى الولايات المتحدة في الخمسينيات بشأن إسرائيل، فإنه ينظر إليها الآن على أنها وسيلة أساسية للحفاظ والسيطرة على الوضع الإقليمي، ما يجعلها بمثابة رصيد إستراتيجيي في الشرق الأوسط" (2).

ويقول شلايم إن وزارة الخارجية الأمريكية، بجيوشها من المستعربين تصورت خلال عقد الستينات ضرورة الدفع بإسرائيل إلى خوض غمار السلام على أساس قرار الأمم المتحدة 242، الوثيقة الأممية التي صدرت بعد حرب 1967 وأصبحت تمثل أساس المفاوضات السلمية في العقود التي تلت الحرب. إن النص يتحدث عن انسحاب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

إسرائيلي " من أراض احتلت في النزاع الأخير" والذي كان في نظر المستعربين بالخارجية، وكذلك بالنسبة للعرب، يعني كل الأراضي التي لم تكن في حوزة إسرائيل عشية حرب الأيام الستة. وقد أعدت الخارجية الأمريكية لاتخاذ خطوات مؤثرة لإجبار إسرائيل على قبول مثل هذا الطرح مثل التهديد بوقف الأسلحة لحملها على إعادة الأراضي المحتلة. ولكن مستشار الأمن القومي هنري كيسنجر مخطط السياسة الخارجية الأمريكية الحالية تجاه النزاع، تمكن خلال السبعينيات من التمكين لوجهة نظره بأن إسرائيل يجب أن تصل إلى تسوية من موضع القوة ، وأنها لا يجب على هذا الأساس أن تكون موضعا أو مجالا لضغط أمريكي.

ورغم استثناءات قليلة، التزمت الدبلوماسية الأمريكية بهذا المبدأ على مدار جيل كامل. فخلال محادثات كامب ديفيد في 1978 عمل الرئيس كارتر على الحصول على وعد من رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين بوقف بناء المستوطنات في الضفة الغربية، المشروع الذي دعمته حكومة الليكود بعد وصولها إلى السلطة عام 1977، كما هدد جيمس بيكر وزير الخارجية في رئاسة جورج بوش بوقف المساعدات المالية على خلفية قضية المستوطنات عام 1992. ولكن الرئيس جورج بوش الابن أعلن من جانب واحد في عام 2004 ، أن عودة إسرائيل إلى حدود عام 1967 أمر غير واقعي، مؤكدا كذلك عدم واقعية فكرة عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم التي يطلق عليها إسرائيل في الوقت الحالي. وشكلت هذه التعليقات الخطوط الواسعة للسياسة الأمريكية تجاه النزاع في مرحلة ما بعد الانتفاضة الثانية.

وعلى أساس أن إسرائيل أكبر متلق للمساعدات السنوية من الولايات المتحدة، يعتبر العالم العربي أن الولايات المتحدة تمول المستوطنات والاحتلال. فقد وصل الحجم الإجمالي للمساعدات العسكرية والاقتصادية منذ عام 1948 وحتى عام 2006 ما يزيد عن 99 مليار دولار، ووصلت أقصى ارتفاع لها عام 1979 بنحو 4.9 مليار دولار. ووصلت إلى رقم قريب من ذلك مرة ثانية عام 2000 حيث بلغت 4.1 مليار دولار، أى أن نحو ثلث ميزانية المساعدات الخارجية الأمريكية يوجه لإسرائيل، التى لا يتجاوز سكانها نسبة الواحد في المئة من سكان العالم (3).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومنذ عام 2000 زادت المساعدة العسكرية (2.28 ملياراً في عام 2006 و 1.86 ملياراً في عام 1999) فيما انخفضت المساعدة الاقتصادية (240 مليون دولار عام 2006، 1.08 ملياراً عام 1999). ولا تشمل هذه الأرقام اقتطاعات الضرائب التي يتم خصمها لصالح التبرعات التي تذهب إلى إسرائيل من أمريكا كل عام. فضلا عما تزود به إسرائيل من إمكانيات تعزز قدرتها على تصنيع السلاح.

وعلى ذلك يرى العالم العربي أن هناك نوعا من النفاق عندما تبدي الولايات المتحدة انزعاجها من اعتراض سفينة أسلحة، تقدر بنحو عشرة ملايين دولار، أعلنت إسرائيل أنها كانت مرسلة إلى السلطة الفلسطينية من إيران بمساعدة حزب الله (4). ويسود الزعم هنا بأن المساعدة المالية الأمريكية تمول الحائط الإسرائيلي المثير للجدل، أو الحاجز الأمني، الذي يجري إنشاؤه منذ عام 2002 ، حول مناطق فلسطينية في الضفة الغربية، في ضوء أنه يغوص في عمق الضفة الغربية بشكل لا يلتزم بحدود ما قبل حرب 1967، وهو ما ينظر إليه على أنه سلب للأراضي ، أو ما يمكن اعتباره نوعاً من التعيين الأحادي الجانب للحدود.

وقد أبدى فريق من الأمريكيين الإنجيليين المسيحيين قام برحلة إلى الضفة الغربية عام 2005 ، لتقصي الحقائق انزعاجه بما توصل إليه من أن هذا هو الانطباع العام فيما بين الفلسطينيين. وحسبما ذكرت ميشيل سبايك عضو اللجنة فإن :"ما لاحظه أعضاء فريق اللجنة هو وجود نوع من الإجماع يمتزج بقدر من الدهشة يتمثل في أن الحائط أو الحاجز الفاصل أو السياج، كما يطلق عليه بشكل متعدد، والذي يلتف حول المدن الفلسطينية ويقطع أوصال القرى والحقول، ممول بالكامل من قبل دافعي الضرائب الأمزيكيين"(5).

وقد حدث تحول في صورة الولايات المتحدة في عقول العرب فيما بين حرب السويس عام 1956 والانتفاضة الفلسطينية عام 2000، بشكل يرى أنها تقف حائلا أمام طموحاتهم بشأن الاستقلال الفلسطيني. إن العلاقة معقدة و يسودها نوعان من الشعور: الحكم على المدى الفعلي للمساندة الأمريكية لإسرائيل، على نحو يخالف الإدراكات العامة المختلفة بشأن هذه المساندة في العالم العربي، والحكم على المواقف الأمريكية في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ضوء التحولات التي انتابت النزاع نفسه منذ عام 1948. لقد كانت المصالح النفطية تحكم السياسة الأمريكية في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية بشكل أساسي. وكانت القضية الفلسطينية نفسها مثار قدر من الاهتمام فيما بين العرب والغرب، في ضوء بقاء الضفة الغربية والقدس في إطار السيطرة العربية (الأردن)، وكذلك في ضوء أن مشكلة اللاجئين رغم حيويتها، لم تأخذ أبعادا ذات أهمية نظرا لما ساد الغرب آنذاك من حماس لإسرائيل ، الدولة الوليدة وما تعكسه من حالة مثالية.

كما أن وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الحكومات في العالم العربي ركزت بشكل كبير على الفكرة المجردة بشأن إسرائيل أكثر من الحقيقة المتعلقة بطرد الفلسطينيين. ومع الاحتلال الإسرائيلي عام 1967 لبقية أراضي فلسطين التاريخية وميلاد الحركة الوطنية الفلسطينية، بدأت القضية في التبلور بشكل كبير، والاستحواذ على قدر من اهتمام العالم العربي والولايات المتحدة. وقد استغرق الأمر من الفلسطينيين تحت قيادة عرفات نحو العقدين لتوفير نوع من الإجماع حول فكرة حل الدولتين ، وفي ذلك ركز الفلسطينيون جهودهم على تحرير الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية والتوقف عن طرح فكرة دولة واحدة علمانية لليهود الذين قدموا إلى فلسطين وسكانها العرب الأصليين، وهى الرؤية التي تم تدعيمها في الأصل من قبل حركة التحرير الفلسطينية.

وحتى فيما بعد اتفاق أوسلو عام 1993، والذي تطرق بشكل خاص إلى الأراضي التي تقع تحت الاحتلال الإسرائيلي ، ألقت قضية اللاجئين بظلالها على صعيد المساندة الأمريكية للفلسطينيين في النزاع الناشئ في ضوء أنه حال إقرار حقوق اللاجئين في العودة ، فإن الموقف سينتهي إلى تقويض أساس الدولة العبرية لجهة الحد من السكان اليهود لصالح السكان العرب الذين سيزيد عددهم بحكم الواقع. ومع ذلك، فإن المشروع الاستيطاني الإسرائيلي في الضفة الغربية والقدس الشرقية في الواقع جعل حل دولة واحدة لشعبين الأكثر احتمالا من أي وقت مضى، حيث يرى الكثير من المثقفين على الجانبين الآن أنه الأمل الوحيد.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وحسبما تشير الإحصاءات الإسرائيلية فقد بلغ عدد المستوطنين في الضفة الغربية في يونيو 2005 نحو 246 ألفاً ، ولكن يجب أن يضاف 190 ألف إسرائيلي إلى هذا الرقم يعيشون الآن في القدس الشرقية والمناطق المجاورة لها، والملحقة بها والتي تعد جزءا من بلدية القدس (6). وتقول إسرائيل إنها تريد أن ترسم الحدود بما في ذلك الكتل الاستيطانية الكبرى والحدود الإقليمية مع الأردن بحلول 2010، وهنا فإن تواجد المستوطنين في الضفة الغربية لا يحقق الحق التوراتي المزعوم من قبل بعض الأجنحة اليمينية الدينية فقط ، ولكنه يوازن بين حقيقة وجود عرب يعادلون خمس السكان اليهود في إسرائيل.

وعلى صعيد تحديد أسس تشكيل الآراء في إطار المجتمعات العربية تجاه السياسة الأمريكية بشأن النزاع ، يمكن الإشارة إلى أنه توجد ثلاث قطاعات تقريبا لها إسهامها في هذا الخصوص وهى : الحكومات، المعارضة، والرأي العام، فبعد السلام المصري مع إسرائيل عام 1979، بدأت علاقات الحكومات العربية في المنطقة عامة مع واشنطن في التحسن. ولكن فيما بين جماعات المعارضة والجمهور ، كانت الأمور تسير في اتجاه آخر تماما. وكان من بين المحددات الأساسية في هذا التدهور التدخل الأمريكي في الحرب الأهلية اللبنانية بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 ، لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، والتي انتقلت للبنان بعد إخراجها من الأردن عام 1970. وقد قادت الولايات المتحدة قوة متعددة الجنسيات، شملت قوات من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا ، لمراقبة رحيل عناصر منظمة التحرير الفلسطينية واستعادة الاستقرار.

وفي عيون معظم العرب، المعارضين للميلشيات المسيحية التي كان الوجود الفلسطيني يمثل بالنسبة لها نهاية السيطرة المسيحية، فقد كان التطور يعكس جهدا أمريكيا لتعزيز انجازات الغزو الإسرائيلي وتسليم الدولة مرة ثانية للمسيحيين الموالين للغرب ، الذين أبدوا استعدادا للعيش في سلام والتحالف مع إسرائيل. بمعنى آخر، كان ينظر للولايات المتحدة على أنها انحازت إلى أطراف بعينها. وفي عام 1983 نظم حزب الله الشيعي عملية انتحارية على قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) في بيروت ، مما أدى إلى مقتل 241 من عناصرها وأكثر من خمسين جنديا فرنسيا. كان ذلك فجر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

عصر جديد للمقاومة الإسلامية بشكل مثل بداية العمليات العربية. وكانت القوات الأمريكية قبل هذه العملية التفجيرية قامت بقصف عنيف لقرى شيعية، ودرزية معادية لإسرائيل في الجبل.

وفي المنظور العربي كانت الولايات المتحدة متورطة بشكل غير مباشر في مذبحة الفلسطينيين في مخيمي صابرا وشاتيلا في ضواحي بيروت عام 1982. فقد أعطى وزير الدفاع الإسرائيلي أرئيل شارون لحلفائه من الميليشيات المسيحية الضوء الأخضر لدخول المخيمين لإحتثاث العناصر الفلسطينية المسلحة ، معتقدا حسبما ذكر فيما بعد، أنه حصل على تصريح أخضر من أمريكا للقيام بذلك. وكان المخيمان يفتقدان أي وسيلة للدفاع، كما أن القوات المسيحية كانت تقوم بعملية انتقام ، ردا على اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل الذي كان يحظى بمكانة كبيرة لدى أتباعه.

وقد أجبر شارون فيما على تقديم استقالته جراء هذه الفضيحة . وكان شارون مرة أخرى هو العقل المخطط للغزو الإسرائيلي للبنان كجزء من خطة كبرى لإجبار الحركة الثورية الفلسطينية على الخروج من لبنان والعودة إلى الأردن مع غالبيتها السكانية، حيث يمكن لهم الإطاحة بالأسرة الهاشمية الحاكمة وتأسيس دولة فلسطين. وقد أدت هذه التطورات الكارثية في لبنان إلى تحول شارون لشخصية تحظى بالكراهية الشديدة في العالم العربي بشكل أدي برسامي الكاريكاتير العرب إلى رسمه بقرون شيطان وذيل إثر عودته للحياة السياسية أواخر التسعينات.

أمريكا وإسرائيل: ثقافة التوأمة

لم تعد فكرة وجود علاقة خاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل أمراً يقتصر على الطبقات السياسية العربية ، إنما تعززت الفكرة في السنوات الأخيرة على مستوى الجماهير العربية بفعل ثورة المعلومات والاتصالات التي عززها انتشار الفضائيات العربية. لقد أدى ازدهار الإعلام العربي وانتشاره إلى الإلمام بحقيقة ما كان ينظر إليه في فترة من الفترات باعتباره مجالا للأسطورة ونظريات المؤامرة. وأصبحت كافة القضايا قابلة للتحقق منها، الأمر الذي تمكن معه الكثيرون من العرب من إدراك ما كان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في خلدهم على مدى فترة طويلة بشأن أبعاد العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل وخصوصيتها بالشكل الذي تبدو عليه، رغم أن الإلمام بأبعاد هذه القضية بالتحديد تضمن بعض الجوانب التي بدت غير سارة بالنسبة للعرب.

الآن فإن الجمهور العربي أصبح أكثر حذرا بشأن مدى طبيعة التفكير الأمريكي والسياسات الأمريكية، وقد أصبح أكثر اقتناعا بأن الثقافة السياسية الأمريكية متحمسة للإسرائيليين أكثر من الفلسطينيين. ورغم سخرية البعض من العرب بشأن إيغالهم في نظرية المؤامرة، فإن كتابا أمريكيين ذوي نفوذ وتأثير لا تنقصهم الشجاعة راحوا يشيرون إلى ما يرونه مساندة أمريكية لإسرائيل في مواجهة العرب، بشكل ينتقل بالأمر من مرتبة المؤامرة إلى الواقع. وفي ذلك يقول دانييل بايبس في كتابه «اليد الخفية» (7).: "حقيقة ، أنه بينما يبدي الجمهور الأمريكي تشككا بشأن المساعدات الخارجية من ناحية المبدأ، فإن المراجعة لنحو 40 سنة مضت تكشف عن أن إسرائيل نالت قدرا كبيرا من المساعدة الاقتصادية والعسكرية والتي تعكس المساندة القوية. إن أصحاب نظرية المؤامرة يتجهون إلى تجاهل هذه التفاصيل التي تبدو غير مرضية.

وأضاف: " إن إدراكات الشرق أوسطيين لموقع إسرائيل في العالم تشير إلى أن الشعوب المسلمة ، حتى بعد قرن من المشروع الصهيوني، لا تستطيع فهم علاقات الدولة اليهودية مع العالم الغربي. وكمسلمين، فقد فشلوا في فهم الترابط الكبير الذي يعكسه الكتاب المقدس والتراث اليهودي المسيحي.. وبما أنهم شرق أوسطيون، فإنهم لا يستطيعون النظر إلى وجود علاقات تتجاوز صدام القوميات وفهم وإدراك طبيعة المصالح المشتركة بين الدول. وكمواطنين في دول أوتوقراطية يفتقدون إدراك أهمية الروابط الشخصية والثقافية والسياسية بين الشعوب الحرة" (8).

ويعد بايبس الذي يساند إسرائيل بقوة ويكن كراهية شديدة للجماعات العربية والمسلمة في الولايات المتحدة، أحد الرموز المؤثرة من بين كوكبة من الخبراء يشكلون الرأي العام في الولايات المتحدة بشأن العالم العربي. وقد تم تعيينه بشكل مثير للجدل من قبل بوش عام 2003 مديرا للمؤسسة البحثية الاتحادية المعهد الأمريكي للسلام. إن إدراك حدود ودور الأمم الأخرى الأجنبية في صياغة مقدرات المنطقة أمر لا يتطلب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الكثير من الجهد أو العودة إلى التاريخ. وفي الواقع فإن معظم الأقطار العربية لديها منهج مدرسي تاريخي يقوم على تمجيد عمل أولئك الذي أطاحوا بالقوة الأجنبية ونصبوا أنفسهم كحكام شرعيين للأنظمة الحالية. وحسبما كتب الدبلوماسي المخضرم ويليام بولوك: عندما يهزأ الأجانب من جنون العظمة لدى الشرق أوسطيين، فإن العراقيين والإيرانيين وغيرهم يتكلمون عن التاريخ (9).

ويقدم العالم العربي العديد من الردود على الأطروجات التي تستخدم لتبرير الرابطة الوثيقة لأمريكا مع إسرائيل. فمن رؤية إسلامية من الصعب فهم هذا الشعور بالرباط التاريخي والتقاليد المشتركة بين المسيحية واليهودية ، في ضوء أن الإسلام ينحدر من نفس الجذر، المتعلق بالتوحيد على شاكلة سلفيه. وفي الواقع، فإنه من منطلق رؤية لاهوتية صرفة، فإن الإسلام واليهودية يعتبران الأقرب لبعضهما البعض أكثر من قرب أيهما إلى المسيحية. (وبشكل خاص في ضوء أولوية التشريعات الدينية).

ومع ذلك، فإنه على المستوى الثقافي، انصهر الأوروبيون المسيحيون وكذلك الأوروبيون اليهود في البوتقة ذاتها، ويستطيع كلاهما أن يدعي لنفسه دورا مركزيا في مسيرة العلوم الحديثة في الغرب وانتصار العلمانية. لقد سادت حالة من الاستنكار في العالم العربي عندما وصف كولين باول وزير الخارجية الأمريكي بلاده بأنها يهودية مسيحية في مقابلة متلفزة عام 2003. وهو ما يتوافق مع الرؤى التي تطرح على الملأ من أمثال بايبس. كما أكد الرأى الذي يذهب إلى أن الولايات المتحدة لاعب غير نزيه في جهودها للوساطة من أجل التوصل إلى إنهاء النزاع الإسرائيلي الفلسطيني (10).

لقد كان بعض المحللين العرب يأملون أن يكون للروابط الشخصية والسياسية القوية التي تربط الحكومة السعودية مع إدارة بوش التي وصلت السلطة في 2001 ، تأثير إيجابي على موقف هذه الإدارة تجاه النزاع مع إسرائيل. ورغم أن المحللين الأمريكيين أعربوا عن قلقهم في ذلك الوقت من أن الإدارة ذات الروابط النفطية القومية مع السعوديين ، يمكن أن تتحول لتأييد للعرب في تغيير لتوجه إدارة كلينتون، فإن الواقع لم يكشف فقط عن أن الولايات المتحدة متحيزة لإسرائيل وعن عمالة الحكام العرب، بل كشف عن أن الأنظمة العربية التي تشعر بالضعف بشكل كبير أمام القوة الأمريكية ربما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تفضل أن تبقى شعوبها مغيبة عن حقيقة شبكة علاقاتها السياسية المعقدة التي تربطهم مع واشنطن وإسرائيل.

فعندما تم ابتعاث الروائية المصرية أهداف سويف إلى الأراضي المحتلة من قبل «الجارديان» البريطانية لعدة شهور خلال الإنتفاضة الثانية، كانت هذه الرحلة، كما اعترفت سويف في مقالات كتبتها بعد العودة موجهة للقارئ البريطاني، بمثابة غوص في قلب النزاع الذي لم تكن تعرف عنه إلا القليل (11).

إن المناقشة الفكرية في وسائل الإعلام العربية لم تتوغل كثيرا في محاولة دحض الأفكار التي عرض لها بايبس بشأن أبعاد الحماس الأمريكي للصهيونية؟ على أحد المستويات، فإنهم يرون مباراة طويلة يتم أداؤها بمهارة وتنظيم من قبل إسرائيل وأنصارها على مدى عدة عقود، ماضية لترسيخ وجهات نظرهم في السياسات وأوساط الرأي العام الأمريكي. إذا كان برنارد لويس وضع السؤال على النحو التالي :أين أخطأوا؟ فإن العرب يسألون أنفسهم : ماذا فعلت الصهيونية من خطوات صحيحة؟ ولكن فيما يتجاوز هذا الجدل، فإنه يمكن للمرء، بشكل يثير تعجب المثقفين، أن يلمس وجود شئ ما فيما يتعلق بالصهيونية يعكس صدى للتجربة التاريخية الأمريكية ذاتها. وتتمثل الإجابة في أن الولايات المتحدة بدأت هي الأخرى حياتها كمجتمع مستوطنين مع مجموعة من الأهداف المثالية تتقدم الروح التي يقوم على أساسها الوطن الجديد. وكما وصف الكتاب المقدس القبائل اليهودية الفارة من الطغيان في مصر، متدفقين على أرضهم الموعودة، فإن إسرائيل الجديدة ، المستوطنون الذين تخلوا عن أوروبا بما كان يسمها من تقسيم طبقي وظلم اجتماعي وطغيان سياسي ، من أجل تأسيس مجتمع جديد يسترشد بقانون الحكم البريطاني وروح العمل البروتستانتية حيث يمكن للفرد ، مهما تكن قدرته التي حباه بها الله ، أن يجني ثمرة عمله.

وكما ذهب صموئيل هنتنجتون في كتابه «من نحن» عام 2004 ، الذي راح يبحث فيه عن هوية أمريكا المتغيرة، "لا شئ مسموح له بالوقوف في طريق الحلم والرغبة في الاستحواذ على الأرض، التي جرت سكناها من قبل آخرين، والذي مثل ضرورة حتمية». لقد تم القضاء على السكان الهنود الأصليين في أمريكا إثر قيام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الولايات المتحدة وتوسعها واندفاعها نحو الغرب خلال القرن التاسع عشر." لقد خلص المستوطنون إلى أن هذا الطرد أو الإبادة هي السياسات الوحيدة التي يجب اتباعها في المستقبل. إن إمكانية قيام مجتمع ذى ثقافة تعددية تم وأدها ولم تجد طريقها إلى الوجود على مدى ثلاثمائة عام (12).

عندما ينظر العرب إلى الحركة الصهيونية التي بدأت منذ نحو قرن مضى، فإنهم يرون تاريخ الاستعمار الأوروبي لأمريكا وتدمير المجتمع الداخلي الضعيف، بشكل يمكنهم معه من استيعاب الأسباب التي تقف وراء تحمس الولايات المتحدة لإسرائيل. ومن هنا يمكن تفهم ذلك التوصيف القاسي الذي تم إطلاقه على الفلسطينيين بأنهم «العرب الحمر» وهى العبارة التي صكها الروائي المصري المعروف جمال الغيطاني في معرض تناوله للمأساة الفلسطينية (*) حيث يصف ما حدث بأنه مرعب، وهذه هي النتيجة الطبيعية للدولة التي تم إقامتها على أسس دينية وعرقية، والتي يعتبر ممثلوها أنفسهم الأفضل والأقرب إلى الله، وأن هؤلاء الذين لا يهمهم أمرهم يجب أن يتم التخلص منهم من أجل الحلول محلهم. أليست هذه هي الطريقة التي تمثل جوهر ما قام به هتلر النازي؟ أليس هذا هو جوهر حرب الإبادة التي يشنها شارون، وحكومته وآلة الحرب الإسرائيلية الآن (13).

في هذا التحليل والذي تم تناوله بشكل دقيق من قبل الأكاديمي الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد، فإنه جرى بشكل مشابه الحط من شأن العرب، عبر خطاب ازدرائي لثقافتهم، تم التوسع فيه من قبل الأمريكيين المناصرين لإسرائيل، وهو الخطاب الذي مهد الأرض للتخلص من الفلسطينيين حينما يتطلب الأمر ذلك.

وقد قدم المؤرخ الإسرائيلي بني موريس كذلك مقارنة بين مصير الأمريكيين الأصليين قائلا : "حتى الديمقراطية الأمريكية العظيمة لم يكن ليمكنها القيام بدون إفناء

---

* يعكس هذا الطرح تصورا عربيا عاما يعبر عن الخوف من أن يكون مصير الفلسطينيين مثل الهنود الحمر.. وفي ذلك يتساءل صنع الله إبراهيم في روايته "أمريكانلي" على لسان إحدى شخصيات روايته وهي فادية : وماذا بشأن الفلسطينيين يبدو لي أنهم معرضون للانقراض مثل الهنود الحمر تماما. الطبعة الثانية، 2004 ، ص 262

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الهنود. يوجد حالات في مسار التاريخ تبرر نهاياتها الجيدة ارتكاب أفعال قاسية ووحشية (14)".

عندما بدأت الهجرة الجماعية إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر، كان من المتوقع أن يتبنى هؤلاء المهاجرون الثقافة الأنجلو أمريكية وقيمها السياسية والثقافية الأنجلو بروتستانتية. وقد أصبح المهاجرون البيض أنجلو ساكسون بحكم الواقع. وفي إسرائيل تم دمج اليهود القادمين من كل أنحاء العالم في إطار مجتمع يتسم بقيم سياسية وثقافية خاصة، وجرى تعزيز هذا الوضع من خلال اللغة العبرية والدين اليهودي، إلى جانب ذاكرة تاريخية تقوم على الاضطهاد في أوروبا مع تعزيز هذا الوضع من خلال الإخلاص للعقيدة.

وعلى غرار الخوف، الذي انتشر منذ الستينيات في أوساط المثقفين البيض الأمريكيين، والذين يعتبر هنتجنتون مثالا جيدا لهم، من التعددية الثقافية، ما قد ينتهي بالثقافة الهسبانية إلى تحدي هوية دولتهم، القائمة على الأنجلو بروتستانتية ، فإن إسرائيل تخشى من أن يمثل العرب الذين يعيشون في إسرائيل تهديدا لهويتها اليهودية، وهو ما يجعل من هؤلاء العرب كعب أخيل بالنسبة لإسرائيل. وهو خوف يسيطر بشكل خاص على اليمين الإسرائيلي الذي يعمل على تعزيز علاقاته مع السياسات الأمريكية منذ اندلاع الانتفاضة الثانية. وعلى ذلك ينظر لمطلب حق عودة الفلسطينيين بإعتباره محاولة لتفكيك إسرائيل في شكلها القائم حاليا.

وبالنسبة لليمين الإسرائيلي يمثل الأساس الذي تقوم عليه اتفاقات أوسلو للسلام ويتمثل في أن كل الأراضي المحتلة عام 1967 يمكن نظريا إعادتها لصالح قيام دولة فلسطينية – تهديدا لبقاء دولة إسرائيل، ليس فقط انطلاقا من أن إخلاء المستوطنين يمكن أن يثير حربا أهلية إسرائيلية ولكن بسبب أن مثل هذه الدولة الفلسطينية، التي ستمتد وتتوسع بملايين من العرب والمسلمين الذين سيفدون إلى القدس الشرقية من أجل زيارة الأماكن المقدسة ستستحوذ على آلية أكثر تأثيرا تجعلها تتمتع بالثقة في مواجهة إسرائيل الخائفة والمحبطة، وهى الدولة التي تتواصل مناطقها جغرافيا مع الجزء الشمالي النهائي من الضفة الغربية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وتنعكس مخاوف بيض أمريكا من أن تغمرهم هجرة المكسيكيين كذلك في خوف إسرائيل في أن تغرق في طوفان بشري من قبل الفلسطينيين الذين يشكلون نحو 20% من سكان إسرائيل، ونحو 40 إلى 45% من مجمل سكان فلسطين التاريخية، ويخضعون للسيطرة الإسرائيلية. وإذا ما كان المكسيكيون المتحدثون بالأسبانية يشكلون "تهديدا رئيسيا محتملا للثقافة والتكامل السياسي للولايات المتحدة" حسبما يذهب هنتنجتون، فإن الفلسطينيين يمثلون تهديدا أسوأ كثيرا بالنسبة لإسرائيل. إنهم لا يبحثون عن التماثل، وحتى إذا ما فعلوا فإنهم لن يحققوه (15). بل إنه توجد بعض التشابهات في أنماط التوصيف المستخدمة من قبل الأنجلو أمريكيين بشأن الهسبان ومن قبل الإسرائيليين بشأن الفلسطينيين. وفيما أن الثقافة العربية يتم تشخيصها من قبل أي بي إم – "إن شاء الله" "بكرة" "ممكن" فإنه لدى المكسيكيين كذلك لازمة غدا syndrome".

وفي المنظور العربي ، يتمثل هدف إسرائيل الدائم في إخلاء فلسطين التاريخية من فلسطينييها وبتواطؤ أمريكي. وإذا كانت لجنة بيل مثلت بالنسبة لإسرائيل إطار عمل فيما قبل 1948 (اللجنة البريطانية التي اقترحت نقل العرب للسماح بإقامة دولة يهودية على جزء من فلسطين) فلديها الأن خريطة الطريق التي قدمها الرئيس بوش. إن العرب يتشككون في المساندة الأمريكية لإسرائيل التي تقوم على أساس أنها أثبتت تفوقها عنصريا، وهو الشعور الذي قد يعني ضرورة إفساح الطريق أمام تفوق المجتمع الإسرائيلي على حساب المجتمع والثقافة الفلسطينيين اللذين ثبتا أنهما الأضعف. بكلمات أخرى، فإن القوة هي الحق وإذا كانت الصهيونية تمكنت من تنظيم نمو المجتمع الحضري الناجح في فلسطين تحت سيطرة الانتداب البريطاني، ونجحت في تطوير دولة حديثة وديمقراطية فإنها حينئذ تستحق المساندة الأمريكية.

وقد كتب سلامة نعمات كاتب الرأي الأردني المعروف في "الحياة" ما يشير إلى أن إسرائيل تعتبر القوة العظمى الإقليمية، وأنه من المعتقد أنها ستكون على شاكلة واشنطن تماما، القوة العالمية، التي لا تحتاج لإقناع الرأي العام الدولي بشأن وجهات نظرها.. لماذا لا يجب على إسرائيل، تماما مثل أمريكا، أن تغير الأنظمة الحاكمة ، رسم الخرائط السياسية طالما أنها لديها القوة للقيام بذلك؟ وكما تساعد واشنطن إسر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

على أن تبقى فوق القانون، فإنه من الممكن أيضا أن تسمح لها أن تطبق قانون الغابة، طالما أن سلوكها لا يقوض أو ينتقص من المصالح الأمريكية (16). لقد استعارت إسرائيل في الحقيقة الكثير من الغزاة على صعيد الطعام واللغة والثقافة الشعبية. وغالبا ما تتطرق وسائل الإعلام العربية إلى ما تصفه بالأسرلة والعبرنة للشباب الفلسطيني داخل إسرائيل وتضع محاولة استيعاب إسرائيل للعناصر العربية على أنه عملية سرقة تتوافق مع سيطرة دولة الاستيطان على أراضي الغير.

عقيدة العمليات الاستشهادية

عندما اندلعت الانتفاضة الأولى في عام 1987، لم يكن الفلسطينيون، جبهة الدفاع الأمامية أكثر من شباب في العشرينيات من عمرهم يلقون بالأحجار، كانت تلك مصدر قوة الصورة الكاسحة للضعف في مواجهة القوة وفي مواجهة إسرائيل كمنتهكة لحقوق الإنسان لشعب مضطهد. لقد أجهز الجنود على أسلحة الصبية من أجل وقف الحجارة. أدى ذلك إلى جذب انتباه المجتمع الدولي بقدر كبير للنزاع ، إلى حد تعاطف البيت الأبيض مع الفلسطينيين. ولكن دخول أسلوب التفجيرات الاستشهادية معادلة المواجهة كان له تأثيره الكبير على شكل الصراع. ففيما كانت الانتفاضة جزءا من حركة سياسية اجتماعية أكبر أجبرت المجتمع الدولي على تبني موقف الفلسطينيين، فإن العمليات الاستشهادية جاءت لتكشف مواقف الولايات المتحدة تجاه النزاع نفسه.

لقد طورت حماس هذا التكتيك من أجل خلق ما اعتبرته "توازن الرعب" في مواجهة الآلة العسكرية الضخمة. وقد شرح الباحث الفلسطيني خالد الحروب تفكير حماس مشيرا إلى أنه من أجل تبرير منطق استهداف المدنيين، كررت حماس تأكيداتها بأن توازن القوى ظل دائما لصالح إسرائيل في ضوء المساندة الأمريكية لها ، وأنه لا توجد مقارنة بين قدرتها العسكرية والضعف الفلسطيني (17). واستشهد الحروب بما ذهب إليه قائد من حماس بعقد مقارنة بين التبرير البريطاني لتفجير المدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، والتي لجأ إليها الحلفاء في ضوء عدم قدرتهم على مواجهة هتلر بالشكل التقليدي .. جيش في مواجهة جيش.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وثمة ثلاث خلافات بشأن أساليب حماس: الهجوم على المدنيين، والهجوم داخل إسرائيل ، واستخدام القنابل في عمليات استشهادية. إن معظم العمليات تضمنت المظاهر الثلاث، من أجل تحقيق أقصى تأثير ممكن. وقد تحولت حماس التي شجعتها إسرائيل في بداية الانتفاضة من أجل تقويض أو مواجهة المجموعات العلمانية القومية، إلى النقيض، وخاض الجانبان حرب مواجهة رجحت كفتها النهائية لصالح إسرائيل.

وقد أدان اليمين الإسرائيلي ممارسات حماس باعتبار أن ما يدفعها وما يحركها كراهية اليهود وفكرة الدولة اليهودية. وفيما راحت تغطية وسائل الإعلام الدولية بشكل عام تعترف في الشهور الأولي للانتفاضة الثانية عام 2000 بالطبيعة الانتقامية للعمليات الاستشهادية ، بدأت واشنطن تميل تدريجيا نحو تبني وجهة النظر الإسرائيلية (توقفت وسائل الإعلام الدولية بدورها عن الإشارة إلى تبريرات الفلسطينيين). لقد سمح استخدام العمليات الاستشهادية داخل إسرائيل نفسها وليس داخل الأراضي التي تحتلها إسرائيل عام 1967، للدولة اليهودية بأن تقدم الانتفاضة ككل على أنها ثورة ضدها ــ وهذا هو التفسير الصحيح لسياسة حماس، رغم أنه ليس تفسيرا بشأن أبعاد استعداد الكثير من الاستشهاديين، إن لم يكونوا كلهم، للتضحية بحياتهم بهذه الطريقة ،وأنها ليست انتفاضة ضد الاحتلال الإسرائيلي للأراضي في تجاوز لما جرى السماح به دوليا. وتحول هذا الأمر، مرة أخرى، ليصبح وجهة النظر المسيطرة بين الطبقة السياسية الأمريكية المهتمة بالنزاع.

ومع انتهاج الإدارة الأمريكية لمثل هذا الموقف، أدت الوحشية التي وصل إليها مستوى الصراع، بدورها إلى مزيد من السخط في المواقف العربية تجاه الولايات المتحدة. كانت الانتفاضة الثانية مؤشرا لحلول عصر وسائل الإعلام الفضائية العربية المستقلة. وكانت بذلك الفرصة الأولى لهذه الوسائل ــ تقودها الجزيرة ــ من أجل استخدام التقنيات والقدرات الجديدة التي أصبحت في حوزتها لدى مواجهتها حدثا سياسيا محوريا يقع في إطار فضائها العربي. وقامت هذه الفضائيات بذلك بشكل بالغ التميز استطاعت من خلاله أن تنقل حقيقة موقف الحرب الإقليمية بطريقة لم تتم من قبل. كان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

النزاع نفسه في قلب الضمير السياسي العربي، في ذات الوقت الذي تصادف وصوله إلى ذروة جديدة من الضراوة والتدمير.

لقد كانت الانتفاضة حربا شعبية حضرية يمكن مقارنتها بنزاعات البلقان في أواسط التسعينيات، وحرب الشيشان، والحرب الأهلية في لبنان بين عامي 1982 و1983. ما رآه العرب من غرف معيشتهم المريحة (أو غير المريحة وسط الأحياء الفقيرة) أن واحدا من أكثر جيوش العالم تقدما تكنولوجيا يمارس حالة من العربدة من خلال العنف والتدمير ضد شعب فقير شبه أعزل لا يملك من أسلحة سوى أجساده والحجارة، وهى السياسة التي بدأت بشكل ملموس وواضح في مارس 2002 ، عندما فرض الجيش حصارا على كل المدن بما فيها جنين.

واتخذت سياسة الجيش الإسرائيلي التي تقضي بهدم المنازل ــ واستخدمت بشكل متواصل ضد المباني الفلسطينية بدعوى مخالفتها للقانون، أو بغرض انتزاع أراض من أجل أهداف عسكرية أو كانتقام ضد الأسر التي ينتمي إليها منفذو العمليات الاستشهادية ــ بعدا أكثر اتساعا، في محاولة لإنهاك الفلسطينيين. وكان من المؤشرات على هذه السياسة ارتفاع وتيرة عمليات هدم المنازل على مدار الصراع.. فمنذ عام 1987 وحتى عام 2005 تم هدم ألف و 115 منزل كعقوبة جراء عمليات مسلحة ضد إسرائيل، كما تم هدم ألف و 425 منزل على الأقل لأغراض عسكرية من عام 2004 حتى 2006، ونحو أربعة آلاف و 148 منزل من 1987 وحتى 2005 ، للفشل في الحصول على تصريح (18). وفي مارس 2006 وصل عدد الفلسطينيين الذين قتلوا على يد الإسرائيليين خلال الانتفاضة إلى ثلاثة آلاف و 436 شخص (لا يتضمن ذلك مئات الأشخاص الذين لقوا حتفهم جراء قيامهم بعمليات انتحارية)، فيما وصل عدد الإسرائيليين الذين قتلوا من قبل الفلسطينيين إلى نحو 994. ومن غير المعروف من بين القتلى الفلسطينيين من المقاتلين أو المدنيين. (19)

وبسبب الإغلاق العسكري للمدن الفلسطينية وجدار الفصل الإسرائيلي الذي يجري إنشاؤه انخفضت العمالة الفلسطينية في إسرائيل إلى نحو 35 ألف عامل من 150 ألفا في عام 2000. كما أن نحو 47% من بين 3.6 ملايين فلسطيني في الأراضي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المحتلة يعتبرون تحت خط الفقر وفق تقديرات البنك الدولي، حيث وصل متوسط دخلهم نحو دولارين يوميا في عام 2004 مقارنة بنحو 20% عام 1999 (20). كما تراجع الاقتصاد الإسرائيلي جراء الضربات التي تلقاها في بداية الانتفاضة (حيث قفزت الاستثمارات الأجنبية لتسجل نحو 9.7 مليار عام 2005 من نحو 5.8 مليار دولار في العام الذي سبقه). وتحتشد وسائل الإعلام العربية بقدر كبير من الاحتفاء بما يعتبر نصرا جراء الضربة النفسية والمادية التي لحقت بإسرائيل نتيجة الانتفاضة(21).

وفي تفسير تلك الحالة غالبا ما يذهب المحللون الأمريكيون إلى أن الفلسطينيين مجتمع مريض تقوده عقيدة الرغبة في الموت، فيما يستشهد العرب بأربعة عقود من استعمار الأرض الفلسطينية ومصادرة مياههم وقمع حريتهم وسجن عشرات الآلاف منهم والتدمير المتواصل لبنيتهم الأساسية الاجتماعية والمادية.

وعلى هذه الخلفية تزايد الإيمان بحيوية العمليات الاستشهادية ، الأمر الذي انعكس في التحاق المئات من الفلسطينيين الذين يشعرون بالمرارة واليأس بما في ذلك القوميون على شاكلة الإسلاميين بهذه الحالة الهستيرية من الموت. وقد استولت هذه العمليات على خيال العالم العربي كله إلى الحد الذي أصبح من المتعذر معه للأصوات المعارضة لها أن تجد آذانا صاغية. ومن ذلك مثلا أن فيلم "أصحاب ولا بيزنس" الذي أنتج عام 2002 اتجه إلى تمجيد الفرد الذي يقوم بالعملية الاستشهادية وقدم انطباعا زائفا بأن معظم الهجمات ضد أهداف عسكرية إسرائيلية، فيما أن العادة جرت على أن الإسلاميين فقط هم الذين يقدمون تبريرات بشأن الهجمات على المدنيين داخل إسرائيل. وفي ذلك الصدد فإن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي الذي يطل على الجمهور العربي أسبوعيا من خلال منبره على قناة الجزيرة كان يؤكد في أغلب الأحوال أن إسرائيل مجتمع حرب حيث يلعب كل مواطنيها بشكل أو بآخر دورا في اضطهاد الفلسطينيين، المعرضين لقمع الجيش الإسرائيلي، سواء كانوا مسلحين أم غير مسلحين جراء وجودهم في الأرض التي تقوم عليها إسرائيل.

مهما يكن التنظير في عرض الإسلاميين، فإن الرأي العام العربي في مجمله يركز على الحالة المزرية التي يعيشها المواطن الفلسطيني بشكل يجعله يضحي بنفسه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

من أجل القضية الفلسطينية ضد عدوه الذي يمثل وجوده تهديدا له. إن المرء غالبا ما يسمع عبر وسائل الإعلام مثل هذا الطرح ومن ذلك مثلا ما أشار إليه رمضان شلح، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي بعد هجوم على مدينة ناتانيا الإسرائيلية في يوليو 2005 من إن صاحب عملية ناتانيا الاستشهادية يبلغ من العمر 18 عاما، هل أرغمته أو أجبرته على فعل ذلك؟ إنه خياره. إنه يريد أن يستشهد. أنت تعرف كيف أصبحت الحياة تساوي اليوم في فلسطين؟ إنني أدين قتل المدنيين في لندن وفي نيويورك ولكن ليس في ناتانيا حيث أن الضحية يقيم في أرضي (22).

كما اتجهت نوال السعداوي الناشطة المصرية في مجال الدفاع عن حقوق المرأة والمفضلة في أجهزة الإعلام الغربية بسبب انتقاداتها للأصوليين المسلمين والمجتمع العربي الأبوي الوجهة ذاتها حيث ذكرت لتليفزيون الـ "بي بي سي" أن الفلسطينيين يشعرون بأنهم ليس لديهم شئ يدافعون به عن أنفسهم سوى أجسادهم (23). ومرددا نفس الرؤية راح الشاعر الفلسطيني المعروف سميح القاسم يقول إنني لست ضليعا في الفتاوى، وكل الجانبين لديه التبرير لأعماله، ولكن ما يقلقني أن العرب – الفلسطينيين – يشعرون بأنهم مدفوعون بالتضحية بحياتهم على هذا النحو (24). إن الخطاب العام في العالم العربي يقارن الصراع الفلسطيني بما حدث في الجزائر خلال أعوام 1955 – 1962 ليس فقط ضد السيطرة الفرنسية ولكن ضد المستعمرين الفرنسيين الذي يعيشون وسطهم في أرض اعتادوا على اعتبارها أرضهم. وحسب رؤية جريئة للكاتب اللبناني جهاد الخازن فإنه يرى إننا عربا ومسلمين نعتبر حماس والجهاد وغيرهما حركات تحرر وطني وحكومة أرئيل شارون إرهابية بالكامل (25).

التطهير العرقي

في محاولة المفكرين البحث عن شرح وفهم أسلوب الاستشهاد، فإنهم يصفونه كنتاج للأوضاع الفريدة التي يواجهها الفلسطينيون في صراع مجتمعي غير طبيعي، فهو تعبير عن خط الهجوم الأخير اليائس من شعب يتعامل مع أيديولوجية تقوم على "التطهير العرقي" لفلسطين من كل شئ غير يهودي. ولا يتم النظر إلى أسلوب العمليات

www.ibtesama.com/vb Exclusive

باعتباره نتاجا للإسلام كدين، وإنما يجري التعامل معه بوصفه رد فعل من قبل مضطهدين في بحثهم في إطار تقاليدهم وثقافتهم الدينية عن رد على تهديد وجودي تراجع بمجتمعهم إلى أشد حالاته تدهورا منذ بدء حرب المائة عام مع الصهيونية.

بمعنى آخر، فإن أي تقليد ديني يمكن له أن ينتج مفجراً انتحارياً، في إطار الظروف المناسبة. بالطبع فإن الفلسطينيين لم يكونوا الأوائل في هذا المجال، حيث توجد أمثلة أخرى في التاريخ المعاصر، بدءا من اليابان حيث الطيارون الكاميكاز إلى حركة نمور التاميل في سريلانكا والتي رغم كونها هندية، إلا أنها تمثل حركة علمانية وطنية. وفي الحقيقة فإن النمور التاميل هم الذين اخترعوا الحزام الناسف (26). لقد أعجب العرب بالخيار الانتحاري – الاستشهادي - كرد فعل من قبل الضعيف سياسيا وماديا رغم ما يتسم به من قوة على الصعيد الثقافي، ضد "قوة مهيمنة"، إذا ما استخدمنا لغة البنتاجون، تعمل على سحقهم. ويمثل ذلك الوضع، الذي ينظر له على أنه تقويض للقوة العسكرية الأمريكية والإسرائيلية يتم على نطاق واسع، مصدر الإلهام للعالم العربي لجهة الإعجاب بالفلسطينيين.

ما مدى واقعية الخوف الفلسطيني من الإبادة؟ البحث التاريخي أوضح أن ترحيل أكثر من 700 ألف فلسطيني من منازلهم خلال حرب 1947 – 1949 في فلسطين كان عملا جرى التخطيط له بشكل دقيق من قبل القوات الإسرائيلية وأنه لم يكن هناك في الأساس مجال أمام الحكومات العربية لعمل شئ. إن المؤرخين الإسرائيليين الجدد استخدموا مادة أرشيفية تم الكشف عن سريتها بعد مرور 30 سنة عليها في محاولة لإثبات أن قضية اللاجئين لا تعكس سوء حظ نتيجة طلب الجيوش العربية خلال معركتها مع الصهيونية من الفلسطينيين الرحيل حتى تتمكن من القضاء على الدولة الوليدة.

لقد خطط قادة الصهيونية من أجل طرد الفلسطينيين لتوفير الأسس التي تمكن الدولة اليهودية الجديدة من البقاء. وحسبما كشفت العديد من الأبحاث فقد تجنب هؤلاء القادة السلام خلال عقدي الخمسينيات والستينيات. وقد كتب دافيد بن جوريون المؤسس لإسرائيل في سنوات ما قبل الحرب ، مطالبا بطرد العرب من أجل إقامة إسرائيل. وبعد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الثورة الفلسطينية عام 1936 دافعت لجنة بيل البريطانية بشكل واضح عن ترحيل الفلسطينيين في شكل جماعي من المناطق الساحلية لإفساح الطريق أمام الدولة اليهودية (27). ومع ذلك وربما لأن هذه النتائج تمثل مبادرة من الإسرائيليين أنفسهم لإعادة قراءة التاريخ بشكل مثير للجدل، تباطأ العالم العربي في طرح الأمر للنقاش العام، كما أن ذلك قد يرجع إلى أن الجرح ربما يكون بالغ العمق كذلك.

وتقدم السياسات الإسرائيلية اليوم عددا من الصياغات التلطيفية بشأن التطهير العرقي. وقد احتل مصطلح "الترحيل" موضعا رئيسيا في القاموس السياسي الإسرائيلي منذ أيام بن جوريون. كما أن التعبير الإنجليزي "ترانسفير" كان المصطلح المفضل لدى زعيم حزب مولوديت رحبعام زئيفي والذي اغتيل على يد فلسطينيين في أكتوبر عام 2001. ويستخدم آخرون عبارات عبرية مثل "الترحيل الطوعي" والذي كان شعار حزب مولوديت في الانتخابات الإسرائيلية عام 2001، أو "الترانسفير المقبول". فيما بدأ اليمين الإسرائيلي في الحديث المكشوف عن "الترانسفير من خلال الحرب" في 2002 مع تولي حكومة الليكود برئاسة أرئيل شارون الحكم خلال الفترة من (2001 – 2005) والتي تضمنت عددا من الوزراء يفضلون ذلك الحل. وقد كشف استطلاع إسرائيلي للرأي أجرى في عام 2002 أن نحو 46% من المشاركين في الاستطلاع يساندون ترحيل الفلسطينيين خارج الضفة وغزة باعتباره خيارا مقبولا لتسوية النزاع الفلسطيني الإسرائيلي (28).

وتحظى فكرة "الترانسفير" بالتقدير في الأوساط الثقافية بمن فيهم بيني موريس المؤرخ الإسرائيلي الذي يعمل على مراجعة تاريخ الدولة العبرية وبدأ حركة "ما بعد الصهيونية" للبحث في الجانب المظلم من ماضي الصهيونية مع كتابه "نشأة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين 1947 - 1949"، حيث يرى أن الترحيل يمكن أن يكون مبررا إذا ما أصبح الفلسطينيون يمثلون تهديدا للأغلبية اليهودية، وهى الأطروحة التي بدأ وضعها وتطويرها وبشكل واضح في عدد من المقابلات بعد اندلاع الانتفاضة الثانية (29). ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أنه " يوجد ظروف في التاريخ تبرر التطهير العرقي. إنني أعرف أن هذا المصطلح سلبي تماما في خطاب القرن العشرين، ولكن عندما يكون الخيار بين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

التطهير العرقي والإبادة – إبادة شعبك – فإنني أفضل التطهير العرقي. إن الدولة اليهودية لم يكن لتظهر إلى الوجود دون اقتلاع نحو 700 ألف فلسطيني. ولهذا فإنه قد يكون من الضروري طردهم. لم يكن هناك خيار، إلا طرد هذا الشعب"(30).

وقد ذهب موريس إلى القول: "منذ أبريل عام 1948 (عندما دخل القتال مرحلة حرجة ومتوترة) بدأ بن جوريون صياغة رسالة "الترانسفير. لم يكن هناك نظام واضح بشأنه في كتاباته، لم تكن هناك سياسة منظمة بشكل متكامل، ولكن كان يوجد مناخ أو أجواء للترحيل - السكاني. لقد كان الطرد فكرة في الهواء، وكانت القيادة في مجملها تفهم أنها الفكرة الواجبة، وكانت الفرق العسكرية تدرك ما هو مطلوب منها. وتحت قيادة بن جوريون توافر الإجماع بشأن الترحيل.. كان بن جوريون على حق. إذا لم يفعل ما فعله، لم يكن ممكنا للدولة الإسرائيلية أن تجد طريقها إلى الوجود. إن ذلك يجب أن يكون واضحا. كان من المستحيل تجنب ذلك. بدون اقتلاع الفلسطينيين، لم تكن لتقوم قائمة للدولة اليهودية هنا". وعلى أساس هذه المراجعة التي قدمها موريس من خلال أبحاثه في عقد الثمانينات أصبحت عملية طرد الفلسطينيين مقبولة بشكل عام في الأوساط العلمية.

وينتاب العرب الإسرائيليون — الفلسطينيون الذين بقوا ضمن حدود ما أصبح دولة إسرائيل عام 1948 — الخوف بشكل كبير من هذا السيناريو ، خاصة بعد اندلاع القتال في الأراضي المحتلة في سبتمبر 2000. غالبا ما يتم الإشارة إلى هؤلاء الفلسطينيين على أنهم "قنبلة موقوتة" في إسرائيل ، نظرا لتزايد أعدادهم بمعدلات سريعة أكبر من معدل نمو السكان اليهود، فالذين بقوا من العرب ولم يتم طردهم فيما عرفت بدولة إسرائيل ويقدر تعدادهم بنحو 150 ألف شخص، يصل تعدادهم اليوم إلى نحو 1.5 مليون، يمثلون على الأقل خمس سكان إسرائيل. " الآن نحن نسمع عن حزب التحق مؤخرا بالحكومة وهو مولوديت يعلن في فخر أن هدفه هو ترحيل العرب.

وقد قال بيني آلون زعيم الحزب آنذاك إن :" الجامعات يجب أن تغلق في وجوههم، ويجب أن نجعل حياتهم بالغة السوء بما يجعلهم يصلون إلى قناعة بأن الرحيل هو الخيار الأفضل". ويوجد سياسيون في الليكود أيضا يقولون من وقت لآخر أنه إذا لم نتصرف حسبما يريدون، فإن ما حدث لإخواننا في 1948 سوف يحدث لنا: الترحيل.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حسبما كتب سالم جبران المحرر في الصحيفة العربية الإسرائيلية "الأهالي"(31). إن مشاعر العداء للعرب تعد عرضا واحدا من الأزمة العامة في إسرائيل. وتوجد قوى عنصرية ومعادية للديمقراطية تعادي حركة السلام في إسرائيل والإعلام بشكل عام.

لقد أثار موريس الكثير من الانتباه في الغرب والعالم العربي، بسبب تعبيره عن آرائه بهذه الصراحة والتي يرى الكثيرون أنها تعكس إلى حد كبير موقف اليمين الإسرائيلي . لقد أشار إلى أن الغضب الفلسطيني تجاه إسرائيل يتزايد مقارنة بردود فعل الشعوب الأخرى المظلومة في التاريخ الحديث ، وهكذا ندع السبيل ممهدا أمام مرض وهمي ونفسي في الثقافة العربية الإسلامية يفسر مقاومة إسرائيل بما في ذلك أسلوب العمليات الاستشهادية . وحسب موريس: " لقد اضطهدت شعوب أفريقيا من قبل القوى الأوروبية، بشكل لا يمكن اعتباره أقل مما حدث من اضطهاد للفلسطينيين من قبلنا، ولكني لم أر على الإطلاق أي إرهاب أفريقي في لندن أو باريس أو بروكسل. إن الألمان قتلوا الكثيرون منا أكثر مما قتلنا فلسطينيين، ولكننا لم نفجر حافلاتهم في ميونيخ أو نورمبرج. ولهذا فإنه يوجد شئ آخر ما أيضا هنا، شئ ما أعمق، يتعلق بالثقافة الإسلامية والعربية"(32).

وقد أشارت وسائل الإعلام العربية إلى مثل هذه الأطروحات في السياق الأمريكي كذلك. ففي مقابلة مع الصحافي الأمريكي المعروف في "النيويورك تايمز" توماس فريدمان على قناة الجزيرة سأله مقدم البرنامج حافظ الميرازي أنت متهم بالعنصرية في تقديم العرب، باعتبارهم عاجزين ، بالوراثة ، عن أن يكونوا جزءا من العالم الحديث. كيف أمكن لأحمد زويل (المصري الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء) الحصول على جائزة نوبل والمسلمون في الهند فعلوا ذلك أيضا، إذا كانت الثقافة الإسلامية متخلفة؟ وقد أجاب فريدمان : ربما تكون الأنظمة، ربما تكون الثقافة هي التي تقاوم مثل هذه الاتجاهات(33). واستشهد فريدمان بدبي والأردن وقطر والبحرين والمغرب باعتبارهم عرباً محليين يظهرون الدليل على انسجامهم مع المجتمع الحديث. من وجهة النظر العربية، فإن مثل هذه الآراء تشكل جزءا من الخطاب العنصري الذي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يعمل على تبرير الانتهاكات التي ترتكب من قبل الجنود الأمريكيين في العراق، في سجن أبو غريب وفي أماكن أخرى مختلفة. (انظر الفصل الرابع).

وعلى النحو ذاته تسود النظرة في العالم العربي، إلى فكرة صدام الحضارات التي قدمها هنتنجتون في كتابه الذي حمل الاسم نفسه، وتتمثل في أن الفكرة إنما تنبع من الرغبة في تشويه الثقافة العربية. إن هنتنجتون يذهب إلى أن التحدي الرئيسي أمام الديمقراطيات الغربية بعد الحرب الباردة، يأتي من قبل الثقافات الإسلامية والصينية والتي ينظر إليها بشكل أساسي على أنها مناهضة لليبرالية الديمقراطية. وحسبما يرى هنتنجتون فـ "إن بقاء الغرب يعتمد على إعادة تأكيد الأمريكيين على هويتهم الغربية، وقبول الغربيين لخصوصية حضارتهم وأنها ليست عالمية، وعلى التوحد من أجل تجديدها والحفاظ عليها في مواجهة التحديات من المجتمعات غير الغربية"(34).

لقد استيقظ العالم العربي مع الانتفاضة عام 2000 على خوف الفلسطينيين من الطرد الجماعي، وهو ما يعود بشكل جزئي إلى مصلحة بعض الحكومات العربية في التأكيد على عدم إمكانية حدوث عمليات ترحيل قسري جماعي جديدة للفلسطينيين، وقد بدا أن القادة العرب في الدول المجاورة لإسرائيل والأراضي المحتلة ينتابهم قلق كبير على خلفية هذه القضية وفي ذلك تعرض الرئيس المصري مبارك لهذه القضية في إطار عام حيث قال موجها خطابه إلى الإسرائيليين في مقابلة مع التليفزيون الإسرائيلي.. توقفوا عن التفكير في أنه يمكنكم طرد الفلسطينيين إلى الخارج في الأردن أو أي مكان آخر. سوف يمثل ذلك أكبر خطر على إسرائيل حال محاولة تحقيقه ،(35). وقد ساد القلق من هذا الأمر لدى مصر والأردن بشكل خاص خلال الفترة الأولى من الانتفاضة الثانية وأن تحاول حكومة اليمين الإسرائيلي التي يقودها شارون تصعيد النزاع إلى مستوى الحرب، بشكل يسمح لإسرائيل بطرد اللاجئين إلى دول أخرى، بشكل يتحول معه الشعب الفلسطيني إلى أقلية يتيح لإسرائيل التعامل معهم في إسرائيل الكبرى الجديدة الأمر الذي يمكن معه إلحاق بقية الأراضي المحتلة.

وعندما بدأت إسرائيل في البداية فرض حصار اقتصادي على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، رد الأردن بإغلاق حدوده خشية من أن يكون سيناريو الرحيل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجماعي هو النتيجة. وفي كل مرة يدخل العرب في مواجهة عسكرية مع إسرائيل يعاني الفلسطينيون من خسارة أراض لهم ويجبرون على الرحيل – 78% من فلسطين التاريخية سقطت في أيدي إسرائيل خلال 1967. ولهذا فإن الأردن ومصر كان لديهما مصلحة كبيرة في الحفاظ على مظهر للعلاقات المدنية مع إسرائيل وتشجيع الحوار بين أطراف الصراع، بشكل يمكن أن يؤدي إلى وقف الانتفاضة أو على الأقل عدم تجاوزها نطاق المقاومة الرمزية للاحتلال الإسرائيلي.

بينما على صعيد العرب، تسود النظرة القائمة على أن الفلسطينيين يخوضون حربا شرسة ضارية من أجل البقاء في مواجهة خصم لا يلتزم بأية مبادئ ممثلا في اليمين الإسرائيلي والذي يجد ، رغم انقساماته، في مواقف شارون، الذي يطلق عليه العرب "البلدوزر" مصدرا للتلاقي بسبب سياسته القائمة على القضاء على التجمعات الفلسطينية ، لإفساح الطريق لبناء المستوطنات على أراضيهم. وفي هذا الصدد يذكر أن وسائل الإعلام الحديثة والتفاعلات الدولية، فضلا عن صورة إسرائيل باعتبارها قطرا غربيا تشارك الغرب قيمه بشأن الديمقراطية وحقوق الإنسان هي فقط التي حالت دون قيام شارون بتنفيذ هذا السيناريو واتباع خطى المدمرين الكبار في الشرق الأوسط مثل الأشوريين أو البابليين في غزوهم للمدن وترحيل السكان وفرض حقائق جديدة على شعوب المنطقة العتيدة في الشرق، أو اتباع نهج معاصريه مثل حافظ الأسد الذي أجهزت قواته السورية على التمرد الذي وقع في حماة عام 1982.(*)

ويثير المحللون العرب التساؤلات والشكوك بشأن نوايا الإدارة الأمريكية في الحد من الطموحات الإسرائيلية. وفي ذلك رأى الكاتب المصري إحسان بكر أن شارون ربما يكون لديه القدرة على تدمير كل المناطق الفلسطينية، وأن يشرد آلاف الأسر ويجعلها بلا مأوى. كما يمكن له كذلك النجاح في القضاء على أو ترحيل السلطة الوطنية الفلسطينية أو قادتها، ولكنه لن ينجح على الإطلاق في استعادة الهدوء أو الأمن إلى شوارع تل أبيب، فلم يعد هناك احتمال أن يستسلم الشعب الفلسطيني، وإنما من الواضح

---

* يبدو المؤلف هنا صاحب موقف مضاد للنظام السوري فرغم أن المذبحة التي يشير إليها تستحق الإدانة، إلا أنه يقحمها هنا باعتبارها أحد التطورات المفصلية التي جرت في التاريخ الحديث للشرق الأوسط

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أنهم سيستخدمون كل سلاح لديهم مهما يكن هذا السلاح في حربهم ضد شارون. إن الحجارة لا يمكن لها أن تهزم الدبابات، ولا الأسلحة الصغيرة يمكن لها أن تواجه المقاتلات الأمريكية الصنع. ومع ذلك فإن الفلسطينيين ما زالوا يواصلون مقاومتهم ولن يتخلوا عنها(36). إن القدرة الفلسطينية على الصمود والتي تعد جزءا من القومية العربية تعكس تقليد المقاومة منذ الحقبة الناصرية. وتعكس كلمة "الصمود" بالنسبة لأي عربي دلالة إيجابية على صعيد فحواها السياسية.

المساعي العربية للتأثير على أمريكا

لقد كانت الانتفاضة الفلسطينية الثانية خبرة مفيدة للعالم العربي. فقد أرغمت العرب على أن يأخذوا على عاتقهم مهمة التقييم الجاد للمواقف الأمريكية تجاههم، والسعي للعمل على أن يكونوا مسموعين بشكل أفضل في الولايات المتحدة. وفي هذا المجال ظهر اتجاهان بشأن طبيعة وفعالية المقاومة المسلحة والتي جعلت منها الولايات المتحدة محور النزاع. فالإسلاميون والقوميون العرب يرون أن استمرار عمليات المقاومة بما في ذلك العمليات الاستشهادية هي الطريق الأنسب واللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل، فيما ترى معظم الحكومات والمعارضة الليبرالية أن التحدي المباشر لإسرائيل عبر السلاح غير مجد وأنه يجب تركيز الجهود على إقناع واشنطن والمجتمع الدولي بإجبار إسرائيل على إعادة الأراضي التي احتلتها عام 1967.

وقد شجع عدد من المثقفين بشكل معلن الحوار مع الإسرائيليين منذ السبعينيات بمن فيهم الروائي المصري نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للأدب، والممثل المصري عمر الشريف، والكاتب المسرحي على سالم، والشاعر السوري أدونيس، هذا فضلا عن عدد من الأكاديميين البارزين يقيمون الآن في الولايات المتحدة مثل العراقي عدنان مكية واللبناني فؤاد عجمي، ويتم توصيف هؤلاء في العالم العربي باعتبارهم "مطبعين" وقد عاني معظم هؤلاء من الرفض وواجهوا معاملة سيئة في العالم العربي واتهموا بمحاولة استخدام هذه النهج في إظهار الاعتدال تجاه إسرائيل لنيل الإعجاب في الغرب.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد تم إقصاء أدونيس من اتحاد الكتاب العرب عام 1996 جراء استقباله عددا من المثقفين الإسرائيليين، كما انتهى الأمر بالباحثة السياسية المصرية سناء حسن إلى الطلاق من زوجها الدبلوماسي البارز تحسين بشير جراء إصدارها كتاب خلال السبعينيات حول إسرائيل بعنوان : "عدو في الأرض الموعودة : رحلة امرأة مصرية داخل إسرائيل". كما سادت حالة من الجدل في الدوائر الأدبية العربية عام 2002 بشأن سعي دار نشر إسرائيلية الحصول على حقوق الترجمة لعدد من الروايات العربية إلى العبرية، رغم حقيقة أن الناشر كان من اليساريين يريد أن يطلع الرأى العام الإسرائيلي على العالم العربي.

وقد لخص الروائي السعودي المشهور عبد الرحمن منيف وجهة النظر السائدة عندما كتب قائلا إن إسرائيل لا تعد فقط جسرا إلى واشنطن بالنسبة لأقطار مثل تركيا والهند، وإنما هي تمثل بطرق مختلفة وسيطا لما هو ذو قيمة وما هو عديم القيمة وما هو مقبول وغير مقبول في الثقافة العربية للاستهلاك الغربي. إن الكتاب العرب الذين يتعاملون مع الغرب يجدون أنفسهم مضطرين إلى التكيف مع صور ومطالب محددة، فهم يجب أن يقوموا بزيارتها (إسرائيل) ويعربون عن اعتذارهم لها وأن يقدموا شخصيات يهودية في أعمالهم تبين تسامحهم وحسن نواياهم وتهدئة المشاعر اليهودية. ومن الواضح أن هناك مساعي متواصلة ــ إسرائيلية ــ لاستغلال مواطن الضعف في الثقافة العربية وجعلها المظاهر المحددة لهذه الثقافة، وهذا يشجع كلا من الباحثين العرب والأمريكيين على التركيز على هؤلاء الملائكة على حساب الآخرين، فلإسرائيل رأى محدد بشأن ما يجب وما لا يجب عليها أن يدرس في الثقافة العربية (37).

ومع ذلك، فقد ذهب عدد محدود من الكتاب بعيدا في قبول الطرح الصهيوني المتواصل بشأن إقامة دولة فلسطينية على أقل مساحة بشكل يحقق المصلحة اليهودية أساسا(38). وفي ذلك راح الكاتب السياسي اللبناني فؤاد عجمي يدافع عن هذه النظرة قائلا في كتابه " قصر الأحلام العربي" أن المشروع السياسي الصهيوني مبرر. كما أشار عجمي كذلك إلى أن بعض المثقفين المصريين – دعاة فرعونية مصر – في أوائل القرن العشرين كانوا متعاطفين مع الصهيونية، فالكاتب المسرحي توفيق الحكيم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

(1902- 1966) (*) كما كتب عجمي، أشار ذات مرة إلى أنه على عكس البريطانيين والفرنسيين والألمان الذين استعمروا جنوب أفريقيا بدون أن يكون لهم روابط تاريخية مع المنطقة، فإن الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين يعودون إلى أرضهم التي سكنوها في الماضي (39).

وقد سلط الجدل الذي دار بشأن تقرير التنمية البشرية العربية الثالث الضوء على صعوبة التوصل إلى رأى عربي بشأن التحيز الأمريكي لإسرائيل لدى التيار الرئيسي من وسائل الإعلام. فبعد المديح المبالغ فيه للتقريرين الأولين للأمم المتحدة بسبب تصويرهما الكامل للحاجة لإصلاح سياسي واقتصادي وديني وتعليمي في العالم العربي، ترددت إدارة بوش في قبول مسودة نسخة من الثالث ــ الأول صدر بعد غزو العراق ــ ذهب فيه المؤلفون وهم مجموعة من المثقفين والإصلاحيين العرب، إلى أنهم لا يرون أي تقدم ملحوظ تجاه الديمقراطية في المنطقة وربطوا ذلك بالاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية والاحتلال الأمريكي للعراق. وعلى ذلك التحقت الولايات المتحدة بمساعي إعاقة التقرير من قبل الحكومة المصرية، والتي لا تحبذ الانتقادات بشأن الإصلاح العربي (لم يكن لدى الحكومة المصرية وكذلك نظيراتها من الحكومات العربية الأخرى تعاطف كبير مع التقريرين الأولين) .

لقد صدر التقرير الثالث متأخرا على الأقل ثلاثة شهور في أبريل عام 2005 مع تنصل مارك براون مدير برنامج الأمم المتحدة للتنمية منه في المقدمة حيث قال إن عملية كتابة هذا التقرير تمثل مصدرا للمعرفة العامة، ولسوء الحظ فإنها سياسية ولا تتسم في الغالب بتقديم توقعات دقيقة (40). وأضاف إن بعض وجهات النظر التي تم التعبير عنها من قبل المؤلفين لا تمثل وجهات نظر برنامج الأمم المتحدة للتنمية أو الأمم المتحدة، ولكن التقرير يعكس بوضوح غضبا حقيقيا وقلقا سائدا عبر المنطقة .

ما الذي يقوله التقرير؟ إن الاحتلال أعطى الحكومات العربية مبررا لتأجيل الديمقراطية، وفرض على الإصلاحيين العرب تحويل جزء من طاقتهم بعيدا عن الإصلاح وعزز الجماعات المتطرفة والتي تدافع عن العنف. كما أن الولايات المتحدة

* توفى الحكيم فى 27 يوليو عام 1987

www.ibtesama.com/vb Exclusive

قوضت النظام الدولي كذلك من خلال تكرار استخدام أو التهديد باستخدام الفيتو في مجلس الأمن الدولي لتمكين إسرائيل من إقامة مستوطنات يهودية جديدة في الأراضي المحتلة، ومصادرة الأرض في إطار هذه العملية والاستمرار في إقامة الجدار العازل في الضفة. وفي تحليلهم لجذور الأوتوقراطية في الشرق الأوسط، استشهد المؤلفون باكتشاف النفط، وإنشاء إسرائيل، وظاهرة الدول التابعة خلال فترة الحرب الباردة والطبيعة الهشة والمصطنعة لأغلب الدول العربية التي أنشئت خلال فترة القضاء على الاستعمار.

ويتحدى المؤلفون بشكل واضح التفكير الرائج في واشنطن بأن حل النزاع الفلسطيني الإسرائيلي يجب أن يأتي إثر حل المشكلة الهيكلية المتعلقة بالعجز الوظيفي للدول العربية وهو الأمر الذي انتهى بالمؤسسات الديمقراطية العربية ــ حيثما وجدت ــ إلى الانصراف عن هدفها الحقيقي بشأن دعم الحرية؟ إن الإجابات ليست ثقافية – كما تزعم بعض التحليلات الأجنبية – ولكن سياسية، حسبما يذهب المؤلفون، مستشهدين بعقود طويلة من فرض حالة الطوارئ من قبل السلطات في المنطقة، فضلا عن القضاء على استقلال المحاكم والبرلمانات، وكذا المعايير المزدوجة للقوى الأجنبية ، التي تقبل بل وتشجع الحكم الأوتوقراطي، حسبما يرى المؤلفون ، مقابل الاستقرار السياسي وضمان وصول إمدادات الطاقة (41).

وقد أسفرت محاولة مقاطعة كل ما هو أمريكي والتي جرت في العالم العربي للتأثير على السياسة الأمريكية عن نتائج محدودة حال العمل على تفعيل هذا التوجه. وجاءت هذه المحاولة إثر قبول الإدارة الأمريكية للعمليات العسكرية الإسرائيلية المكثفة التي بدأت عام 2002، وكذا التحركات التي قامت بها للحيلولة دون إدانة هذه العمليات من قبل مجلس الأمن الدولي (جاء هذا الموقف بسبب رفض المجموعة العربية في المجلس بقوة مساواة العمليات الفلسطينية بالعمليات الإسرائيلية واسعة النطاق).

ومكنت الدعوة للمقاطعة جراء انتشارها عبر شبكة الإنترنت والخطب في المساجد، والملصقات ورسائل الهاتف المحمول، من حشد الجماهير العربية لمقاطعة منتجات أمريكية شهيرة. فقد كان موقع الداعية القرضاوي يرفع شعار "قاطعوا أمريكا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

من علب البيبسي إلى البوينج". فيما عرضت لوحة كبيرة في دمشق مناظر مرعبة للقوات الإسرائيلية وهى تهدم مخيم جنين مع شعار قاطعوا المنتجات الأمريكية - لا تكونوا شركاء في الجريمة باللغة العربية والإنجليزية. وقد نشرت صحف تابلويد قائمة بأسماء الشركات التي يجب مقاطعتها تطبيقا للدعوة مثل شركة بيبسي ، والتي راحت تشير إلى أنها تعد اختصارا لعبارة "ادفع كل بنس من أجل إنقاذ إسرائيل". وفي رد فعل على حملة المقاطعة حرص وكلاء المنتجات والخدمات على الترويج لهذه المنتجات والخدمات عبر الفضائيات باعتبار أنها تتمتع بالأصالة العربية.

وروجت وكالة "أمريكانا" للإعلان ، التي أنشئت في مصر خلال السبعينيات ،أثناء المقاطعة لإعلاناتها على التليفزيون بعبارة "عربية مائة بالمائة". وقد ارتبط تنامي هذه المشاعر المعادية للولايات المتحدة كذلك بتقارير بشأن إساءة معاملة العرب والمسلمين في الولايات المتحدة بعد أحداث 11 سبتمبر. وهنا تجدرالإشارة إلي أنه بدون مساندة حكومية لم تكن المقاطعة لتحقق نجاحا كبيرا في الإضرار بالاقتصاد الأمريكي. وقدر إجمالي الصادرات الأمريكية إلى الشرق الأوسط بنحو 20 مليار دولار في عام 2000 تمثل نسبة 2.5 % من إجمالي الصادرات الأمريكية، في ذات الوقت الذي اتجهت فيه فوائض الثروة الخليجية العربية للاستثمار بشكل كثيف إلى الغرب والولايات المتحدة.

ومع ذلك أتت المقاطعة ببعض النتائج الجديرة بالاعتبار، فسلسلة محلات البقالة البريطانية سينسبري أغلقت فروعها التي كانت افتتحتها حديثا في مصر بعد انتشار الشائعات خلال عام 2001 بأنها مؤيدة لإسرائيل مما أثر بشكل بالغ السوء على مبيعاتها. كما أن مبيعات مسحوق غسيل "أريال" الذي تنتجه شركة بروكتور وجامبر تراجعت كذلك نظرا لكون المسحوق يحمل الاسم الأول لشارون. وقد أشار مقاطعو المعارضة إلى أن الكثير من الماركات الأمريكية المعروفة لا تعكس سوى صيغة الوكالة فقط وأنه يتم إنتاجها فعليا في الدول العربية وعلى ذلك فمقاطعة مثل هذه المنتجات يضر أساسا مصالح الملاك المحليين للوكالات ومن يعملون لديهم.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

من المثير للدهشة أنه ، حتى على مستوى المثقفين فى العالم العربي لم يجر التركيز على التماس المساندة لدى عناصر خارج السياق الأنجلو ــ ساكسوني في الولايات المتحدة، والتي تحدد وتوجه الخطاب العام بشأن النزاع العربي الإسرائيلي. إن العالم العربي لم يستطع أن يلم بحقيقة أنه إذا كانت إسرائيل تستحوذ على خيال الأمريكيين البيض بشكل خاص، فلماذا يساندها الأمريكيون الهيسبان أو السود بشكل آلي على حساب الفلسطينيين؟

إن نحو 50% من سكان الولايات المتحدة حسبما ذهب هنتنجتون في دراسته من أصول مهاجرة ومن المتوقع أن يتوافقوا مع الإطار السياسي المحدد للمصالح والمعتقدات الذي أرسته النخبة الأنجلو ــ ساكسونية. وقد نجحت إسرائيل في جعل نفسها جزءا من هذا الإطار، حسبما تكشف رؤي فؤاد عجمي وهو من أصل عربي أو فريد زكريا رئيس تحرير "النيوزويك" الدولية وهو من أصل هندي مسلم. غير أنه ربما يكون لدى الأمريكيين الهيسبان بشكل خاص الكثير من الأسباب للتفكير بصورة مختلفة.

إن موجة الهجرة الهيسبانية من المكسيك إلى الولايات المتحدة تمثل علامة على عودة الهنود الأصليين من سكان شمال أمريكا الذين جرى القضاء عليهم من قبل المستوطنين الأوروبيين، ولكن يتكلمون الإسبانية، ولدى هؤلاء الهيسبان الأمريكيين ما يعزز بالنسبة لهم وجود رابطة بين خوف الأمريكيين البيض من المكسيكيين والخوف الإسرائيلي من "إسرا ــ طين"، وما على العرب سوى النظر إلى جنوب حدود الولايات المتحدة ، لكي يلمسوا الدليل على وجود وضعية خاصة للقضية الفلسطينية في جنوب ووسط أمريكا حيث توجد مجتمعات شتات فلسطينية بارزة. لقد استضافت البرازيل قادة أمريكا الجنوبية والدول العربية في قمة 2005 لتعزيز الروابط الاقتصادية والسياسية بين الكتلتين. ولكن بشكل مماثل، لم تأت المبادرة من الجانب العربي، حيث لا ترسل الأنظمة سوى وفود منخفضة التمثيل مزودة بتعليمات بالتروي في الإقدام على أي خطوات تقارب خشية صدور رد فعل سلبي من واشنطن.

لقد رأي العالم العربي في الزعيم الفلسطيني محمود عباس الذي خلف ياسر عرفات كرئيس للسلطة الفلسطينية في 2004 ، زعيما مدنيا يستطيع أن يقدم نهجا معتدلا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يحظى بتقدير السياسيين ومشاهدي التليفزيون الأمريكيين. (ورغم ذلك فقد اختار أن يدلي بأحاديث ولقاءات مع شبكات غير صديقة للعرب). لقد ألقت خبرة التطورات الصعبة علي صعيد القضية الفلسطينية بثقلها على تحول عباس من راديكالي ثوري إلى سياسي يتحلى بالهدوء. وتكشف العودة إلى مواقفه عن صحة تلك الرؤية حيث كتب في عام 1983، عن أن الصهيونية لا يمكن استئصالها سوى عبر بذل قصارى الجهد المسلح. وحسب قوله فإن العنصر الإنساني دوما المشكلة الأكثر صعوبة، الأمر الذي لا تستطيع أمريكا نفسها أن تقدم له حلا بشكل مقنع وفي إطار الحيز المطلوب. إنه يشكل كعب أخيل بالنسبة للمشروع الصهيوني .. وعلى هذا، فإن كل العمليات العسكرية يجب أن تستهدف مراكز السكان لتوجيه ضربة قاصمة للعدو من خلال الانقضاض على معظم ممتلكاته الثمينة(42).

ومن وجهة نظره إن الواجب الأول والأخير لكل بندقية فلسطينية أن تتوجه إلى الأراضي المحتلة واستبعاد الصهيونية من أرض المعركة بكل الوسائل المتاحة والشرعية والممكنة وأن يتم استهداف الكائنات الإنسانية ثم الكائنات الإنسانية، ثم الكائنات الإنسانية .

ولكن عباس تحدث إلى قناة "العربية" في أبريل عام 2005 قائلا بأن الحديث العربي عن ضرورة إلقاء اليهود في البحر لم يعد عمليا. وقد جرى الترحيب به بأذرع مفتوحة من قبل البيت الأبيض كرجل دولة يستحق الحديث معه. وإزاء ما رآه من أن حل الدولتين يمكن أن ينتهي إلى الاندثار إذا تركت الولايات المتحدة الأحداث تنزلق إلى الهاوية، أعلن عباس أن عهد العمليات قد ولى (43)، أو حسبما قال اعتقد أنها حقبة انتهت. لقد بدأنا التعامل مع ثقافة العنف، وقد أوقفنا هذه الثقافة، وبدأ الشعب الفلسطيني النظر لها على أنها ثقافة يجب إدانتها والتوقف عن ممارستها0 وفي ظل عباس ونهجه، تزايد الأمل بين العرب ــ الحكومات التي انتابها التعب، والديمقراطيين ــ بإمكانية التعاطي بجدية من قبل واشنطن مع الفلسطينيين، الأمل الذي لم يجد طريقه إلى النور، إثر تصويت الفلسطينيين الذين يعانون داخل الأراضي المحتلة لصالح حركة حماس الإسلامية بشكل وصل بها إلى السلطة عام 2006 في الانتخابات التشريعية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفي رصد هذه التحولات على الصعيد الفلسطيني راح المحلل المصري مأمون فندي الذي يقيم في الولايات المتحدة ويعد واحدا من لوبي الليبراليين الديمقراطيين العرب يقول إن الفلسطينيين نضجوا سياسيا. ومما ذكره (44) : كان لي لقاء مع سيادة الرئيس عرفت منه ومن أطراف أخرى ، أن هناك فارقا جوهريا قد حدث بين تعامل البيت الأبيض مع الفلسطينيين تحت قيادة الرئيس عباس وتعامله مع سلفه. لدينا الآن عنوان جديد للقضية ووجه جديد يمثلها غير كل الوجوه السابقة لدينا رجل دولة في شخص محمود عباس وليس لدينا رجل حركة. انتقلت القضية مع محمود عباس من مراهقة الحركة إلى رشد الدولة... وأقول للرئيس بوش : "سيدي الرئيس إن فلسطين هي هذا النموذج الديمقراطي وربما يمكن تحقيقه بإمكانات أقل وبسرعة أكبر من نموذج الديمقراطية في العراق، لو صرفت أمريكا على فلسطين ربع ما أنفقته في العراق لكان لدينا هذا النموذج". ويوجد شعور بين المثقفين مثل فندي بأن العالم العربي أصبح أسير بلاغته، وأنه لا يوجد أحد يجرؤ أن يقول بصدق أن الوقت الحالي هو المناسب لوقف القتال الذي لم يأت بالنتائج المرجوة منه.

وكان بإمكان المرء خلال الانتفاضة الثانية، أن يسمع تعليقات غاضبة من الناس العاديين في الشارع بشأن العنف المتواصل والذي يؤدي إلى ضياع ثروات المنطقة، فقد أدت الانتفاضة، فضلا عن أحداث سبتمبر والحرب على العراق، إلى تدهور وضع السياحة والأعمال في المنطقة ما أدى إلى مغادرة السياح ورجال الأعمال من عدة دول بالمنطقة. ومثل ذلك ضربة كبيرة لمصر بشكل خاص التي يتجاوز سكانها 70 مليون نسمة، ويعتبر مستوى الدخل الفردي بها منخفضا. وقد جاء ذلك وسط ظروف لم يكن الاقتصاد في وضع يسمح له بالحيلولة دون تراجع قيمة العملة المحلية أو ارتفاع الأسعار أو تزايد معدلات البطالة. ولعله على خلفية هذه الحقائق ذهب الكثير من المحللين إلى الترويج لشكوك تنتابهم بأن مصر وبعض الحكومات العربية الأخرى تأمل ــ دون أن تعلن عن ذلك بشكل علني ــ في انهيار حكومة حماس، على الرغم من الخطاب المعلن بشأن احترام إرادة الشعب الفلسطيني التي عبر عنها خلال انتخابات ديمقراطية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الحكومات العربية
والمهادنة الأمريكية الإسرائيلية

لعله مما كان يثير الدهشة بشأن المقاطعة أنها مثلت محاولة حقيقية من قبل الشعوب العربية لمواجهة ما تراه انعدام فعالية، بل وتورط حكوماتهم في جريمة المعاناة الفلسطينية. كان مفاد المقاطعة من قبل رجل الشارع أنه حتى إذا رفضت حكومته تحدي الولايات المتحدة فإنه سيفعل ذلك بنفسه. فلقد نأت معظم الحكومات العربية بنفسها عن المقاطعة متجهة إلى تخفيض أو قطع علاقاتها مع إسرائيل، حيث استدعت مصر سفيرها لدى تل أبيب في نوفمبر 2000، بعد شهرين من اندلاع الانتفاضة، غير أن سفيرا جديدا عاد إلى إسرائيل في مارس 2005 بعد ضغط أمريكي. وقد تطرق الرئيس المصري بشكل واضح إلى المقاطعة معلنا رفضه لمقاطعة الولايات المتحدة في ديسمبر 2005 حيث قال إنه يجب تبيان الفائدة التي يمكن تحقيقها من مقاطعة البضائع الأمريكية، وعلى سبيل المثال، فإن صادراتنا إلى السوق الأمريكي ستتأثر، ثم هل يجب علينا مقاطعة قطع الغيار والمحركات والطائرات، أو نقوم بعملية اختيار للمنتجات. إن قرار مقاطعة البضائع الأجنبية يجب أن تحكمه المصلحة العامة وليس المشاعر الرومانسية(45).

ومن وجهة نظر المثقفين، يتشابه هذا الموقف مع تلك التي تمثلها بقية الأنظمة العربية. لقد أدت الانتفاضة الثانية ــ التي اتسمت بكونها أكثر قسوة وحظيت بمتابعة أكثر، إلى حدوث جولة جديدة من الإكراه بشأن الدولة ومصير الحضارة العربية الإسلامية. على المستوى الثقافي ألقت الانتفاضة بالعالم العربي في نوبة أخرى من اليأس الشامل بشان عدم قدرته على حماية نفسه والحفاظ على مصيره. وقد قال الروائي المصري صنع الله إبراهيم لقد أصابني الإحباط وهذا يلقي بتأثيره على ما تنتجه. إنه شعور بالغضب العارم والضعف أمام موقف بالغ الغرابة، وفيه توجد جريمة مخيفة ترتكب أمامك وأمام العالم بأكمله، ولا يوجد أحد لديه القوة والجرأة على التدخل من أجل وقف ما يحدث. الحكومات العربية تشارك في الجريمة بطريقة أو بأخرى، من خلال الاعتماد على الولايات المتحدة(46).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بل إن بعض الحكومات، مع ذلك، استغلت وبشكل سافر، القضية الفلسطينية لتحقيق ما تراه مصلحتها الخاصة، وفي ذلك قال الرئيس اليمني علي عبد الله صالح بعد اندلاع الانتفاضة الأولى أنه يتمنى لو أن اليمن كان له حدود مباشرة مع إسرائيل من أجل الانضمام إلى القتال ــ وهو الموقف الذي علق عليه الرئيس مبارك ساخرا خلال القمة العربية الطارئة في القاهرة في أكتوبر عام 2000 . وقد أظهرت كاميرات التليفزيون التي سلطت على صالح مبتسما مع نظرة إحساس بالذنب بشكل بدا معه مرتبكا. وفي هذا المجال ينبغي الإشارة إلى أن الخطاب اليمني عالي الصوت بشأن فلسطين حقق أهدافا داخلية تمثلت في إضفاء طابع بالغ الوطنية على النظام بشكل مكنه من الإقدام على تعاون غير مسبوق مع الولايات المتحدة للقضاء على تأثير العناصر الإسلامية المتشددة وأنصار القاعدة. ولقد قتلت "السي أي أيه" شخصا زعمت أنه أحد عناصر القاعدة في قصف جوي على الأراضي اليمنية في نوفمبر 2002. وكان أنصار القاعدة في اليمن قتلوا قبل ذلك بعامين 17 بحارا وأصابوا 39 آخرين في تفجير انتحاري استخدموا خلاله زورقا صغيرا مستهدفا المدمرة الأمريكية كول التي كانت ترسو في ميناء عدن.

ويبدو أن الحكومات العربية رأت أن أفضل طريق أمامها هو التقارب مع مواقف الإدارة الأمريكية، والعمل معها على تحقيق حل للنزاع عبر تحييد قوى المعارضة المسلحة للاحتلال الإسرائيلي، فيما يذهب آخرون إلى صعوبة الثقة في الوعود الأمريكية والإسرائيلية، وأن المقاومة يجب أن تتواصل وأن الحكومات العربية يجب أن تتحد في مواجهة التحالف الأمريكي الإسرائيلي بدلا من الانضمام إليه واحدة بعد الأخرى.

وقد تحدث أسامة الباز مستشار الرئيس المصري حسني مبارك في ندوة عن الوضع الداخلي الإسرائيلي وسياساتها الخارجية في عام 2001، أشار فيها إلى أن العرب يجب ألا ييأسوا من إمكانية التأثير على صناع القرار الأمريكي، رغم الوضع المتميز الذي يرى العرب، أن هؤلاء يمنحونه للوبي الصهيوني المنظم بشكل جيد. وواصل الباز عرض رؤيته قائلا أنه مهما يكن حجم مساندة إسرائيل كبيرا من قبل المجتمع اليهودي في أمريكا، فإن أمريكا وإسرائيل ليستا في قارب واحد. نحن يجب علينا التفريق بينهما. إن مواقفهما ليست متطابقة بنسبة مائة في المائة على الدوام. وعبر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المصالح المشتركة واستخدام وسائل الإعلام جيدا، والأقطار الأوروبية والشركات والمؤسسات ــ بما فيها المؤسسات اليهودية ــ يمكن إقناعهم بأن مصالحهم الحقيقية تكمن في رد الحقوق العربية المشروعة وليس في التزام مواقف إسرائيل سواء كانت خطأ أم صوابا (47).

غير أنه مع حلول 2004، بدت إدارة بوش منفتحة للحديث عن الدولة الفلسطينية كنوع من التنازل، أو الهدية وليس حقا طبيعيا، يمكن أن تجد طريقها إلى أرض الواقع فقط في حالة إقدام من يخصهم الأمر على ما يثبت أنهم يستحقون تلك الهدية. وبعد أيام معدودة من لقاء مبارك مع بوش في ابريل 2004 لمناقشة خطة الانسحاب من غزة، ذكر بوش في مؤتمر صحفي في واشنطن أنه سيكون من غير الواقعي الحديث بشأن عودة اللاجئين الفلسطينيين، وكذلك من غير الواقعي توقع تخلي إسرائيل عن الضفة الغربية حيث أقامت مستوطنات منذ عام 1967. وهي التصريحات التي واجهت رد فعل غاضب من قبل عدد من المحللين العرب على الفضائيات، الذين أكد بعضهم أن إدارة بوش بمواقفها تلك ألحقت قدرا من الحرج بالقادة العرب.

فيما ذهب آخرون إلى أن القادة العرب أقروا رؤية بوش في محاولة منهم للحد من حربه الصليبية ضدهم لفرض الديمقراطية وتغيير النظم العربية الأوتوقراطية. وقد تطرقت صحيفة الأهرام المصرية إلى هذا الأمر بشكل واضح اتسم بالنبرة العالية حيث ذكرت أن التحول الجديد في السياسة الأمريكية تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط يمثل علامة على انتهاك جديد للقانون الدولي وقرارات مجلس الأمن الدولي، وهو ما سيتسبب في تواصل واستمرار دائرة العنف في المنطقة. لقد قدمت الإدارة الأمريكية مساندة غير مسبوقة لإسرائيل، منكرة حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم ومضفية الشرعية على المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية". وقد وصل الأمر بالأهرام إلى الإعراب في افتتاحيتها(48) عن أملها أن يدفع التحول الجديد في السياسة الأمريكية الدول العربية لحشد صفوفها واتخاذ موقف موحد لضمان حقوق الشعب الفلسطيني.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وكان من نتيجة هذه التحولات شعور المواطن العربي والنخبة المثقفة غير المطلعة على خبايا صنع القرار أنه تم تضليلهم بسلسلة الوعود الكاذبة، وفي ذلك الخصوص سادت عمليات غمز ولمز من القادة لجهة تأكيدهم أن عملية السلام سوف تنتهي بتحقيق العدالة لصالح الفلسطينيين. لقد كان ذلك يعني بالنسبة للكثيرين استعادة الأراضي التي تم احتلالها عام 1967 بما فيها القدس الشرقية، بدون الجزء اليهودي من المدينة القديمة وحائط المبكي، وهو المطلب الذي تعترض عليه المؤسسة السياسية الإسرائيلية. وفيما بين 1993 و 1996 سادت حالة من الصمت بشأن إزالة المستوطنات، الأمر الذي يستنكر حزب العمل الإسرائيلي إمكانية حدوثه، فيما يؤكد القادة العرب ثقتهم المطلقة في حدوثه وأن الموقف الإسرائيلي بالرفض لا يعبر عن حقيقة الأمر وأنه موجه فقط إلى الرأي العام الإسرائيلي.

ومع الأمل المتجدد بالتوصل إلى نهاية للنزاع عام 2005 عندما تولي محمود عباس مهام القيادة الفلسطينية، تراجع رصيد هذا الأمل بين الحاكم والمحكوم وبدا أقل مما كان عليه من قبل.. لقد تحدث عباس عن الحد الأدنى الفلسطيني للسلام في خطبة مذاعة موجها حديثه للفلسطينيين بمناسبة الذكرى 57 للنكبة قائلا(49) أن "السلام، الأمن، والاستقرار في الشرق الأوسط معلقون على التوصل إلى حل عادل لقضية عادلة تقوم على الشرعية الدولية التي تتمثل في حق شعبنا في إقامة دولة مستقلة عاصمتها القدس وأن يتم التوصل إلى حل عادل ومتفق عليه لقضية اللاجئين بالتوافق مع قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 149. لقد قال المسئولون الفلسطينيون أنه رغم البيانات الإسرائيلية بشأن إحكام القبضة على الضفة، فإن إعادة الانتشار في غزة في سبتمبر 2005، يمكن أن يخلق آلية للانسحاب تنسحب على بقية الأراضي في السياق السياسي الجديد.

لقد احتشدت الحكومات العربية دفاعا عن القيادة الفلسطينية عندما رفض ياسر عرفات عرض وساطة أمريكية للسلام من إسرائيل في كامب ديفيد في صيف عام 2000. وكان ذلك بمثابة تحول مفاجئ بشكل جعل الكتاب في الصحف الحكومية المصرية، على سبيل المثال، يتحولون من صمت الأشباح بشأن المحادثات إلى شلال

www.ibtesama.com/vb Exclusive

هادر بالكتابة عن الحقوق العربية والمسلمة في القدس الشرقية بمجرد انهيار هذه المحادثات. وقد ظهرت هذه الكتابات بشكل متكرر على برامج التليفزيون الرسمي التي تتطرق إلى ما تكتبه الصحافة اليومية. لقد تصورت مصر والسعودية أنه بدون هذا الصخب المتفق عليه بشأن القدس، فإنه سيتم لومهما ومعهما عرفات على فشل محادثات كامب ديفيد ــ الأمر الذي أصبح النظرية المهيمنة في الولايات المتحدة على أية حال.

الوقت يفوت على حل الدولتين

عندما التقي عباس الرئيس بوش في مايو 2005، كانت رسالته أن الوقت يمر وينقضي، بينما تجعل سياسة بناء المستوطنات وبناء الجدار العازل من حل الدولتين مستحيل التطبيق. وبينما يبدو أن اليمين الإسرائيلي يفضل هذا الوضع ، فإنه في الواقع سيؤدي إلى نهاية الدولة الإسرائيلية بتشكيلتها الحالية ككيان حصري لليهود. يوجد تطوران متناقضان في العملية هنا: سياسيا، تشدد إسرائيل قبضتها على الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة، ولكن الفلسطينيين يتسع نطاق وجودهم السكاني عبر الأراضي المحتلة، وفي إسرائيل نفسها. وقد تخلت إسرائيل عن مستوطناتها في غزة في سبتمبر 2005، ولكن سيطرتها النهائية على القطاع الساحلي الضيق المليء بالسكان باقية. وعلى ذلك، فإنه بدون تطهير عرقي أو نظام للتمييز العنصري، يمكن أن تصبح إسرائيل دولة يهودية عربية. وإذا ما أصرت إسرائيل على إبقاء قبضتها على أراضي الضفة الغربية مع نظام الطرق القائم وسط الحماية القائمة من قبل الجيش بشكل يقسم الأراضي إلى كانتونات فلسطينية – فمن غير المحتمل أن يقبل الفلسطينيون إن يطلقوا على تلك المناطق المتبقية والتي لن تتضمن القدس الشرقية دولة فلسطينية.

أما بالنسبة لليمين الإسرائيلي ومؤيديهم في الولايات المتحدة، فإن مفتاح المرحلة الحالية من النزاع يكمن في إقناع القيادة الفلسطينية الجديدة بقبول هذه النسخة من الدولة. وحسبما ذهبت "ميدل إيست ريبورت" في تحليل لها للسياسة الإسرائيلية(50) فإن شارون يعمل من خلال تلك السياسة على فرض علاقة جديدة مع الفلسطينيين الذين يتفاوضون مباشرة مع واشنطن. وأن ذلك من وجهة نظره سيتواصل على مدار جيل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

سواء بتوافق وتعاون فلسطيني أو بدونه. وأما بالنسبة لبوش فإنه في ضوء قلقه المتواصل من الحسابات السياسية الداخلية وفي ضوء ربطه لنفسه بالعراق وإعادة صياغة المنطقة، فإنه يبدو في أغلب الأحوال يسلك الطريق الأقل مغامرة.

وتأمل إسرائيل أن تجعل الجدار العازل ، مع رضوخ أمريكي لموقفها ، حدودها الشرقية مع الفلسطينيين، فيما يخشي اليسار الإسرائيلي من أن يؤدي ذلك إلى استثارة الفلسطينيين بشكل ينتهي بهم إلى بدء انتفاضة ثالثة. (ولعل ذلك السبب الذي يجعل الكثير من المحللين العرب يتشككون في أن ذلك وراء سعي إسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة للضغط على القيادة الفلسطينية من أجل نزع سلاح المقاومة). وعلى هذه الخلفية يرى اليسار أن الصهيونية بالغت بشكل كبير بشأن وضعها وفي تصوير قوة خصومها – عسكريا – وأنها الآن يمكن أن تقع ضحية طموح حلمها الذي يتجاوز الحد.. إن اكتساب الأراضي لا يعني سوى شئ واحد، ولكن الأمر المتعلق بكيفية التعامل مع السكان الأصليين من غير اليهود ثبت أنه قضية أخرى كلية.

وهنا توجد مقارنة ذات دلالة يمكن ان تنسحب على تلك الفترة من التاريخ التي شهدت تشكيل الحضارة العربية الإسلامية بعد الغزو (الفتح الإسلامي) في منتصف القرن السابع الميلادي. لقد أعطى المؤرخون الإسلاميون الانطباع بأن الشرق الأوسط كان دوما عربيا ومسلما، وكان العلماء الغربيون يقبلون حتى وقت قريب بهذه الرؤية للأحداث. بينما أن الواقع يوضح أن معظم المناطق التي تم غزوها من قبل العرب، لم تكن عرقيا أو لغويا عربية في تلك الفترة من الغزو، مع استثناء شبه الجزيرة العربية. إن الشرق، بما فيه فلسطين، والعراق كانوا عرقيا مشابهين، لعرب شبه الجزيرة ويتكلمون لغة قريبة من اللغة العربية – لهجات مختلفة من الآرامية. وبالنسبة للجزء الأكبر، فإنهم كانوا على الأقل اسميا مسيحيين. وقد استغرق الأمر قرونا للعراق، والشرق، ومصر وشمال أفريقيا لكي تصبح بالكامل عربية وإسلامية.

في القرن الأول للسيطرة العربية، كان الإسلام حصريا دين القبائل العربية، بشكل مشابه للطريقة التي تعتبر اليهودية دين القبائل اليهودية لا غير. ويسجل المؤرخون الإسلاميون حوادث مختلفة سعى الفلاحون من خلالها بهمة إلى أن يكونوا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

عربا عبر الانتماء الاسمي للقبائل العربية، بما يمكنهم من التحول ليكونوا مسلمين وتجنب دفع الجزية على أولئك الذين لم يكونوا من النخبة الحاكمة. إن التحول السياسي من الخلافة الأموية إلى الخلافة العباسية يمثل تحولا حرجا من الإسلام كدين عرقي إلى الإسلام كدين عالمي. لقد هزم الأمويون، الذين كانوا يتخذون من دمشق مقرا للخلافة، في عام 750 ميلادية من قبل العباسيين، الذين نقلوا مركز الدولة العربية الإسلامية إلى العراق، ومدينتها الجديدة بغداد، حيث تختلط العديد من الجنسيات وبشكل خاص الفرس، بين السكان الذين بالكاد بدءوا يتحدثون العربية.

وعلى المنوال ذاته تعد الدولة الإسرائيلية كذلك نتاج حركة دينية عرقية.. الصهيونية، ولكنها حركة تواجه بمقاومة من قبل الشعب الذي جرى غزوه. اليوم لا يوجد احتمال بتخلي الفلسطينيين عن العربية كلغة لصالح العبرية، وينتفي كذلك الاحتمال بأن يمارس الفلسطينيون ضغوطا على النخبة التي تحكم فلسطين التاريخية لكي يصبحوا يهودا. كما أن إسرائيل لا تريد ذلك أيضا. وهكذا فإنهم يتكاثرون عدديا – أو يتكافئون – مع اليهود بل قد ينتهي بهم الأمر إلى التفوق العددي عليهم. وربما يمثل الهدف من إنشاء الجدار الإسرائيلي العازل الذي يمتد عبر الضفة الغربية قاطعا أوصال القرى والمجتمعات الفلسطينية، في محاولة للإحاطة بالمستوطنات اليهودية وعزلها في بيئة معادية في قلب الدولة الإسرائيلية، التعاطي مع هذه المشكلة المحيرة أكثر من التعاطي مع الخوف المعلن من العمليات الاستشهادية.

وعلى شاكلة إمبراطوريات مينج الصينية يبدو أن إسرائيل تبني الجدار، لكي تحافظ على نفسها من الحشود البربرية من الفلسطينيين. فيما أن هؤلاء الأخيرين يوصفون الجدار العازل بحائط الفصل العنصري. ومن الملفت للنظر على صعيد دلالات استخدام هذا المصطلح، كونه يشير إلى الحاجز النفسي بشأن المطالبة بوضع متساو في إطار دولة واحدة – سواء أكانت تحمل اسم إسرائيل أو أي اسم أخر – وهو الوضع الذي يتم خرقه وعدم الالتزام به.

إن التمييز العنصري يطبق الفصل على ما يفرض الواقع تجمعه. إن فلسطينيي الأراضي المحتلة ليسوا هناك بعد ولكن المفكرين يتساءلون عما إذا كان الأمر ليس

www.ibtesama.com/vb Exclusive

سوى مجرد مسألة وقت فقط لا غير. إن عرب إسرائيل كما كشفت الانتفاضة الثانية، ما زالوا ملتزمين بالقواعد التي يفرضها وجودهم في إطار الدولة التي يعيشون عليها، وهم لا يرغبون في الوقت ذاته في الانضمام إلى سلطة الدولة الفلسطينية. وقد أشار المناضل الفلسطيني مروان البرغوثي إلى ذلك خلال كلمته التي أدلي بها بالعبرية لدى محاكمته في إسرائيل عام 2003 حيث قال إذا لم ينته الاحتلال من جانب واحد أو من خلال المفاوضات، فإنه حينئذ يوجد حل واحد. دولة واحدة لشعبين. إن ما يسمى بالجدار الأمني لن يحقق الأمن. إن جدارا للسلام يبنى من قبل الشعبين معاً هو الذي سيجلب الأمن للجانبين. لقد اختلطنا معاً كشعبين، أسيادا وعبيداً، محتلين وخاضعين للاحتلال. وقد مرت اليوم ثلاث سنوات (*) وأنا آمل أن يكون الإسرائيليون قد تعلموا أن الشعب الفلسطيني لا يمكن إخضاعه بالقوة"(51).

ويخشي اليسار الإسرائيلي، بعيدا عن النخبة المثقفة بالغة الصغر التي تعكس تيار «ما بعد الصهيونية» والتي تفضل حل الدولة الواحدة، مثل هذا المستقبل. وقد هاجم داعية السلام الإسرائيلي يوري أفنيري البرغوثي لما اعتبره تلويحا بتكتيك غير مسؤول يستهدف من خلاله إثارة الخوف قائلاً : "إن مروان البرغوثي ليس الوحيد الذي يستخدم ثنائية القومية كفزاعة. وقد لوح العديد من الفلسطينيين البارزين مؤخرا بهذه الفزاعة – ليس فقط بسبب كونهم يؤمنون بذلك، ولكن من أجل دفع الإسرائيليين لقبول حل الدولتين، التي تعد خطة السلام الأساسية المطروحة من أجل حل الصراع" (52). قد يبدو أنه يوجد احتمالان فقط : دولة واحدة على كامل الأراضي التي تمثل فلسطين والتي ستكون بالضرورة ثنائية القومية، أو دولة إسرائيلية على جزء من الأرض، داخل الخط الأخضر بجوار دولة فلسطينية. ولكن يوجد هناك احتمال ثالث: دولة إسرائيلية على كامل الأراضي مع طرد السكان الفلسطينيين بالكامل كذلك. ويتطرق القليل من الإسرائيليين إلى هذا الاحتمال بصراحة ولكن الغالبية العظمى من الإسرائيليين ترى إمكانية تحقيقه رغم عدم تطرقهم للأمر بشكل علني.

* من الواضح أن المقصود هنا ثلاث سنوات على بدء الانتفاضة الثانية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد أشار أفنيري إلى أنه بدلا من نموذج التطهير الذي جرى في كوسوفو، يضغط الإسرائيليون على الفلسطينيين لبيع أرضهم من خلال إقناعهم بأنه من الأفضل لهم الحصول على أموال مقابل ذلك في الوقت الحالي قبل أن تطردهم السلطات لأسباب أمنية. ويبدي الكثيرون تساؤلهم في الوقت الحالي بشأن المدى الذي يمكن للولايات المتحدة، على الأقل في ظل ظروف هيمنة تفكير اليمين المحافظ على صنع القرار هناك، أن تسمح لنفسها بالتواطؤ في تنفيذ خطط رسمها اليمين الإسرائيلي لصياغة الأوضاع المستقبلية بشكل يتم من خلاله انتزاع عروبة فلسطين، وتعزيز وضع دولة إسرائيل كدولة يهودية ذات قومية واحدة.

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الفصل الرابع

المشروع العراقي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاتجاهات العربية نحو حرب 2003

ووجهت الحرب الأمريكية على العراق بقدر كبير من الرفض في العالم العربي، وفي ذلك الصدد حذر عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية من أنها " ستفتح كل أبواب الجحيم"، فيما اعتبر عدد من مقدمي برامج الفضائيات سقوط بغداد أكبر كارثة حلت بالعرب منذ عام 1948. وبدت وسائل الإعلام العربية في مجملها في حالة صدمة من رؤية قوات أجنبية، بعد نحو خمسة عقود من انتهاء المشروع الاستعماري الغربي والذي من المفترض أنه أصبح في عداد التاريخ ، تعود وتحتل دولة تمثل جوهر الشعور الجماعي بالهوية العربية ومحورا أساسيا في التاريخ والثقافة العربية(1). ورغم ذلك أقرت قلة محدودة من ذوي الاتجاهات الديمقراطية خطط واشنطن وإن لم يعلن سوى عدد محدود منهم تأييدهم ذاك على الملأ. وأصبح واضحا بعد الحرب تناغم موقف السنة العراقيين من العرب، والذين مثلوا أقلية احتلت وضعا استراتيجيا في الدولة وينظرون لأنفسهم باعتبارهم تقليديا الضمانة للوحدة العراقية، مع الاتجاهات السائدة على نطاق واسع في إطار العالم العربي، بينما اختلف موقف الأغلبية الشيعية العربية والأقلية العرقية الكردية – الطائفتين الفائزين بشكل كبير من الحرب .

وقد شارك معارضو الحرب بمختلف أنحاء العالم مواقف العالم العربي ووجهات نظره، وإن كان للعرب تحفظاتهم التي تتجاوز ما طرحه الآخرون. كان ينظر إلى الحرب على أنها عمل من أعمال الاستعمار الذي يتجاوز كل الحدود، استعمار استخدم شعارات زائفة بشأن تحقيق الديمقراطية والإطاحة بطاغية يسعى لامتلاك أسلحة خطيرة، من أجل أحلام كبرى تلحق ضررا بالغا بالمصالح الأمريكية الاقتصادية والجيوبوليتكية. كما كانت الحرب كذلك تصب في مصلحة إسرائيل التي شكلت جزءا من هذه المصلحة الجيوبوليتكية، وقد أيد أنصار إسرائيل ممن يطلق عليهم المحافظون الجدد ، الحرب ومارسوا ضغوطا مختلفة من أجل بدئها، بعد أن قضوا معظم العقد الفائت في محاولة التنبيه إلى مخاطر من يرونهم خصوما لإسرائيل وتمثلوا بشكل أساسي، وفقا لرؤيتهم في العراق وسوريا وحزب الله اللبناني ومجموعات المقاومة الفلسطينية. وفي الوقت ذاته كانت واشنطن تريد السيطرة على احتياطات النفط العراقية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

– ثاني أكبر احتياطي نفطي عالمي – والذين يمكن أن يمثل مجالا لعقود تعود بالثروات على الشركات الأمريكية، في ظل حقيقة أن عودة النفط العراقي إلى السوق العالمي سيزيد من مرونة السوق ويحد من تأثير الدولة الرئيسية المصدرة له التي أصبح ينظر إليها فيما بعد 11 سبتمبر على أنها عدو وليست صديقا.

كان التفكير الأمريكي ينطلق من أن " الفوضى الخلاقة" الناجمة عن حرب شاملة ستسمح بعقود أخرى لرجال الأعمال الأمريكيين لإعادة بناء ما تدمره الحرب وتعزز موقف الولايات المتحدة باعتبارها القوة العالمية العظمى الوحيدة، فضلا عن دلالتها بالنسبة للقوى الدولية المنافسة مثل الصين وألمانيا وروسيا ، حيث يمكن أن تكون رسالة لهم بأنها تعتزم أن تبقي على القمة لعدة أجيال مقبلة، الطرح الذي قدمه أكثر من مرة الكاتب المصري البارز محمد حسنين هيكل في برنامجه التليفزيوني الخاص على قناة "الجزيرة" في الفترة التي سبقت الحرب. وقد كان من الممكن أن تعزز عملية إعادة تشكيل العراق وتقديمه من جديد باعتباره دولة ديمقراطية صديقة، وفق الرؤية الأمريكية، وضع الأنظمة والتيارات الموالية للغرب في العالم العربي، وكذلك قطاعات الجماهير المستعدة للعيش في سلام والتطبيع مع إسرائيل والتخلي عن مساندة الفلسطينيين في مقاومتهم للسلام المفروض إسرائيليا.

على الصعيد الدولي، كان ينظر باستخفاف إلى دفاع إدارة بوش عن حقوق الإنسان في العراق باعتباره أمرا غير مقنع، في ذات الوقت الذي كان العالم فيه يولي الكثير من الاهتمام بشأن مدى صحة دعاوى امتلاك نظام صدام أسلحة نووية وكيميائية وبيولوجية من عدمها، وهو الوضع نفسه الذي انسحب على المخاوف التي راحت إدارة بوش تبديها بشأن إمكانية وصول هذه الأسلحة إلى أيدي متشددين إسلاميين، وإن كانت هذه الدعاوى بشكل عام لم تنل الكثير من الفحص وما إذا كانت ذات أساس منطقي يتمتع بالمصداقية أم لا؟

أما بالنسبة للعالم العربي، فقد كان ينظر للغزو باعتباره محاولة لفرض الإرادة الأمريكية على أبناء المنطقة الذين أفلت زمام الإمساك بأمورهم، وأثبتوا عدم استحقاقهم للاستقلال الذي حصلوا عليه منذ خمسة عقود مضت عبر رفضهم السلام الإسرائيلي.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وتركزت المناقشات التي كانت تجري على القنوات الفضائية بعد الحرب على العراق، على شكوك بمحاولة الولايات المتحدة وحلفائها انتزاع العراق خارج مظلة القومية العربية وضمه إلى المحور الإسرائيلي الأردني التركي في تكرار لتجربة حلف بغداد خلال الخمسينات. وتعزيزا لهذه الشكوك ذهب عمرو موسى إلى التأكيد على أن الديمقراطية لا يمكن أن تأتي " على ظهور الدبابات" فيما حذر الرئيس المصري حسني مبارك من أن الحرب يمكن أن تخلق "مئة بن لادن"(2). وانطلقت المعارضة العربية القوية للحرب بشكل أساسي من الاعتقاد الراسخ بأن الحل العادل للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي يعد شرطا أساسيا لإنهاء الاختلال في المنطقة التي جرى مساندة الأنظمة العسكرية غير الديمقراطية فيها، فيما أنه الآن وبعد أحداث 11 سبتمبر أصبح ينظر إليها على أنها تهديد للأمن القومي الأمريكي. ورغم حقيقة أنه لم يكن يوجد من يحب صدام إلا أنه كان رمزا للعراق – بغض النظر عن مدى المبالغة الذي وصلت إليها دعايته بشأن قدراته. بالإضافة إلى ما سبق، فإن صدام في المنظور العربي لم يكن هو الهدف، وإنه إذا كانت واشنطن تريد حل مشاكل المنطقة فإن ذلك يمر عبر القدس وليس بغداد، وهو ما جعل الحرب تنمي الشعور المعادي للولايات المتحدة وتمثل تشجيعا للإسلام المتشدد.

مخاوف الأنظمة من الحرب

كان لدى الأنظمة العربية أسبابها الخاصة للخوف من الحرب، فبعض الحكومات كانت تخشى من تعميم فكرة استخدام القوة العسكرية لتحقيق التغيير في أماكن أخرى، حال نجاح الولايات المتحدة في العراق. كما سادت المخاوف من إمكانية ثورة الشعوب المقموعة غضبا على فشل الحكومات في الحيلولة دون الغزو أو لتراجع الديمقراطية في بلدانهم.

وراجت هذه التصورات بقدر كبير في وسائل الإعلام الغربية خلال الحرب، وكانت تتمحور بشكل أساسي على دولتين هما مصر والسعودية، فقد كانت مصر أكثر نضوجا للانتفاضة الشعبية، فيما كانت السعودية الأكثر عرضة لعمل عسكري أمريكي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

– ازداد الاهتمام الأمريكي بسوريا بعد انتهاء الحرب فقط وبدء التمرد في العراق حيث لم تكن على أولويات تلك السياسة.

وكان هناك شعور عميق في المنطقة بأن أهداف الإدارة الحقيقية بعد 11 سبتمبر تتمثل في مصر والسعودية، الدولتين اللتين كان ينظر إليهما بقدر كبير على أنهما مسئولتان، وأنهما، وفق ما يذهب إليه الكثيرون، الدولتان الأكثر تأثيرا على الدول العربية الأخرى. وفي ذلك دافع أحد تقارير مراكز الأبحاث الأمريكية عن احتلال حقول النفط السعودية وإحلال الأسرة الهاشمية الملكية الأردنية وإعادتها إلى الحكم هناك لإدارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة إذا لم يتخذ الحكام السعوديون خطوات للقضاء على كراهية الولايات المتحدة ومساندة القاعدة. وقد أشار العرض الذي قدم لمكتب السياسة الدفاعية بالبنتاجون في يوليو 2002 إلى العراق(3) باعتباره المحور التكتيكي والسعودية على أنها المحور الإستراتيجي ومصر على أنها الجائزة الكبرى إذا كانت واشنطن تريد كسب العالم العربي إلى صفها (*)

.وقد سعى المعلقون المقربون من الحكومات لتهدئة المخاوف السائدة بأن العراق مجرد بداية بتأكيدهم على خصوصية وضع صدام العراق باعتبار أنه نغمة نشاز حتى بمعايير الشرق الأوسط، لا يمكن مقارنته بجيرانه. وبهذا الخصوص قال جمال خاشجقي، الصحفي السعودي اللامع والذي عمل مؤخرا مستشارا إعلاميا لتركي الفيصل السفير السعودي في لندن ثم واشنطن لقناة "العربية" إن المشهد في العراق، لا يمكن أن يتكرر في أي مكان آخر لا يوجد فيه حاكم مثل صدام حسين. إن الموقف العراقي استثنائي، ولايمكننا مقارنته بإيران أو مصر.. أو دولة مثل السعودية. إن هذا موقف استثنائي، نظام خارج التاريخ وآمل أن يعود العراق ويندمج مع إخوانه وجيرانه"(4).

* من واقع تقرير لمؤسسة "راند" الأمريكية لأبحاث القوات الجوية الأمريكية، ونشر في صحيفة واشنطن بوست 6 أغسطس 2002

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد عارضت المملكة رسميا الحرب، غير أنه من الجوانب التي لم تكن خافية على الكثيرين آنذاك أن الحملة الجوية ضمن عمليات الغزو انطلقت من القواعد الأمريكية الجوية في السعودية. أما في مصر، فإن كاتبا مثل إبراهيم نافع الذي كان يتولي في ذلك الوقت رئاسة جريدة الأهرام لم يشر حتى إلى البعد الرمزي في إسقاط تمثال صدام حسين وسط بغداد في اليوم الذي سقطت فيه المدينة في أولى مقالاته الإفتتاحية التي أعقبت ذلك الحدث. وحسبما ذكر نافع آنذاك فإنه يبدو أن وسائل الإعلام العربية الموضوعية التي تناولت الحرب باعتبارها غير عادلة وضد شعب لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه ويقع تحت الحصار، ولا يحوذ سوى أسلحة بالية ، لم تحظ برضا الأمريكيين. لقد كشفت تقارير المراسلين العرب حقيقة أولئك الذين يشغلون موقع المسؤولية ممن يديرون الحرب وكونهم منتهكين للسلام العالمي (5).

فيما راح الكتاب القوميون العرب يطلقون صرخات بالغة السخرية على حالة الضعف التي بدا عليها قادتهم، وفي ذلك أشار عبد الباري عطوان في صحيفة القدس العربي التي تصدر من لندن إلى اعتقاده أن تمثال صدام حسين لن يكون الوحيد الذي سيسقط فستتلوه تماثيل أخرى قريبا في أكثر من عاصمة عربية ، فلقد ثبت أن قوات الجيش والأمن مهما يكن بطشها لا تستطيع أن تحمي نظاما ديكتاتورا خاصة إذا أراد أسياده وحماته تغييره، ومعلوماتنا أن الإدارتين البريطانية والأمريكية بدأتا تبحثان البدائل وتقلبان في الأسماء استعدادا لتغيير أنظمة في مصر والسعودية وسورية وإيران(6).

لقد ثبت الفشل الذريع لما وصفه باتريك سيل - الذي قدم السيرة الذاتية للقائد السوري حافظ الأسد - بـ" النظام العربي" ، وهو النظام الذي أقيم للدفاع عن الاستقلال بعد الحقبة الاستعمارية(7)، الأمر الذي انعكس في خروج الجماهير العربية إلى الشوارع احتجاجا على الحرب، وخشية الأنظمة من غضبتهم. ولم يكن ينظر إلى عملية غزو العراق، على أنها تستهدف تحقيق الديمقراطية في العالم العربي. وفيما يعبر عن ذلك نشرت صحيفة الوفد المصرية المعارضة رسما كاريكاتيريا سياسيا يظهر فيه بوش جالسا على مكتبه يتحدث في الهاتف قائلا: الو، قيادة القوات الأمريكية؟ إنني أطلب منكم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

عدم قتل كل العراقيين. أتركوا البعض أحياء حتى يكون هناك مبرر لنا للقول بأننا حررناهم من حكم صدام (8). كانت الدول العربية تحاول بكل السبل أن تبين لشعوبها الغاضبة أنها فعلت كل ما تستطيعه من أجل وقف الحرب، ولكن الجماهير التي خرجت إلى الشوارع راحت تتهم حكوماتها بالضعف السياسي ونظمت مظاهرات احتجاج يومية تقريبا بشكل تحول في بعض الأحيان إلى عنف. وانتهى الموقف الى عقد قمة عربية في مصر شهدت جدالا بين العقيد الليبي معمر القذافي وولي العهد السعودي حينذاك الأمير عبد الله بشأن من المسئول عن الوجود العسكري والسياسي الأمريكي في المنطقة. اندلع الشجار عندما انتقد العقيد القذافي، في خطبته التي كانت تبث تليفزيونيا على الهواء، السعودية على استضافة القوات الأمريكية منذ 1999 قائلا إنها أقامت" تحالفا مع الشيطان"(9) فقاطعه الأمير عبد الله، الذي أصبح ملكا في 2005 غاضبا مشيرا بأصبعه إلى الزعيم الليبي، الذي راح يبتسم بتكلف، قائلا: إن المملكة السعودية ليست عميلة للاستعمار مثلك ومثل آخرين. من أوصلك إلى السلطة؟ لا تتحدث أو تتدخل في أشياء ليس لك فيها حظ أو نصيب(10). ثم غادر القاعة، وانتهت القمة برفض القادة العرب تبني اقتراح اللحظة الأخيرة من الإمارات العربية المتحدة بمطالبة صدام حسين بالتنحي.

لقد تغيرت الأنظمة القائمة اليوم بشكل محدود عما كانت عليه منذ سنوات عندما كان الصراع في مواجهة السيطرة الاستعمارية بالغ الضراوة، فمبارك ليسّ سوى الزعيم الثالث – فقط - للدولة المصرية منذ تأسيسها عام 1952، كما أن أنظمة البعث في كل من سوريا والعراق كانت قد جاءت إلى السلطة في الستينيات، العقد الذي برز فيه حافظ الأسد وصدام حسين كلاعبين سياسيين. كما برز ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية في نفس العقد. كما أن السعودية التي ولدت في فترة حرجة من الحقبة الاستعمارية وكانت تعد الدولة المدللة من قبل بريطانيا ثم حظيت برعاية المصالح الإمبريالية الأمريكية ظلت على ما هي عليه، حيث الأطراف الثلاثة، النظام الملكي وعلماء الدين المتشددين والضمانة العسكرية الأمريكية مقابل النفط.

وقد حولت الحرب الاهتمام السياسي الأمريكي من وسط وجنوب أمريكا إلى الشرق الأوسط، وبدت الحرب وكأنها مجرد هجوم على دولة عربية يفتقد المبرر القوي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وأنه يأتي فقط لأن أمريكا لا تحب رئيسها، على شاكلة ما فعلته إدارات أمريكية سابقة، أسقطت أنظمة نفذ صبرها معها في غرينادا وبنما. وقد كانت معاملة العالم العربي بشكل مماثل بمثابة تحول جوهريا في السياسة الخارجية وكشف عن أن الأنظمة الحاكمة التي أقيمت للحفاظ على الاستقلال العربي بعد الحرب العالمية الثانية فشلت في مهمتها الأساسية التي تقوم على استبعاد العنصر الأجنبي من التدخل الشؤون العربية الداخلية في ضوء ما سيطر على نفسية تلك الأنظمة من أن الاستقلال الحقيقي والحفاظ على البقاء أصبحا وجهين لعملة واحدة.

التصور العربي لـ "الاستعمار الجديد"

ينظر العالم العربي، حتى الآن، إلى العلاقات مع الدول الغربية، عبر منظار العالم الثالث القائم على النضال ضد الاستعمار، وهو النضال الذي لم يصل إلى نقطة النهاية بسبب إسرائيل والدور الأساسي الذي يلعبه الصراع العربي الإسرائيلي في علاقات الكثير من الأقطار العربية مع الغرب منذ الاستقلال. وعندما رحلت القوى الاستعمارية ، واستمر العالم العربي يلمس التدخل المكثف في شؤونه السياسية، من مؤامرات السي أي إيه ضد نظام ناصر إلى مساندة النظام السعودي والحرب على العراق، إمتلأت النظرة لنموذج التجربة العراقية بالغضب والخوف في العالم العربي باعتبارها تمثل استمرارا تاريخيا لتجارب سابقة.

وقد كتب المفكر الأمريكي الفلسطيني إدوارد سعيد في "لندن بوك ريفيو" مشيرا إلى أن هذه أكثر الحروب طيشا في العصور الحديثة. أنها تعكس الغطرسة الاستعمارية التي لم يوجد لها نظير في العالم، غطرسة تخلو من الكفاءة أو الخبرة، لا تبالي بالتاريخ أو الطبيعة الإنسانية المتشابكة، وغير آبهة بالعنف الذي تمارسه أو القسوة الناجمة عن التقنية التي تستخدمها. ومهما تكن نتيجة تلك الحرب سواء النصر أو الهزيمة، فإنها ستعكس في نهاية الأمر ميراثا سلبيا.. ولا يملك المرء سوى الإشفاق على المدنيين العراقيين الذين فرضت عليهم الظروف مثل هذه المعاناة قبل أن يتم تحريرهم المزعوم (11).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبعد ذلك بشهور عدة كتب الأكاديمي الفلسطيني في جامعة جورجتاون هشام شرابي أن انطلاق أعمال مقاومة للاحتلال الأمريكي أمر حتمي، وستندلع هبات ثورية ضد الاحتلال سواء عاجلا أم آجلا. ورغم أن الموقف في العالم العربي سيتواصل تدهوره في المستقبل المنظور، فإن شيئا ما سوف يحدث حتما في واحدة من دول عربية ثلاث تعد الأكبر والأكثر غنى والأكثر قوة وهى مصر والجزائر والعراق، أو فيهم جميعا. شئ ما سيقلب الموقف رأسا على عقب ويعيد توازن القوى بين العالم العربي وخصومه إلى وضعه الطبيعي"(12). وخلال عام 2004، كان العنوان الذي اختاره المؤرخ رشيد الخالدي (فلسطينى مقيم بالولايات المتحدة) لكتابه: " انبعاث الإمبراطورية..آثار أقدام الغرب والطريق الأمريكي المحفوف بالمخاطر في الشرق الأوسط" يعكس الشعور المتنامي بأن حرب العراق والاحتلال يمثلان عودة للاستعمار(13).

وتوجد في الواقع أصداء تاريخية بشأن مثل هذا الطرح، فقد غزت بريطانيا العراق العثماني في نهاية الحرب العالمية الأولى واحتلت بغداد 1917. ومع اندلاع ثورة 1920 استقدمت الأسرة المالكة الهاشمية وعززت الأقلية السنية ونصبتها باعتبارها النخبة الحاكمة. كان الهدف تأمين حكومة مستقرة وصديقة للحفاظ على المصالح الاستعمارية البريطانية في الهند وإيران، وتنامي المصلحة الغربية في احتياطات النفط بالعراق.

وهنا يشار إلى أنه عندما دخلت القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال ستانلي مود بغداد في مارس 1917 أصدر بيانا جاء فيه: "منذ أيام هولاكو ظلت مدينتكم وأرضكم خاضعة للطغاة والغرباء، وغرقت قصور حكامكم في الفساد، ودمرت مزارعكم، فيما عانى أسلافكم وتعانون من العبودية. تذكروا يا سكان بغداد أنكم عانيتم على مدى 26 جيلا من حكم الطغاة الغرباء، الذين عملوا على بذر الشقاق بين كل منزل عربي وآخر من أجل الاستفادة من خلافاتكم. لقد أمرت أن أدعوكم عبر نبلاءكم ومسنيكم وممثليكم إلى المشاركة في إدارة شؤونكم المدنية بالتعاون مع ممثلين سياسيين من بريطانيا العظمى الذين يرافقون الجيش البريطاني، وعلى ذلك يمكنكم أن تبقوا متحدين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مع أقربائكم في الشمال والشرق والجنوب والغرب، من أجل تحقيق طموحات أبناء شعبكم" (14).

إن بيان الجنرال مود ترديد للكلمات ذاتها التي كان نابليون يقولها للمصريين عندما حط بالقرب من الإسكندرية خلال الحملة الفرنسية الاستعمارية عام 1798. وعلى المنوال ذاته ، ربط بوش في خطبة النصر بعد الحرب على العراق، بين المصلحة القومية الأمريكية ومصلحة البلد الذي جرى غزوه حيث قال: إننا نرى في صور العراقيين الذين يحتفلون بالنصر الرغبة الإنسانية الدائمة في الحرية. إن عقودا من الكذب والتخويف لا يمكنها أن تجعل العراقيين يحبون مضطهديهم، أو يقبلون على مستعبديهم. إن الرجال والنساء في كل الثقافات بحاجة إلى الحرية بقدر حاجتهم إلى الطعام والماء والهواء. وحيثما تكون الحرية يشعر الإنسان بالفرحة، وحيثما تزدهر الحرية يشعر الطغاة بالخوف. مضيفا: إن تحرير العراق يمثل تقدما حيويا في الحملة ضد الإرهاب. لقد قضينا على حليف لـ "القاعدة" وعلى مصدر لتمويل الإرهاب (15). وكان النظام المدعوم من بريطانيا عام 1958 انهار إثر انقلاب دموي وتم على إثره قتل عدد من الأنصار الأساسيين للنظام الهاشمي المتحالف مع بريطانيا مثل رئيس الوزراء نوري السعيد بوحشية بالغة.

وتخشى الحكومات العربية تفتت العراق في ظل الانقسامات الطائفية والعرقية سواء بمخطط من قبل الولايات المتحدة أو كنتيجة غير مقصودة لغزو 2003. وينبع خوفهم بقدر كبير من سياسات البريطانيين والفرنسيين في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى. عندما جرى تفتيت ما كان ينظر إليه باعتباره هوية سياسية وثقافية واحدة من أجل المصالح الأجنبية. وبالنسبة لمن يقدمون أنفسهم باعتبارهم قوميين عرباً، ما زال هذا الجرح عميقا، ولكنه يعكس في الحقيقة تفكير كل النخب السياسية العربية. وحسبما أشار فاروق الشرع وزير الخارجية السوري وأحد ممثلي النظام القومي السوري (16) فإن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة من بين عرب الشرق أو الغرب التي تفككت.. فمنذ نحو مئة سنة مضت اتحد الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية ليشكل ما أصبح يعرف باسم المملكة السعودية، كما أنه في بداية السبعينيات اتحدت سبعة مشايخ في الخليج في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

دولة واحدة (الإمارات العربية المتحدة) وفي بداية التسعينيات اتحد شطرا اليمن. ولسوء الحظ، تفككت سوريا بمؤامرة انجليزية فرنسية كان هدفها الرئيسي تهيئة الطريق لإقامة دولة يهودية في فلسطين، حيث جاء وعد بلفور مباشرة بعد توقيع اتفاق سايكس بيكو البريطاني الفرنسي والذي قسم سوريا إلى أربعة دول .

وقد عقد العالم العربي في كل مرحلة من الغزو والاحتلال، مقارنات بين السياسة الأمريكية في العراق والسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. إن الموقف الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين العاديين يتم رؤيته بشكل مماثل في معاملة الجندي الأمريكي للعراقيين العاديين – حيث التهديد والتخويف حتى لو بشكل يبدو مثيرا للاشمئزاز. وقد كشفت مسؤولة بالجيش الأمريكي هي البريجادير جنرال جانيس كاربنسكي لـ "البي بي سي" أنها التقت محققا إسرائيليا في مركز اعتقال في بغداد(17). وفي ذلك أشار الكاتب الفلسطيني عبد الوهاب بدرخان في جريدة "الحياة" اللندنية" إلى أنه طبقا لاعترافات الجنرال جانيس كاربينسكي، شارك الإسرائيليون كخبراء تعذيب.لكن الأكيد أن الأمريكيين، الذين خططوا لوجود طويل الأمد في العراق، يعولون على خدمات إسرائيل كقوة إحتياط موجودة في الإقليم (18).

كما ذهبت وسائل الإعلام الغربية أيضا إلى التأكيد على أن الإسرائيليين يدربون الأكراد في شمال شرق العراق، مؤكدين وجود شكوك كبيرة في العالم العربي بشأن اتصالات كردية مع إسرائيل. والرؤية السائدة في المنطقة تتمثل في أن السلطات العراقية الجديدة ستتعرض لضغوط أمريكية لتطبيع العلاقات مع إسرائيل. على الصعيد المعلن، أنكر المسئولون العراقيون إمكانية حدوث هذا الأمر - إنشاء خط نفط من الموصل إلى ميناء حيفا الإسرائيلي على سبيل المثال – ولكنهم في العموم لا يحظون بقدر كبير من المصداقية من قبل الأفراد العاديين. من جهته، يؤكد تنظيم القاعدة في العراق، في كثير من الأحيان أنه يستهدف فنادق محددة في بغداد لورود معلومات عن استضافتها لعملاء من الموساد. وقد يكون مما يعزز ذلك حقيقة أن الأنصار الأساسيين للحرب على العراق كانوا من اللوبي الذي يعكس الجناح اليميني المؤيد للمصالح الإسرائيلية في الولايات المتحدة (على سبيل المثال بول وولفوويتز، ودوجلاس فيث، وريتشارد بيرل). وكان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

غزو العراق يبدو في نظرهم منذ منتصف التسعينيات كعصا سحرية لإعادة تشكيل المنطقة بشكل يحقق المصالح الإسرائيلية. وقد تعرض السياسي العراقي ميثال آلوسي للنبذ إثر مشاركته في مؤتمر بتل أبيب عام 2004 حول "الديمقراطية والإرهاب". وأصبح فيما بعد هدفا لمحاولة اغتيال انتهت بمقتل اثنين من أبنائه.

وعندما تم إسقاط تمثال صدام حسين وبث ذلك على الهواء على شاشات التليفزيون في المنطقة في أبريل 2003، علق مراسل الجزيرة في بغداد بأسى قائلا .. الآن يكتسي المستقبل نكهة أمريكية. ولم يبد أن هناك تقريبا تعاطفاً مع أولئك العراقيين – الشيعة والأكراد الذين عانوا الكثير تحت حكم صدام حسين – الذي بدوا يفضلون الواقع الجديد الذي يقوم على الاحتلال الأمريكي على حساب استمرار النظام القديم. وأثار مشهد العراقيين خلال إسقاط تمثال صدام بمساعدة أمريكية حالة من الصدمة والاشمئزاز في مختلف أنحاء العالم العربي. وراحت محللة سياسية مصرية تؤكد على أن ما حدث ليس سوى استمرار للعملية المسرحية التي تنظمها أمريكا وتبثها أدواتها الدعائية. إن العراقيين الذين قاتلوا وما زالوا يقاتلون في البصرة والناصرية والموصل لا يختلفون عن العراقيين في بغداد، والله أعلم بمن أحضر هؤلاء الناس هنا اليوم كي يهللوا للعلم الأمريكي ويرفعوه على هذا التمثال (19).

حتى في السعودية، حيث لم يتم سكب دموع على نهاية صدام حسين ونظامه البعثي العلماني المكروه، شعر الناس بالخيانة جراء عدم قدرة صدام الذي صور نفسه على أنه صلاح الدين جديد قادر على تلقين الأمريكيين درسا على بوابات بغداد، مقر الخلافة العباسية التي أقيمت عام 750 هجرية حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية وقتذاك في قمتها.

وعن ذلك المشهد عبر المعلق جعفر عباس قائلا(20) أنه دائما، وعلى مدار حياتي، أردت أن أرى نهاية لنظام صدام، غير أنني شعرت بالذل عندما شاهدت المارينز الأمريكيين في قلب بغداد، يسقطون أكبر تمثال شيده صدام لنفسه. أين هي معركة ستالينجراد والمفاجأة التي كانوا يعدونها من أجل الطفيليين والعلوج والمرتزقة كما كانوا يطلقون عليهم، في إشارة إلى التعبيرات التي إمتلأت بالسخرية واتسمت

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بروح التحدي التي كان يطلقها وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف. أضاف متسائلا : أين هي بغداد بالمقارنة بشجاعة أم قصر المدينة الصغيرة التي دافعت عن نفسها بكرامة؟ ماذا عن الملايين التي تم إنفاقها على القوات الخاصة للدفاع عن صدام؟ أم هل الناس هم العدو الحقيقي الوحيد للنظام؟ ما حدث في بغداد كان فضيحة وإذا ما شهدت العواصم العربية الأخرى نفس الفضيحة، فإن العار سيكون أكثر سوءا.. لقد أضاف صدام إلى قائمة هزائمنا هزيمة تعد الأسوأ ، نظرا لأنها معدية، قد لا تنتهي على بوابات بغداد؟

إن الاستعمار، في التحليل النهائي له ، يعكس في الشعور الداخلي لهؤلاء نوعا من الاحتقار من قبل المستعمر تجاه الآخر. وقد كشف عن هذا التصور حدث معين بشكل كبير بلور الشعور الغريزي في العالم العربي بشأن ما كانت ترمز له التجربة العراقية ، هذا الحدث هو نهب متحف بغداد في الوقت الذي راحت القوات الأمريكية تقف غير آبهة بما يجري. لقد غرقت بغداد في حالة من انعدام القانون بعد سقوط النظام القديم مباشرة. وفي الوقت الذي كانت القوات الأمريكية تدخل فيه المدينة، بدأ اللصوص الذين بدا أنهم مستعدون لعمليات النهب بشكل جيد وربما بالتعاون مع أجانب، في سرقة نحو 14 ألف قطعة أثرية بما في ذلك تمثال لاغاش وهو تمثال بدون رأس منقوش من الحجر الجيري لإياناتوم حاكم لاغاش ويعود إلى نحو 2450 عاما قبل الميلاد، ونقوش حجرية كبيرة تعود إلى الإمبراطوريات السومرية والأكادية والبابلية وتمثال من العاج للبوءة وتمثال أسود من مدينة نمرود يعود إلى نحو 800 سنة قبل الميلاد.

لقد تم سرقة أكثر من خمسة آلاف قطعة أثرية خلال الفوضى التي اجتاحت بغداد إثر سقوطها، غير أن السؤال الذي يحير الكثيرين يدور حول أسباب عدم إسناد حماية المتحف العراقي إلى وحدة قوات خاصة؟ إن العراق يعد واحدا من أكبر المواقع الأركيولوجية المعروفة سلفا وبشكل جيد، وكانت المتاحف هناك تعرضت للسلب خلال حرب الخليج عام 1991 غير أن متحف بغداد كان قد أقر خطوات لحماية محتوياته قبل غزو عام 2003 بإخفاء بعض هذه المحتويات. إن العراق يعد مقر أولى الحضارات العالمية العظيمة، حيث اخترع السومريون الذين عاشوا في الجنوب منذ نحو خمسة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

آلاف سنة الكتابة المسمارية، وخلفهم الأكاديون والآشوريون ثم البابليون قبل ظهور الحضارة العربية الإسلامية. وقد قامت إمبراطورياتهم في مدن مشهورة مثل أور وبابل ونينوى ما كان يجعل من حماية هذه المدن بما تحتويه من آثار، حسب الخبراء، مهمة عالمية وليست فقط عراقية قومية(21).

وقد أثارت عمليات النهب ردود أفعال غاضبة عربيا وعراقيا، وكان من الطبيعي أن يتم توجيه قدر من اللوم إلى الولايات المتحدة (ولو أن القوات الأمريكية أطلقت النار على لصوص الآثار، فقد كان من الممكن أن يتم تناول الأمر بشكل انتقادي في وسائل الإعلام العربية) فوفق ما طرحه أحد المعلقين في جريدة الوفد المصرية فإن أمريكا لم تتوقف عن أعمالها القائمة على السلب والجريمة. وقد اجتاحت العراق ونهبت معظم مدخراته الثمينة من وثائق ومخطوطات وتراث ونفط وذهب. ولم يكف أمريكا العودة بالعراق إلى الوراء لعقود، وإنما اتبعت ذلك بشكل ارتبط بالسرقة المنظمة(22). إن أكبر جريمة تتمثل في تحدي العادات الأخلاقية ووقف العمل بالقوانين الإسلامية. وقد كان من الأمور بالغة الخزي قيام الجنود الأمريكيين بالتحرش بالفتيات العراقيات بدعوى القيام بتفتيشهن. ولكن ذلك لا يبدو غريبا في عصر البغاء الأمريكي.

ويمكن مقارنة ما حدث خلال أسابيع نهب المكتبات والمتاحف في بغداد، بما حدث من عمليات نهب عام 1258 م على يد المغول. إن بلاد الرافدين ذات التاريخ العريق الذي يتجاوز 2500 عام إثر وصول القبائل العربية هناك تجسد حضارة ذات حضور بالغ وتدعو للفخر. وتعكس بغداد المدينة العربية الإسلامية كل ذلك، وقد حققت الكثير من الإنجازات العظيمة التي تمثلها الحضارة العربية الإسلامية وتم تحقيقها برعاية الدولة الإسلامية، التي كانت بغداد بشهرتها التي تتجاوز الآفاق وخلفائها تعد مركزا لها . وكان تدمير المدينة يمثل تذكيرا بالغ القسوة بذلك اليوم الذي تم فيه غزو بغداد من قبل المغول، الغزو الذي أوقف حسب علماء التاريخ الإسلامي، النهضة العراقية لعقود إن لم يكن لقرون، حيث دمر نظام قنوات الري، كما وجه ضربة للحياة الثقافية. ووفق ما يشير اليه كتاب حكومي يعود إلى عهد صدام حسين فقد حل الظلام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بالبلاد بعد 1258م ، حيث عمل الشعب العراقي بجد للتخلص من تأثيرات قرون من الركود .

العراقيون وحرب 2003

يمثل ما يريده العراقيون أنفسهم من مشروع الغزو وخطة الولايات المتحدة بشأن مستقبل الدولة العراقية قضية حيوية مثيرة للجدل، يبدو أنه من الأسهل مناقشتها على وقع تأمل الماضي عما أصبح عليه الوضع بمرور الوقت. يتكون العراق من ثلاث مجموعات: العرب المسلمين السنة، العرب المسلمين الشيعة، والأكراد الشيعة المسلمين (وردت هكذا ويبدو أنه يقصد الأكراد السنة المسلمين). ويشكل العرب السنة نسبة 20% من السكان، ولكنهم يتمركزون في أماكن إستراتيجية وسط وغرب البلاد بما في ذلك بغداد، وكانوا يمثلون أحد مقومات نظام صدام حسين. ومن الحقائق في هذا الصدد أن السنة كانوا يحكمون مدينة بغداد وضواحيها "العراق"، منذ الفتح العربي في القرن السابع الميلادي وظهور بغداد في القرن الثامن، فضلا عن غلبة الطابع السني على سكانها.

ومع ذلك يشكل العرب الشيعة ، الأغلبية حيث يمثلون نحو 60% من السكان، وهم يهيمنون على جنوب العراق بأكمله وصولا إلى بغداد، باستثناء حلقة للمدن السنية تقع جنوب بغداد، ومع ذلك فإن بغداد تعتبر في الفترة الحالية مدينة متعددة الطوائف. وقد جاءت تركيبة الأوضاع في العراق على ما هي عليه الآن قبل الغزو نتيجة الإحتلال البريطاني والتي استبعدت الشيعة بشكل كبير من العملية السياسية بالبلاد ودعم السنة باعتبارهم المحور الأساسي الذي تقوم عليه الدولة التي جرى اصطناعها فيما بعد الحرب العالمية الأولى، باستقدام الأسرة الحاكمة الهاشمية السنية من منطقة الحجاز حيث الدولة السعودية اليوم، في ضوء ما تتمتع به من حظوة ومكانة دينية في مكة والمدينة على مدى نحو ألف عام نظرا للتصور بأنهم ينحدرون من النسل المباشر للنبي محمد (ص).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فيما يشكل الأكراد، المجموعة العرقية التي تتكلم اللغة الكردية الخاصة بها، نحو 20% من السكان ويتركزون في أقصى الشمال والشمال الشرقي، حيث يتجاورون مع أكراد تركيا وإيران. ويبدو أن الأكراد ، نظرا لكونهم الطرف الخاسر جراء السياسة الاستعمارية في الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، لم يعد لديهم الولاء الكامل للدولة العراقية، الأمر الذي عززته سياسات الحكومة المركزية ذاتها فيما بعد الاستقلال، بشكل تراجع بمستوى هذا الولاء نظرا لما اتسمت به هذه السياسات من قسوة ووحشية تجاههم.

وعلى ذلك أراد البعثيون وكل الحركات الشيوعية والناصرية القوية صهر هذه التباينات في إطار مسعاهم لإنشاء دولة حديثة موحدة من خلال رابط وطني مشترك يتمثل في فكرة العراق. وباختصار، خسرت الناصرية في 1958 عندما استولت على السلطة حكومة ذات نزعة شيوعية من خلال انقلاب عسكري تحت قيادة عبد الكريم قاسم وقررت أن تبقي خارج المدار القومي العربي الذي يقوده المصريون. وتبع ذلك انقلابان في 1963 و 1968 أبقيا الدولة في يد الحركة البعثية التي كانت أكثر حرصا على إطارها العربي كإطار لوحدة وهوية الدولة العراقية. غير أن البعثية التي كانت واحدة من بين عدة أيديولوجيات رئيسية في ذلك الوقت وكان أمامها فرصة كبيرة لوضع النظرية موضع التطبيق، فشلت في النهاية من هذه الزاوية. ورغم ذلك يظل هناك شعور قوي فيما بين العلمانيين السنة وبعض الشيعة بأن الفكرة البعثية حتى إذا ما تم تشويهها من قبل عصبة صدام حسين، كانت الأكثر مناسبة لبلدهم.

على المستوى الفعلي واصل الأكراد تمردهم، بينما اتجه الشيعة المضطهدون إلى الدين باعتباره مصدر عزاء وقوة ومرجعية لشعورهم بالهوية. وعززت ذلك لديهم بقدر كبير ثورة 1979 في إيران، حيث عمل الكثير من القادة الدينيين الشيعة على أن يجدوا ملاذا لهم هناك. وكان ذلك مجالا لاتهام النظام البعثي الشيعة بأنهم ليسوا عربا خالصين، عبر أصولهم الإيرانية الجزئية – وهى التهمة التي كانت تثير قدرا بالغا من السخرية، فإيران نفسها أصبحت شيعية عندما استولت السلالة الصفوية على السلطة في القرن السادس عشر، وجعلت من التشيع المذهب الرسمي الإسلامي للدولة لمواجهة التحدي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الناجم عن الإمبراطورية العثمانية ذات القاعدة السنية القوية. ويعكس الوجود الشيعي الواسع في جنوب العراق ببساطة بالنسبة لإيران صوراً ذهنية عديدة بشان الصدام العربي الفارسي القديم على أرض الرافدين، والتي كانت مقرا لعدد من الإمبراطوريات الفارسية قبل العصر الإسلامي. وقد ساندت معظم الأقطار العربية عراق صدام ضد إيران في حرب الخليج 1980 – 1988 ولكن سوريا ساندت إيران، في ضوء تمويل ودعم إيران لمعركة حزب الله ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان.

ورغم أن الكثير من المتعلمين الشيعة عارضوا فكرة الغزو الأمريكي، وأن الكثير من المسلمين السنة المتعلمين ربما تنفسوا الصعداء جراء القضاء على صدام (إذا التزم الغرب الخطاب الذي طالما ردده طويلا بشأن حقوق الإنسان، التي ألح عليها الديمقراطيون العرب لسنوات) فإنه قد يكون من الصواب الإشارة إلى أن السنة عارضوا الحرب وأن الشيعة ، فضلا عن الأكراد، ساندوها. فقد كان السياسيون الذين ضغطوا على واشنطن للتحرك ضد صدام على مدى سنوات من الشيعة أو الأكراد، مثل أحمد الجلبي، وإياد علاوي والزعماء الأكراد جلال طالباني ومسعود بارزاني على الرغم من وجود عدد من الضباط العراقيين السابقين من السنة أيضا في المحادثات التي جرت مع الإدارة الأمريكية. كما أن العلماء والسياسيين الإسلاميين الشيعة مثل عبد العزيز الحكيم وإبراهيم الجعفري كانوا في الوقت نفسه يتابعون تطورات الموقف من إيران.

أما السنة العرب من العراقيين مثل باقي العالم العربي فكان لهم رد فعل تلقائي ضد التدخل الأجنبي، وكانت رؤيتهم تقوم على أساس أنه اذا كان الأمريكيون يريدون ترتيب الوضع في العالم العربي ، فإن عليهم أن يبدأوا من فلسطين وليس من العراق. وشارك سنة العراق – الذين يشكلون أساس التمرد المتصاعد – وجهة نظر بقية العالم العربي بأن ادارة بوش أتت لتلعب اللعبة الإستعمارية التقليدية .. فرق تسد. وحسبما قال وميض نظمي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بغداد (23) "إن الخدعة الأساسية لأي قوة استعمارية في العالم هي فرق تسد . نحن نعرفها: إنهم يحاولون تقسيمنا. إن الأمريكيين ربما يحبون أن يجدوا القادة الذين يصدقونهم، أو في أغلب الأحوال الذين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يساندونهم عندما لا يستطيعون. وقد أخفقوا في إيجاد زعيم حقيقي يمكن أن يكون مقبولا من قبل الشعب أو مساند من قبل الأمريكيين في الوقت ذاته".

إن السنة يشتبهون في أن واشنطن لا تريد عراقيين قادرين يمكن لهم التوافق بشكل يمكنهم من تجاوز الوضع الطائفي. وينبع تحفظ واشنطن وفق هذه الرؤية من أن مثل هؤلاء لن يقيموا روابط وثيقة مع واشنطن، وإنما قد يكونون ذوي إهتمام أكبر بالسياق الإقليمي في إطار القومية العربية. وقد حقق الراديكاليون الإسلاميون من السنة في العالم العربي توافقا عاما مع سنة العراق، الأمر الذي بدا ملحوظا بشكل كبير في المجموعة التي كان يقودها الأردني أبو مصعب الزرقاوي (قتل في 2006) والتي كانت تتمتع بتبني القاعدة لأنشطتها. ومن وجهة نظرهم، لا يمثل الشيعة الفئة الرافضة فقط الذين انخرفوا عن رسالة الإسلام القائمة على التوحيد الحقيقي، بل إنهم أيضا منتهزو فرص ، نظرا لاستعدادهم لقبول احتلال بلدهم من أجل الاستيلاء على السلطة، كما أنهم مهينون فضلا عن ذلك للسماح لسلطة أجنبية أخرى هي إيران، بتأثير غير مسبوق على خلفية أسباب سياسية وأيديولوجية. وشارك القطاع العريض من العرب سواء على صعيد الحكومات أم المعارضة رؤية القاعدة في رفض الأهداف الشاملة للإستعمار.

وذهب الملك عبد الله عاهل الأردن في هذا الصدد أبعد مما ذهب إليه أي زعيم عربي آخر من خلال الإعلان العلني عن مخاوفه من الهلال الشيعي الذي يمتد من إيران إلى جنوب لبنان قبيل عقد الانتخابات الديمقراطية يناير 2005، والتي أتت للمرة الأولى بجماعات سياسية شيعية للسلطة(24). وظهرت تصدعات في المواقف فيما بعد بين الحكومات العربية وجماعات المعارضة بشأن الخروج الأمريكي من العراق – فالحكومات تخشى من أن العراق يمكن أن يكون عرضة لمزيد من النفوذ الإيراني إذا غادرت القوات الأمريكية قبل تثبيت النظام السياسي من أجل تأكيد مزيد من النفوذ للسنة. ومع نهاية 2005، عندما أبدت الحكومات العربية معارضتها لانسحاب أمريكي سريع في مؤتمر القاهرة للمصالحة بين الفرقاء العراقيين، كان من الواضح أن الظروف أصبحت مهيأة لاندلاع حرب أهلية بين السنة والشيعة، فيما كانت مجموعات المعارضة القومية والإسلامية في المنطقة تريد ببساطة أن يخرج الأمريكيون.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في تحليل للنفسية السياسية في المنطقة، دافع الأكاديمي فؤاد عجمي صاحب الاتجاهات الموالية للولايات المتحدة عن المساندة الأمريكية الشاملة للتغير في المنطقة، وأشار إلى أن القوميين العرب كانوا وما زالوا يعكسون شكلا من الهيمنة السنية والتي تموه بشكل مطلق من أجل تهميش الشيعة من أمثاله - وهو الطرح الذي خرج إلى نطاق العلن في شكل العنف الطائفي فيما بعد غزو العراق. لقد كان الخوف من أن يستولى الشيعة على الدولة سببا في كف الولايات المتحدة عن مساندة انتفاضتهم في الجنوب بعد حرب الخليج عام 1991 وإفساح المجال للقوات العراقية لأن تقضي على التمرد الذي كانت الدعاية الأمريكية تشجعه قبل أسابيع فقط.

ومن الصعب نسيان الحذر السياسي للشيعة ، وعلى ذلك فالقول السائد هو أن تحالفهم مع الولايات المتحدة الآن ذو طبيعة عملية. وقد شرح البعض الموقف تجاه الولايات المتحدة والاتهام السني بأن الشيعة يظهرون ليونة تجاهها بالقول: "الناس كانوا يقولون في جلساتهم قبل الحرب إنها لا تعدو أن تكون دعوة الشيطان للتخلص من آخر – الأمريكيون يتخلصون من صدام. ربما يكره الشيعة الأمريكيون أكثر من السنة. الناس ما زالوا يتذكرون 1991 عندما وعدوا الشيعة، ثم تركوا صدام يأتي ويلقي بهم جانبا. ربما لا يفكر السنة مرتين بشأن استخدام الأمريكيين لتحقيق قدر من النفوذ. إنهم يريدون النصيب الأكبر من الدولة بشكل لا يتناسب مع عددهم، مثل لبنان حيث المسيحيون يشكلون 20% ولكنهم يحصلون على 50% من مقاعد البرلمان، والرئاسة. فالسنة لم يقاتلوا بسبب قدوم الأمريكيين، إنهم ليسوا سوى مبرر، إنهم يقاتلون الشيعة بسبب قدوم الأمريكيين وما سيؤدي إليه من نقل السلطة منهم إلى آخرين"(25).

وقد أصبح العراق، بعد الغزو ، ومع المد الشيعي دولة أخرى مختلفة إلى حد كبير عما كانت عليه من قبل. فالدولة العلمانية القومية العربية (التي تحولت في مرحلة متأخرة إلى أرض للإسلام السياسي السني خلال عقد التسعينيات) أصبحت فجأة بين عشية وضحاها دولة إسلامية شيعية. فالرموز والشعارات الشيعية توجد في كل مكان، كما أن الآذان الذي يتم بثه على التليفزيون الرسمي يتم في صيغته الشيعية. كما أن علماء الشيعة ممن يرتدون زيا ذا صبغة دينية يتمتعون بالنفوذ في الحكومة، كما يحرص

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السياسيون العلمانيين والعلماء الشيعة على الظهور مع المرجع الشيعي الأعلى أية الله العظمى على السيستاني ، الذي يكن السنة كراهية له بسبب تربيته الإيرانية.

إن كلمة واحدة من السيستاني الذي يقيم في النجف، يمكن لها أن تغير المسار السياسي للأمة بأكملها، فهو الذي أرسى للشيعة مبدأ العمل مع النظام الجديد الذي أقامته الولايات المتحدة وعبر انتخابات ديمقراطية ، بدلا من قتال الأمريكيين باعتبارهم محتلين، وهو الذي دعا الشيعة إلى مقاومة إغراء الإنغماس في عمليات انتقام من الهجمات بالتفجيرات الانتحارية من قبل عناصر من السنة مثل القاعدة في العراق، التي أسفرت عن مقتل عشرات المدنيين في ذلك الوقت في المساجد والأسواق ومواقف الحافلات مستهدفة إثارة حرب أهلية مع المجتمع الشيعي الحليف للولايات المتحدة، وهو نفسه السيستاني الذي أفسد في أغسطس 2003 خطط بول بريمر ممثل إدارة الاحتلال الأمريكية لتعيين أعضاء من المجلس لصياغة مسودة لدستور جديد، الأمر الذي تسبب في تاخير عملية الانتخابات وتسليم السلطة إلى العراقيين.

لقد كان خوف السيستاني الرئيسي بشكل واضح هو المصالح الشيعية، وعلى ذلك فقد أصدر قبل الانتخابات البرلمانية في ديسمبر التوجيهات إلى المؤيدين له بثلاثة أمور: أن يتوجهوا للأدلاء بأصواتهم، وأن يتجنبوا التصويت لغير المتدينين، وألا يصوتوا لقوائم المرشحين الضعفاء حتى لا يتم تفتيت التصويت الشيعي (26).

وقد سادت شكوك لدى السنة بأن المجموعة الشيعية المعروفة باسم فيلق بدر تقف خلف جرائم القتل الطائفي للسنة التي بدا أنها تستهدف أسر الرجال الذين عملوا للشرطة البعثية أو الخدمات الإستخباراتية. ويمثل فيلق بدر الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وهى مجموعة إسلامية معارضة يقودها عبد العزيز الحكيم كانت تتخذ من طهران مقرا لها قبل الحرب. وقد اتهم السنة جماعة بدر بالعمل من داخل وزارة الداخلية التي يهيمن عليها الشيعة.

وأصبح بيان جبر صولاغ وزير الداخلية حينذاك موضع شبهة في وسائل الإعلام العربية. وقد سئل بشكل مباشر في مقابلة على "الجزيرة" بشأن الاتهامات بأنه ليس عربيا على الإطلاق وإنما إيراني وأجاب قائلا: "إنني أفخر بأنني عربي" رابطا نفسه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بقبيلة الزبيدة في العمارة جنوب العراق(27). ويشكو السنة كذلك من أنه يتم استبعادهم من الوظائف الحكومية، وبشكل خاص إذا كانت لهم ارتباطات بحزب البعث. وحسبما قال مشارك في مظاهرة احتجاج سنية خرجت تأييدا لصدام حسين في أغسطس 2005 : "نحن ليس لدينا أي حقوق بعد. لقد قالوا في المجلس الوطني أننا نقاتل القرآن – وذلك هو ما قالوه لي في وزارة الصحة أيضا"(28). إن محاربة القرآن يعني العراقيين الذين قاتلوا إيران، ونظامها الذي يقوم على حكم علماء الدين، في الثمانينيات. وبسبب ذلك، قال إن وزارة الصحة لن تعينه. ومثل هذه الآراء يمكن أن تجد تعاطفا في العالم العربي.

العراق عشية الغزو الأمريكي

كانت التأثيرات السياسية على أعصاب العراقيين قبل الحرب هائلة – دعوة صدام المربكة والنشاز إلى الفخر والتذكير بالعمق التاريخي للبلاد، والمناداة الأمريكية بالحرية التي تمتزج بحالة من الرفض والغضب في العالم العربي في مرحلة ما بعد الاستقلال، ورد فعلهم التلقائي ضد الأمريكيين بسبب فلسطين. لقد كان صدام أستاذا في العزف على أمجاد الماضي. وقد اتسمت فترة صدام بالعزف على هذا الماضي فكان إنتشار التماثيل التي تمجد حضارات الرافدين الأولى والتي شبه صدام نفسه معها بملوك بابل، وسومر وأكاد. وقد ظهر أنه يستمتع بمواجهته الحاسمة مع أمريكا. وفي ظهوره الذي كان يتم بين الحين والآخر على التليفزيون، طرح نفسه على أنه رمز نصف أسطوري من تاريخ العراق الغني. وأنه جزء من الماضي المجيد بشكل جعله في صفوف حكام الرافدين التاريخيين منذ السومريين والبابليين إلى الآشوريين الذين كان أعداؤهم كثيرين ولا توجد حدود لطموحاتهم.

وفي خطبة متلفزة إلى الأمة في ذكرى بدء حرب الخليج 1991، وصف صدام الأمريكيين بـ "المغول الجدد" الذين يعدون لغزو بغداد مثل قوات هولاكو خان في 1258. ولكنه أقسم هذه المرة، بأن الأمر سيكون مختلفا. وأنه على عكس حمام الدم الذي عانى منه البغداديون حينذاك، سيتم قهر الغزاة على أسوار المدينة من قبل القيادة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الموحدة والصامدة، الجيش والشعب (لم يستطع أن يدرك أن الأمر انتهى إلى قتل المغول الخليفة العباسي وولديه).

لقد نظر صدام لنفسه بإعتبار أنه حاكم ذو نكهة خاصة مدهزة، وكانت الفنون التي رعاها وعمل على ازدهارها دعامة لحكمه التسلطي. كانت بغداد مدينة من الجداريات التي تمجده ، وضمت قصورا ومبان حزبية وحكومية مزجت بين الكلاسيكية السوفيتية الجديدة والمعمار الخاص ببلاد الرافدين القديم. وقد أطلق اسم الزعيم على الطرق السريعة والمطارات، وفنون المدارس بل، حتى الجبال ، الأمر الذي أضفى الطابع الشخصي على الحكم في بلاده إلى الدرجة التي أصبح معها لا يتم مساواته في العالم الحديث سوى بكيم سونج إيل الثاني في كوريا الشمالية. وإزاء إحكام صدام قبضته على الدولة، ورغبته العارمة في عدم وقوف أي شئ في طريقه للسلطة، لم يتجرأ سوى القليل على الوقوف في مواجهته. لقد كان الحراس الحكوميون يرافقون الصحفيين إلى معظم الأماكن التي يريدون زيارتها. وكان من الواضح أن العراقيين على خلفية معرفتهم بطبيعة النظام يلتزمون أكبر قدر من الحذر حتى في الحوارات السريعة التي يمكن للأذن أن تلتقط ما يدور فيها، بشكل كان يحول بينهم وبين التعبير عن رأيهم بأمانة باعتبار أن ذلك مغامرة كبيرة.

وبعد سنوات من الإيغال في العلمانية ، بشكل جعل من العراق بكل المعايير، واحدة من أكثر الدول تقدما في العالم العربي، وفق الشروط المتعلقة بالتعليم والبنية الأساسية، تسببت الأوضاع الجديدة التي فرضت نفسها في التسعينيات في تحول نظام صدام إلى الدين. لقد أطلق صدام نفسه "حملة إيمان كبرى" تقوم على تبني الدين باعتباره وسيلة للحفاظ على تماسك المجتمع العراقي المتفتت جراء نظام عقوبات الأمم المتحدة ومن أجل اختبار قدرة شيعة إيران، ووهابيي السعودية أو قاعدة بن لادن على التواصل مع العراقيين، وعلى هذا كان برنامج إنشاء مساجد ضخمة وإقامة مدارس دينية ومحطات إذاعية لبث القرآن والصحف الإسلامية. وعندما أصبحت واشنطن أكثر تهديدا بعد هجمات 11 سبتمبر تحول صدام حسين إلى عقيدة العمليات الانتحارية "الاستشهادية" الذي يريد أن يموت من أجل أمته أو من أجل دينه أو كليهما.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبدا ذلك بشكل واضح في أبريل 2002 في ارتداء الأطفال المشاركين في أسبوع الاحتفالات بعيد ميلاد صدام والتي جرت في مختلف المدن العراقية زيا يماثل ذلك الذي يرتديه مرتكبو العمليات الانتحارية. وقد عكست الاحتفالات جداريات الأقصى ونسخاً طبق الأصل للمسجد الأقصى في القدس الشرقية، كما تم إعادة تسمية شارع في وسط بغداد باسم ياسر عرفات تكريما للزعيم الفلسطيني الجرئ الذي أبدى قدرا من الشجاعة وأكد من مقر قيادته المظلم والمحاصر في رام الله في أوائل ذلك العام استعداده للموت شهيدا من أجل القضية الفلسطينية. كما جرى كذلك تشكيل فرق انتحارية خاصة معروفة باسم "فدائيو صدام" في الشهور التي سبقت الغزو في 2003.

وقد بدا العراقيون، بشكل ملحوظ للعالم الخارجي على الأقل، ينتابهم الهدوء بالنسبة لشعب يواجه من ناحية احتمال أن يصبح بلده أرض اختبار لجيل جديد من ترسانة الأسلحة الأمريكية المتقدمة، ويواجه من جانب آخر مشهدا مماثلا لما قام به شمشون حيث يتصرف زعيمهم بشكل يبدو كنوع من التدمير الذاتي. وبعد نحو ثلاثة عقود من الحكم الديكتاتوري، وحرب في الثمانينات، وعقوبات جرى فرضها في التسعينيات، ربما يمكن تفهم هذا الهدوء الناجم عن هول هذه الضغوط . لقد كان هناك الكثير من الاهتمام الجماهيري بالنجم الغنائي العراقي كاظم الساهر الذي طبقت شهرته العالم العربي وفقا لما ذهبت إليه الصحافة المحلية في ذلك الوقت. وكانت وسائل الإعلام العربية الترفيهية خارج العراق قد أشارت إلى أن ساهر تزوج بزوجة أخرى في باريس، متخليا عن زوجته العراقية الأولى وأمه وأخويه في السفينة المترنحة.. العراق. وإزاء الشعور بأن مثل هذه الأخبار يمكن أن تمثل طعنة أخلاقية عامة في وقت حرج، حثت الصحافة المحلية المملوكة للدولة الساهر على إصدار بيان. ووفق ما ذكرته صحيفة عراقية آنذاك: "سنؤجل الحكم بشأن تصديق ذلك أم لا إلى أن يفصل الساهر في الأمر, أو أنه لن يتزوج بأخرى"(29). وسط ذلك بدا العراقيون مستعدين للتعبير عن صدمتهم من فكرة أن يتم غزو بلادهم من قبل أمريكا، غير أنهم لم يكونوا يمتلكون القدرة على قول الكثير بشأن الرجل الذي أوصلتهم أخطاؤه السياسية الكثيرة وحلمه بتحويل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

دولته البوليسية إلى قوة إقليمية عظمى تملك قدرات نووية لضرب إسرائيل إلى هذه النهاية.

وفيما بين الناس العاديين، كان هناك رفض للحديث عن سوء النظام، فعندما سئل موظف في الحكومة المحلية بالموصل بشأن استخدام النظام للغازات ضد الأكراد في حلبجة أجاب:" إن الأجانب فقط هم الذين يتحدثون عن حلبجة. لم أسمع كرديا على الإطلاق يتحدث عن ذلك، الأمريكيون بدأوا في الحديث عن ذلك بعد 1991 فقط" (30). وتعد الموصل واحدة من أكثر المدن العراقية التي تعكس الاختلاط العرقي، حيث تشكل الكنائس المسيحية نحو 40% في المنطقة بالإضافة إلى وجود سكان من المسلمين السنة والأكراد، والتركمان واليزيديين. وبطريقة أو بأخرى، يمكن تفهم ما ذهب إليه الموظف الحكومي: الوحشية التي يستخدمها الزعيم العراقي من أجل الحفاظ على مملكته لا تعرف حدودا عرقية أو دينية، رغم أن العرب السنة كانوا بشكل عام الذين يتمتعون بالحظوة من قبل نظامه. وقد راح أسقف من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية في الموصل يشرح الموقف في إطار القيام بواجبه في حضور حراس الحكومة قائلا: أنه لا يريد الحرب وأن إدارة بوش تطبق قانون الغابة على العالم، حتى إذا أعلنت أن هدفها هو تحرير العراقيين. وحسبما تساءل بلغة بليغة:" ما الذي سيحررونا منه.. أنفسنا! "(31). وبعد برهة قصيرة من الصمت أضاف دون أن يوجه كلامه إلى شخص محدد: "لا أستطيع تخيل شخص أجنبي يأتي لكي يحكمنا".

انتهاء عروبة العراق

كان من نتيجة الحرب التخلي عن القومية العربية لصالح تزايد الشعور بالخصوصية العراقية. لقد كانت الشعارات الوحيدة العامة التي يعرفها معظم العراقيين قبل أبريل 2003 تتمثل في العبارات التي كان يكررها حزب البعث العراقي من قبل مثل أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. ورغم هذه التطورات فقد راح أعضاء الحزب القومي الناصري الموحد والذي يعد أحد عشرات الأحزاب الصغيرة يجتمعون في غرفة متواضعة بأحد المباني في قلب بغداد بشكل يوحي بأنهم كما لو كانوا يجلسون هناك منذ

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الستينيات، غير آبهين بأن الوقت الآن ليس وقت القومية العربية. وحسبما قال أمين عام الحزب زيدان خلف القوميون العرب امتنعوا عمدا عن الانضمام للمجلس الحاكم، ولكننا أعدنا تشكيله بشكل يتم معه الشعور بوجودنا. إن صحفنا على وشك بدء الصدور، وأنا أتخيل بأن الأمر سوف ينتهي بظهور أحزاب قومية أخرى. فالفوضى هي السائدة في اللحظة الحالية (32).

وحسب تأكيده فإنه لا يوجد بديل للقومية العربية، ولكنها تبدو كما لو أنها كانت شوهت من قبل البعثيين شأن أي أيديولوجية أخرى. وحسبما ذهب بيان مبادئ للحزب فإن الأمة العربية مستهدفة وما زالت مستهدفة منذ معارك اليرموك والقادسية (المعارك الأولى في القرن السابع خلال الفتح العربي) ومنذ انتشر الإسلام شرقا وغربا، وقد قسمها اتفاق سايكس – بيكو في التاريخ المعاصر إلى دول ذات حدود مصطنعة من أجل القضاء على أي مشروع وحدوي .

إن حزب البعث يضم في عضويته على الأقل نحو مليون شخص. ومما يفسر اتساع نطاق هذه العضوية كونه أسهل وسيلة من أجل إنجاز الكثير على صعيد الحياة العملية. غير أن الكثير من مسئولي البعث ومنظريه الأيديولوجيين يذهبون إلى أنه تم تحويلهم بشكل ظالم إلى ضحايا بعد عراق صدام. فيما دافعت سلطات الاحتلال، والتي بدأت استبعاد البعثيين من الإدارات والنظام التعليمي والقضاء وما زالت تواصل هذه السياسة من خلال هيمنة الشيعة. وقد تم استبعاد نحو 35 ألف من العاملين البعثيين في القطاع العام من وظائفهم في مايو 2003 من قبل لجنة خاصة شكلها المجلس الحاكم وكلفت باجتثاث البعث من الحياة العامة.

وكانت هذه الجهود مثيرة للجدل، ففي بعض المحافظات كانت هناك مشاكل بين المحليين والبعثيين الذين كانوا ما زالوا في مواقعهم الرئاسية، وفي البعض الآخر، ساد سخط جراء تحول الانتماء للبعث إلى سبة بشكل ألحق الأذى بكثيرين من المنتمين للحزب. ففي بعقوبة والتي تمثل قلب المنطقة السنية شمال شرق بغداد أقال الحاكم مئات من أعضاء حزب البعث من مناصبهم في قطاع التعليم في نوفمبر 2003. وحسب كلمات عبد الجبار عبد الستار 53 سنة مدرس هندسة ورئيس سابق لفرع البعث وترأس

www.ibtesama.com/vb Exclusive

نحو 8 آلاف عضو في المنطقة إن إيلاء عزلنا أولوية شئ مثير للسخرية. إن اجتثاث البعث يمثل تحقيقا لأهداف قديمة (33). لقد كان عبد الستار عضوا قياديا في الحزب.، فيما هرب أولئك الذين شغلوا مواقع عليا في بنية الحزب أو تم القبض عليهم.

وحسبما يشير عبد الستار فإن مبادئ البعث نفسها لا تمثل مشكلة بأي حال، فهى – خليط من الاشتراكية والقومية العربية – وقد يكون النظام أخطأ في تطبيقها. وحسب قوله إن قيمنا صحيحة – لم نكن نعلم الناس أن يكونوا فاسدين أو أن يلجأوا للتدمير. كانت الفكرة شيئاً والنظام شيئاً آخر، مثل الاتحاد السوفييتي. وبعد سقوط النظام فإن الحزب الشيوعي بقي وهو ممثل في البرلمان اليوم. إن نفس الأمر قائم في جورجيا . إن ذلك ليس ألمانيا والنازية. وبالإضافة إلى رفض قادة البعث لمقولة انتهاك حقوق الإنسان على المستوى الجماهيري بشكل أثر بالسلب على الدولة، رفض البعثيون الاعتراف بأن القائد الذي يؤمنون به قد وصل بهم إلى هذا المستوى البالغ من الفشل.. وبدلا من الحديث عن بربرية النظام، فإنهم يفضلون التركيز على المعاناة الناجمة عن التدخل الأجنبي. وحسب قول عبد الستار فإن كل العراقيين يعانون من الحرب والعقوبات. في كل منزل يوجد شهيد مستخدما عبارة : - "في كل منزل شهيد" – التي تلقى صدي في العالم العربي. فالمصريون يستخدمونها في حديثهم للإشارة إلى سنوات الصراع مع إسرائيل، والجزائريون يستخدمونها لوصف تضحياتهم خلال السنوات السبعين التي تمثل عمر المعركة من أجل الاستقلال عن فرنسا.

إن جاذبية حزب مثل حزب البعث العربي الاشتراكي ، كانت دائما في أنه يقدم صيغة يمكن للعراقيين الاتحاد من خلالها ، متجاوزين الإنقسامات الطائفية. إن البعثيين يساورهم الشكوك في أن أي حزب يمكن أن يكون لديه كل المقومات والمحفزات القومية البعثية في دولة مثل العراق. كما يرون أيضا أن العراق الحديث دولة تم بناؤها من قبلهم بشكل مكنها من مقاومة مكائد القوى الأجنبية، سواء كانت السي أي أيه أو إيران. وحسبما يقول عبد الحافظ المدرس البعثي من بعقوبة (34) :"أنا التحقت بالحزب في 1968 كشاب حيث إنه كان الحزب القومي الرئيسي. وسنرى إذا ما كان أي من الأحزاب الأخرى يستطيع أن يصل لمستوى القومية التي وصلها حزب البعث، فالبعث

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بكل المعاني هو الذي بنى تلك الدولة على مدار أكثر من 35 عاما، ولم يمنعه من استكمال المهمة سوى الحروب والعقوبات". إن أقوي دعوات البعث كانت وربما ستظل الدعوة الواضحة إلى الوحدة والخطاب الذي يركز على التجانس القومي . وكان الكثير من المحللين في العالم العربي والولايات المتحدة يأملون كذلك أن يتمكن علماني شيعي مثل إياد علاوي أن يحقق شيئا ما من ذلك وينقذ الدولة من الانقسام الديني الذي سقطت فيه.

ويعرف العراقيون في التراث العربي الإسلامي بأنهم شعب انقسامي. ويقال إن زينب بنت النبي وصفتهم بأنهم أهل الشقاق والنفاق. وهنا فإن من بين المواقف التي تحتل مكانة في المذهب الشيعي هي التغرير بالحسين حفيد النبي من قبل القبائل العربية التي استقرت في الكوفة قرب النجف، فقد دعوه إلى مغادرة مكة والالتحاق بهم ضد الطاغية الخليفة الأموي في دمشق، ثم تركوه وأتباعه ليتم تمزيقهم بشكل وحشي من قبل قوات الأمويين في كربلاء في 680 ميلادية. وقد دعا الكاتب العراقي كنعان مكية العراقيين إلى الاعتراف بالطبيعة التي تعكس مجتمعهم والانقسامات التي تحكمه وذلك في كتابه "جمهورية الخوف" مستشهدا بالحكمة القائلة : "اللي بينا منا وفينا"(35). لقد طال أمد الديكتاتورية إزاء حقيقة أنها فهمت واحتكرت خطوط الخوف في المجتمع العراقي، وإزاء تشكيلها نوعا من الرؤية لدولة موحدة هائلة التنوع، حتى لو كان من خلال الرعب".

على صعيد العالم العربي، لم يكن هناك ترحيب بتنامي الخصوصية العراقية، وكان ينظر إليها على أنها أداة أمريكية من أجل فصل العراق عن بقية المنطقة، بشكل يخدم المصالح الإسرائيلية. فيما كانت النخبة العراقية السياسية الجديدة مثقلة بفكرة العراق أولا. وعلى ذلك تم توصيف تليفزيونهم الرسمي بـ "العراقية" أو "القناة العراقية" (في مخالفة للقنوات العربية القومية مثل "العربية" التي اسمها يعني "القناة العربية") كما يوجد موقف معادي على نطاق ضيق ضد المقيمين الفلسطينيين في حقبة ما بعد سقوط صدام حسين، حيث أرغم الكثيرون على ترك منازلهم من قبل العراقيين الغاضبين على الامتيازات التي تمتعوا بها في ظل حكم صدام حسين. وأفرزت تلك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

التطورات قدرا من التحفظات من قبل الكثيرين من السنة الذين ساندوا ذلك التفكير، في ضوء رؤيتهم أن حكم الشيعة ينتقل بالدولة إلى الفضاء الإيراني، في الوقت الذي تتسع فيه الفجوة بين العراق والعالم العربي.

وقد ذهب فؤاد عجمي في كتابه " بيت الأحلام العربي " إلى أن الهوس الذي ينتاب القوميين العرب بشأن إسرائيل أعمى المفكرين العرب عن الإرهاب والقمع الذي يمارس على شعوبهم من قبل الأنظمة التي وجدت قدرا من القبول بالغ السهولة(36). والأمثلة الأساسية التي يقدمها في هذا الصدد هي العراق ومصر وسوريا. وقد كان عجمي ومكية من المساندين وأصحاب الأصوات العالية في الدعوة لغزو العراق عام 2003 – إلى الحد الذي أصبحوا معه بمثابة مستشارين للإدارة الأمريكية آنذاك – وهو المشروع الذي كان مرفوضا بالطبع بين الغالبية الواسعة من المثقفين بطول العالم العربي وعرضه. وقد ألقت الحرب بالقفاز في وجه المثقفين والنخب الحاكمة على السواء، فلم يكن الوقت وقت حلول الحقوق الفردية قبل مفاهيم المصلحة القومية والمبادئ المتعلقة بفلسطين، والأمة العربية الأوسع ومجتمع الإسلام؟ كما كان السؤال المطروح.. هل كان يجب على الأقطار العربية ألا تعترض على المخاوف الكبرى على القومية العربية والتركيز على تطوير كل دولة ومواطنيها على حدة ؟.

فضيحة أبو غريب

عزز الكشف عن الانتهاكات العسكرية الأمريكية للمعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب التصور السائد في العالم العربي بشأن الولايات المتحدة وأنها ليست سوى قوة استعمارية جديدة تتسم بالغطرسة، وأن خطابها عن حقوق الإنسان ليس سوى غطاء لأهداف جيوسياسية أوسع. وفي هذا السياق، بدت الانتهاكات في سجن أبو غريب وكأنها تجد سندها في عقود من الحط من شأن الثقافة العربية في الخطاب الغربي، الأمر الذي بدا ملحوظا بشكل كبير في أمريكا حيث تسود قراءة خاصة للعالم العربي يتم العمل على إشاعتها بشكل عمدي من قبل إسرائيل وأنصارها ذوي التأثير الكبير هناك. ومن ذلك أن برنارد لويس المؤرخ لتاريخ الإسلام ، على سبيل المثال، انضم إلى دونالد رامسفيلد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبول وولفوفيتز في توجيه خطاب إلى الرئيس الأمريكي آنذاك بيل كلينتون في فبراير 1998 يدعونه فيه لغزو العراق، وهو ما يقدم نموذجا صارخا على الرؤية التي قدمها إدوارد سعيد بشأن التحالف بين الوسط الأكاديمي والسياسي.

وقد أصبح لويس الخبير المفضل بشأن الشرق الأوسط في البيت الأبيض والبنتاجون. وامتدحه نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفوفيتز ، لتعليمه إياه "كيف يفهم التاريخ المعقد والهام للشرق الأوسط والاسترشاد به بشأن تحديد الخطوات المقبلة في المرحلة المقبلة لبناء عالم أفضل لعدة أجيال"(37). وأصبح كتاب لويس "أين الخطأ" الذي صدر بعد أحداث سبتمبر وحققت مبيعاته أرقاما قياسية، من الكتب التي يقبل على قراءتها الكثير من الجنود الأمريكيين في العراق. وفي لقاء خاص سريع مع ممثلي الإدارة الأمريكية ذهب لويس إلى أن العرب سيتم حكمهم على الدوام من قبل طغاة، وأنه لهذا قد يكون من الأفضل التأكد من صداقتهم لنا، وأن الغضب العربي ضد أمريكا ليس أمامه أي فرصة للتأثير على سياساتها بشأن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأنه لذلك يجب على الولايات المتحدة ألا تحاول تهدئة العرب فيما يتعلق بميلها تجاه إسرائيل.

إن القراءة العربية لأبو غريب تتناقض مع تلك التي سادت في المملكة المتحدة وأمريكا، حيث يذهب أغلب المعلقين إلى أنه لا يوجد مساواة أخلاقية بين القطع العشوائي لرؤوس الأجانب – بدأت الزيادة الكبيرة في عمليات قطع الرأس فقط مع جريمة قتل نيكولاس بيرج - وتعذيب العراقيين جراء حملهم السلاح ضد الإحتلال الأجنبي. وفي ذلك الخصوص لمس الكاتب البريطاني دافيد أرونوفيتش بشكل دقيق وجهة النظر العربية عندما أشار في لقاء له مع "بي بي سي" العالمية إلى اشتباهه في وجود أساس عنصري يقف وراء أحداث معتقل أبو غريب. كما أن تنظيم القاعدة في العراق الذي ترأسه أبو مصعب الزرقاوي عمل على محاكاة نموذج المعاملة الأمريكية وذلك من خلال إلباس بيرج وآخرين بدلاً حمراء على غرار المعتقلين في جوانتامو حيث يتم احتجاز المشتبه في انتمائهم للقاعدة بعد غزو أفغانستان عام 2001خارج نطاق أحكام القانون الأمريكي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبدت وسائل الإعلام الفضائية العربية مرتبكة بشكل كبير، الأمر الذي وضح في عدم معرفتها كيفية التصرف وتحديد ردود أفعالها على الصور. غير أنه مع بث هيئات إخبارية أجنبية لهذه الصورة على شاشات التلفزة عرضت القنوات الرئيسية المادة لبعض الوقت فيما بعد، وإن امتنعت الصحف في دول الخليج مثل السعودية فعليا عن نشر الصور لأيام قليلة، خوفا على ما يبدو من أن تتسبب في غضب الناس بما قد يؤدي بهم إلى التظاهر في الشوارع. فيما حاولت بعض صحف المعارضة إثارة رد فعل قوي على الصور.

وفي ذلك كتبت صحيفة الشعب المصرية والإسلامية المعارضة قائلة إن حضارة أمريكا تطلق الكلاب على المعتقلين للقضاء عليهم جسديا ، وقد لقي عشرات العراقيين حتفهم بعد أن التهمت كلاب مدربة أعضائهم التناسلية عارضة اللقطة المثيرة للسخط لعراقي يرتدي زي معتقل برتقالي وهو يرتجف أمام كلب بوليسي(38). وعلى الرغم من ذلك كان يوجد الكثير من الرمزية في صورة ذلك العربي العاري على الأرض وهو مربوط تجره جندية أمريكية وتنظر إليه بعدم اهتمام يصل إلى حد العجرفة . على الجانب الرسمي ساد صمت تام من قبل القادة العرب الذين لم يجدوا أمامهم سوى أن يسمحوا لوزراء خارجيتهم بإصدار بيانات إدانة وفي ذلك راح وزير الخارجية المصري أحمد ماهر يؤكد على ضرورة أن تعاقب واشنطن أولئك الذين ارتكبوا هذا الجرم، فيما قال وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل إن الأمر "نتيجة الاحتلال"(39).

غير أن المفارقة التي المثيرة للسخرية في مجال الحديث عن فضيحة أبو غريب أن معظم الحكومات العربية سمحت بمعاملة مماثلة تماما أو أكثر سوءا لمواطنيها. وعلى ذلك فإنه في برنامج حواري جرى على قناة "الجزيرة" كان السؤال الموجه للمشاهدين هو" لماذا أخفقت الأنظمة في إدانة صور انتهاكات المعتقلين العراقيين؟ هل التعذيب في السجون العربية لا يتجاوز ما جري في أبوغريب مئات المرات؟. وفي الاستطلاع الذي جرى عبر النت والهاتف، أجاب 86% من المشاركين بنعم وأن التعذيب العربي أسوأ(40). وفي هذا الخصوص أيضا قال الناشط الحقوقي العراقي إبراهيم الإدريسي في صحيفة "الديلي ستار" اللبنانية إن الحديث عن انتهاك المواطن العراقي اليوم "نكتة" لا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تقارن بما كان يجري في ظل حكم صدام، واستشهد في ذلك بحادث ذكر أنه كان شاهدا عليه بنفسه جرى خلاله اغتصاب امرأة من قبل 12 رجلا ثم جرى انتزاع جنين كان في بطنها(41).

أما الناشط في مجال حقوق الإنسان يسري عزباوي فقد كتب في صحيفة "العربي" المعارضة المصرية قائلا بصراحة أن ما يحدث في مصر، لا يختلف كثيرا عما يحدث في السجون العراقية(42). وقد لام معظم المعلقين الحكومات العربية جراء فضيحة أبو غريب على خلفية فشلها في منع الغزو منذ الوهلة الأولى. وفي ذلك كتب عبد الباري عطوان رئيس تحرير صحيفة القدس العربي التي تصدر في لندن في مقالة عنونها بـ " الفجور الأمريكي والخنوع العربي" :" من المؤلم أننا لم نسمع زعيما عربيا واحدا يقول كلمة شجاعة في مواجهة هذه العدوانية الأمريكية السافرة تجاه العراق وفلسطين وسوريا. لم نسمع أن زعيما عربيا قال إن قتل الفلسطينيين والعراقيين بالأسلحة الأمريكية والأيدي الإسرائيلية هو قتل للعرب جميعا وإن محاسبة سورية وفرض الحصار عليها هي محاسبة لكل الدول العربية"(43).

ولكن الخسارة الكبرى كانت قد لحقت بلا شك بالمهمة الأمريكية الهادفة إلى إنشاء نظام جديد في العراق، وهي المهمة التي يمكن للمرء أن يضعها باعتبارها معيار نظام التحالف الأمريكي عبر العالم العربي الذي جرى إهانته. ووفق ما ذهبت إليه صحيفة الجمهورية المصرية الحكومية فلقد شاهد العالم هؤلاء الذين منحوا أنفسهم حق تقرير حقوق الإنسان في العالم وقد انتهكوا أبسط حقوق الإنسان.. لقد بدد ما جرى في سجن "أبوغريب" الوهم الذي ساد بين البعض عن إمكانية الخلاص من أزماتهم بجنازير دبابات الإحتلال (44). وذهب الكاتب اللبناني غسان شربل في جريدة "الحياة" اللندنية إلى القول بأن تعامل المحافظون الجدد مع كارثة 11 سبتمبر بوصفها فرصة نادرة لإطلاق مشروع يستحيل تمريره ما لم تكن أمريكا جريحة على أرضها.. إن الحلم العراقي تبخر فعلا .الأسباب أعمق من الانتهاكات لحقوق المعتلقين العراقيين .. من كلام بول بريمر للمرة الأولى عن الانسحاب إلى الاستجارة بالأخضر الإبراهيمي وصولا إلى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

التشاور مع كبار معارضي الحرب لتدبيج قرار دولي جديد يتضح أن الحلم العراقي كان مغامرة مكلفة بل باهظة (45).

نشاط الإسلام السياسي بعد الحرب

أكد المشروع العراقي وضعية الإسلام السياسي باعتباره الأيديولوجية الراديكالية التي تعكس خيار العالم العربي اليوم، وأعاد تنشيط العناصر المتطرفة ضمن الحركة الإسلامية في ضوء تحولها إلى محور التركيز بعد أحداث 11 سبتمبر واستمرار تمسكها بمحورية العمليات الاستشهادية. وقد أعلنت المقاومة العراقية التي انطلقت بعد الغزو وهيمنت عليها الجماعات الإسلامية والبعثيون أنها تنطلق من أساس إسلامي، من خلال جماعات أطلقت على نفسها أسماء مثل "الجيش الإسلامي في العراق"، فيما انطلقت أخرى من نغمة قومية مثل " كتائب ثورة 1920". وإذا كان سقوط بغداد أثبت تراجع القومية العربية إلى ما لا يتجاوز كونها تعبيراً عن شعور بدفء الرابطة القومية، فقد دفع الإسلام السياسي إلى مستوى آخر من الحيوية يتوافق مع هول الحدث.

كانت أكثر المجموعات الإسلامية بروزا في مرحلة مبكرة من المقاومة هي "جماعة التوحيد والجهاد" الاسم الذي كان سمة العمليات السنية المسلمة الضارية التي اتخذت شكل حزب عصابات بدا واضحا أنها تستهدف تنفيس غضبها على الشيعة الذين بدأوا يشعرون بالاستقواء. إن "التوحيد" يعني التأكيد على وجدانية الله ، وفي منظور الراديكاليين السنة – أيديولوجية الدولة في السعودية – فإن الشيعة الهراطقة ليسوا على هذا الإيمان بسبب توقيرهم آل بيت النبي بشكل يصل إلى مستوى التأليه (بشكل يقارب التعددية المسيحية التي تعتقد بأن المسيح ذو طبيعة إلهية). إن الجهاد في هذا السياق يعني الحرب المقدسة، ومع إعلان هذه الحرب، فإن كل المسلمين ملزمون بالمشاركة فيها وفق رؤية أبو مصعب الزرقاوي. وعلى مدار عام من أعمال التمرد أعلنت الجماعة أنها تحظى بمباركة أسامة بن لادن وغيرت اسمها إلى "قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين ". وهنا من الجدير بالإشارة أن الزرقاوي أردني الجنسية تبني التفسير السني الوهابي لأيديولوجية القاعدة خلال الفترة التي قضاها مع جماعة بن لادن في أفغانستان.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفي مسعى لتقويض مصداقية جماعة الزرقاوي كجماعة مقاومة داخلية عمدت الحكومة الأمريكية وحليفها العراقي إلى اللعب بورقة العنصر الأجنبي. وبرز من بين قوائم القاعدة بشأن القتلى الذين فقدوا حياتهم في المعارك الدائرة ما يؤكد ذلك حيث تضمنت هذه القوائم المنسوبة إلى الجماعة نفسها ونشرت على مواقع إسلامية أسماء مئات إن لم يكن آلاف المجندين من أقطار عربية تشمل سعوديين وجزائريين ويمنيين وسوريين وأردنيين ومصريين ومغربيين. ولكن العدد الأكبر من منفذي العمليات الإستشهادية والناشطين الآخرين الذين يعملون في إطار الجماعة كانوا عراقيين بدون شك، وإلا ما كان لها القدرة على العمل على النحو الذي ظهر في عملياتها. ويحتج العراقيون على ذلك بأن بلادهم لم تعرف ظاهرة العمليات الاستشهادية من قبل، الأمر الذي ينطبق كذلك على معظم المجتمعات العربية.

وفي السعودية دعا العلماء المنتمون إلى الحكومة هناك الشباب إلى البقاء خارج المستنقع العراقي ، وإن كان الكثير منهم توجه إلى هناك ، نظرا لحملة الحكومة فيما بعد 11 سبتمبر على أنشطتهم التي كانوا يشاركون من خلالها أسامة بن لادن وأتباعه. وبعد نحو عقدين من مساندة الجهاد في أفغانستان والشيشان وأماكن أخرى، بدأ تراجع النشاط السلفي في السعودية بشكل لم تعد معه عاصمة هذا النوع من النشاط الذي كانت محوره من قبل. وحسب قول الداعية محسن العواجي في توصيف الوضع هناك (46) فإن الناس في الشارع السعودي غير سعداء بالعمليات الواسعة ضد المجاهدين السابقين الذين كانت الحكومة السعودية تشجعهم من قبل. وفي غياب ضغط أمريكي، فإن حكومتنا ربما لم تكن شديدة على هذا النحو في مواجهة شعبها. إن معظم الشباب يعتقدون أن الطريق الوحيد الآمن هو الذهاب إلى العراق. ونحن نسمع القصص عن أسر الذين وصلتهم رسائل على المحمول من أبنائهم تقول إنهم ذهبوا إلى العراق.

ولم تكد الحرب في العراق تنتهي حتى تحول الجهاديون إلى السعودية نفسها، حيث جرى تفجير ثلاث مجمعات سكنية في الرياض خلال عمليات انتحارية أسفرت عن مقتل 26 شخصا، الأمر الذي كان مؤشرا على بداية حملة من العنف تواصلت على مدار عام 2004. وجاءت هذه العمليات في إطار حملة مفتوحة شنتها القاعدة لإسقاط نظام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأسرة السعودية الحاكم بسبب تحالفها مع الولايات المتحدة، التحالف الذي ينظر المتمردون إليه على أنه ليس له من هدف سوى احتفاظ الحكام السعوديين بقبضتهم على السلطة.

أما على صعيد المدى الذي وصل إليه تغلغل عمليات أنصار القاعدة في دول أخرى فيعتبر أمرا غير واضح. ففي اليمن بذلت السلطات هناك جهودا كبيرة لاستئصالهم قبل الحرب. أما الكويت فقد شهدت مصادمات مع الإسلاميين الذين أطلق عليهم "المتشددون" من قبل وسائل الإعلام. ومن غير المستبعد أن تكون الأجهزة الأمنية استدرجتهم إلى الصدام للقضاء على حالة التهديد التي يمكن أن يمثلوها للدولة. لقد أصبحت القاعدة بمثابة ماركة مسجلة للراديكاليين المعارضين للنفوذ الأجنبي، ولحكوماتهم على سماحها لمثل هذا النفوذ بالتحقق حيثما يريد أصحابه في العالم العربي.

ففي مصر ، حيث نجحت الحكومة في الإجهاز على الإسلام السياسي بعد ما يشبه ثورة استغرقت خمس سنوات منتصف التسعينيات، عاد العنف الإسلامي عامي 2004 و 2005 من خلال سلسلة من الهجمات على أهداف سياحية في القاهرة وسيناء ، ما أدى إلى مقتل مصريين وإسرائيليين وأوروبيين. وقد سادت حالة من التنافس بشأن المسئولية عن تلك الهجمات على المواقع الإسلامية على الإنترنت. ورغم عدم أخذ هذه المزاعم في أغلب الأحوال بشكل جدي من قبل السلطات أو المراقبين السياسيين، فإنها تثير الاهتمام في ظل تبنيها لغة القاعدة ضد كل ما هو غربي. وبنطبق الأمر نفسه بالنظر إلى الهجمات الإسلامية الأخرى حول العالم سواء أكانت في مدريد أم في لندن أو اسطنبول، على النحو الذي يمكن معه القول إن القاعدة نجحت في توفير إطار عام شامل من الأفكار والممارسة بشكل يعكس سماتها التي يمكن للعرب والمسلمين أن يتبعوها.

وقد كان لانتشار الإسلاميين في الفضاء المعلوماتي منذ 2003 دور كبير في ذلك الأمر ، فالعشرات من المواقع الإسلامية تعزز أجندة القاعدة وتعمل على تجنيد أفراد جدد. على سبيل المثال نشر فرع القاعدة في العراق بيانا على أحد المواقع في أبريل 2005 ينصح من خلاله القراء بشأن كيفية نشر رسالة التنظيم، وحسبما أشار البيان فإنه يوجد المئات، إن لم يكن الآلاف من الطرق حول العالم وكذلك في كل الأقطار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإسلامية. ويمكنك أن تشارك من خلال وضع بيانات وفيديو القاعدة عليها - فلا يجب علينا فقط أن نجلس ونقرأ البيانات أو نشاهد الأفلام. يوجد عراقيون كانوا يتشككون بشيخنا العزيز، أبو مصعب الزرقاوي، ولكنهم الآن يعتنقون فكره، نظرا لاطلاعهم على الدعاية الخاصة به ومن يقدمون هذه الدعاية من خلال غرف المحادثة عبر الإنترنت(47). يوجد الآلاف من الأخوة تستطيع أن تجندهم للقاعدة من خلال القيام بجهد بسيط تماما. وقد قامت عناصر المقاومة الإسلامية في العراق عام 2004 بالتحرك على مستوى آخر من خلال تكتيك مثل نوعا من الصدمة يقوم على قطع رؤوس العراقيين والأجانب المتهمين بمساعدة القوات الأجنبية أو مساندة السلطات المدعومة من قبل الأجانب، بأي شكل من الأشكال، وتصوير فيديو لعملية قطع الرأس وبثه على الإنترنت وإرسال نسخ إلى وسائل الإعلام مثل قناة "الجزيرة".

وقد جرى اتباع هذا التكتيك بشكل يحقق تأثيرا بالغا على الحكومات التي تساعد الولايات المتحدة ، حيث يكون الضحايا في الغالب مواطني دولة أجنبية محددة، يرى الخاطفون أن شعبها يمكن أن يبدي سخطه جراء الاختطاف وقد سعى جديا لتأمين إطلاق سراح المختطفين. وفي هذا الإطار قررت الحكومة الفلبينية مثلا سحب قوتها العسكرية المحدودة لتأمين حياة رهينة فلبيني هو أنجيلو دي لا كروز بعدما هدد الجيش الإسلامي في العراق في يوليو 2004 بإعدامه. ولم يكن الأمريكيان إيوجين أرمسترونج وجاك هينسلي والبريطاني كينيث بيجلي محظوظين تماما عندما سقطا في أيدي جماعة الزرقاوي في ذلك العام حيث قتلوا عبر قطع وتمزيق أمعائهم، وبث فيديو على الإنترنت للعملية بعد رفض حكوماتهم الاستجابة للمهلة النهائية التي تم تحديدها من أجل إطلاق سراح المعتقلات العراقيات.

كانت جريمة قتل بيجلي ، في النهاية ، الأكثر ترويعا حيث بثت المجموعة عددا من شرائط الفيديو له وهو جاثم في كوخ يرتدي بدلة إعدام برتقالية، وقد راح يرجو رئيس الوزراء البريطاني توني بلير أن يستجيب لمطالب خاطفيه. وقد تحدث بول شقيق بيجلي إلى "الجزيرة" قائلا إن هذه الحرب غير مشروعة ويجب أن تتوقف. لقد أعلنت الأمم المتحدة أن الحرب غير مشروعة، فلا يوجد أسلحة تدمير شامل، والتي اتخذت

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كأساس لهذه الحرب. يجب وقف هذه الحرب"(48). وقد تنوعت جنسيات الرهائن الذين تم قتلهم (يبلغ عددهم زهاء خمسين شخصا مع منتصف عام 2005) فكان من بينهم مصريون وإيطاليون ونيباليون ويابانيون وأتراك وباكستانيون وبلغار ومقدونيون وأمريكيون وبريطانيون ولبنانيون وسودانيون وأردنيون. وكان معظمهم في الغالب سائقي شاحنات يقومون بعمليات تسليم حاجيات ومواد إلى مختلف الأماكن التي يرسلهم إليها أصحاب الأعمال في العراق.

وقد توقف التمرد عن استراتيجية قطع الرؤوس عام 2005 مدركا أنه يغامر بالمساندة التي يحظى بها في العراق والعالم العربي.. ووفق ما ذهبت إليه مجموعة الأزمات الدولية في فبراير 2006 (49) فإن المجموعات تزايد إدراكها بشأن الصورة السيئة التي أصبحت عليها، ما كان مدعاة لقلقها بشأن موقف الرأي العام وأصبحت تعتقد أكثر من ذي قبل أن اجتذابه لصفها سوف يكون نوها من النصر . وكانت الوحشية التي مورست من قبل قوات الاحتلال، حسبما يذهب تقرير مجموعة الأزمات، بمثابة دعاية كافية لترجيح كفة المتمردين.

على صعيد الشيعة، كان بعضهم يخوض حربا خاصة وفق رؤيته ضد الأمريكيين. وقد خاض أتباع الزعيم الديني الشاب مقتدى الصدر (المعروفة بإسم جيش المهدي) عددا من المواجهات الكبيرة مع القوات الأمريكية في مدينة النجف المقدسة، بشكل عزز وضعية الصدر على المستوى القومي على صعيد المناورة من أجل السلطة والنفوذ بين العلماء والسياسيين الشيعة. وعززت هذه المواجهات الجاذبية السياسية للصدر حتي بين العرب السنة بما جعله يحظى بالتقدير من قبلهم. وبشكل مشابه كثيرا للوضع السياسي لحزب الله ، والذي يحظي بالإعجاب في العالم العربي لخوضه القتال في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي على مدار عشرين عاما في لبنان ومقاومة الجيش الإسرائيلي خلال حرب الصيف 2006 في لبنان، فإن حركة الصدر تزدهر بفعل أنشطتها وتضحيتها، بشكل يجعلها الوحيدة من بين القوات الشيعية العراقية الأخرى التي ينسجم إيقاع عملها مع روح القومية العربية التي تعكس توجهات الفئات السنية التي تمثل الأغلبية في العالم العربي. كما أن لغة الصدر تعد كذلك مختلفة عن السيستاني

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومجموعة الزعماء الشيعة المقربين منه، حيث يضع، بشكل ثابت، هدف إنهاء الاحتلال باعتباره أولوية رئيسية للدولة. ولم يلتحق أنصاره بالتحالف الشيعي الحاكمُ بشكل ملموس حتى انتخابات ديسمبر 2005.

ومن الملفت للنظر تحول الشيوعيين في ظل العراق الجديد إلى التدين. وهو أمر له دلالته في ظل حقيقة أن الحزب الشيوعي يعتبر محظورا رسميا في دولة مثل مصر ودول أخرى في العالم العربي بسبب النظرة السائدة له على المستوى الشعبي باعتباره يمثل الإلحاد. غير أن الوضع اختلف في العراق بعد مرحلة الغزو حيث احتفظ الحزب الشيوعي بوجوده بل واحتل مكانة عامة في عملية صعود الدولة الحديثة. وهكذا منح الشيوعيون وزارة في المجلس الحاكم ثم الحكومة الانتقالية التي تلته التي تم تشكيلها في ظل الإحتلال الأمريكي، بشرط أن يتكيفوا مع الإطار الإسلامي للدولة الجديدة. ومن بين الجوانب المهمة هنا أن وضع العراقيين أنفسهم بشأن الدين ينتابه قدر من الغموض على صعيد التزامهم بما تتطلبه المناسبات الدينية، على الأقل في بغداد حيث يعد الأكل والتدخين على الملأ خلال الصيام في رمضان سلوكا مستساغا.

غير أنه ليس هناك مجال للقول بخطأ التأكيد على أن الخلفية الدينية بالنسبة للكثير من السنة والشيعة على السواء، تعد هويتهم الأساسية ومصدر الفخر والاحترام. وفي تأكيد على ذلك قال وزير الثقافة مفيد الجزائري في نوفمبر 2003 : "نحن دولة الأغلبية المطلقة فيها مسلمون ولا نستطيع تجاهل حقيقة أن الإسلام، على مستويات مختلفة يعتبر أمرا مهما بالنسبة لنا. ليس لدينا سبب للاعتقاد بأن الأشياء تتجه نحو التغيير لمجرد كونهم أحزابا دينية ونحن حزب شيوعي،إلا إذا حاولت الجماعات والشخصيات المتطرفة التأثير على ذلك. وآمل في عدم وجود سبب للخوف"(50).

وأما على صعيد الموقف في مصر، فقد ظهر الإخوان المسلمون بشكل أقوى نتيجة الحرب على العراق. وقد حافظت الجماعة على الصورة المحتفظ بها لها كجماعة مصرية ذات أصول تعود إلى عقود مضت، وتتسم بالصبر على مهارة الحكومة في تصيد أخطائها وراح مرشدها العام محمد مهدي عاكف يتبع نهجا مختلفا عن سلفه مأمون الهضيبي في التفاعل الإيجابي مع وسائل الإعلام العربية، معززا حملة الإخوان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

على صعيد الاعتراف بها كحزب سياسي شرعي في مصر، فارضا وجودها في كل القضايا السياسية الحيوية الداخلية والإقليمية.

وقد شعرت الجماعة بالقوة بقدر كبير بما مكنها من مواصلة تحدي السلطات خلال عام 2005 من خلال تنظيم المزيد من المظاهرات يردد أعضاؤها خلالها شعارا واحدا في مواجهة وزارة الداخلية ، مستفيدة من الضغط الأمريكي الذي فرض على الحكومة المصرية تأمين أكثر الانتخابات نزاهة في تاريخها. وقد حققت الجماعة مكاسب هائلة في الانتخابات البرلمانية فيما بعد في العام نفسه. (على الرغم من أن السلطات ظلت تلجأ إلى اللعبة الغبية مثل إغلاق مراكز الاقتراع بشكل يتعذر معه لمناصري الإخوان الدخول للإدلاء بأصواتهم). ورغم أن الديمقراطيين شعروا كذلك بالقوة على النحو الذي مكنهم من تحدي السلطات من خلال الاحتجاجات، فإنه لم يكن هناك مفر أمام المحللين السياسيين في العالم العربي من الاعتراف بأن الإسلاميين هم الأقوى.

ويعتبر الإخوان والكثير من الحركات الإسلامية الأخرى المعتدلة على امتداد المنطقة أصحاب خبرة كبيرة في ممارسة لعبة الانتظار الطويل، على طريق الوصول إلى السلطة غير أنهم وانطلاقا من الغضب العارم من الحرب على العراق، كان هناك إقبال محموم على المشاركة في الانتخابات يصب في صالحهم. وعلى العكس من الإخوان والحركات الإسلامية ، لم يكن القوميون العرب يملكون سوى الصراخ فقط على سقوط قلعة أخرى من قلاع الصمود العربي وفقا لتوصيف الكاتب الصحفي مصطفى بكري للعراق، نادمين على إخراج سوريا من لبنان. ولكن الإسلاميين في ظل تأثيرهم باتوا مقتنعين باشتداد عودهم وأن أوانهم قد حل(51).

وفي ذلك قال راشد الغنوشي زعيم حزب النهضة التونسي المحظور من منفاه في لندن: "ربما يكون من الصحيح أن الأمة الإسلامية تبدو في وضع سئ، حيث تحكم من قبل أسوأ أنظمة العصر، التي تمارس أسوأ أنواع القهر، ولكن الحقيقة هي أن هذا التحرك الدولي ضد الإسلام وصحوته، لم يكن ليوجد لولا تنامي روح المقاومة عبر أمتنا. لا تنسق إلى أولئك الذين أصابهم الهلع نتيجة اختلال توازن القوى القائم اليوم (مع الغرب) ، أولئك الذين يعتقدون أن قدرتنا على الصمود والمقاومة ورفض بيع أنفسنا هو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

"انتحار". لا تستمع إلى أولئك الذين يعتقدون أننا لا نستطيع تحريك المقاومة على النحو الذي نغير معه توازن القوى واستعادة حقوقنا وأرضنا. لا يوجد مجال للشك في أن اتجاهنا نحو الإسلام هو السبب في أننا ما زال لدينا أمة ذات تاريخ وحضارة عظيمة ونهضة تقف وراء ذلك. إن الإسلام هو الدين الأكثر نموا في العالم اليوم"(52).

فيما كتب المفكر الإسلامي المصري محمد عمارة أن العلمانية ليست هي الحل، إنها الأزمة التي تسببت في أن الأوروبيين والغربيين يشتكون من أنهم شربوا حتى الثمالة من كأسها المسمم. عيب على العلمانيين في دولتنا مواصلة المطالبة بـ "الحداثة الغربية" حتى بعد أن حولها مخترعوها إلى لا شئ وتفكيكهم مرحلة "ما بعد الحداثة" إنهم يدعون إلى علمانية أثبتت إفلاسها في مجتمعاتها. نحن نحتاج إلى النظر شرقا والتخلص من إغواءات الغرب (53).

لقد أصبحت الحرب في العراق مانعة الصواعق للعرب الذين يشعرون بالخذلان من قبل حكوماتهم على خلفية العديد من الاضطرابات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية. وقد استحوذ غزو واحتلال العراق على خيال الملايين كمؤشر على تجاهل الولايات المتحدة العرب والمسلمين وثقافتهم وتاريخهم وعواطفهم. وقد قوى الحدث بعد الآخر والواقعة بعد الأخرى، من النظرية التي ترى أن أمريكا لا تضعهم في اعتبارها أو تحسب لهم حساب على الإطلاق.. فمن نهب متحف بغداد فيما القوات الأمريكية تقف مكتوفة الأيدي ، إلى التعذيب والانتهاك الجنسي للمعتقلين العراقيين في أبو غريب. وأصبح العراق مجالا للدعوة إلى حشد الإسلاميين بامتداد المنطقة وفيما أن الأغلبية لم تستطع أن تتوجه إلى أرض المعركة من أجل قتال الصليبيين الجدد فقد جرى تعزيز تصوراتهم بأن " الإسلام هو الحل" حسب مفردات شعار الإخوان المسلمين.

استبعاد العراقيين في العراق الجديد

يتزايد النقاش في الغرب، بينما يخفت في العالم العربي، بشأن ما اذا كان بإمكان الولايات المتحدة التصرف في العراق بشكل مختلف وبشكل يلقي رد فعل إيجابياً على ما تقوم به من قبل العراقيين بشكل خاص والعالم العربي بشكل عام. ويتم هنا الاستشهاد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بأمرين .. أولهما القرارات المبكرة لإدارة الاحتلال بحظر حزب البعث واجتثاث البعثيين السابقين من الحياة العامة والإدارية وحل الجيش العراقي بدون الإبقاء على الرواتب والتعويضات، وهو الجيش الذي كان ينظر له على أنه واحد من أكثر الجيوش احترافا في المنطقة وأنه ليس بالضرورة أن يكون منتميا أيديولوجيا للنظام القديم . ويتمثل الأمر الثاني في الأسلوب الخشن والجاف الذي تعامل به الجيش الأمريكي مع العراقيين العاديين في المواقف الحياتية اليومية. إن قسما كبيرا من هؤلاء الذين لقوا حتفهم خلال وبعد الحرب كانوا ضحايا أبرياء وقد أصبحت تلك قضية جدالية تتقاطع مع القضية المركزية المتعلقة بما إذا كانت الحرب مبررة أم لا؟ كما أصبحت عصبية الأمريكيين تتزايد في مواجهة التمرد، بشكل أصبح يمكن معه إطلاق النار على العراقيين بما يؤدي إلى قتلهم إذا ما اقتربوا بسرعة كبيرة من نقاط تفتيش أو لم يقوموا بتقديم إرشادات ذات دلالة للدوريات. كما قتل البعض منهم في هجمات جوية خلال حفلات زفاف نظرا لاعتقاد العسكريين بأن هذه الحفلات تمثل تجمعات لمتمردين.

وتقدر مجموعة أمريكية بريطانية غير ربحية تطلق على نفسها " مجموعة إحصاء الضحايا العراقيين" عدد العراقيين الذين لقوا حتفهم بنحو 25 ألف مدني قتلوا في العامين الأولين بعد بدء الحرب. وقد تم جمع هذه الأرقام من تقارير وسائل الإعلام. فيما قتل أكثر من ألفي جندي من القوات الأمريكية مع نهاية عام 2005 وأصيب أكثر من 13 ألفا آخرين. وتقدر الجريدة الطبية الأمريكية "ذي لانسيت" في تقرير نشر في أكتوبر 2004 أنه منذ الغزو في مارس 2003 لقي نحو مائة ألف مدني عراقي على الأقل حتفهم (54). وقد تم التوصل إلى هذا الرقم من دراسة لنحو ألف منزل تقريبا على مستوى الدولة في سبتمبر 2004 وحالات الوفيات على مدى نحو 15 شهرا قبل الغزو والشهور الثمانية عشر الأولى بعد ذلك (تم الاعتراض على هذا التقدير بقوة من قبل الحكومة البريطانية). كما أن معهد الدراسات الدولية الذي يتخذ من جنيف مقرا له قدم رقما يقدر بنحو 39 ألف في يوليو 2005 حاول تسليط الأضواء على سبب الوفيات جمعت من قبل دراسة لانسيت(55). ومع منتصف 2005 لقي أكثر من خمسين صحفيا وعاملا في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وسائل الإعلام حتفهم منذ الغزو بشكل يجعل من العراق المكان الأكثر خطورة في العالم بالنسبة لعمل وسائل الإعلام.

على مستوى الحرب المعلنة في العالم العربي، بدت الولايات المتحدة وكأنها تحفر لنفسها حفرة كبيرة مع كل عملية هجومية تستهدف القضاء على التمردات في المدن الرئيسية مثل الفلوجة. ، وتل عفر، والحديثة، وسامراء، أو الرمادي. لقد كان للحرب دوما وقع سئ على صعيد العالم العربي، في ضوء قيام قناتي الجزيرة والعربية بتناول الأحداث من الجانب الآخر، مقدمين رؤية مغايرة لما تسوقه الولايات المتحدة. وساد الزعم بأن واشنطن خلال حملة الفلوجة في أبريل 2004 فكرت في قصف المقر الرئيسي للجزيرة في قطر، والتي تعد حليفة الولايات المتحدة وحيث مقر القيادة المركزية الأمريكية التي تعد الخطط الرئيسية للحرب.

إن الجزيرة التي تم إدراجها باعتبارها واحدة من أكثر العلامات التجارية تأثيرا في العالم خلال عام 2004 إلى جانب آبل أي بود، وجوجل، وإيكيا، وستاربكس" لعبت دورا رئيسيا في الكشف عن ذلك في نوفمبر 2005 ما وجه ضربة أخرى للنفوذ الأمريكي في المنطقة(56). وكانت المغاناة التي لحقت بالمدنيين على نطاق كبير أحد أسباب الإعتراض على المشروع العراقي في العالم العربي، بغض النظر عن الجانب المتعلق بالخلفية التاريخية بشأن ما إذا كان هناك شئ يمكن لواشنطن أن تفعله لكي تكسب قلوب وعقول العرب في مشروعها لغزو العراق.

على المستوى الفعلي، كانت النظرة عربيا سلبية لمختلف السياسات الأمريكية، بدءا من قرار حل الجيش العراقي إلى تفكيك البعث، من تعيين جاي جارنر كأول مسؤول إداري أمريكي (الجنرال المستقيل الذي أصبح مقاول الدفاع المسنود من قبل المحافظين الجدد والمعجب بالنهج الإسرائيلي مع الانتفاضة) إلى تأخير الانتخابات البرلمانية الأولى حتى يناير 2005. إن مصدر الاستياء الأساسي من المشروع الأمريكي ككل أصبح قويا من البداية ولم يكن من الصعب التوصل إلى أنه مهما فعل الأمريكيون فإن ذلك يمكن أن يفسر على أنه خطأ من قبل العراقيين من العرب السنة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعلى مستوى العالم العربي الأشمل، وأنه ربما يكون من المحتم أن يصل التمرد إلى ما وصل إليه.

لقد خاضت أمريكا خلال عملياتها في العراق ما يشبه ملعبا غير مستو نظرا لمساندتها للأنظمة غير الديمقراطية ومواقفها خلال المأساة الكبرى الممثلة في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني. ووسط كل ذلك كانت وسائل الإعلام العربية مهيأة لالتقاط أوجه التماثل بين العمليات الأمريكية في العراق والسياسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. وقد استخدم الجيش – الأمريكي - في مواجهة التمرد وفي عملية استبعاد وتغريب السكان السنة وسط وغرب بغداد بل وفي أكثر من ذلك تكتيكات ذكرت بما يقوم به الإسرائيليون. ونشر الجيش مترجمين من الأقلية الأشورية المسيحية والمجتمعات التركمانية أو الكردية، في تعاون مع فئات محددة من العراقيين بشكل يفوح منه رائحة سياسة "فرق تسد" الاستعمارية.

وفي عملية استهدفت القبض على 15 رجلا من بينهم عزت إبراهيم الدوري الذي كان بمثابة الذراع الأيمن لصدام حسين، اجتاح نحو ألف شخص مدينة الحويجة والقرى المحيطة بها في فجر أحد الأيام في ديسمبر 2003 (57). ومن خلال الاسترشاد بآلات الـ "جي بي إس" ومعلومات تم جمعها من متعاونين عراقيين تبدو دوافعهم خفية، هجم الجنود على قائمة المنازل التي بحوذتهم، وكسروا الأبواب وداسوا على سجاجيد غرف المعيشة بأحذيتهم الملوثة بالطين، وفي كثير من الحالات لم يتم ذلك لهدف سوى أن يتم توجيههم إلى منزل أكثر بعدا في الشارع.

وخلال هذه العملية تم اقتياد رجال كبار السن من منازلهم وأجبروا على الركوع في الشوارع القذرة وقد تم تغطية رؤوسهم بشنط صفراء. وراح واحد ممن تعرضوا لتلك العملية هو عادل صالح يحتج قائلا: "إنني أواجه مشاكل في التنفس". فلم يكن رد الجندي الذي يحرسهم والابتسامة تعلوه سوى قوله: "لقد قالوا كلهم ذلك. إن لديه أوشام الفدائيين على ذراعه . إنه على قائمتنا" غير أنه كان من الصعب تصور أن يكون الرجل ذو اللحية الخفيفة والبيجاما القذرة من الفدائيين أم لا. وهنا تدخل جار يبدي قلقه مما يحدث قائلا إنه رجل طيب. إنه عربي ، إنني كردي، ولكننا أصدقاء فيما كانت زوجة الرجل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تنظر إليه وهى تحمل طفلا على ذراعها. كان الأخرون أقل حظا، حيث يعتمد الأمر على مزاج الضابط قائد العملية وأجبرت الأسر على الجلوس في الخارج على الأرض شديدة البرودة، فيما تم تغطية رؤوس أبائهم بشنط. وفي بعض الأحيان قام كاسرو الأبواب (أو "أفراد الاستطلاع" حسب التعبير العسكري) بالمرور عبر بيوتهم. وقد أحاطت وحدات عسكرية بالأجزاء الأخرى في المدينة بمواطنين بشكل عشوائي في الشوارع المجاورة للمنازل المستهدفة لتحديد ما إذا "كان يبدو عليهم أنهم أولاد سيئين" بلغة الجنود.

كان الميجور دوج فينسنت رئيس مكتب الشؤون العامة العسكرية في كركوك هو المسؤول عن كسب القلوب والعقول خلال هذه العمليات، أو "تقديم اللولي بوبس إلى الأطفال" حسبما يصف مهمته يحدث العراقيين بجدية قائلا :"نحن بالغو الأسف" مقدما لهم شعارات بالإنجليزية والعربية تقول: "إن قوات التحالف تعتذر عن أي إزعاج تواجهونه خلال العمليات الأخيرة في منطقتكم. هذه العمليات تتم بالتعاون مع السلطات المحلية من أجل تحقيق أمنك وعراق أكثر أمنا وحرية لكل العراقيين". وتواصل الملصقات : "نحن ملتزمون بتوفير بيئة آمنة ومستقرة في هذا المجتمع والدولة ..بيئة يمكنك فيها أن تربي أطفالك وتمارس دينك بدون خوف أو قمع، وستغادر قوات التحالف البلد عندما - وفقط عندما - يتحقق هذا الوضع". وقد كان ينتشر في المدينة نفسها، والتي تقع في الشمال قرب كركوك رسومات جدارية ضد الولايات المتحدة ومؤيدة لصدام باللغة العربية مثل : "صدام فخر العرب"، "الموت للمتعاونين مع الاحتلال"، "لا تكن درعا للأمريكيين".

وفي الميدان المركزي، وجد الجنود تمثالا لصدام تم تنظيفه بشكل ظهر معه وجه صدام مرة أخرى. وقد تم استدعاء دبابة لإسقاطه. وتجمع سكان المدينة ووقفوا صامتين حول الطوق في مركز المدينة – الآن "منطقة أمنية" – غير أن أحدهم انفجر في غضب عندما سئل من قبل الصحفيين بصراحة أنا أفضل صدام . الأن الشوارع قذرة، الكهرباء تنقطع والجريمة أصبحت مشكلة كبيرة، فيما دخن أحدهم عاكسا عدم الرضا الواسع على مستوى الأمة وعلى انهيار القانون والنظام. ومقتربا عبر الشوارع في سيارته الجيب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العسكرية، فإن فينسنت لوح للمقيمين المرتبكين صارخا : السلام عليكم" وقد حدق فيه العراقيون متراجعين في صمت .

وسط كل ذلك جرى الأطفال وراء عربات الجيب موجهين له الشتائم باللغة العربية مثل "أنت كلب كافر"، الأمر الذي من المؤكد أن المترجمين تجاهلوه. كان الأطفال العراقيون يقدمون إطلالة ذات دلالة في إطار الإتصالات فيما بين المحررين ومن كانوا مجالا للتحرير، فهم منبهرون بالعسكرية الأمريكية ولعبهم، ومن الممكن أن يتجمعوا حول الجنود سائلين إياهم أسئلة بإنجليزية بدائية. وقد كانوا يبدأون كل جملة متقطعة بكلمة "سيد" فيما يجيب الأمريكيون وربما مهددين السائل بجرأتهم بسخرية في كلمات لا يستطيع الأطفال الذين لم ينضجوا بالكامل بعد فهمها. مصرين على القول: "مستر بين؟ مستر موني؟

وفي جهد لكسر التمرد وردع الجماهير عن مساعدتهم استخدم الأمريكيون قوة النار الكثيفة في الأيام الأولي للاحتلال. ومن أمثلة ذلك إنطلاق طائرتين إف 15 من قطر لإسقاط أربعة قنابل تزن الواحدة منها 500 كيلو على منزل مزارع في بعقوبة ومواقع أخرى حيث تحصد قنابل المتمردين على جوانب الطرق بشكل منتظم أرواح الأمريكيين. وحسبما اعترف القائد العسكري الأمريكي المقدم مارك يونج :"لقد قمنا بهجمات على هذه الأهداف من قبل ولكننا نقوم بذلك ثانية لنبين مرة أخرى أننا لدينا قوة نارية كبيرة وأننا نستطيع أن نستخدمها وفق تقديرنا " وفي أكتوبر 2003، إقتلع الجيش الأمريكي بستان نخيل قرب تكريت – في صدي لما كان يجري في فلسطين بالنسبة للعالم العربي. وفي أحد الحالات في الحويجة جلب الجيش بلدوزر لهدم حائط أمامي محيط بفيلا مملوكة لزوجين عجوزين يشتبه في أن ابنهما من صانعي القنابل. وقد هددوا بتدمير كل المنزل، ولكن أم الشخص المطلوب عرضت معلومات في آخر دقيقة بشأن المكان الذي ربما يمكن العثور على ابنها فيه. ولم تظهر قوات التحرير أي عاطفة أو تفهم للشعب المقهور! كانت العلاقة تتسم بالخصام من البداية وعندما اجتاحت فضيحة أبوغريب وسائل الإعلام عام 2004 ، أكد ذلك تحقق ما كان العالم العربي يفكر فيه على الدوام.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الفصل الخامس

مصر وقضية السلام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

إسرائيل.. البوابة إلى واشنطن

تحتل قضية علاقة مصر مع الولايات المتحدة مكانة محورية في الحياة السياسية المصرية منذ خمسينات القرن الماضي، إثر إحلال الولايات المتحدة محل بريطانيا كقوة استعمارية في الشرق الأوسط عقب الحرب العالمية الثانية. وقد رحبت الولايات المتحدة بالانقلاب العسكري الذي وقع عام 1952 غير أن قرارها رفض تمويل مشروع بناء السد العالي في أسوان عام 1956 مثل بداية لتوتر العلاقات بين مصر والغرب في فترة ما بعد الاستعمار، بشكل انتهى بها إلى الانضمام للمعسكر السوفييتي. وإثر هزيمة مصر عام 1967 أمام إسرائيل تحول الضيق إلى الإتحاد السوفييتي لعدم تزويده مصر بمعدات تسليح بالغة التطور وسادت شكوك بأنه تصرف بشكل لا يوفر المساندة الكاملة للجانب العربي. وعندما وصل أنور السادات إلى السلطة عام 1970 أدار ظهره للسوفييت وصاغ سياسة جديدة قوامها التقارب مع الولايات المتحدة من خلال السلام مع إسرائيل لتحقيق ما توقعه بمساعدة مالية سخية بما يمنح الاقتصاد المصري الفرصة للحاق بالغرب.

وفي عام 1977 قام السادات برحلته الشهيرة إلى القدس والتي قادته إلى محادثات كامب ديفيد في 1978 وفي النهاية توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل عام 1979. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الولايات المتحدة اللاعب الأساسي غير المرئي في الحياة السياسية الداخلية في مصر بما جعلها تؤثر بعمق على السياسات الحكومية وعلى نمط العلاقات بين الحكومة وجماعات المعارضة الإسلامية والمسيحية على السواء.

وأصبحت المساعدات لمصر عنصرا أساسيا في العلاقات الخاصة بين الدولتين منذ ذلك الوقت. وحتى منتصف عقد التسعينيات وصل إجمالي المساعدات التي تلقتها مصر من الولايات المتحدة منذ عام 1979 نحو 40 مليار دولار من بينها مساعدات عسكرية كانت تصل سنويا إلى نحو 1.3 مليار دولار وأخرى اقتصادية كانت تصل سنويا إلى ما يقدر بنحو 815 مليون دولار(1).

وجري تخفيض هذه المبالغ تدريجيا منذ منتصف التسعينيات إلى نحو ملياري دولار سنويا في المجالين العسكري والاقتصادي. ويقوم برنامج المساعدة على أساس

www.ibtesama.com/vb Exclusive

قيام مصر بشراء واردات من القمح من الولايات المتحدة، بالجزء الأكبر من المساعدات الأمر الذي يمثل مكافأة للفلاحين الأمريكيين في ضوء حقيقة أن مصر تعد من أكبر الدول المستوردة للقمح. كما فازت مصر كذلك بإلغاء قرض أجنبي يقدر بـ 25 مليار دولار تقديرا لموقفها المشاركة في حرب الخليج عام 1991، كما حصلت كذلك على دعم إضافي يقدر بنحو 2.5 مليار دولار لمساعدتها على مواجهة التأثيرات السلبية لأحداث سبتمبر على اقتصادها وبشكل خاص مجال السياحة، آملين من ذلك تحقيق تقدم على صعيد تطبيق الإصلاحات التي طالب بها صندوق النقد الدولي في مجال برنامج الخصخصة، وتحرير آليات سعر صرف العملة وتيسير تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وهى السياسات التي ألزمت الحكومة المصرية بها منذ التحالف مع الولايات المتحدة عام 1979.

أما على صعيد العلاقات مع إسرائيل فقد كانت على مستوى يصفه المراقبون بأنه سلام بارد، فضلا عن ارتباطها بالسادات الذي اغتيل من قبل متشددين إسلاميين اعتبروه خائنا لوطنه ودينه، فيما نأى خلفه الرئيس مبارك عن سياسة التقارب مع إسرائيل، حيث لم يزرها سوى مرة واحدة للمشاركة في جنازة رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحاق رابين عام 1995. وانعكس ذلك في تراجع العلاقات لدرجة وصل معها الأمر خلال عقد التسعينيات إلى تعرض أي مصري يريد العمل هناك أو حتى الزواج من إسرائيلية سواء أكانت عربية أم يهودية للقمع من قبل أجهزة الأمن المصرية. باختصار لم تكن السلطات المصرية تريد سوى الحد الأدنى من العلاقات مع إسرائيل حفاظاً على تحالفها المثمر مع الولايات المتحدة.

لقد ذهب منتقدوا عملية السلام التي خاضتها مصر مع إسرائيل إلى أنها تمثل رشوة وتقويضاً لاستقلالية وحيادية الدور الإقليمي الذي تتمتع به مصر، وأنها تعني التخلي عن الاستقلال الذي مثل في طموح الرئيس عبد الناصر هدف مصر والمنطقة العربية في مرحلة ما بعد القضاء على الاستعمار. ولم يكن السلام مقبولاً سواء على مستوى الشارع أو على مستوى النخبة واعتبر أنه يمثل تحولا أساسيا عن المرحلة الناصرية ، بغض النظر عن الانتقادات التي توجه لهذه المرحلة بخصوص القضاء على

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الحياة البرلمانية الديمقراطية والانتهاكات التي كانت تجري لحقوق الإنسان، فقد كان النظام يعكس مشاعر الجماهير، إلى حد أن المثقفين الذي عانوا في سجون ناصر كانوا يعبرون عن إعجابهم به مؤكدين أنه استطاع استيعاب تطورات تلك الفترة بشكل أفضل منهم بكثير(2). وعلى مدار الفترة منذ عام 1979 لقى معظم المصريين صعوبة في الوصول إلى أي ربط بين السلام مع إسرائيل ووجود مؤشرات على تحسن ملموس في مستوى الاقتصاد ناجم عن تحرك حكومتهم في الفلك الأمريكي الإسرائيلي.

وحرصت وسائل الإعلام الحكومية خلال عقد التسعينيات على الاستشهاد ببعض التحسينات التي تمت في شبكة الهاتف أو شبكة مترو أنفاق القاهرة باعتبارها إنجازات لعصر مبارك الأمر الذي عزز، إلى حد ما ، الرأي الذي يذهب إلى أن المكاسب الحقيقية هزيلة. وكان اندلاع المواجهة المسلحة بين السلطات والأصوليين الإسلاميين في عقد التسعينيات مؤشرا ذي دلالة على الفشل السياسي والاقتصادي للنظام الجمهوري العسكري الأوتوقراطي الذي ورثه مبارك وحافظ على بقائه.

وقد تم بناء ما يمكن وصفه بإطار هدفه المركزي حماية النظام الموالي للغرب ، واستبعاد العناصر التي يمكن أن تمثل تهديدا له. ويعد النظام السياسي المصري الحالي ذو المسحة الديمقراطية المتمثلة في التعددية الحزبية ، الوليد الشرعي لمساعي السادات للتقارب مع الغرب خلال عقد السبعينيات. وقد تم فرض حالة الطوارئ بعد اغتيال الإسلاميين للسادات في اكتوبر عام 1981 وما زالت مفروضة حتى يومنا هذا. لقد عمل السادات على إنشاء ثلاثة أحزاب سياسية خرجت إلى الحياة عام 1976 يقودها أصدقاؤه من العسكريين الضباط، وهى حزب يمثل اليسار ، وحزب يمثل اليمين الليبرالي وحزب يمثل تيار الوسط. واتجهت النية إلى أن يكون هذا الحزب الأخير هو الحزب الرئيسي – حزب الدولة، غير أنه عندما انضم الحزب إلى الأحزاب الأخرى في رفض فكرة السلام المنفرد مع إسرائيل، اتجه السادات ليعلن اعتزامه إنشاء حزب آخر، هو الحزب الوطني الديمقراطي والذي ترأسه بنفسه.

وقد استأنف الرئيس مبارك قيادته للحزب عام 1981 في ذات الوقت الذي شددت فيه الحكومة قبضتها بشأن السماح بإنشاء حزب سياسي منذ ذلك الوقت. وكان حزب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مصر (العربي الاشتراكي) واحدا من بين الأحزاب التي تم السماح بإنشائها بشكل غير متوقع وترأسه جمال ربيع وهو الرجل الذي قضى سنوات عديدة في النضال في مواجهة السادات لدمجه الحزب مع الحزب الوطني الديمقراطي. ويبدو مكتبه الذي يقع في نفس العمارة التي كان يقيم فيها يوسف شاهين في قلب القاهرة – بالغ التنظيم كما لو أن شيئا لم يتغير منذ عام 1977. وقد راح ربيع يرثي لحاله ذات مرة قائلا: "إننا مجرد هيئات خاوية، مجرد ديكور لنظام الحزب الواحد. إن الأحزاب الحقيقية تنبع من إرادة الشعب وليس إرادة الحاكم"(3). لقد أوجد السادات نظام التعددية الحزبية لامتصاص غضب الجماهير الذي كان يرى حتمية حدوثه جراء انغماسه في السلام مع إسرائيل، الحدث الذي لم يكن أقل من زلزال على مستوى السياسات المصرية والعربية.

كما مهد السادات الأجواء من أجل مشروع السلام بالإنقضاض على خصومه العلمانيين – القوميين العرب، والناصريين واليساريين، فأطلق سراح الإسلاميين وأطلق لهم العنان بعد سنوات من القمع تعرضوا له خلال حكم عبد الناصر. وقد ذكر الشيخ متولي الشعراوي الذي كان نجما على شاشات التليفزيون ولعب دور راسبوتين خلال حكم القيصر السادات في سنوات السبعينيات، أنه صلي لله شكرا عقب سماعه أنباء هزيمة عبد الناصر في مواجهة إسرائيل عام 1967، حيث كان يعمل في ذلك الوقت في السعودية. وعلى الرغم من أن السادات قدم نفسه على أنه الرئيس المؤمن في محاولة لحماية نفسه من حالة الغضب الناجمة عن سياساته الراديكالية، فقد ندم على موقفه ذلك فيما بعد. لقد وجد أن الإسلاميين ليسوا أقل من القوميين في قيادة المعارضة الضارية لسلامه مع إسرائيل في الفترة المضطربة بين زيارته للقدس ونتائجها طويلة المدى التي انعكست في المفاوضات التالية لها والتي جرت مع إسرائيل تحت الوصاية الأمريكية. وكانت النتيجة الحتمية وبشكل بدا منطقيا قيامهم بإغتياله.

ومقارنة بما جرى اتباعه خلال عصر مبارك، ممثلا في العودة التدريجية إلى الأسلوب الناصري لجهة الاشتباه بالإسلاميين، فإن عصر السادات ، كما اعترف الإسلاميون ، هو العصر الذهبي . وحسبما ذكر المحامي منتصر الزيات الذي يعد أحد أنصار الجماعة الإسلامية والمقرب من أيمن الظواهري الذراع الأيمن لأسامة بن لادن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

""لقد كان السادات رحيما"، لقد كانت هناك تعليمات للشرطة بعدم تعذيب المعتقلين، غير أننا لانبدي ندما أو أسفا على إغتياله، حيث إنه قضى على الجماعات الإسلامية ورفض تنفيذ وعده تطبيق الشريعة الإسلامية "(4).

وفي سبتمبر 1981 أقدم السادات على آخر مقامرة في حياته عندما أمر باعتقال 1536 من رموز المعارضة، وجرى التنفيذ في الساعات الأولى ليوم 3 سبتمبر. كان من بين المعتقلين رموز دينية، وكتاب من كل ألوان الطيف من الحياة السياسية المصرية والمجتمع. وقد كتبت الكاتبة نوال السعداوي فيما بعد كيف أنها حاولت خلال وجودها في السجن تفسير أسباب وجود كل هذه الشخصيات معا وجنبا إلى جنب؟ وخلصت إلى أنه ليس هناك ما يدينهم بشكل عام غير أن ما يجمعهم هو معارضتهم لمعاهدة السلام المصرية مع إسرائيل. وقد خطط الرئيس مبارك للإفراج عن المعتقلين في 26 أبريل عام 1982 اليوم الذي كان من المقرر أن تكمل فيه إسرائيل انسحابها من شبه جزيرة سيناء(5). واتجه تفكيره إلى أن إطلاق سراح النخبة المثقفة في الدولة من مثيري التوتر في ظل هذا التطور سيعزز النظرة الإيجابية لسياسته.

وثارت مناقشات حادة خلال هذا اليوم بشأن السلام المصري مع إسرائيل لعدة أسباب، على رأسها أن اللاعب الأساسي في الصراع العربي الإسرائيلي، الفلسطينيين، لم ينالوا بعد حريتهم واستقلالهم، وألقت هذه الحقيقة بنتائج وخيمة على الأوضاع في العالم العربي ككل سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الصحي أو الاستقرار، وبرز أغلبها في الأقطار التي تحيط بإسرائيل بشكل مباشر وكذا الأراضي المحتلة، فيما كان لها تأثيرات محدودة على مستوى الأقطار البعيدة في شمال أفريقيا أو الخليج. وكان المدافعون عن السلام يشيرون إلى أنه إذا لم تبرم مصر اتفاقا يقضي بعودة سيناء في ذلك الوقت، فقد كان من الممكن أن تظل شبه جزيرة سيناء في أيدي إسرائيل حتى الآن، في ضوء أن الأراضي المحتلة تعتبر شيئا مثيرا للخلاف بشكل كبير في إسرائيل، فضلا عن أن هذه الأخيرة كان لديها مستوطنات في سيناء وصناعة سياحة مزدهرة وكان لليهود اليمينيين مبرراتهم الدينية للنظر إلى سيناء باعتبارها أرض إسرائيل القديمة(6).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعلى الرغم من أن السادات أساء قراءة النفسية السياسية الإسرائيلية في ذلك الوقت وتفكير الجناح اليميني المتمثل في حزب الليكود الذي وصل الى السلطة برئاسة مناحم بيجين، فقد كانت رؤيته بشأن إدراك اهتمام إسرائيل بمبدأ الأرض مقابل السلام ليس مع مصر فقط بل أيضا مع الأقطار العربية الأخرى بما فيها الفلسطينيون. وحسبما يذهب أنصار السادات فإن "لحظة التقاط الأنفاس" التي نالتها مصر بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل لا تقدر بثمن. ولسوء الحظ تواصل الإنفاق العسكري المرتفع في مصر. وحتى هذه اللحظة يتم حجب الأرقام الدقيقة عن النشر في إطار الموازنة السنوية. وفي الوقت ذاته فإن معظم المساعدات الأمريكية في الواقع أصبحت عسكرية. وتواصلت عسكرة السياسات والاقتصاد المصري بعد السادات. وظلت السلطة في أيدي مجموعة ضيقة من رجال الأمن والمخابرات أحاطت بالرئيس، الذي اقترب بقدر كبير من الطبقة الرأسمالية الصاعدة التي حظيت برعاية السادات من قبل(7).

ولم ينتقد المعلقون المصريون سياسة السادات الخاصة بالسلام مع إسرائيل فقط، بل انتقدوا بشكل خاص الطريقة التي تم بها التعاطي معها. لقد ذهبت تلك السياسة في نظرهم بعيدا جداً من أجل لا شئ، متسائلين عن الدور الذي قامت به الإدارة الأمريكية في مفاوضات كامب ديفيد التي جرت من 5 إلى 18 سبتمبر 1978؟. وقد قدم معظم الفاعلين الرئيسيين في هذه المفاوضات شهاداتهم لما تم آنذاك من خلال ما كتبوه عن المفاوضات بما في ذلك الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في مذكراته، ووزير الخارجية المصري آنذاك محمد إبراهيم كامل، الذي استقال في ذلك الوقت، ونائبه بطرس بطرس غالي، وموشيه ديان وزير الخارجية الإسرائيلي ووزير الدفاع الإسرائيلي عيزرا وايزمان. وقد نشر المحلل السياسي المصري الدكتور وحيد عبد المجيد دراسة عن المفاوضات تقوم على أساس الشهادات المتاحة والتي تمثل بقدر كبير لائحة اتهام مخزية بالنسبة للسادات. ففي كتابه "عشرون عاما على كامب ديفيد" لخص عبد المجيد الموقف (8) وخلص إلى أن المفاوض المصري لم يكن قادرا على انتهاز ميزة حقيقة أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الولايات المتحدة للمرة الأولى وقد تكون الأخيرة اتخذت موقفا متوازنا، وأن إسرائيل تعلمت درسا من تلك التجربة (*)

وتكشف كل التقارير عن أنه بفعل مواقف كارتر وافق بيجين على تفكيك المستوطنات في سيناء. وأما بالنسبة للمستوطنات في الضفة الغربية فإن كارتر أراد ضمانة مكتوبة بأن كل الأنشطة الاستيطانية سيتم تجميدها إلى أن يتم إقامة نوع من أشكال الحكم الذاتي الفلسطيني, وأن المفاوضات يمكن أن تنطلق على هذا الأساس. لقد أرسل كارتر ما يمكن اعتباره وعدا للعواصم العربية في 17 سبتمبر بأن إسرائيل وافقت على تجميد الاستيطان ولكن الضمانة المكتوبة التي قدمها بيجين في اليوم التالي كانت لمدة ثلاثة شهور فقط . وشعر كارتر بالخداع عندما ساند السادات علنا موقف بيجين في 19 سبتمبر. وكان الإطار العام، حسبما يذهب عبد المجيد، يكشف عن أمية تفاوضية على الجانب المصري. وبسبب الفوضى التي عمت الوفد - حيث استقال كامل احتجاجا على فقدان الضفة والقدس – فشل المصريون في مساندة كارتر في تحديه للإسرائيليين.

وحسبما كتب عبد المجيد فقد كان الأمر على النحو نفسه بشأن القدس لقد اشتكى المصريون من أن الأمريكيين قدموا تنويعات مطاطة بشأن حرية الحركة وأماكن العبادة حسب تعبير كامل. ولكن في الحقيقة فإن كارتر ودايان عاشا حالة من الغضب المتبادل بشأن مطلب كارتر أن يقبل الإسرائيليون اتفاقا رسميا ينص على مبدأ الانسحاب من القدس الشرقية. لقد هدد بيجين بالانسحاب من المؤتمر إذا تم الضغط عليه بشأن هذه النقطة الأمر الذي كشف عنه وايزمان في مذكراته عام 1984. وقد كتب دايان في عام 1985 " لقد قلت للأمريكيين في واحدة من مناقشاتنا الحادة بأنه إذا رفض مجلس الأمن قبول القدس باعتبارها عاصمتنا فإنه عليهم حينئذ أن يقوموا بإعادة كتابة التوراة وأن نتخلى عن معتقداتنا وطقوسنا وعن آمالنا وطموحاتنا"(9).

---

* صدر الكتاب عام 1998 فى القاهرة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومع العودة بدون إستراتيجية واضحة ساد التشاحن فريق التفاوض المصري حول التعامل مع تطورات الموقف. كان السادات قلقا بشأن الإنسحاب من سيناء، فيما كان وزير الخارجية أكثر اهتماما بإنهاء الإحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية، بينما بعض أفراد الفريق ركزوا على القدس. وحسبما أشار عبد المجيد لم يكن هناك مبادئ وقواعد واضحة للاتصال فيما بين الرئيس ومستشاريه أو فيما بين المستشارين أنفسهم (10).

أما فيما بين الإسرائيليين فقد كان الموقف على العكس تماما، حيث كانت هناك مناقشات تتسم بالحيوية في ذلك الوقت ولعدة سنوات فيما بعد بشأن أداء سياسييهم. وعلى هذا النحو , ونظرا لغياب المراجعة واستمرار غيابها عن الثقافة السياسية المصرية، فإن العرب، يقول عبد المجيد، لم يحققوا السلام عام 1978 وتواصل فشلهم في تحقيقه منذ ذلك الوقت. كان ذلك، حسب قوله، نتيجة عجز الحياة السياسية جراء التأثر بالنظام العسكري الذي استولى على السلطة عام 1952.

وفي روايته " أمريكانلي" التي صدرت عام 2003 يذهب الروائي الشهير صنع الله إبراهيم إلى أن مصر والعالم العربي تعد "محميات" للإمبراطورية الأمريكية على غرار ما كان عليه الوضع بالنسبة للإمبراطورية العثمانية عندما خضعت مصر ومعظم الدول العربية لنحو ثلاثة قرون للسيطرة الأجنبية وإن كانت مسلمة. وعلى غرار "العثمانلي"هناك الآن "الأمريكانلي" .. وهى التورية التي تعكس عبارة تتكون من ثلاثة كلمات هى "أمري كان لي". وملاحظا نموذج تقليد من يتم غزوه وتكيفه مع أسلوب وعادات حكامه، ، كما ذهب المؤرخ العربي ابن خلدون في مقدمته ، يتذكر بطل رواية صنع الله إبراهيم صفات معينة عن السادات، تشير إلى أنه كان شخصا بعيدا عن ما يشعر به شعبه، ومنها: غرامه بالملابس الأنيقة ومجالس الملوك والأباطرة وبالوقوف أمام الكاميرا مدخنا الغليون وهو يربت على ظهر كلب ضخم تماما مثل لوردات بريطانيا وافتتانه – هو وزوجته – بالحلم الأمريكي ونجومه مثل الممثلة إليزابيث تيلور" (11).

لقد أثر السادات على الخياد السياسي لأكثر الدول العربية سكانا وأقواها عسكريا في العالم العربي ، رابطا مستقبلها بالولايات المتحدة. وفي المقابل، يتم اسكاتها سنويا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بالدولار بشكل جعل مصر ثاني أكبر دولة متلقية للمساعدات الأمريكية بعد إسرائيل نفسها، وسحبت مصر جيشها من المعادلة العسكرية بين العرب وإسرائيل قبل أن يتم حل النزاع الأوسع والأشمل. وفي الوقت ذاته، خطت إسرائيل في ظل حكم الليكود خطوات جديدة على طريق الاستيطان في الأراضي التي احتلتها عام 1967. وكانت صدمة الانسحاب من سيناء كافية لإخافة الطبقة السياسية الإسرائيلية من الإقلاع عن التفكير في التخلي عن أي أراض جديدة أو مزيد من الأراضي. وكانت الأرض التي بقيت بحوزة الدولة اليهودية هي الأكثر حيوية بالنسبة لها دينيا واستراتيجيا، أكثر من شبه جزيرة سيناء، والتي كانت تعد الأكثر سهولة على صعيد الانسحاب منها عن أية أراض أخرى.

الإسلام السياسي بعد كامب ديفيد

أصبحت حماية التحالف مع الولايات المتحدة واحدة من أولويات المؤسسة الحاكمة في مصر. كما أن آلية النظام الحزبي كانت تقوم على أساس إحتواء المعارضة.غير أن النظام أثبت عدم قدرته على التعاطي مع التهديد الذي يمثله الإسلام السياسي، الخصم الأكثر رفضا للتوجه المصري الجديد مع الأمريكان. وقد فرضت الحكومة قيودا على حرية تكوين الأحزاب ، كما تم فرض حظر غير رسمي على المناقشات بشأن تفاصيل بنود معاهدة السلام ونزع سلاح سيناء، الأمر الذي يعتبره الكثيرون انتقاصاً من السيادة الوطنية. وقد وجد الكاتب المصري عادل حسين رئيس تحرير جريدة الشعب ذات التوجهات الإسلامية نفسه رهن الاعتقال لنحو شهر بعد أن خصص عددا من الجريدة لما اعتبرته السلطات مقالات تحريضية في هذا الخصوص عام 1995. كما جرى إقالة عبد الحليم أبو غزالة وزير الدفاع الأسبق الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة من الحكومة في عام 1989 ، كما ذهب مراقبون سياسيون، على خلفية مخاوف بشأن تفضيله إعادة تسليح شبه جزيرة سيناء بشكل سري(*).

غير أنه في الحرم الجامعي ، وكذا في الأحياء الفقيرة في مختلف أنحاء البلاد، كانت الجماعات الإسلامية المتشددة، والجهاد الإسلامي، تستعيد قوتها بهدوء مستخدمة

* هذا مجرد تخمين من المؤلف لم تثبت صحته ولم يقدم ما يعزز طرحه بشأنه.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

في ذلك إحدى القواعد التي تتمتع بالتنظيم ولا تستطيع السلطات السيطرة عليها وهى المساجد. كما أن الإخوان المسلمين في الوقت ذاته تحركوا باتجاه التيار السياسي العام، متخذين قرارا في 1984 بالالتحاق بالعملية السياسية عبر التحالف الانتخابي مع حزب الوفد بشكل سمح لهم بتجاوز الحظر الرسمي لجماعتهم. كما ركزت جماعة الإخوان جهودها كذلك على النقابات المهنية، عوضا عن استبعادهم من العملية الحزبية بتحويل النقابات إلى وضع يشبه وضع الأحزاب السياسية العادية.

وعلى هذا أصبحت نقابات الأطباء والمحامين، والمهندسين والمعلمين في أيدي الإخوان المسلمين مع نهاية الثمانينات، حيث كانت الجماعة تملك السيطرة على مجالس إداراتها عبر الانتخابات والتي اتسمت بقدر كبير من النزاهة عن نظيرتها البرلمانية. وأصبحت تلك المنظمات تدار منذ ذلك الوقت كمؤسسات سياسية واتخذت وضعية أشبه ما تكون بحكومة ظل تقوم على تقديم برامج خيرية واجتماعية وأعمال سياسية تعكس كفاءتها وتتسم بشفافية نسبية وكانت مصدرا للإرباك بالنسبة للسلطات. وكانت جماعة الإخوان قادرة على إدارة دولتها داخل الدولة وتقديم خياراً بديلاً لنظام الدولة القائم. فنقابة المهندسين التي سيطرت عليها الجماعة في 1987 على سبيل المثال تخدم 200 ألف عضو وتدير نحو 5 ملايين دولار كأصول مالية. كما قدمت الجماعة كذلك مساعدة للطلبة بخصوص تكاليف الدراسة بما في ذلك السكن والغذاء والمواصلات ورسوم الكتب.

كما أن النقابات التي تغلغلت فيها جماعة الإخوان كانت تدير ما يمكن اعتباره حزمة أنشطة سياسية ودينية واجتماعية، فقد نظمت رحلات حج رخيصة إلى مكة، وجمعت مساعدات وتبرعات مالية للبوسنة ومساعدات لضحايا زلزال 1992 الذي ضرب القاهرة. كما قدمت مساعدات في مجال الإسكان والنقل والخدمات المعيشية الأخرى. وتكشف زيارة لمكاتبهم بالغة التنظيم عن نموذج بالغ التناقض مع ما هو عليه الوضع من تدهور في أي مقر خاص بجهات حكومية. وعلى ذلك كانت المفارقة أنه فيما يلهم الإخوان الجماهير، فإن الحكومة تقمعهم. في مواجهة ذلك كان اليسار الرسمي الحكومي يشارك النظام في الوقت ذاته اللعب على ورقة الانقسام العلماني الإسلامي. فقد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كانت الأسلحة الجديدة لوزارة الثقافة ومجلاتها الأدبية مثل المجلس الأعلى للثقافة ومجلة "إبداع" الشهرية، متخمة باليساريين المعينين في أواخر الثمانينات.

وأصبح حزب التجمع اليساري الذي اعتاد أن يكون مصدر الصداع الأكبر للرئيس السادات ، حزب المعارضة الأكثر قربا من الحكومة ، منتهكا مقاطعة المعارضة للانتخابات البرلمانية في التسعينيات. وفي عام 1995 تم تعيين أمينه العام الدكتور رفعت السعيد من قبل الرئيس مبارك عضوا بمجلس الشورى.وتمثل الجماعات الإسلامية بالنسبة للكثير من اليساريين التهديد الأكبر للمجتمع بشكل يتجاوز ذلك التهديد الذي يمثله تحالف النظام مع الولايات المتحدة. وكان أمل هؤلاء – اليساريين - في المقابل، مع نهاية الثمانينيات، أن يكون الفساد وغياب الديمقراطية حبل المشنقة الذي يمكن لهم تعليق الحكومة عليه على النحو الذي يعزز وضعهم.

ولكن الأحداث تمت بشكل أربك تلك الآمال، فإلي جانب الحركة الإسلامية المعتدلة، تنامت حركة راديكالية على يمين الإخوان المسلمين. وخلال أزمة الخليج 1990 – 1991, وفي الوقت الذي كانت الحكومات العربية تعمل على الوصول إلى علماء دين يضفون المشروعية لدى العامة على مشاركة قواتها في التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ضد العراق ، كان المشهد مهيئا لصدام بين الإسلام السياسي والحكومة المصرية فقد أصبحت الجماعات المتشددة التي تنطلق من أيديولوجية ترفض النماذج السياسية الغربية، وما تعكسه من قيم ثقافية، وتتذمر من الحكومات العربية التي يقف وراءها الغرب، أكثر جرأة من خلال مجتمعاتها شبه المستقلة والتي حققت من خلالها رؤيتها بشأن المجتمع الإسلامي المثالي والذي وجد حسب التراث الإسلامي، في زمن النبي.

وقام البعض منهم بمهاجمة السياح الأجانب حاملى القيم الغربية غير الأخلاقية في المجتمع. وفي 1992 بدت الحكومة مرتبكة على وقع التقارير الإخبارية التي كشفت عن تنامي الجماعات المتطرفة التي تدير جمهوريتها الإسلامية الخاصة بها في ضاحية إمبابة الفقيرة الواقعة في الجيزة (12). وحفزت هذه التقارير قيام الشرطة بعملية لاقتلاع الأصوليين من هذه المنطقة من خلال إستراتيجية "الصدمة والرعب" التي تذكر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجماعات اليمينية المتشددة في مصر والخارج أنها شملت عمليات اعتقال عشوائي لآلاف من المواطنين وسط ممارسات وحشية في المعتقلات.

وأطلقت الجماعات الراديكالية بعد هذه العملية حربها المفتوحة ضد الدولة من خلال عدة عمليات لاغتيال وزراء في الحكومة ومبارك نفسه (كان هناك العديد من المحاولات التي استهدفته كان من أبرزها تلك التي جرت في أثيوبيا عام 1995) كما جرى استهداف السياح الغربيين في حرب عصابات ممتدة ضد رموز الدولة والتي تتركز بشكل كبير في جنوب مصر انتهت بتلك العملية الكبري عام 1997 والتي أسفرت عن مقتل نحو 58 سائحا في مذبحة الدير البحري بالأقصر وهى المدينة التي تعد مركز السياحة، وإن تطورت الأحداث فيما بعد بشكل قلل من خطر الإسلاميين حيث بدا أن قوة الجماعة الإسلامية بعد ذلك بدأت تخبو، في ذات الوقت الذي أعلنت فيه جماعة الجهاد الإسلامي التي كان يقودها أيمن الظواهري إقلاعها عن العمل في مصر حيث انضم لأنشطة أسامة بن لادن في أفغانستان.

وخلال هذه الفترة كان جيش من المعتقلين السياسيين يقدر بنحو 20 ألف شخص رهن الاعتقال في السجون المصرية رغم أن الرقم الحقيقي لم ينشر(منظمة هيومان رايتس ووتش والتي تتخذ من نيويورك مقرا لها قدرته بنحو 15 ألف عام 2006). وبدأت الحكومة في نهاية التسعينيات عندما تيقنت أن عاصفة العنف الإسلامي انتهت ، إطلاق سراح أعداد كبيرة من المعتقلين على دفعات من خلال العفو وبشكل خاص في إطار مناسبات دينية إسلامية. وقد اشتبهت الجماعات الحقوقية بأن الكثير ممن جرى اعتقالهم قبض عليهم لمجرد الإشتباه في وجود صلات لهم مع الجماعات المتطرفة وبسبب الصلاة في مساجد معروفة بكون الكثيرين ممن يؤمونها من المتشددين في أغلب الأحوال ، وأن أولئك الذين جرت محاكمتهم وأدينوا يمثلون فقط عدة مئات. وشيدت وزارة الداخلية خمس سجون جديدة في غضون تلك السنوات الخمس، وتوجد أمام جماعات حقوق الإنسان قصص متشابهة عديدة بشأن الانتهاكات التي عانى منها المعتقلون.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبدأت الحكومة عام 1992 في تحويل الإسلاميين المعتقلين إلى محاكم عسكرية، حيث تتخذ بحقهم بشكل روتيني أحكام بالإعدام. وكان مبارك قد تحول إلى نظام القضاء العسكري بعد أن برأت محكمة مدنية المتهمين بدعوى أن اعترافاتهم جاءت تحت التعذيب. وقد أصبح المحامي الإسلامي عبد الحارث مدني من إمبابة حالة مثالية للحركات الحقوقية حيث لقي حتفه في مقر احتجازه إثر القبض عليه وهو يمشي على النيل عام 1994. وقد نظمت نقابة المحامين التي تتمتع بقاعدة عضوية كبيرة عملية احتجاج في وسط القاهرة، فرقتها الشرطة بالقوة وكانت بمثابة نقطة تحول في المواجهة مع الحكومة وبعد ذلك أصبحت الموازين تميل لصالح الدولة ، حيث لم يكن هناك مؤشرات على الموجة الكبيرة من الضغط الدولي ضد الحكومة بشأن مقتل مدني، أو اندلاع الإحتجاجات أو عملية اعتقال منتصر الزيات المتحدث غير الرسمي بإسم الجماعات الإسلامية على مدار العام.

وفي 1995 شنت الحكومة حملة كبيرة ضد الإخوان المسلمين. وراحت تعلن للجمهور أن الإخوان يوجهون العنف بشكل مباشر من خلف الستار، غير أن الحكومة بدت مقتنعة بقدر كبير بأنه طالما بقيت جماعة الإخوان قوية، فإن مشكلة الإسلام المتشدد ستبقى دوما تهدد استقرار الدولة. وفي سلسلة من محاكمة القيادات العليا صدرت بحق عبد المنعم أبو الفتوح ومختار نوح أحكام بالسجن لمدة خمس سنوات بتهمة انتمائهما لمنظمة محظورة تسعى إلى قلب نظام الحكم.

جاء قرار النظام بمحاولة الإجهاز على جماعة الإخوان مثيرا للدهشة إلى حد ما ، فقد أشار إليهم الرئيس مبارك بإيجابية في إحدى مقابلاته عام 1994 حيث برأ الدين من أفعال التمرد الحاصلة ، قائلا أن مصر لديها إسلاميين معتدلين ذوى اتجاهات معتدلة(13). وقادت رغبة مبارك الملموسة للتسامح مع الإسلام السياسي في الثمانينيات الإخوان إلى قبولهم ترشيحه للرئاسة عام 1988. كما أبدى قائدهم حامد أبو النصر نوعا من القبول لفكرة تطبيق الشريعة على المدى الطويل(14). كما زار ياسر عرفات عام 1994 مكاتب الجماعة في قلب القاهرة خلال إحدى زياراته لمصر لحثها على التأثير على منظمة حماس التي ينظر إليها باعتبارها خرجت من عباءة الإخوان المسلمين في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فلسطين. وخلال هذه الفترة نادى الكثير من المراقبين بمن فيهم سعد الدين إبراهيم بضرورة أن تعمل الحكومة على دمج الإسلاميين المعتدلين في إطار النظام السياسي من أجل تحييد خطر أولئك الذين يتبنون إتجاهات أكثر راديكالية. غير أن الحكومة ظلت على رفضها لمثل هذا التوجه وتمسكت بمنطقها الكلاسيكي والذي يقوم على اعتبار الإسلاميين تياراً لا يأتي منه سوى الإزعاج، وأن الإخوان المعتدلين يستهدفون الإستيلاء على السلطة على أكتاف العنف الذي تمارسه تلك الفئة الأشد عنفا من ذوي الاتجاهات المتشددة. فضلا عن كل ما سبق، فإنهم بكل فئاتهم يرفعون شعار "الإسلام هو الحل".

غير أنه من المثير أن من بين العوامل التي غيرت موقف الحكومة تجاه الإخوان هو الاشتباه بأن الولايات المتحدة تتخذ خطوات مترددة على طريق الحوار مع الجماعة، مما قد يقود البلاد إلى العنف. وفي مقابلة مع مجلة نيويوركر الأمريكية نشرت في عام 1995 اتهم مبارك الإخوان بأنهم إرهابيون وشن هجوما ضدهم ، على خلفية اتصالاتهم مع الحكومة الأمريكية. وحسبما قال مبارك في تلك المقابلة فإن هناك اعتقاد في الولايات المتحدة بأنه يمكن تصحيح الخطأ الذي وقعت فيه في إيران، حيث لم تكن هناك اتصالات مع آية الله الخميني والجماعات المؤيدة له قبل الاستيلاء على السلطة. وأضاف: ولكني أؤكد أن هذه المجموعات لن تستولي على السلطة في هذا البلد، وأنهم لن يكونوا على وفاق مع الولايات المتحدة (15).

وكان من الجوانب التي تم الترويج لها في ذلك الوقت ، حسبما يبدو من المقالات الافتتاحية للكتاب الموالين للحكومة مثل إبراهيم نافع، رئيس تحرير الأهرام اليومية آنذاك ، أن الإسلام السياسي مثل الفاشية في ألمانيا، يستفيد من مزايا الديمقراطية من أجل تنصيب نظام ديني ديكتاتوري ولكن ليس على غرار إيران حيث لن يكون في إمكان الفرد الحق في التصويت مرة ثانية. كما أن الحكومة راحت تعلن مرارا أن السماح بحزب إسلامي سوف يؤدي إلى مطالبة الأقباط المسيحيين الذين يشكلون أقلية ، بنفس الأمر والعمل على تأسيس حزب سياسي مسيحي بشكل يقوض الوحدة الوطنية التي كانت سمة الصورة الزاهية لمصر منذ النضال الوطني ضد الاستعمار البريطاني. لقد بدا أن هذا الطرح خاطئ في ضوء أن النظام القومي العلماني لم يكن بالفعل حرا أو حتى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ديمقراطيا. كما أن إيران لديها نظام برلماني أكثر حرية مما هو عليه الوضع في النظام المصري، غير أن الحكومات الغربية بما فيها الولايات المتحدة، كانت تقبل بشكل عام توجهات الحكومة المصرية.

وقد أشارت العديد من الأصوات المعارضة في الدولة رغم تجاهلها، إلى أن "الدولة لا تدرك أن الحرية السياسية كافية للقضاء على الإرهاب وتحديد الحجم الحقيقي للتيار الديني في مصر". وحسبما ذهب الكاتب السياسي اليساري صلاح عيسي فإن الإخوان المسلمين كانوا يضمون في تنظيمهم خلال الأربعينيات نحو مليون عضو وكانوا يتمتعون بالسيطرة على ألفي وحدة إقليمية، ومع ذلك لم ينجحوا في الانتخابات البرلمانية. لقد أدرك الناس أنهم متدينون وليسوا مسيسيين. وفي ظل حكم السادات كان هناك داعية من المحلة - مدينة تقع شمال القاهرة - صوفي ربي لحيته الطويلة وقد تم انتخابه في البرلمان. ولكنه ماذا فعل؟ عندما حان وقت الصلاة طالب بوقف جلسة المجلس، ولم يتم انتخابه فيما بعد. لقد أرسله الناس للمجلس لكي يمثلهم ويعبر عنهم وليس لكي يواصل عمله كإمام مسجد (16).

وقد وضعت المحاكم نقابة المحامين تحت الحراسة عام 1996 إثر ادعاءات من قبل الحكومة بإساءة استخدام المصادر المالية لها من مجلس النقابة الذي تسيطر عليه جماعة الإخوان المسلمين. كانت الرسالة من ذلك هى أنه لن يتم السماح بالعمل مع الإخوان المسلمين على أي مستوى يتجاوز العمل النقابي ، في ضوء فشل تحالف من مجموعات سياسية مختلفة يخضع لهيمنة الجماعة في العمل معاً.. ويختلف المحامي محمد عصفور الذي عمل رئيسا مؤقتا للنقابة مع ذلك على الإطلاق، إن المنازعات أمر طبيعي، في أي مؤسسة، ولكن الأمر يتعلق بقضية خاصة بالنقابة ذاتها عليها حلها. وإذا لم يوافق أي شخص على ذلك، فهناك آليات أمامهم يمكنهم من خلالها رفع دعاوى قضائية (17). لقد اعتزمت الحكومة تهميش وتجاهل الحركات الإسلامية، في الوقت الذي أوصى فيه الكثيرون بمحاولة استقطابها من أجل تطوير النظام التعددي والديمقراطي.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وتمثل رد فعل الإخوان على هجمة الدولة عليهم في تأجيل الرد وتلقي اللكمات. بينما يحدد الجيل الوسط من النقابيين مثل الدكتور عبد الفتاح رزق(*) عضو مجلس نقابة الأطباء الأمر حسبما أشار في مؤتمر صحفي عقده بعد اعتقالات يناير 1995..على النحو التالي فإنه يوجد صراع بين اتجاهين، الأول يريد فرض القيم الغربية والهيمنة الصهيونية، والآخر – الإخوان المسلمين – يريد استعادة كرامة الأمة ووحدتها . وفيما يهيمن كبار السن من جيل الذين عانوا من حكم عبد الناصر وأطلق سراحهم في عهد السادات على قيادة الجماعة، فإن أعضاء التنظيم السري يطالبون بالطاعة العمياء من بقية أعضاء الجماعة ، (18). ورغم أن بعض الأعضاء صغار السن من الجيل الجديد في قيادة الجماعة فضلوا تحدي الحكومة خلال انتخابات أواخر 1995 عبر مظاهرات طالبت بالديمقراطية، فإن القادة شعروا بأن هذا الأمر قد يلحق الضرر بإستراتيجيتهم طويلة الأمد التي تقوم على سياسة الانتظار(19)، في ضوء رؤيتهم آنذاك بأنه لم يكن يوجد ما يفرض على الحكومة الإصغاء للغة الاحتجاجات ــ الدعوات المتواصلة لإقامة أحزاب ثالثة ودخولها العملية السياسية – في الوقت الذي تستطيع فيه أن تشن حملات قمع على شاكلة تلك التي جرت في الستينيات.

كانت النتيجة انقساما جزئيا في الحركة وفي الوقت ذاته تحفيزها على تطوير أفكارها. وبدأت مجموعة من الجيل الثالث للإخوان من أولئك الذين لم يتعرضوا لمحاكمات عسكرية تأمل في إقامة حزب سياسي يسمى حزب الوسط، يقوده أبو العلا ماضي وعصام سلطان والمثقف المسيحي رفيق حبيب الذي يرى صعوبة حل مشكلة مصر بدون مصالحة تاريخية بين القوميين العلمانيين والإسلام السياسي. وحسبما يقول حبيب فإن الحقيقة تتمثل في وجود حركة إسلامية قوية في مصر ويجب علينا أن نأخذ هذه القوة وننشئ قنوات سلمية ومعتدلة لها من أجل التعبير عن نفسها (20)، مضيفا أن المعارضة في المجمل في شكلها الحالي لا تعني أكثر من كونها ديكورا. ما نهدف إلى تحقيقه إعادة تنشيط الحياة السياسية في مصر والتي تواجه في الوقت الحالي موقفا يشبه الموت السياسي . ورغم ذلك رفضت الحكومة السماح للمجموعة خشية أن تكون جبهة

* اكتفي المؤلف بالإشارة إلى الاسم الأول والأرجح أنه على نحو ما أشرنا الدكتور عبد الفتاح رزق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

للإخوان المسلمين، وهى تمثل من ناحية أخرى، مرحلة على طريق تحديث الإسلام السياسي ، من أجل دخوله المحتمل في التيار السياسي العام في المجتمع.

وقد أعرب ماضي في ذلك الوقت عن اعتقاده أنه يجب علينا أن نضع جانبا اتهامين يوجهان دائما للإسلاميين على كافة المستويات. الأول هو احتكار الحقيقة. نحن سعداء بفكرة أن هناك عدة أوجه للحقيقة ونحن لن ندعي امتلاكها بشأن أي قضية. الثانية هي استخدام العبارات العامة والشعارات الغامضة. وبشأن بعض القضايا المحددة فقد جئنا ولدينا الإجابات، وفي برنامج حزب الوسط فإننا نخوض مجموعة قضايا تعد بمثابة حقل ألغام على شاكلة الموقف من الفنون، والسياحة والغرب وعملية السلام (21). غير أنه إذا كانت الحكومة تخشى من أن تتمكن مشروعات مثل "الوسط" من اجتذاب انتباه القوى الخارجية، كالولايات المتحدة وعدم الاهتمام بمساعدة النظام السياسي، لكي يشق طريقه إلى الأمام، فإنه ليس عليهم أن يخشوا كثيرا هذا الأمر، في ضوء ما يبدو من أنه لا إدارة كلينتون ولا إدارة بوش قد أبدتا اهتماما بتغيير الوضع الراهن.

وفي ضوء شعورها بالأمن جراء تحالفها مع الولايات المتحدة لم تفعل الحكومة شيئا لتطوير تفكيرها وتوجهاتها على صعيد مواجهة الإسلام السياسي خلال تلك الفترة. فقد ساند الرئيس مبارك قرار المؤسسة العسكرية الجزائرية بالغاء الانتخابات 1992 والتي بدا أنها من المحتمل أن تأتي بتنظيم يوازي تنظيم الإخوان في مصر وهى جبهة الانقاد الإسلامية ، ولم يتعب من أن يتحدث مع الأمريكيين بشأن الخطر الذي تمثله الحركة الإسلامية بكافة أطيافها على المصالح الغربية. وقد ذهبت حركات حقوق الإنسان المصرية والعربية إلى أن قوانين الطوارئ لم تكن سوى دعامة من أجل الحفاظ على بقاء النظام الشمولي. وعندما سئل بشأن هذه القضية في مقابلة مع قناة "العربية" أجاب مبارك مستغربا مطلب إلغاء حالة الطوارئ في الوقت الذي يتجه فيه العالم بأكمله إلى العمل بها وفي الوقت الذي نواجه فيه مصر حالة عنف متواصل (22). وذلك في إشارة إلى أن الحكومات الغربية لم تقبل فقط بما تطرحه دول مثل مصر، وإنما راحت تتبع إجراءات قريبة من الإجراءات التي قامت بها لمواجهة الإرهاب.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعلى ذلك النحو جرى تبرير مواقف الحكومات العربية التي هوجمت بشأن نظمها السياسية المتكلسة في وسائل الإعلام والحكومات الغربية في أعقاب أحداث 11 سبتمبر، عندما بدأت الدول الغربية انتهاج إجراءات تقوض الحقوق المدنية بدعوى الحرب على الإرهاب. وقد عبر الإسلاميون عن نقمة كبيرة بشأن ما وصلت إليه معاناتهم. وفي ذلك كتب الإخواني البارز الصحفي محمد عبد القدوس بمرارة عن صديق جرى تعذيبه في مركز اعتقال رسمي عام 1981 على يد ضابط ذى رتبة كبيرة يظهر في وسائل الإعلام العربية كخبير أمني. وأضاف فيما كتبه، إن المشتبه به رقم واحد في جريمة قتله ما زال حيا، وأراه أحيانا على التليفزيون يتحدث كخبير في الإرهاب، وعندما تشرق شمس الحرية في بلدي فإن هذا الخبير الأمني في الإرهاب وأمثاله سيكونون من أوائل من يواجهون المحاكمة، إن شاء الله، إن الطغاة سيعاقبون في هذا العالم قبل الآخرة (23).

عنف التسعينيات : حرب الدولة

في روايته عن انحلال مصر الثورية "عمارة يعقوبيان" قدم علاء الأسواني عضواً في جماعة إسلامية متطرفة يقترح خلال لقاء مع إمام مسجد يعقد في الفجر، وجوب أن يرد الثوريون الإسلاميون على حملة الاعتقال العشوائي التي تشنها الحكومة والإنتهاكات التي تشهدها السجون. كان ذلك قبل فترة قليلة من حرب الخليج الأولى التي شاركت فيها الحكومات العربية بما فيها مصر متخذة موقفا غير شعبي تمثل في تأييد التدخل ضد العراق من خلال تحالف يقوده الأمريكيون لدحر القوات العراقية من الكويت. غير أن الشيخ قال لبطل الرواية بأنه في ضوء تحالف النظام مع الأمريكيين والصهاينة من أجل تحرير الكويت، فإن آخر شئ يمكن القيام به هو إثارة الاضطرابات.

"أظنك فهمت الآن يا ولدي .. إن مباحث أمن الدولة تتحرش بنا حتى نرد عليهم فنعطيهم ذريعة لتوجيه ضربة شاملة للإسلاميين.. ولو أنني هاجمت انضمام مصر إلى التحالف لأغلقوا المسجد غدا وأنا أحتاج إلى المسجد حتى أحشد الشباب عندما تبدأ الحرب.. لا يا ولدي .. ليس من الحكمة تمكينهم منا الآن، دعهم حتى يقتلوا إخوتنا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المسلمين في العراق بقيادة الكفرة والصهاينة وسوف ترى بنفسك ما سوف نفعل يومئذ بإذن الله"(24).

تعكس هذه الفقرة شبهة قائمة لدى الكثير من المراقبين السياسيين بأن مشهد العنف الذي اندلع في أوائل التسعينيات لم يكن بالكامل نتيجة نزعة المتحمسين دينيا لإشهار الحرب ضد الدولة العلمانية. فهل كان النظام، وعينه مركزة بشكل كامل على الحليف الأمريكي، يستهدف إثارة الغبار بشأنهم وكشفهم أمام الخارج. وفي ذلك يرى الإسلاميون والمتعاطفون معهم أن السلطات قررت أن تحول دون وجود تحديات يمكن أن تؤثر على المساندة الأمريكية للنظام فيما بعد 1979، وأنها اعتزمت إثارة الحركة المتطرفة لتخوض حربا شاملة خلال عقد التسعينيات انطلاقا من الخوف من نموها. كما كانت الجماعات الراديكالية قد نشطت كذلك على خلفية نجاح المقاومة الإسلامية ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان.

وقد عاد الكثير من "الأفغان العرب" إلى بلدانهم عطشى للمزيد من العمل وسط عزيمة بأن يغيروا العالم بطريقة أو بأخرى. يقول الزيات: انهارت الهدنة بين الحكومة والجماعة الإسلامية المتشددة بجريمة قتل المتحدث باسم الجماعة علاء محيي الدين في أغسطس 1990. ومع ذلك أرجعت صحف الدولة الجريمة إلى مشاكل داخلية في إطار الجماعة. ويقول الزيات: إن الأمر كان يعكس استثارة من قبل الشرطة كان رد الفعل عليها من قبل الجماعة اغتيال رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب. وقد اعتقد الكثيرون أن الهجوم تم تنفيذه من قبل جماعة الجهاد التي يترأسها الظواهري وأنه كان يستهدف وزير الداخلية، غير أنها كانت على أي حال وبالتأكيد بداية سلسلة طويلة من سياسات الأخذ بالثأر على الجانبين بشكل انتهى إلى ما يمكن توصيفه بأنه حرب كاملة منتصف التسعينيات.

ووفق رواية الزيات في وصف الحملة التي تم إطلاقها من أجل استئصال شأفة الراديكاليين قبل مقتل علاء كان يوجد هدوء نسبي.. ثم كانت هناك بحور من الدماء وانفجارات دموية، وتحول الأمر إلى أن أصبح سياسة تقوم على أساس الضرب في الملیان (25). ويوافقه في وجهة النظر تلك الناشط الحقوقي هشام قاسم باعتبار أن ذلك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كان بداية حالة جديدة من التصفية الجسدية في ضوء النظر للجماعات الإسلامية على أنها أصبحت خارج نطاق السيطرة(26).

لقد كانت هناك اضطرابات بين الحكومة والجماعات الإسلامية خلال الثمانينيات غير أنها كانت متفرقة. كما أن الجماعات التي انخرطت في هذه الأعمال كان من الواضح أنها تمثل شظايا أو على هامش التيار العام من متطرفي الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي. كان حسن أبوباشا وزير الداخلية الأسبق هدفا لمحاولة اغتيال فاشلة في 1987 (يتهمه الإسلاميون بقيامه شخصيا بتعذيبهم) ، وقد قام الزيات بجهود وساطة عديدة بين أعوام 1990 و1993(27). في البداية كان الزعيم الروحي للجماعة الإسلامية الشيخ عمر عبد الرحمن يطالب بحرية للدعاة المتشددين على المنابر في أنحاء مصر، ورفع قرار وضعه قيد الإقامة الجبرية بمنزله مقابل إنهاء الجماعة كل أشكال العنف ضد الدولة. وفي النهاية تم السماح لعبد الرحمن بمغادرة مصر (حيث لعب فيما بعد دورا في مؤامرة تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993). كما كان إطلاق سراح المنتمين للحركة الإسلامية على مستوى الدولة، حسب الزيات، أحد الأوراق التي تمسك الدولة بزمامها على مدى الأعوام الثلاثة التالية.

وفي ذلك الإطار تم تشكيل لجنة تفاوض بين قيادات الجماعة الإسلامية في السجن، ووزارة الداخلية، شملت عدداً من الدعاة المعروفين والرموز الإسلامية المثقفة، غير أن عبد الحليم موسى وزير الداخلية في ذلك الوقت تمت إقالته وتوقفت الوساطة. ويمكن مقارنة ذلك بالاتفاق السري الذي يشتبه في توصل الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد إليه مع قيادات جبهة الإنقاذ ويسمح للإسلاميين بأن يتقدموا جميعا على شكل حزب سياسي عام 1988 لخوض إنتخابات حرة. ومن المعتقد أن الاتفاق قوضته الحسابات الخاطئة لعباس مدني والتي قامت على توجيه الأوضاع نحو إضراب عام في صيف عام 1991 قبل إلغاء الإنتخابات البرلمانية من قبل القيادة العسكرية في يناير 1992 عندما أصبح واضحا أن جبهة الإنقاذ ستفوز في الانتخابات. وقد قال الجيش في الجزائر لا في اللحظة الأخيرة ، وفي مصر فإن الحكومة هى التي قالت لا، غير أنها قالت كلمتها قبل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أن تصل الأمور إلى المرحلة التي تجرى معها انتخابات حرة وتحقق الحركة الإسلامية نصرا هائلا.

إن مصر لديها بالفعل شبكة هائلة من الإسلاميين الذين يمارسون تأثيرهم الإجتماعي والسياسي في شكل جماعة الإخوان المسلمين. ولكن إذا أبرمت الجماعة الإسلامية، وربما كذلك الجهاد الإسلامي، الجماعة التي وقفت خلف عملية اغتيال السادات، سلاما مع الدولة وتم تجاوز حالة العنف المتفرق والعلاقة الصعبة التي وسمت عقد الثمانينات، فإن الجماعتين في هذه الحالة قد تشكلان جماعة ضغط هائلة في مصر، بشكل قد يؤثر بالسلب على تحالف الدولة مع الأمريكيين ويصل به إلى نقطة التفكك. ويقول الزيات إن السنوات الخمس الأولى من حكم مبارك كانت هادئة نسبيا ، عندما وعد مبارك بعدم البقاء في الحكم لأكثر من دورتين متتاليتين، كما أن المعارضة آنذاك بما فيها الإخوان المسلمون حققت تمثيلا يعتد به في الإنتخابات البرلمانية. ولكن حينئذ ، " ربما يكون الغرب احتج على تنامي الحركة الإسلامية .. وربما أن عمل الحركة الإسلامية بحرية وتناميها كان يشكل خطرا في النهاية بالنسبة للدوائر الحاكمة"(28).

ومن ذلك على سبيل المثال ما ذهبت إليه جوديث ميللر الكاتبة في النيويورك تايمز ذات مرة من تحريض للحكومة على شن حملة على الحركة الإسلامية التي تتمتع بجماهيرية واسعة. وفي كتابها "الله تسعة وتسعون اسما" كتبت عن عدة لقاءات جمعتها مع الرئيس مبارك تم خلالها التطرق إلى تفكيك طابع الأسلمة الذي يطغي على مصر وتعزيز قوة المجتمع المدني. وفي ذلك يقول الزيات: إن البعض ربما يخشى من أن تحظى الجماعات الإسلامية حال الأخذ بالديمقراطية بقدر من الدعم وأنها قد تستدير ضدهم – الدولة"(29). إذا ما حققت الدولة السلام مع الحركة الإسلامية، فإنها بذلك تغامر بالمساعدة المالية الغربية بشكل قد يعني ، بطريقة أو بأخرى ، أن النظام قد حفر قبره بيده.

وبعيدا عما حققته من نصر على مستوى القوة والدبلوماسية - الحل الأمني في الداخل والإعجاب بأدائها على صعيد الخارج – عملت الحكومة وأنصارها ومن خلال وسائل الإعلام بشكل أساسي على تقديم خطاب يتحدى قوة الخطاب الذي يقدمه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الإسلاميون والقوميون. وعملت آلة الإعلام الضخمة التي تسيطر عليها الدولة على تقديم السادات ومبارك على أنهما بطلا حرب أكتوبر ضد إسرائيل، المشروع الذي اعتمد عليه مبارك بشكل رئيسي خلال حملته الإنتخابية عام 2005 عندما رشح نفسه للرئاسة لمدة خمسة أعوام أخرى. وعلى الجانب الآخر، جرى تضخيم ذكرى حقبة ناصر بين العديد من العلمانيين خصوم النظام باعتبارها تعكس ما يجب أن يكون عليه حال مصر والعرب، في إنتقاد واضح لما وصل إليه حال مصر والأنظمة المتحالفة مع الولايات المتحدة.

وعلى هذا راحت صحف المعارضة وفي سياق ظروف الحرب التي شنت على العراق عام 2003 تتناول موقف الحكومة من قصف العراق 1998 بسخرية بالغة. وحسبما نشرت إحدى الصحف آنذاك في صدر عناوين صفحتها الأولى وبشكل يعود بالقراء إلى ما مضى من أيام فقد سافر عبد الناصر إلى بغداد والتقى صدام حسين وأعلن عبد الناصر أن الهجوم على بغداد يمثل عدواناً على القاهرة... تلك أيام كانت مصر خلالها، من وجهة نظر الصحيفة، قوة يعمل لها حساب سياسي ودولة ذات قيادة تحظى بالتقدير وتتحرك لوقف التدخل الأجنبي في العالم العربي (30).

كانت السينما من بين الوسائل التي استطاعت الدولة من خلال إجتذاب الجمهور إلى جانبها، وفي ذلك الإطار قدم وحيد حامد السيناريست العلماني الموالي للحكومة، والنجم الكوميدي عادل إمام ذو الشعبية الكبيرة سلسلة أفلام تستهدف النيل من الجماعة الإسلامية جرى خلالها السخرية منهم باعتبارهم متخلفين ومعوقين لمسيرة النضال الوطني، مع اعتراف هذه الأفلام في الوقت ذاته بفساد الحكومة وضعف كفاءة أداء الدولة. كانت تلك دعاية بالغة القوة بشكل بذلت معه الحكومة قصاري جهدها من أجل تشجيعها إلى حد حضور عدد من الوزراء العروض الأولى لأفلام إمام. وعلى سبيل المثال يحمل فيلم "رسالة إلى الوالي" عام 1998 رسالة علمانية وطنية مفادها أن الأنظمة الوطنية المتداعية على شاكلة النظام المصري ما زالت قادرة على حماية استقلال الدولة من التدخل الأجنبي، سواء أكان إسرائيليا أو أمريكيا.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لقد لعب إمام دور فارس عثماني أرسل إلى القاهرة للمساعدة في قمع القوات البريطانية التي غزت ساحل الشاطئ الشمالي عام 1807. ولكنه وجد نفسه يمشي في الزمن المعاصر. وفي الذروة السينمائية يصل الفارس في النهاية إلى قصر محمد علي في القلعة بالقاهرة والذي حكم مصر في القرن التاسع عشر، حيث ألقى خطبة أمام مجموعة أفراد دون أن يدرك أنهم ليسوا سوى تماثيل في ردهة تعكس عصورا سابقة. وفي غضب قطع رأس محمد علي. إن الإسلام السياسي، حسبما يريد الفيلم أن يصور لنا، يقوم على محاولة استعادة الماضي الذي لا يمكن استعادته. ليس ذلك فقط، بل التأكيد على أنه ليس هناك حاجة للعودة بأى حال. وهنا تتدخل الممثلة يسرا محبوبة إمام لتواسيه وتبث فيه الأمل في الحوار التالي (والذي تم استقباله بحالة من الصمت الوجل من قبل الجمهور في عدد من دور السينما):

- إحنا ما عندناش والي.. إحنا عندنا ريس

• وده مين اللي إختاره؟

- إحنا

• اخترتوه ليه؟

- لأنه بطل من أبطال حرب أكتوبر(*).

• والريس ده حارب وانتصر؟

- انتصر.

الحرب على العراق – لعبة سياسية جديدة

مع حرب العراق 2003، عاد الإسلاميون وجماعات المعارضة الأخرى، التي عملت الحكومة كثيرا على تهميشها، للظهور مرة أخرى، واحتل الموقف الأمريكي من هذه الحركات مرة أخرى موقع القلب من السياسة المصرية. وتتمثل المفارقة في أن صعود قوة هذه الحركات يعود بشكل أساسي إلى التحول الجوهري في علاقات القوة

* يذكر المؤلف في ترجمته لهذه الجملة أن الرئيس قائد الضربة الجوية في الحرب ضد إسرائيل وقد فضلنا إيراد النص الأصلي في المتن حسبما ورد في الفيلم.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العظمى الوحيدة مع العالم العربي، وهو تحول تجاوز ما كان عليه الوضع عام 1991 خلال حرب الخليج، والذي لم تجد معه الحكومات العربية، التي لا تملك أي نوع من القوة لحل القضايا الإقليمية نفسها، أي مفر من تدخل أجنبي.

وبدافع الغضب من الحرب ومستفيدة من الضغط الأمريكي على الحكومة لتشجيع حالة الانفتاح السياسي، شكلت ثمانية من الأحزاب المعترف بها رسميا بما فيها حزب الوفد الليبرالي، والتجمع اليساري، والحزب العربي الناصري، تحالفا في سبتمبر 2004 للضغط من أجل إصلاحات سياسية ودستورية. ورغم استبعادهم الإخوان المسلمين بشكل واضح ، واصلت وزارة الداخلية منعهم من تنظيم احتجاجات في أي مكان على مستوى الدولة. وفي نوفمبر 2004 تظاهرت مجموعة صغيرة من المواطنين وسط القاهرة ترفع شعارات كتب عليها "كفاية" ولوحات تحمل صورة مبارك على وجهها الأول وصورة ابنه جمال على الوجه الآخر. ورغم كثافة التواجد الأمني الذي أحاط بهم ممثلا في انتشار آلاف العناصر الأمنية، فقد تجاوز المعارضون الخط الأحمر في السياسات المصرية – بتنظيم تظاهرة عامة ضد مبارك وابنه جمال، صاحب الدور الملموس في الحزب الوطني الحاكم الذي يترأسه مبارك، على النحو الذي ينظر إليه في مصر باعتباره خطوة أساسية لإعداده لكي يحل محل والده.

وحاول البرلماني أيمن نور، الذي انفصل عن حزب الوفد تشكيل حزب سياسي جديد هو الغد ونظم تظاهرات تدعو إلى إصلاحات دستورية قبل الانتخابات الرئاسية عام 2005. وكان مبارك منذ توليه السلطة اعتاد على إعادة انتخابه في استفتاء شعبي بـ "نعم أم لا" بعد أن تتم الموافقة على ترشيحه بأغلبية الثلثين من قبل أعضاء البرلمان الذي يهيمن عليه الحزب الوطني الحاكم، بما يؤهله للترشح للتصويت.

وبعد الحرب على العراق، لم يعد من المناسب أن يتواصل العمل بهذا النظام، حيث تدخلت الولايات المتحدة بممارسة ضغوط من أجل التغيير، من خلال الحديث المباشر للرئيس بوش عن مصر في خطابه بشأن حالة الإتحاد :" إن الولايات المتحدة، ومن أجل تعزيز السلام والاستقرار في الشرق الأوسط الكبير، ستعمل مع أصدقائها في المنطقة لمواجهة التهديد الذي يمثله خطر الإرهاب وفي الوقت ذاته تشجيع أجواء المزيد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

من الحريات في المنطقة. إن هذه الأمة العظيمة مصر والتي تبنت الطريق إلى السلام في الشرق الأوسط يمكنها الآن أن تتبنى الطريق نحو الديمقراطية في المنطقة".

غير أنه جرى ، فيما بعد ، القبض على نور أوائل عام 2005 بتهمة تزوير التوقيعات المطلوبة في محاولته إثبات أن حزبه لديه العدد الكافي من الأعضاء الذي يمكنه من الحصول على رخصة التأسيس، وقضت محكمة في ديسمبر 2005 بسجنه لمدة خمس سنوات، إثر انتهاء الموسم الإنتخابي. وأصبح نور السياسي والإصلاحي العلماني مجالا للشد والجذب في الولايات المتحدة، ومثال ذلك أنه حين تم الإفراج عنه يونيو 2005، راح الحزب الوطني الحاكم يشن حملة ضده مصورا إياه على أنه عميل أمريكي. وفي إحدى المقابلات معه ولدى سؤال نور من قبل صحيفة معارضة بشأن الإتهامات الموجهة له في الصحافة الحكومية بأنه ارتكب إثما عظيما بالتطرق إلى الوضع السياسي الداخلي مع السفير الأمريكي، أجاب نور: "إنني مندهش لسماع مثل هذه الاتهامات من أناس يلتقون الأمريكيين أكثر من المصريين.. إنني لا أحج إلى البيت الأبيض كل عام ولا أتلقى أي مساعدة"(31).

وعلى شاكلة الإخوان المسلمين قبل نحو عقد مضى، أصبحت "المعارضة الجديدة" تتهم بأنها تتسم بالرخاوة تجاه الولايات المتحدة، أو الاعتماد عليها في الحصول على الدعم. ومستخدمة الأطروحة المعتادة، سعت الحكومة لجعل واشنطن تدرك أن تعجلها الإصلاح يمكن أن ينتهي بوصول بعبع الإسلاميين إلى السلطة – وقد استخدم هذا الطرح كثيرا من أجل تبرير استمرار الوضع الراهن. وأشارت تقارير إلى أن عمر سليمان مدير المخابرات العامة حمل معه إلى واشنطن أوائل عام 2005 نحو 25 بندا تتعلق بما يمكن اعتباره حقيقة الإخوان المسلمين – تشكل قائمة بأشياء كارثية وأرقام وآراء حول ماضي وحاضر الجماعة (32).

وأخذ الرئيس مبارك البلاد على غرة بإعلانه تعديل الدستور بما يسمح بالتعددية في الترشح لانتخابات الرئاسة، ولكن رغم أن هذه الخطوة كانت تعد تحولا حقيقيا في الحياة السياسية المصرية، في ظل ضغوط أمريكية، لم يكن هناك كثيرون يتصورون أن الحكومة يمكن لها التخلي طواعية عن السلطة. لقد أدت القيود المفروضة على التشريع

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المقترح إلى صعوبة خوضها من قبل أي منافس جاد للرئيس. وتم إقرار التعديل خلال استفتاء في مايو 2005 سبقته أسابيع من المظاهرات قادتها جماعة الإخوان المسلمين. وقد قال بوش لمبارك في اتصال هاتفي في مايو ": إن الوقت مناسب الآن لأن تظهر فيه مصر العظيمة للعالم أنها تستطيع أن تقدم المثال للآخرين.. وعلى ذلك يجب السماح للشعب بأن يدلي بصوته دون أي خوف، وأن يبدي معارضته على شاشات التليفزيون، وأن يتم السماح له بالتعبير عن موافقته أو عدمها، مع ضرورة الحرص على الشفافية بشأن نتائج التصويت "(33). وعلى الفور تم السماح ببث إرسال قناة الواحد والعشرين لحزب الغد بعد عرقلتها لعدة أسابيع رغم دفع رسوم البث(*).

كان التدخل الأمريكي القضية التي ثار بشأنها جدل كبير بين الحكومة والمعارضة على مدى عام 2005، فالحكومة تروج لكون المعارضة مدعومة من قبل أمريكا، فيما تقول المعارضة أن الحكومة فشلت في الحفاظ على استقلال مصر من خلال توفير الذرائع لتدخل واشنطن.

ومع قبول واشنطن بالوضع القائم ، لم تمنح الحكومة سوى مساحة محدودة من الحركة تسمح لمن وصفتهم بالمعارضة المسئولة مثل حزب الوفد الليبرالي العلماني وحزب التجمع (فيما تصف المعارضة الإسلامية بأنها " غير مسئولة"). فلم تكن فكرة دعوة هذه المعارضة – المسئولة – إلى الإنضمام للحكومة ، حتى على الصعيد الشكلي مقبولة بشكل جدي خلال عقدي الثمانينات والتسعينيات، وهي الفترة التي سادت خلالها موجة عنف من قبل الإسلاميين. كما كان النموذج التركي القائم على الدور المحوري للجيش ودعم الأحزاب العلمانية والتضييق على الإسلامية أمراً غير مرحب به. وبالعودة إلى عام 1997 عندما كانت الحكومة في مأمن بفعل المساندة الغربية لها نظرا لدورها في عملية السلام الفلسطيني الإسرائيلي وانقضاضها على الإسلاميين، راح نور يقول بأسى انطلاقا من خبرته البرلمانية إنني كمواطن متعلم يجب أن يكون لي الحق في لعب دور في مستقبل أمتي. ولكن يجب عليك أن تقاتل من أجل أداء هذا الواجب. إن هذه هي المأساة الحقيقية، فالحكومة لا تؤدي ما يجعل النواب يشعرون بأن مشاركتهم فعالة(34).

* لم يعرف على الإطلاق أن حزب الغد أنشأ قناة فضائية خاصة به.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد أثارت احتجاجات مايو 2005 العالم العربي لفترة من الوقت، وبدا الإخوان المسلمون للمرة الأولى يستعرضون عضلاتهم ضد الحكومة، التي كانت قلقة من هذا التطور. وعلى ذلك تم إيفاد رئيس الوزراء أحمد نظيف إلى واشنطن لإجراء محادثات كان على رأس جدول أعمالها خطة الإصلاحات الحكومية. وراح النجم السينمائي عادل إمام يوجه صفعة إلى الإسلاميين من خلال لقاء تليفزيوني في مايو 2005 أكد فيه على أن المعارضين في أفلامي أبطال، فيما أن المعارضين الذين نراهم الآن ليسوا كذلك (35). وكان من الواضح أن جماعة الإخوان في ظل قيادة مهدي عاكف قررت مراجعة السياسة التي شكلت أساس موقفها تجاه النظام منذ تولي مبارك الحكم والانضمام إلى جماعات المعارضة الأخرى في النزول إلى الشارع في احتجاجات سلمية تطالب بالإصلاحات الديمقراطية وإنهاء حكم مبارك. جاء ذلك في أعقاب ما بدا من تغيير واشنطن لقواعد اللعبة والكف عن تدخلها التقليدي لصالح حكومات قمعية علمانية في مواجهة بدائلها الإسلامية. وكما كتبت إحدى الصحف آنذاك لقد انتهى السلام، وبدأت المعركة بين الحكومة والإخوان (36). وحتى اذا ما بدا واضحا أن واشنطن تراجعت بصورة أو بأخرى عن دعمها للإصلاحات خشية استفادة الإسلاميين، فإن الإخوان المسلمين بدأوا يخرجون عن إطارها والانطلاق بأنشطتهم العلنية لمستوى جديد.

وفي النهاية اختارت إدارة بوش أن تحد من ضغطها على الحكومة خلال عام 2005 – "عام الإحتجاجات" للخوف من إمكانية نجاح الإسلاميين في تحقيق هدفهم وما يمكن أن يسفر عنه هذا التطور من تداعيات على صعيد العلاقات بين مصر والغرب. وعلى الرغم من أن الإنتخابات البرلمانية التي جرت في نوفمبر وديسمبر 2005 كانت أكثر حرية من سابقاتها، فإن الدولة استخدمت التكتيكات المعتادة ضد الإخوان المسلمين.

وما أثار الدهشة أنهم قاموا بذلك بشكل جدي إثر مفاجأة الإخوان للمراقبين بأدائهم الجيد في أولى الجولات الثلاث من عمليات التصويت. وقد تمكنت الجماعة من الحصول على 88 مقعدا بما يقرب من خمس إجمالي عدد مقاعد مجلس الشعب ، الأمر الذي أظهر الجماعة بشكل لم يظهر في أي انتخابات برلمانية سابقة. الأكثر دلالة، أنها كانت تسلك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

طريقها نحو الإعتراف الرسمي بها من قبل أحزاب المعارضة العلمانية والتي لم تتمكن سوى من الحصول على تسعة مقاعد. وجاءت هذه النتيجة كذلك رغم الجهود الملموسة من قبل السلطات في الجولتين الثانية والثالثة من عملية التصويت للحيلولة دون تطور نصر الإسلاميين بشكل يتجاوز ما تحقق في الجولة الأولى. وتم اعتقال المئات من العاملين في الحملات الإنتخابية للإخوان ، كما تم الدفع بالعاملين في الشركات الحكومية إلى مراكز الاقتراع مع إغراءات لانتخاب مرشحي الحزب الوطني. كما أغلقت الشرطة كل مراكز الاقتراع للحيلولة دون إدلاء أنصار الإخوان بأصواتهم. ولقي 12 شخصا مصرعهم في عنف مرتبط بالإنتخابات وتعرضت الجمعيات الحقوقية لانتهاكات من قبل الشرطة وأنصار الحزب الوطني الحاكم والمرشحين وأنصارهم.

وعلى صعيد الانتخابات الرئاسية التي جرى التصويت عليها في سبتمبر 2005 اختارت الجماعة عدم تحدي مبارك ، وهى الانتخابات التي تمكن المرشح أيمن نور خلالها من الحصول على نسبة أصوات تقدر بـ 7.9 % من أصوات الناخبين فيما حصل زعيم حزب الوفد على نسبة 2.9 %. وقد فاز مبارك بنسبة 88.6 % وهى النسبة التي فاقت المتوقع. وتعليقا على ذلك كتب الدكتور سعد الدين إبراهيم قائلا إن الأمر أبعد ما يكون عن أن يكون مستوى مباراة انتخابية. فمبارك ما زال يمتلك أسهماً غير متكافئة : الاسم المعروف، والاحتكار العملي لوسائل الإعلام، من إذاعة وتليفزيون، التي تسيطر عليها الدولة، ونحو 85% من وسائل الإعلام المطبوعة – الصحف(37).

غير أنه في ضوء خبرة تجربة انتخابات 2005، بدا ملحوظا أن الإدارة الأمريكية كفت عن انتقاد العنف وكذا عمليات التزوير في أصوات الناخبين. وبعد احتجاجات الإخوان في مايو لاحظ المراقبون تحولا هادئا في اتجاه الإدارة بشأن الإصلاحات الديمقراطية في مصر- بشكل يقوم على أن هذه الإصلاحات يجب ألا تتسم بالاندفاع بشكل قد يمكن الإخوان من أن يشكلوا تحديا حقيقيا للحكومة. وكان مشهد شرطة مكافحة الشغب وهي تغلق مراكز الاقتراع خلال نوفمبر وديسمبر في وجه الناخبين مؤشرا على حقيقة وقوف الولايات المتحدة خلف الحكومة. وإثر النتائج النهائية أعلنت الإدارة الأمريكية تحفظها على العملية الانتخابية ولكنها كانت راضية بالمكاسب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المحدودة التي حققتها المعارضة. وفي ذلك راح آدم أيرلي المتحدث باسم الخارجية الأمريكية يقول: "إن الانتخابات تعكس التمثيل الواسع للمعارضة والمرشحين المستقلين في البرلمان المصري ونحن نعتقد أن ذلك سيكون له أثر ملموس على الحياة السياسية في مصر"(38).

وفي مارس 2006 بدا أن مبارك في وضع يسمح بالتصريح لرؤساء تحرير الصحف بأن كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية بدت مقتنعة بالطريق الذي تراه مصر لتحقيق الديمقراطية وفق ما تراه مناسبا. وحسبما أشار مبارك في وصف ما دار معه في لقاء جمعه مع رايس في تلك الفترة فقد بدت متفهمة تماما لوجهات النظر المصرية. ولم تثر مناقشات بشأن قضايا صعبة أو تطلب تغيير أي شئ أو تتدخل فيما يتعلق بالإصلاح السياسي، كما ذكر البعض . وأضاف لقد بدت مقتنعة بالطريقة التي يتم بها الإصلاح السياسي وتطبيق الديمقراطية في مصر.. لقد قالت إن الديمقراطية في الأقطار العربية تحتاج إلى جيل39).

وأرجأت الحكومة انتخابات المجالس المحلية التي كانت مقررة في أبريل 2006 لمدة سنتين، وصعبت مهمة المرشحين المستقلين – الذين كان من المحتمل أن يكون من بينهم أعضاء بجماعة الإخوان المحظورة بموجب القانون في الانتخابات الرئاسية المقرر إجراؤها عام 2010 ، حيث تتطلب القواعد المعقدة حصول المرشحين على تأييد عدد معين من أعضاء المجالس المحلية. كما أن الحزب الوطني الحاكم بدأ أنه يخشى، في ضوء ما كشفت عنه نتائج انتخابات 2005، أن يجد صعوبات في الحيلولة دون نجاح الإخوان في الوصول إلى المجالس التي يسيطر عليها الحزب بالكامل ويسودها الفساد والعجز. كما سادت المخاوف من عودة الإحتجاجات الجماهيرية مرة أخرى وهو ما تمثل في خروج المتظاهرين للاحتجاج سلميا في مايو 2006 ضد جلسات التأديب لاثنين من القضاة اللذين كان لهما دور في فتح الباب أمام الحديث عن بعض الانتهاكات الانتخابية، حيث جرى قمع المتظاهرين بقسوة من قبل قوات الشرطة التي بدا أنها حصلت على تفويض جديد بذلك.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وإلى جانب الخدع القديمة لجأ الحزب الوطني الحاكم إلى طرق حديثة في إدارة الحملة الانتخابية. لقد ذهب الحزب عام 2005 بعيدا في "أمركة" وجهه، إن لم يكن جوهر سياساته كذلك. ومقلدا الأساليب التي لجأ إليها حزب العمال البريطاني أواخر التسعينات لتحسين شعاراته وأسلوبه، وكذلك تلك التي لجأ إليها الديمقراطيون تحت حكم كلينتون عندما وصل إلى الحكم في 1993، بدأ الحزب الوطني الحاكم يتصرف كما لو أنه حزب حقيقي يخوض لعبة سياسية حقيقية. وعلى ذلك ظهر مبارك خلال حملة الانتخابات الرئاسية في زي غير رسمي – كاجوال – على نفس النحو الذي يظهر به ابنه جمال ــ الذي يبدو كأنه أحد الذين يرسمون الصورة الجديدة للبلاد – وسط ترحيب الجماهير الذين ارتدوا كابات بيسبول وتي شيرتات تحمل شعار "مبارك 2005". كما تم التقاط مجموعة صور لمبارك وهو يحتسي الشاي مع مجموعة من الفلاحين المختارين بعناية، في المناطق الريفية، قبل أن يتوجه لإلقاء خطب معدة جيدا حشدها بالوعود التي تمس القضايا الحقيقية للمواطنين. ويكشف عن التوجه الجديد في تقديم صورة جديدة للرئيس مبارك ، طبيعة القائمين على حملته الإنتخابية هذه المرة وطريقة إدارتها مثل الدكتور محمد كمال أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة الحاصل على الدكتوراه من جامعة جون هوبكنز، كلية الدراسات الدولية المتقدمة في واشنطن دي سي عن رسالة حول السياسات الأمريكية.

كما تعاقدت حملة الرئيس مبارك كذلك مع شركة دعاية للإشراف على إعلانات الحملة وخبير في عمليات التصويت أجرى بمساعدة طاقم من العاملين معه يقدر بنحو 100 شخص لقاءات مع الجماهير للتعرف على اتجاهاتهم، للوصول إلى الصيغة التي يتم بها تقديم الحملة للمواطنين. كما أن خطب مبارك والتي كان يقوم على كتابتها طاقم خاص بالحملة وليس طاقم مكتب الرئاسة كما هو معتاد كانت تتسم بطابعها الذي يخاطب المشاعر أكثر مما سبق، الأمر الذي يمكن لنا أن نلحظه في أنه فيما حث الرئيس مبارك من قبل المواطنين على أن ينتجوا من أجل التصدير أو مواجهة الموت، فإنه خلال الحملة راح يتحدث عن الشباب الذين ليس في مقدرتهم العثور على عمل، مؤكداً شعوره بألمهم وأحلامهم الضائعة حسبما راح يحدث الجمهور خلال لقاء جماهيري ضمن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الحملة، مستعيرا في ذلك صدى عبارة كلينتون المشهورة عام 1992: إنني أشعر بألمكم. (40).

موقع مصر المتغير في العالم العربي

تسببت كامب ديفيد وحركة مصر المفاجئة بالدوران في الفلك الإسرائيلي الأمريكي في انهيار مفاجئ في العلاقات المصرية العربية، حيث خرجت مصر من الجامعة العربية وانتقل مقرها من القاهرة إلى بغداد إلى أن تمت المصالحة عام 1989. ونشطت الدبلوماسية المصرية خلال فترة الثمانينيات لاستعادة دورها المحوري في السياسات العربية. وساعدت التطورات في العراق على دعم نظام مبارك خلال فترة الحرب العراقية الإيرانية من 1980 الى 1988. ولكن مصر في النهاية عادت ، ويا للمفارقة، بسبب الأهمية التي أتاحتها لها معاهدة السلام من دور مركزي وهام في العالم العربي. فقد كانت الدولة الوحيدة التي لها خط مباشر مع كل من واشنطن وتل أبيب. وتحقق هذا على الرغم من التراجع في وضع الفلسطينيين كنتيجة مباشرة للمعاهدة.

فقد شعرت إسرائيل بحرية في مواصلة خطتها للاستيطان في الأراضي العربية المحتلة، وانسحب نفس التصور في عمليتها التي قامت خلالها بغزو لبنان عام 1978 وبيروت عام 1982 دون تهديد من رد فعل عسكري مصري. في الوقت ذاته كانت تعيد سيناء على مراحل إلى مصر، وعلى ذلك لم يكن الجزء الأخير من سيناء .. طابا في أيدي المصريين حتى عام 1989. وكان الفلسطينيون يأملون في إنهاء الإحتلال .. وفي الوقت ذاته، لا يجدون مكانا يلجأون إليه، في ضوء المعارك التي خاضتها إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، كما عرض على المواطنين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة خطة تقوم على تشكيل مجلس محلي للحكم الذاتي تم رفضها باعتبارها تمثل ما درج على وصفه بخيار " الجبن السويسرية".

على وقع هذه الخلفية التي تعكس زيادة مستوى العنف الإقليمي وتعزيز إسرائيل لسيطرتها، قرر فلسطينيو الداخل، الوصف الذي يستخدم لتمييزهم عن فلسطيني الشتات، تولي زمام المبادرة فقاموا بانتفاضتهم الأولى عام 1987. وأحدثت الانتفاضة تغييرا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

جوهريا في ميزان القوى مع إسرائيل وأعطت الفلسطينيين للمرة الأولى فرصة لتعزيز وضعهم في الخارج بشكل يمكنهم من لعب دور بشأن مصيرهم بعد سنوات من حلولهم مجالا للمساومة بين السياسيين العرب والإسرائيليين والغربيين. لقد عرت الانتفاضة إسرائيل أمام العالم وأمام شعبها كقوة محتلة وكشفت عن أن استمرار الاحتلال سيكون مكلفا على المستويين السياسي والمالي. وعلى وقع الانتفاضة بدا رابين مدفوعا للمشاركة في توقيع اتفاقات أوسلو عام 1993 بشكل بدا معه الصراع وكأنه يتجه إلى مستوى جديد تزايدت معه احتمالات التوصل إلى تسويته. ويوجد في هذا الصدد تفسيران بشأن دور عرفات في الانتفاضة. الأول يتمثل في أنه بعد كارثة الإبعاد عام 1982 من بيروت إلى تونس ـــ الأمر الذي يعتبر بمثابة انتكاسة في السياسات العربية – كان الموقف يوفر فرصة له لإعادة تقديم نفسه ومواصلة النضال على جبهة جديدة .

وكان النزاع بين فلسطينيي المنفى الذين يقودهم عرفات ومن هم في داخل الأراضي المحتلة ، يتحدى السيطرة الإسرائيلية على الوضع في الأراضي المحتلة من خلال فعل يومي تعكسه الانتفاضة التي لفتت أنظار العالم. وكان النضال الشعبي من أجل الاستقلال يمثل تحديا واضحا للحركة الوطنية التي يقودها عرفات وتطورت منذ سنوات الستينيات. وعلى هذا الأساس، وهنا يأتي الطرح الذي تمثله وجهة النظر الثانية بشأن دور عرفات والذي أصبح متاحا للتبلور على أرض الواقع حيث تمكن من تحويل هذا التحدي إلى ميزة له في ضوء أن الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال كانوا مهيئين للاعتراف بدوره القيادي إذا ما تعلق الأمر بمستقبلهم. على المستوى السياسي كانت القضية الفلسطينية ما تزال تعكس كفاحا يتسم بالوحدة حيث تعكس قضية أولئك الذين يعيشون في فلسطين تحت الاحتلال وأولئك الذين غادروها بعد حرب 1948 .

من المثير هنا أن هذين الجانبين المتعلقين بالموقف الفلسطيني كانا يقدمان خيارين مختلفين على مستوى القيادة الإسرائيلية : فرابين كان يريد عودة عرفات، القائد في المنفى، وأن يقود المحتلين الذين بقوا في الداخل. غير أن الواقع كان يحول دون تحقيق ذلك في ضوء أن المؤسسة السياسية الإسرائيلية لم تكن تعترف بأي وضع يمثله أولئك الذين في المنفى وعلى رأسهم عرفات، كما أنها لا تعترف في الوقت ذاته بشكل واضح

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بحقوق مستقلة لفلسطيني الداخل الذين كان يطلب من عرفات أن يقودهم. على العكس فإن من بين وجهات النظر العربية الأساسية بشأن فشل سنوات أوسلو – من 1993 إلى 2000 عندما اندلعت الانتفاضة الثانية – أن ذلك نجم عن رغبة إسرائيلية في جعل عرفات شرطي الأراضي المحتلة التي لم يكن الإسرائيليون على استعداد سياسي أو نفسي للتخلي عنها.

وقد استخدمت الانتهاكات التي مارستها الشرطة الفلسطينية ضد الفلسطينيين خلال تلك الفترة في الغالب كوسيلة لدعم وجهة النظر تلك ، غير أن الليبراليين العرب لم يروا في الأمر سوى إنشاء ديكتاتورية عربية أخرى على الطريقة المصرية. وأصبحت الحكومة المصرية من أكثر الشركاء المقربين والناصحين لعرفات خلال فترة مشروع أوسلو، على الرغم من مبدأ عرفات الأساسي، الذي حاول التمسك به طويلا، بشأن عدم الاعتماد على أي أطراف عربية والحفاظ على الاستقلالية الفلسطينية لمصلحة الفلسطينيين ووفقا لما يرونه. كان كلا النظامين ديكتاتوريين في سلوكهما في ضوء ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن أمام إسرائيل وليس كما يريد شعباهما، وكانت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل تتوقعان منهما أن يتخذا إجراءات تحافظ على استقرار الموقف الشعبي إلى أن تحقق محادثات السلام الهدف المنشود.

أما بالنسبة لمصر، فقد كانت أوسلو بمثابة نصر يعزز السلام المنفرد الذي أبرمته مع إسرائيل عام 1979. وعلى خلفيتها راحت مصر تشير إلى أنها كانت رائدة مبدأ الأرض مقابل السلام الذي يجب أن تتبعه بقية الأقطار العربية. وقد فعلت الأردن ذلك في 1994. وعلى نفس المنوال، كان للتطور الماثل في أوسلو بعض التأثيرات السلبية في القاهرة. فعلى وقع الغضب ضد إسرائيل لدى بدء تطبيق ما تم التوصل إليه في صيف 2000 وبدء الانتفاضة لم يكن أمام الحكومة من خيار سوى مساندة المظاهرات وتشجيع وسائل الإعلام التي تسيطر عليها من صحف وتليفزيون لكي تنفس عن غضب النخبة السياسية والشارع .

كانت إستراتيجية الحكومة في ذلك الوقت ركوب موجة الغضب على إسرائيل، وتولي زمام قيادتها وتوجيهها على النحو الذي يحميها في النهاية ويؤمن وضعها، في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ضوء صعوبة السيطرة على المتظاهرين في ظل نظام سياسي قمعي على شاكلة النظام المصري إزاء وجود قائمة كبيرة لديهم من القضايا التي تزيد حنقهم، حيث لا تكاد الجماهير تخرج في تظاهرة حتى يتم فقدان السيطرة عليهم. وفي أكتوبر عام 2000، دعا مبارك إلى قمة عربية طارئة معربا عن استيائه الشديد من الطريقة البشعة التي تم بها قتل الطفل الفلسطيني محمد الدرة، وقرر سحب السفير المصري من تل أبيب،غير أنه كان واضحا عندما سئل بشكل مباشر على تليفزيون الدولة بأنه لا توجد مصلحة لمصر في دخول حرب أخرى مع اسرائيل.

في تلك الأثناء كانت الحكومة تواجه ضغطا هائلا من قبل الولايات المتحدة يتهمها بعدم القيام بالمجهود الكافي لحث الفلسطينيين بقيادة عرفات على التوصل إلى حل للصراع مع إسرائيل خلال كامب ديفيد عام 2000. وراح عدد من كتاب الأعمدة في الصحف يشيرون بوضوح إلى أن هذا هو أقل ما يمكن أن تتوقعه واشنطن من حق لها تجاه مصر مقابل عقدين من المساعدات والمساندة، فيما كان رد الفعل الغاضب يشير إلى أن مصر قدمت للولايات المتحدة الكثير ردا للجميل وأكثر مما تتصور لجهة مساعدتها في حرب الخليج الأولى 1990 – 1991. ووافق زعيما مصر والسعودية في لقاء عقد قبل اندلاع الانتفاضة على مساندة عرفات في موقفه الرافض للاعتراف بسيادة إسرائيل على القدس الشرقية، أو الموافقة على تأجيل القضية، بشكل كان من الممكن أن يسمح بالتوصل إلى اتفاق أساسي خلال القمة بشأن القضايا الأخرى.

وقد كتب توماس فريدمان في مقال له في "النيويورك تايمز" في خطاب متخيل من الرئيس كلينتون إلى الرئيس مبارك يقول له فيه : " دعني أخبرك كيف أنني أصبت وكل طاقمي من المساعدين في وزارة الخارجية بخيبة أمل جراء موقفك في كامب ديفيد. إن الكثيرين من الناس يسألونني : ماهو بالضبط الذي نحصل عليه من خلال علاقاتنا مع مصر – أو بمعنى أصح إنفاق 30 مليار دولار مساعدة لها منذ 1978؟ إننا منذ كامب ديفيد، نحكم على مصر فقط بناء على معيار واحد ـــ هو مدى "لطفكم" مع اسرائيل!. وفي ضوء حقيقة أنكم لم تسمحوا دوما بأجواء العداء تجاهها، فقد كنا نلتمس لكم الأعذار، ونتعامى عن فساد نظامكم وغياب الديمقراطية"(41). وقد أكد إبراهيم سعدة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

رئيس تحرير جريدة "أخبار اليوم" المصرية في ذلك الوقت ما ذهب اليه فريدمان بشأن الموقف من القدس قائلا أنه لا يوجد طرف عربي يساند اتفاقية لا يتم في إطارها حل هذه القضية . وأضاف إن طريقتك المؤسفة في الحديث فيما يتعلق بالمساعدة تفرض علي أن أشير إلى المساعدة المصرية لكم خلال حرب الخليج.. فلولا مصر، لم يكن ليتم حل أزمة الخليج ، ولو لم توجد القوات المصرية والقوات العربية الأخرى التي شاركت في التحالف، لم يكن في مقدور الولايات المتحدة إنزال ولو جندي واحد في شبه الجزيرة العربية (42).

ويمكن القول أنه في نهاية المطاف حدث تحول في طبيعة "ريادة مصر" الوضع الذي كانت تروج له الدولة على مدى أكثر من 25 عاما من خلال حمل راية الصراع العربي الإسرائيلي، الأمر الذي استهدف إحكام السيطرة على الأوضاع في الداخل، إلى ما يمكن اعتباره ريادة من نوع آخر تتمثل في بزوغ حركة ديمقراطية معاصرة . وحسبما يقول المحلل السياسي عماد جاد فإنه للمرة الأولى منذ عام 1977 خرج المصريون إلى الشوارع بشأن قضية داخلية. لقد كان المصريون يحتجون فقط على قضايا فلسطين والعراق. ولكنهم الآن يخرجون للتظاهر أيضا بشأن قضية داخلية هي الإصلاح (43). وحرصت جماعة الإخوان، على الجانب الآخر، على التقارب مع الخطاب الشعبي الذي يضع القضايا الإقليمية الأشمل بشأن النزاع مع الولايات المتحدة ضمن أولويات أجندته السياسية الخاصة، ومن ذلك على سبيل المثال سعيها لأن تكون اتفاقية سلام كامب ديفيد محلا للتصويت.

كان وضع مصر في إطار الثقافة العربية الإسلامية وعلاقاتها مع الغرب قضية مثيرة للجدل على مدى القرن الماضي. وكانت الطبقة المثقفة المصرية قبل 1952 تستمد الإلهام بشأن أفكارها عن الحرية والديمقراطية من أوروبا. حتى إن مصر عملت منذ حكم محمد علي في العقود الأولى للقرن التاسع عشر، على شاكلة نموذج أتاتورك، على اللحاق بأوروبا كقوة صناعية تنطلق من أسس نظام حكم علماني. كما أن الحكومة، وكذلك النخبة المثقفة، كانت تبدي قدرا من التحفظ على العروبة وتبدي حماسا للصهيونية والتي كان لها وجود في مصر بين سنوات 1920 و 1930 خشية من أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تثير الحركة الوطنية الفلسطينية المشاعر ضد اليهود في مصر وتفسد الأوضاع الاجتماعية في مصر ذات الطبيعة المعقدة(*). وعلى ذلك أبدى بعض المثقفين ، على حد ما ذهب إليه فؤاد عجمي في "قصر الأحلام العربي"، انفتاحا على الصهيونية وهدفها المتمثل في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

كانت إيدلوجية الحركة القومية في طور التشكل خلال تلك الفترة. ففيما نجح الأوروبيون في فرض سيطرتهم السياسية والإقتصادية وتكنولوجيتهم على مستوى العالم، بدأ العرب والأتراك الذين كانوا يقبعون تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، في التعبير عن سخطهم المشترك بشأن ذلك الوضع. كانت حركة "تركيا الفتاة" تعمل على استبعاد من هو غير تركي من الإمبراطورية، فيما كان الكثيرون من العرب يريدون الانفصال عن الأتراك واستعادة زمام السيطرة على مقدراتهم. غير أنه لم يكن هناك إجماع على مستوى العرب بشأن نوع طبيعة وحجم الكيان السياسي الذي يجب أن ينجم عن هذا التوجه. وكانت توجد بشكل أساسي دعوات لاستعادة الخلافة العربية يوحد فيما بينها الإسلام واللغة العربية. ومع حلول ثلاثينات القرن الماضي أعاد المثقفون المشارقة بلورة الفكرة على أساس عرقي في تحديد مفهوم الأمة العربية. ولم يعتبر الكثير منهم المغرب أو حتى مصر جزءا من المشروع . ولكن هذه الأخيرة ، في ضوء موقعها الإستراتيجي وعدد سكانها، كانت بمثابة مكافأة كبرى. وساعدت جهود الإخوان المسلمين على صعيد زيادة الاهتمام الشعبي بالقضية الفلسطينية ضد الصهيونية (بمساندة الثورة الفلسطينية عام 1936 وتنظيم مظاهرة ضخمة في القاهرة) على تعزيز اتجاه مصر نحو العروبة، في مواجهة ما كانت تأمله نخبة حزب الوفد الليبرالي من أن يتمكن الحزب منفردا من قيادة الدولة إلى الاستقلال الكامل عن بريطانيا.

ومع حلول عام 1952 كانت الحركة القومية العربية قد شبت عن الطوق وتوسعت لتشمل كل الأقطار التي فتحها العرب في المراحل الأولى من مرحلة الفتوحات الإسلامية قبل نحو 1300 عام عندما انتشر الإسلام وأصبحت اللغة العربية في تلك

* رغم صحة وجود قدر من التعاطف مع الصهيونية في مصر خلال العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، إلا أنه لم يكن بالصورة التي تبدو من سياق تناول المؤلف، وقد نبع هذا الموقف أساسا من عدم إدراك أبعاد المشروع الصهيوني في تلك الفترة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المرحلة هى اللغة السائدة. وتحت قيادة ناصر أصبحت القومية العربية بمثابة عقيدة وليدة يؤمن بها ملايين الأفراد. وعلى الرغم من أن استخدام لفظ العرب يتم عادة في الإشارة إلى القبائل العربية، فإن النظام المصري تصرف عام 1958 انطلاقا من أيديولوجيته القومية عندما اتحد مع الجمهورية العربية السورية متخليا عن الاسم الذي استمر يطلق على الدولة على مدى أكثر من خمسة آلاف عام من الخريطة. إن "العرب" كمصطلح له معنى أخر كذلك حيث يستخدم كإهانة من قبل الإجانب أكثر من كونه يستخدم كمصطلح للفخر بشأن من يشير إليهم. وكما قالت الباحثة الإجتماعية المصرية ليلي أحمد : إن ناصر مسئول بشأن تحول" العرب" من صفة إلى رمز لاسم علم ، على النحو الذي جرى مع الأمريكيين السود في الولايات المتحدة.

ورغم فشل القوميين العرب في تحقيق أهدافهم السياسية ، حقق العروبيون نجاحا كبيرا على المستوى الثقافي، ولعبت مصر دورا حيويا في هذا المجال عبر ما قدمته من نتاج ثقافي هائل على مدى الخمسين عاما الماضية من خلال الأفلام والأدب والمسرح والتليفزيون والراديو والرقص والرياضة، إلى الحد الذي أصبحت معه اللهجة القاهرية بمثابة لغة مشتركة بين أبناء العالم العربي، إلى جانب العربية التقليدية – الفصحى. بينما حل الإسلام السياسي محل القومية العربية باعتبارها المشروع السياسي الوحيد، على النحو الذي يقرر معه عالم السياسة العراقي عديد دويشه إن :"العروبة تذهب إلى مثواها الأخير".

لقد كان إخراج مصر لنفسها من الجبهة السياسية والعسكرية ضد إسرائيل ضربة نفسية قاضية للعالم العربي. ففيما كانت هذه الخطوة تعني أن المشروع السياسي الناصري قد مات، مع بقاء الهيئات والعقليات التي عكست الفترة الناصرية على ما هي عليه "محلك سر"، فيما تواصل مصر نفوذها الثقافي في المنطقة. كانت النتيجة سخطا وغضبا من كل المجموعات السياسية.. فالعلمانيون والليبراليون الذين يعتبرون أن تطبيق النماذج السياسية والاقتصادية والاجتماعية الغربية ضرورة حيوية، يرون أن هناك تراجعا لنفوذ مصر في العالم العربي، بينما يريد الإسلاميون والقوميون العرب، عودة مصر إلى المعسكر المتشدد لتقود نهجاً جديداً من السلوك المستقل بين الأقطار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العربية والإسلامية في مواجهة الاستغلال والغطرسة الغربية التي تقودها الولايات المتحدة. وحسبما عبر فؤاد عجمي فإن مصر تواجه خطر "السقوط مرة أخرى في مصيدة تاريخها المخيب للآمال"، فيما أن محمد حسنين هيكل يشير إلى أن هذا هو الوقت الذي يجب أن نتوقف فيه عن تصديق الحرب النفسية التي تهدف إلى الإبقاء على مصر في الحضيض وأن ندرك أنه من الممكن أن نرتقي إلى مستوى الغرب(44).

مستقبل التحالف مع الولايات المتحدة

كان عام 1952 بمثابة ثأر من حضارة مجروحة، بشكل لم ينته معه الأمر فقط بسيطرة المصريين على مقدراتهم وتوجيه شئونهم الاقتصادية والسياسية بما يحقق مصالحهم ، وإنما قاد في الوقت ذاته، الكتلة الثقافية المكونة من الشعوب الناطقة بالعربية إلى التحرر من التدخل الأجنبي من الجزائر إلى فلسطين. وقد شهد العقد الأخير مناقشة بالغة الأهمية بشأن لماذا انحرف المشروع العظيم عن مساره ليس فقط في مصر بل كذلك في كل أنحاء العالم العربي؟. وقد تبلورت في مصر المناقشة بشكل كبير حول هذه القضية في إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة يوليو في عام 2002.. الاحتفال الذي كان له بعض الانعكاسات على حالة الأمة، الأمر الذي عبر عنه بشكل بالغ الدلالة الاقتصادي المصري الدكتور جلال أمين في كتابه الذي عنونه بنفس الفكرة :"ماذا حدث للمصريين؟". ففي 1952 كانت مصر تستطيع أن تطعم نفسها ولديها برلمان ينبض بالحياة، وطبقة وسطى متحضرة، واقتصاد يمكنه أن ينتج.. بشكل يزرع الأمل. وبعد نحو خمسة عقود ما زالت محاولة ولوج عصر التقدم تراوح مكانها، كما أن التدخل الأجنبي في شئونها أصبح مسألة مثيرة لعدم الارتياح. "إن النهضة الكاملة التي تدخلها مصر الآن والمجتمع الآمن الذي نعيشه لم يكن ممكنا بدون الجهود السابقة" ــ هكذا قال الرئيس مبارك في خطبة له أشاد خلالها بالثورة خلال عرض عسكري عام 2002.

إن قادة مصر يتحدثون عن النهضة الكاملة، على مدى عقود. وفي مناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين فإن المراكب راحت تغدو ذهابا وإيابا في النيل وهى تحمل ملصقات دعائية لرؤساء الجمهورية الأربعة منذ الثورة وسط احتفالات بالألعاب النارية،

www.ibtesama.com/vb Exclusive

غير أن جهود إشاعة أجواء مهرجانية لا يمكن لها أن تأتي في وقت أسوأ من ذلك.. فالسياح لم يعودوا يأتون، والمستثمرون لم يعودوا يستثمرون، والاقتصاد لم يعد ينتج وظائف كافية لمواكبة النمو السكاني، كما أن النظام السياسي المتكلس والمدعوم أمريكيا أصبح يتهاوى. والحكومة يبدو أنها لم تحسم أمرها بشأن ما إذا كان عليها أن تمضي قدما في تفكيك المشروع الناصري الذي يضمن الوظائف مدى الحياة، والديمقراطية وإقتصاديات السوق الحر، الذي ما زال ينظر إليه على أنه يتسم بالضعف.

ويظل المدى الذي يجب معه لوم الأجانب بشأن الوصول إلى مثل هذه الحالة، تعبير عن تيار غير ظاهر في الخطاب العام في مصر. لقد تخلت القيادة العسكرية عن مشروعها العظيم القائم على القيادة الإقليمية إزاء ما قامت به القوى الغربية من جهد كبير، وبشكل خاص الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، من أجل تدمير القومية العربية. ولقد تم مساعدتهم من قبل أطراف عربية لم تؤمن بأن هذا المشروع يجب أن يجد طريقه إلى النجاح. إن الانحلال والفساد ينخران في جسد المجتمع المصري. وفي يوليو 2005، بثت الجزيرة تقريرا وثائقيا لعدد ممن كانوا شهود عيان على أسوأ ما في الدولة الناصرية في مرحلتها الأولى وقامت بزيارة لبعض سجون تلك المرحلة(45).

وقد قدم المشاركون تفصيلات بشأن عملية الاعتقال التي جرت لنحو 38 ألف شخص إثر إعلان ناصر اكتشاف مؤامرة من قبل الإخوان المسلمين للإطاحة به، وقد أرسل نحو 57 من هؤلاء للمحاكمة. وعرض المشاركون ذكرياتهم عن تلك الفترة متحدثين عن ضحايا كانوا يلقون حتفهم يوميا جراء الدهس بالسيارات والشاحنات، أو تهشم رؤوس البعض جراء خبطهم في الحائط حتى الموت، أو من جرى تعذيبهم بكلاب مدربة خاصة والمحاولات الفاضحة للحصول على اعترافات مزورة منهم لإكمال الكوتا والسيناريو المعد من قبل السياسيين.

تم ذلك تحت إشراف ضابط أمن يظهر هذه الأيام على البرامج الحوارية التليفزيونية كخبير في القضايا الأمنية المتعلقة بالقاعدة. لقد كانت مصر ناصر محاطة بأعداء، الولايات المتحدة والسعودية، يساندون الإسلاميين لإسقاط نظام ناصر. ولكن النتيجة التي أسفرت عنها الانتهاكات التي عانى بسببها الإسلاميون خلال هذه السنوات

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تمثلت في صعود الإسلام المتطرف الذي راح يعتبر المجتمع العربي العلماني المعاصر، والقادة والشعوب كفارا. وقد أطلق ممثلو هذا التيار على أنفسهم خلال عقد السبعينات، اسم الجهاد الإسلامي والجماعة الإسلامية فيما يطلقون على أنفسهم اليوم اسم "القاعدة".

إن أمريكا ، كما يذكر المحلل المصري عماد جاد،هي الحاضر الغائب في السياسات المصرية لنحو ثلاثة عقود(46). وتتبادل المعارضة الجديدة وكذلك القديمة بل والنظام نفسه الاتهامات بشان من يلعب اللعبة الأمريكية. فالحزب الوطني الحاكم الذي يدير ويشرف على النظام السياسي والاقتصادي ويتغذي على ملايين الدولارات التي ترد إليه أو يتلقاها كمعونات من الولايات المتحدة، وكذلك من الإتحاد الأوروبي واليابان ومساعدات مالية أخرى يتهم أيمن نور زعيم حزب الغد بأنه عميل أمريكي وأنه شخص "خائن" حسب كلمات ملصق دعاية قرب مقر للحزب في القاهرة. وعلى الجانب الآخر، يتهم نور كذلك النظام بأنه يحج سنويا إلى الولايات المتحدة. كما يشتبه النظام في أن الإخوان المسلمين يعدون لحوار مع الإدارة الأمريكية، فيما أن الإخوان أنفسهم يقومون بدور متقن يقدمون أنفسهم للعامة من خلاله على أنهم ضد الأمريكيين من أجل التأكيد على أنهم من الشعب واجتذاب الرأي العام العربي إلى صفهم.

ومن جانبها تبدي الحركة الإسلامية رفضا كبيرا بشأن إعادة النظر في موقفها الذي جرى تشكيله بدقة ومن ذلك إشارة طالب قيادي من الإخوان من الزقازيق شمال مصر : لقد أقمنا مشروعا إسلاميا عالميا، يقوم على أسس مختلفة، فنحن نعتبر أن القضية الفلسطينية رقم واحد، وأن اسرائيل تعد ربيبة أمريكا في الشرق الأوسط، والأمريكيون بذلك يتجاهلون حقوق الأخرين، والدولة اليهودية دولة احتلال. نحن لا يمكن لنا التعامل مع الولايات المتحدة لعدم ثقتنا فيها.. لقد قدمت الحكومة كل ما في إمكانها من تنازلات . إن الحكومة الأمريكية – وليس الشعب – هى عدو الشعب المصري رقم واحد.. ونحن نقول للحكومة " نحن سواعدك، ولست في حاجة إلى السماح لأمريكا بالتدخل"(47).

وإذا قالت الحكومة إن المعارضة تستفيد من الضغط والتدخل الأمريكي السافر في الشئون الداخلية المصرية، فإن المعارضة تذكر أن غباء الحكومة هو الذي انتهى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بالأمة إلى الحد الذي سمحت فيه للأجانب بالتطلع إلى هذا التدخل بدءا بنظامها السياسي القائم على الحزب الواحد وانتهاء بعدم فاعليتها في السياسات العربية. وحسبما أشار محمد مهدي عاكف المرشد العام للإخوان المسلمين فإن الجماعة تفضل أن يحقق النظام السلام مع الشعب بشكل ينبع الإصلاح معه من الرغبة المصرية"(48). فيما كتاب الرأي في الصحف التي تملكها الحكومة يقولون عن الإصلاحيين القدامى والجدد إن مصر التي يدعون زورا وبهتانا أنهم يسعون لإنقاذها هي أصلا منهم براء، وأبناء مصر الشرفاء النبلاء المحترمون لن يروعهم ولن يهزمهم ما يمارسونه ضدهم من إرهاب مقيت ، لأن مواقفهم السابقة والحالية مفضوحة ونوازع الغل في قلوبهم راسخة ومتغلغلة بين الضلوع. نصيحة لا تصدقوا كل من سبق وإن باع نفسه بأبخس الأسعار .. وتقلب على تراب غير التراب وركع على قدميه يطلب الإحسان ممن توهم أنه يملك المنح والعطاء (48).

لقد أصبح تلقي الأموال والمساندة الأجنبية من الخارج مجالا للذم والانتقاد على مدى العقدين الماضيين في مصر. وقد تم توجيه التهمة للأكاديمي المصري والناشط في مجال حقوق الإنسان سعد الدين إبراهيم خلال فترة اعتقاله 2000 – 2003 ومحاكمته بتهم تلقي أموال أوروبية لمراقبة الانتخابات وتشويه سمعة مصر. كما أنها استخدمت بنجاح كذلك في التسعينيات لإفساد سمعة حركة الحقوق المصرية الناشئة وتبرير التدخل الكبير للدولة في بنود قانون 1999 بشأن المنظمات غير الحكومية. وكما قال إبراهيم فإن مصر تحصل على أربعة مليارات دولار سنويا مليارين من أمريكا ومليارين من أوروبا الغربية واليابان. هذا يؤدي إلى دولة ريعية غير منتجة لا توجد فيها محاسبة للدولة أمام شعبها ، نظرا لأنها تتلقى الدعم والمساندة من الخارج (50). وعلى ذلك فإنه في تحول له دلالته أعلنت إدارة بوش خلال عام 2005 أن المساعدات غير العسكرية السنوية التي يتم تقديمها لمصر لن تذهب فقط إلى الحكومة، وإنما ستشمل أيضا 6 منظمات غير حكومية.

وحتى إذا خفف النظام تدريجيا قبضته على الدولة وسمح بظهور قوي جديدة ، ولاعبين آخرين على المشهد، فستبقى الولايات المتحدة المحرك الأكبر من وراء المشهد.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وإزاء مسعى الحركة الإسلامية المعتدلة للاندماج في التيار السياسي العام في الدولة، فإن ذلك يثير عددا من الأسئلة الأساسية التي تفرض نفسها، على شاكلة: ما نوع العلاقة التي ستطورها هذه الحركة مع الإدارة الأمريكية، والتي تساند رسميا الحظر الحكومي على الإخوان؟ وكيف ستتطور الإتجاهات الأمريكية تجاه الحزب الوطني المعاد تنظيمه في ظل قيادة جمال مبارك للحزب وتجاه الحكومة؟

وفي المقابل، سيجد الإخوان المسلمون، ومن أجل أي تواجد محتمل في الحياة السياسية كحزب مسموح به، أنفسهم تحت ضغط السير على خطى الحركة الإسلامية في تركيا. فلقد جاء حزب الرفاه إلى الحكم تحت قيادة نجم الدين أربكان، غير أنه تم إقصاؤه من قبل الجيش. وتبعه على الطريق ذاته النسخة الأكثر اعتدالا، ممثلة في حزب العدالة والتنمية الذي يقوده رجب طيب أردوغان. إن الإخوان المسلمين بالفعل لديهم نسخة مصغرة في شكل حزب الوسط ونسخة أخرى غير معروفة ممثلة في الحركة التي يتزعمها خالد الزعفراني،الإسلامي المعروف من الإسكندرية. إن أياً من هذه المجموعات الثلاثة يمكن لها أن تبرز كقوة إسلامية مصرية معتدلة في النظام السياسي المقبل، في ذات الوقت الذي يمكن توقع ظهور آخرين على الساحة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل السادس

أسرة آل سعود

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تكوين الدولة السعودية

خرجت الدولة السعودية إلى الوجود برعاية بريطانية، وتواصل بقاؤها بدعم الولايات المتحدة بعد تراجع الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية. وقد كان تكوين الدولة السعودية في عقد العشرينات مرتبطا إلى حد كبير بالمدى الذي تصورته بريطانيا لمصالحها المحدودة في قلب الصحراء حيث تم إفساح المجال للأسرة البدوية السعودية لإنشاء كيان سياسي في شبه الجزيرة العربية. وقد حصلت السعودية على اعتراف المنظمة الدولية عام 1932 ، وجاء اتحاد اليمن عام 1934 في تلك الفترة دون تدخل بريطاني أو إيطالي. واستغرق الأمر الكثير من الوقت لفرض النفوذ البريطاني في المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية لتأمين ممر آمن عبر البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي والخليج العربي لصالح التجارة الاستعمارية بين بريطانيا والهند والشرق الأقصى. ولم تغادر بريطانيا منطقة الخليج رسميا حتى 1971 حيث ظهرت الإمارات العربية المتحدة إثر ذلك إلى الوجود. وبينما سمح الانتداب الذي كوفئت به بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى للمصالح البريطانية النفطية بتعزيز وجودها في العراق، لم يتخيل أحد أن العربية السعودية تقع فوق واحد من أكبر الاحتياطات النفطية في العالم. ومع ذلك فإن حقيقة أن توحيد المملكة تم نتيجة عوامل داخلية وليس بفعل تدخل القوى الخارجية بشكل مباشر، كانت مصدر فخر كبير بالنسبة للسعودية.

وقد أتاح تركز الاهتمام البريطاني على العراق، أن يكون للولايات المتحدة موطئ قدم في السعودية، فيما أصبح بعد ذلك واحداً من التحالفات الأكثر صلابة والأطول عمرا والأكثر تأثيرا في الشرق الأوسط الحديث. وعبر شركتها آرامكو – شركة النفط العربية الأمريكية – والتي تم تأميمها تدريجيا خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات ساهمت الحكومة الأمريكية في إقامة عدد من مرافق البينة الأساسية هناك تطلبتها تطورات صناعة النفط في الدولة السعودية الناشئة.

كانت التنمية بالنسبة لمعظم السعوديين مرادفا لشركة النفط العربية الأمريكية والتي تتخذ من قاعدة الظهران في الخليج العربي مقرا لها. وخلال السنوات الأولى إثر منح امتياز النفط عام 1933، بدت السعودية دولة ضخمة ولكن دون جذور راسخة،

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ولهذا أبدت تذمرها الكبير جراء المساندة البريطانية للأسرة الهاشمية في الأردن والعراق (حتى 1958) الدولتين اللتين كان لهما جذور سكانية قبلية ذات أصول في السعودية، غير أنها بدت في الوقت ذاته تشعر بالارتياح جراء تطوير روابط سياسية وعسكرية مع الولايات المتحدة. ومن خلال آرامكو تخرجت أول موجة من الإداريين والتكنوقراط والموظفين المدنيين ومليونيرات النفط السعوديين ، وكذا في المقابل أوائل المعتقلين السياسيين والمعارضين والمنفيين ورموز المعارضة الأدبية، حسبما كتبت الدكتورة مضاوي الرشيد أستاذة علم الأنثروبولوجيا (1).. وعزز وجود وافدين من جنسيات مختلفة.. مصريين وفلسطينيين وهنود مع القبائل البدوية المحلية والشيعة المقيمين من التبادل والاشتراك في الأفكار والمشاكل والأيديولوجيات السياسية، فضلا عن انتشار الراديو، على إيجاد حقائق مزعجة بالنسبة للملك السعودي الثاني سعود بن عبد العزيز (1953 - 1964).

وكانت تدخلات الحكومة بشأن ممتلكات الأسرة الحاكمة السعودية في حدودها الدنيا ، من ناحية نظرا لاتساعها، فضلا عما كان يوفره القانون لهم من ميزة تجعلهم في مرتبة علماء الدين. لأنها تمثل السنة التقليديين "الدولة الإسلامية " أكدت الأسرة السعودية مساندتها للعلماء من خلال إطلاق العنان لهم لحكم المجتمع وفق قوانين الشريعة الإسلامية: يعتبر رجال الدين في السياق الإسلامي قضاة وخبراء قانونيين، وتبقى المحاكم مملكة المشرعين الفقهاء في الوقت الحاضر. ويعتبر القانون التجاري الوحيد الذي تم تشريعه في السعودية. وعزز المؤسس عبد العزيز (الذي توفي عام 1933) وحدة مملكته الشاسعة عبر زيجات عديدة من نساء من طبقة الأشراف العربية والعشائر الإقليمية والأسر (الرقم الفعلي لعدد الزيجات غير معروف).

وكان هدف حماية المملكة التي تواجه أوضاعا قلقة، في مواجهة الضغوط المتعددة الأجنبية والمحلية ، مصدر القلق الرئيسي للحكام السعوديين منذ البداية، ويعتبر بقاء المملكة واستمرارها حتى الآن واحدا من عجائب وألغاز سياسات الشرق الأوسط المعاصر. فلقد وظف السعوديون من أجل تعزيز وحدة أراضي الدولة التي أنشأوها، البدو كمقاتلين عرفوا باسم الإخوان (الإخوان المسلمين وهو اسم لا رابطة له مع الحركة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السياسية المصرية التي تحمل اسما مشابها). ومن وسط منطقة نجد حيث تمت الإقامة في معسكرات إقامة خاصة، سميت الهجر– مفردها هجرة – جرى توجيه هؤلاء على يد دعاة متشددين من مدرسة نجد التي تتبع الإسلام السني، فيما أصبح يعرف باسم "الوهابية". وكان من بين المشاكل الكبيرة التي واجهتها المملكة عبر تاريخها مع الجيوش الرحل الذين جرى صهرهم عبر عمليات القتال شديدة الوطأة هو ما يجب القيام به مع هؤلاء الأفراد الرحل إثر انتهاء مهمتهم، وهى القضية ذاتها التي واجهتها الجيوش العربية خلال الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، والتي واجهها المغول كذلك بعد ذلك بعدة قرون.

وفي حالة المشروع السعودي في القرن العشرين، لم يكن هناك مجال كبير للمناورة. فقد فرضت القوى الأوروبية العظمى قيودا بشأن الأماكن التي يمكن للبدو أن يغزوها. وإثر استيلائها على المنطقة الشرقية عام 1913 ومنطقة حائل التي تحاذي الأردن والعراق عام 1921 ومنطقة الحجاز على الساحل الغربي 1925 لم يكن هناك إمكانية لضم اليمن أو الكويت في ضوء عدم سماح بريطانيا بذلك. كما لم يكن هناك أي إعداد بشأن الحملة الكبيرة التي اتسمت بالحماس على المدن الشيعية العراقية، على نحو ما قامت به الجيوش الوهابية السعودية قبل نحو القرن، ثم الاستيلاء على المدن الحجازية في عمليات واجهت مقاومة ضارية– أما في الطائف فقد قتل الجيش البدوي عام 1924 المئات الذين ذهب العلماء إلى أنهم يدخلون في عدد "صغار الكفار".

كانت النتيجة تمردا ضد السعوديين فيما بين 1927 و 1929، وشعر البدو أن حلفاءهم خانوا القضية الوهابية بالتخلي عن الحملة التي تقوم على رؤية متشددة تنطلق من ضرورة نشر الإسلام بالقوة. وقد تكرر التمرد في عام 1979 عندما قامت مجموعة من رجال القبائل تنحدر من الأصول الإخوانية باحتلال المسجد الحرام في مكة لمدة أسبوعين، في معارضة للمرة الثانية للدولة السعودية لإخفاقها في الوفاء بالتزاماتها الإسلامية، الأمر الذي دفع الحكومة السعودية إلى العمل على تعزيز القيم الإسلامية بشكل أكبر خلال حكم الملك فهد (1982 - 2005)، في محاولة لسحب البساط من تحت أقدام علماء المؤسسة الوهابية ولوأد أي محاولات من قبلهم للثورة. ويعكس ذلك حقيقة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الصراع على قلب الدولة السعودية وجوهرها منذ إنشائها بين مجموعة من الرؤى الإسلامية التي لا تقبل بالتزحزح عن مكانها، والأساس المعاصر الذي قامت عليه الدولة.

وقد ساد القلق لدى السعوديين بشأن انفصال الحجاز بشكل خاص، عن دولتهم خلال العقدين الأولين من الاستقلال. وتشمل هذه المنطقة التي تقع على البحر الأحمر عدة مدن بحرية مثل جدة وينبع والمدينتين الداخليتين المقدستين مكة والمدينة، وكذلك الطائف المنطقة الجبلية. وكان السعوديون إثر غزوهم للمنطقة في العشرينيات قد عزلوا الأسرة الهاشمية التي حكمت مكة لنحو ألف عام. وبعد الإذن بعزلهم نصب البريطانيون الهاشميين الحجازيين ملوكا على الأردن والعراق، حيث جرى بعد عام 1958 القضاء على حكمهم من خلال أحداث عنف في العراق، وإن كانت الأسرة الهاشمية ما زالت تواصل حكم الأردن حتى اليوم.

مع حلول الخمسينيات برز عامل قلق جديد للأسرة السعودية، هو تنامي القومية العربية وحركة مناهضة الاستعمار التي انتشرت في أوساط الشيعة وفئات سعودية أخرى كانت تعمل مع شركة آرامكو في الساحل الشرقي. وكان مما استثار الحكم الملكي في السعودية استقبال الأبطال الذي حظي به ناصر في شوارع مدينة الظهران النفطية والرياض عاصمة السعودية التي تقع داخل الأراضي النجدية بشكل انتشرت معه شائعة مفادها أن الملك سعود دبر مؤامرة لاغتيال ناصر(2).. وقد ثار الشيعة مرة ثانية ضد الحكم السعودي عام 1980 بعد قيام الثورة الإيرانية، وأثاروا شكاوى بشأن معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية، في إطار الدولة الوهابية. كما قام متحمسون وهابيون باحتجاجات اتسمت بالعنف ضد الإبداعات الحديثة في مراحل متعددة – وفي ذلك الصدد تم اغتيال الملك فيصل عام 1975 على يد ابن أخيه على ما يبدو على خلفية الغضب بشأن إدخال البث التليفزيوني. وجرى بعد حرب الخليج عام 1991 اعتقال عدد من العلماء الوهابيين بشأن دعوات للإصلاح وانتقادات لتواجد القوات الأمريكية. كما واجه الحكم الملكي السعودية بعد غزو العراق عام 2003 تمردا من الإسلاميين تحت راية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

القاعدة الذين عبر أنصارها عن استيائهم بشكل خاص من التحالف السياسي للمملكة مع الولايات المتحدة.

إن السعودية تقوم على عدد من الجوانب المتعارضة. ووفق ما يذهب اليه الأنثروبولوجي السعودي سعد السويحان أنها تقريبا عبارة عن أربعة بلدان وهذا يفسر سبب قلق الناس من التغيير، حيث يمكن لهذا الوضع أن يتفكك. وهو يشير في ذلك إلى المناطق الأربعة نجد والحجاز وعسير التي تشترك في الحدود مع اليمن في الجنوب، والمنطقة الشرقية بسكانها الشيعة(3).. لقد كان من المتوقع أن تلعب الثروة دورا كبيرا في عملية صهر هذه الأجزاء، على شاكلة أمريكا، ولكن المشكلة أنها تقوم على أساس منتج واحد فقط هو النفط الذي يتركز في منطقة واحدة، هي الشرق. ففي المنطقة الشرقية يمكن للسكان هناك أن يقولوا إن هذه الثروة تخصنا ونحن نريد أن يدعنا الآخرون وشأننا. فيما يمكن أن يقول سكان الحجاز "نريد أن نبقى بمفردنا" بشكل ينتهي بالباقين إلى قدر محدود من الموارد.

وقد شهدت الدولة ذاتها في إطار عملية تشكيلها ، محاولتين من قبل الأسرة السعودية لإقامة دولة نجدية. ففي منتصف القرن الثامن عشر، عرض عالم يسمى محمد بن عبد الوهاب خدماته على الأسرة السعودية لتأسيس مملكة دينية أصولية أقامها السعوديون بتحويل القبائل البدوية إلى قوات مقاتلة متشددة. كان عبد الوهاب يتسم بالورع وينحدر من مدينة صحراوية معزولة قرب الرياض اليوم وقد رأى أن سلوكيات الحضر من المسلمين في شبه الجزيرة – تقديس بعض الشيوخ والعلماء عبر زيارة قبورهم أو الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول والرموز الدينية الأخرى في الإسلام - تمثل هرطقة وانحرافا عن الوحدانية الأصيلة التي مثلتها رسالة الإسلام ودعوته إلى عبادة الله الواحد. وذهب عبد الوهاب إلى أن هذه الأوضاع تمثل عودة إلى ما كان عليه الحال في الجاهلية التي كانت قائمة قبل رسالة الإسلام. وبالنسبة لبعض أتباعه، كان استخدام المسبحة خلال الصلوات يناقض روح التوحيد التي جاء بها الإسلام. وكان من بين آرائهم أن البدو في السهول المركزية من حيث جاء هو، ليس لهم أي دين على الإطلاق.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كان الهدف الأول من التحالف عام 1744 بين أسرة آل سعود وعبد الوهاب وأتباعه توحيد البدويين انطلاقا من هذه المنطقة المركزية في نجد. وقد قام التحالف السعودي الوهابي البدوي بغزو مدن الغرب – والتي كانت في ذلك الوقت تحت السيطرة العثمانية – واجتاح شمال العراق حيث توجد مقبرة الحسين بن علي بن بنت النبي صلى الله عليه وسلم، في كربلاء عام 1801. وانهارت الدولة السعودية الأولى (1744-1818) نتيجة سعى محمد علي إلى توسيع نطاق إمبراطوريته إلى شبه الجزيرة العربية، ولكن آل سعود عملوا على محاولة تدبر أمر استعادة نفوذهم مرة ثانية، وهو ما تحقق منتصف القرن التاسع عشر (1824 - 1891) ولكنهم عادوا عام 1902 للمرة الثالثة واستولوا على الرياض مضيفين تدريجيا أراضى أخرى حتى عام 1932، بعد اتباعهم نفس التكتيك القائم على إطلاق العنان للمتشددين البدو ضد الحضريين من المسلمين بغض النظر عن تدينهم. وقد وحدوا معظم أنحاء شبه الجزيرة التي تفصل المناطق الجبلية الجنوبية مع اليمن وعمان ومجموعة دول الخليج الشاطئية المدعومة من قبل بريطانيا.

وأسفر التوزيع غير العادل للموارد والسيطرة المطلقة للأسرة السعودية عبر التوسع غير المسبوق إلى كيان سياسي غريب الشكل، فلقد زادت الثروة بشكل هائل نتيجة ارتفاع بأسعار النفط خلال السبعينيات بشكل سمح للأسرة الحاكمة بنمط حياة اتسمت بالبذخ يتعارض مع قيمهم الإسلامية على ذات النحو الذي أدى إليه تحالفهم السياسي الكبير مع الولايات المتحدة. فقد سمحت الأسرة السعودية للقوات الأجنبية بالبقاء فوق أراضيها 1990 – 1991 خلال أزمة الخليج ثم المكوث في قواعد دائمة بعد ذلك، مما انتهى بالدولة التي تملك ثروة غير عادية، وتقود العالم الإسلامي عبر وجود أكبر موقعين مقدسين في مكة والمدينة على أرضها(*) إلى تقييد سيادتها جراء الحاجة المتواصلة للنظام الملكي إلى الأجانب من أجل حمايته. فضلا عن ذلك بدأت تظهر في السنوات الأخيرة تفاوتات حادة في الثروة ليس فقط في المناطق الجبلية على الحدود مع

* المسجدان الحرام والنبوي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

اليمن، ولكن أيضا في مناطق من العاصمة الرياض نفسها بفعل الهجرة من المناطق الريفية.

وفي 2002 ، قام الأمير عبد الله ولي العهد السعودي بزيارة مفاجئة إلى المناطق الفقيرة المتاخمة للرياض وتجول في الشوارع وسأل الناس عن أحوال معيشتهم. وبعد شهور قليلة، أعلنت الحكومة وضع إستراتيجية قومية لمكافحة الفقر. وحسبما أعلن ولي العهد السعودي في جرأة وعلى الملأ عام 1998 فإن الدولة أدركت منذ نحو عقد أنه يوجد لديها مشاكل بنيوية في ضوء ان حقبة الثروة النفطية غير المحدودة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد في ذات الوقت الذي ينمو فيه عدد السكان وتتراجع أسعار النفط. ورغم ذلك كان الكشف عن وجود سعوديين فقراء بمثابة صدمة للكثيرين داخل المملكة ذات الثروة الخرافية.

الحماية الأمريكية السعودية

يتمثل التناقض الأكثر إثارة للجدل في الدولة السعودية الحديثة في اعتمادها على الجيوش الأجنبية، حيث تتمركز الآلاف من القوات الأمريكية هناك منذ حرب الخليج عام 1991 ولم تغادر سوى في أغسطس عام 2003، بعد القضاء على نظام حكم صدام حسين، وإن تواصل بقاء المستشارين العسكريين. كما أن القوات الأجنبية لم تغادر شبه الجزيرة بشكل حقيقي، وإنما تمت عملية إعادة انتشار لها بعبارة أخرى حيث تمركزت في الدول المجاورة في قطر والبحرين حيث عدد السكان محدود، وكذا الهيئات السياسية بشكل لا يفرض سوى اهتمام محدود بالقرارات التي يتخذها حكامهم بشأن استضافة أعداد كبيرة من القوات الأمريكية.

لقد كان تواجد القوات الأمريكية في السعودية من بين المظالم التي أشار إليها بن لادن في معرض تبريره الهجمات على الولايات المتحدة، رغم أن القليل من السعوديين يشعرون بالتواجد الأمريكي في حياتهم اليومية، حيث يجري الحرص على بقائهم بمعزل عن المناطق ذات الاحتكاك مع الجمهور ويتمركزون بشكل أساسي في قاعدة جوية خارج الرياض حيث كانوا يراقبون ما درج على تسميته المنطقة محظورة الطيران فوق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

جنوب العراق خلال التسعينيات، والتي جرى من خلالها تنسيق جانب من عمليات غزو العراق عام 2003. وتحظى حقيقة اعتماد الحكام السعوديين على الحماية الأمريكية بانتشار واسع في العالم العربي، ويعزف على وترها المعارضون للنظام السعودي سواء داخل المملكة أو خارجها وكذلك في أماكن أخرى. وأصبح ذلك مجالا للدعابة والسخرية في عصر الإنترنت.

ومن نماذج تلك السخرية ما نشره موقع هجائي على الشبكة العالمية مستوحيا فكرته من المهرجان الثقافي السنوي الذي تنظمه الحكومة وهو مهرجان الجنادرية، وهو احتفال بالقيم البدوية ويقوم فيه رجال القبائل بمن فيهم رؤوس العائلة الحاكمة السعودية والملك نفسه بالانضمام إلى رقصات بالسيوف ومظاهر أخرى مستوحاة من الفترة التي خاضت فيها القبائل حروبا فيما بينها من أجل السيطرة على الأرض. لقد نشر الموقع المذكور تعليقا على صورة للملك عبد الله أحد أبناء الملك المؤسس الذي خاض قتالا بالأسلوب القديم فعليا يقول: إذا كنت مثل هذا الفارس المغوار فلماذا تطلب من المارينز ونساء أخريات أن يحموك من صدام؟(4).

عندما تسأل السعوديين بشأن حاجة دولتهم إلى استئجار جيش أجنبي من أجل حمايتهم بدلا من أن يقوموا بذلك بأنفسهم فإنهم يبدون قدرا من الحيرة. وفي ظل مشكلة مثل البطالة فإن الجيش الدائم يمكن أن يمثل هدفا ذا مغزى. وفي ذلك قال شاب سعودي شيعي من الدمام (5). إن وجود الأمريكيين هنا يسبب الكثير من الاضطرابات، حيث إن جنودنا ينتهي بهم الأمر إلى الاعتماد عليهم. وربما على هذا الأساس تفضل الأسرة الحاكمة السعودية أن تدفع للأمريكيين من أجل حمايتها. إنهم لا يريدون فقدان حياة السعوديين أو أنهم لا يستطيعون الاعتماد على الجنود السعوديين.. لا فرق .. وفي بعض الأحيان فهم يقولون أنهم ببساطة يعتمدون على الله.

إن الطابع العام للسعودية هو عدم العسكرة على الإطلاق – وتتجه الدولة إلى توفير الانطباع بأنها الفردوس الإسلامي غير المسيس – وربما لا يكون لدى قطاع كبير من الجيش السعودي أي دور يقوم به مما يقع على الصعيد العالمي أو الإسلامي. ومع ذلك فإن هذه الظاهرة تعبر عن مظهر متكرر في التاريخ الإسلامي، فعلى مدى نحو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مائتي عام خلال الحكم الإسلامي خاض الخلفاء العباسيون صراعات متواصلة من أجل تأكيد شرعية حكمهم الإستبدادي، وكانوا يخشون على ما يبدو التوجه إلى شعبهم لكي يدافع عن مملكتهم ولهذا استوردوا العبيد الأتراك كجنود من وسط آسيا.

لقد استأجر الخليفة العباسي الذي حكم واحدة من أكثر الكيانات السياسية قوة في العالم الأجانب لكي يدافع عن نفسه. لماذا؟ الإجابة ربما تكمن في التعارض فيما بين الأيديولوجية المتفائلة والحقيقة المزعجة. إن الخلفاء طبقا لنظريتهم بشأن شرعية حكمهم يعتبرون حراسا للمجتمع المختار من قبل الله: إن وضع بعض المسلمين الخاضعين لحكمهم في الجيش، على الأقل داخليا، يفترض ضمنا أن الخاضعين لهم ربما يكون لديهم بعض الأسباب لتحديهم، فهم لا يستطيعون الثقة في شعبهم في ضوء عدم اعتراف الكثيرين في الواقع بشرعية حقهم في الحكم. وعلى ذلك فإنه يمكن الدفاع عنهم وعما فسره العلماء المسلمين بدار الإسلام – فقط من خلال فئات يتم استئجارها من الخارج، والذين يجرى التعامل معهم كعبيد، وكفرة ليس لهم من فائدة سوى جمع الجزية وتأمين حياتهم (6). (ربما يوجد تشابهات بين ظاهرة استئجار جيش يتجاوز ستة ملايين أجنبي للقيام بالأعمال المتدنية وغيرها من الأعمال اللازمة لدوران عجلة الحياة في الدولة الحديثة التي يرى فيها السعوديون أعمالا كريهة).

لقد اعتنق الجنود الأتراك الإسلام وسيطروا على الخلافة العباسية من الداخل. وأقاموا دولتهم المملوكية في مصر فيما راحت القبائل التركية تقيم الإمبراطورية العثمانية. لم يكن أحد يتوقع أي شئ مشابه لذلك من الأمريكيين خلال سنوات التسعينيات (على الرغم من أن المواطنين الإماراتيين يبدون عصبية بالغة بشأن وضعهم كأقلية بين الأجانب الوافدين في الإمارات). وعندما غزا جيش صدام القومي العربي الكويت فإن أسرة آل سعود والتي ترى نفسها حامي حمى الإسلام اكتشفت عدم قدرتها على حماية نفسها. ووجد نحو نصف مليون جندي أمريكي تقريبا أنه يجب عليهم ألا يتجاوزوا ما وصفه الرئيس جورج بوش : بخط على الرمال داخل المملكة السعودية، الشريك الإستراتيجي الذي يزود الولايات المتحدة بالنفط. وأبقت الولايات المتحدة بعد الحرب، على قوة قوامها 20 ألف جندي ووجود رمزي مثل فرقة التسعين يوما لمتابعة دخول

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السفن الأمريكية موانئ جدة والدمام. كما كان هناك نحو 3 آلاف عسكري يقيمون في الظهران وحدها بالإضافة إلى 35 ألف مدني أمريكي في مختلف أنحاء المملكة. وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت واشنطن، حسبما أشار عدد من رموز المعارضة العربية، تتغاضى عن حقوق الإنسان في السعودية خلال تلك الفترة.

وفي يونيو 1996 هز تفجير انتحاري مجمعاً يقيم به أمريكيون من سلاح الجو ومجندون بالجيش الأمريكي في الخبر قرب الخليج العربي (*) ما أدى إلى مقتل نحو 19 أمريكياً. وفي نوفمبر أدى تفجير قنبلة إلى مقتل خمسة أمريكيين في الحرس الوطني السعودي. وعلى وقع حالة الارتباك، بشأن الحاجة إلى الوجود العسكري الأمريكي، تزايد التوتر بشكل ملحوظ بين السلطات السعودية والأمريكيين، الأمر الذي انعكس حسبما أشارت التقارير، في بعض التأخير في هبوط الطائرات الأمريكية، والجدل بشأن ترتيبات الوقود ومخزون السلاح(7).. وحسبما ذهب المعارض المصري عبد الحليم قنديل بعد انفجارات الخبر عام 1996 " لقد أفرزت حرب الخليج نتائج شبيهة بثورة ناصر على أية حال – لقد أدت إلى تعرية اعتماد النظام على قوة أجنبية، الأمر الذي بدا ملحوظا للجميع. وقد تسبب التواجد المكثف للأمريكيين في الشوارع في ردود فعل انطلقت من أسس دينية واجتماعية وسياسية"(8).. وكذلك حسبما يذهب المفكر المصري رفيق حبيب فإن التواجد الأمريكي بعد حرب الخليج أصبح كثيفا وأثار مشاعر معادية. إن الجيش الأمريكي يذكر العرب بشكل عام بالاحتلال والاستعمار، حيث يجب أن تتخذ الدولة قراراتها(9)..

ولا يعد الاعتماد على الأجانب من أجل مساندة ودعم المملكة شيئا جديدا فهناك سابقة في التاريخ القريب للكيان السياسي السعودي. فإزاء الشعور بقرب نضوب احتياطيات النفط الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى، طالبت واشنطن القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية السماح لها بإتباع سياسة الباب المفتوح فيما يتعلق بالنفط في المنطقة، وشاركت الاستثمارات النفطية الأمريكية في نفط العراق ثم حصلت بعد ذلك على امتياز في شبه الجزيرة العربية خلال الثلاثينيات. واستمر التأثير

* ترد في الأصل الإنجليزي الخليج الفارسي وهو التوصيف الذي تستعمله الكتابات الغربية رغم عروبة الخليج

www.ibtesama.com/vb Exclusive

البريطاني في الشؤون السياسية السعودية بشكل كان من الصعب تحديه حتى 1943 العام الذي أعلن الرئيس تيودور روزفلت خلاله رسميا أن السعودية تمثل مجالا حيويا للأمن الأمريكي، فاتحا الباب لمساعدة أمريكية للمملكة التي كانت تواجه في ذلك الوقت بعض المشاكل التي تواجه التحول إلى دولة معاصرة. وفي 1951 وقعت الولايات المتحدة اتفاقية دفاع محدودة مع السعودية. وعارض ناصر بشدة مساعي الولايات المتحدة فرض نفسها حامي المنطقة ضد التهديد السوفييتي المفتعل. وانطلق موقف ناصر من أنه ليس هناك تهديد بالشكل الذي تحاول الولايات المتحدة الترويج له، وأن المنطقة العربية قادرة على العمل دفاعا عن مصالحها بدون التدخل الأمريكي أو البريطاني أو الفرنسي.

وبعد أيام من اتفاق يالطا عام 1945 إثر ترسيم ونستون تشرشل وجوزيف ستالين خطوط أوروبا ما بعد الحرب، التقى الرئيس روزفلت الملك عبد العزيز على متن سفينة أمريكية في قناة السويس. وقد كان مبدأ أيزنهاور عام 1957 بمثابة إشارة إلى أن المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية ستكون ممكنة ومتاحة لأي دولة في الشرق الأوسط تطلبه وتواجه التهديد من قبل الشيوعية. وكانت صفقة الأسلحة التشيكية لمصر والمساعدة السوفيتية في بناء سد أسوان العالي أحد العوامل على الربط بين القومية العربية والشيوعية الدولية في الأذهان الأمريكية.

كما أن مساندة مصر للجمهوريين اليمنيين في مواجهة مساندة السعودية للملكيين هناك أكدت الشكوك الأمريكية بأن السعوديين وليس المصريين يمثلون نوع العرب الذين يريدونهم. وقد هرب ثلاثة طيارين سعوديين إلى القاهرة احتجاجا على الموقف السعودي ضد مصر في ذلك الوقت(10).، وفي الواقع فقد كان الاعتماد بشكل أساسي يقوم على الطيارين البريطانيين إلى حد أن السعوديين الذين مرروا مشاعر وأفكار القومية العربية كانوا يقودون طائرات بريطانية بيعت إلى الملكيين منتصف الستينيات(11).. وكما أصبحت مصر أكثر قربا من السوفييت، أصبح السعوديون أكثر قربا من الأمريكيين بعد حرب 1967، وكان من الواضح أن إسرائيل وإيران والسعودية ثلاثة حلفاء رئيسيين للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وقد حلت مصر محل إيران بعد 1979.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لقد غير اكتشاف النفط في السعودية الحياة في هذه الدولة الجديدة ، بما يفوق كل التوقعات، وبطريقة بالغة الجذرية ربما لم تشهدها شبه الجزيرة العربية من قبل. ويجد ذلك التحول تجسيده في خماسية "مدن الملح" للروائي السعودي عبد الرحمن منيف، حيث يتعجب رجال الوادي المفقود(*) قائلين: لماذا جاء هؤلاء الأجانب، الأمريكيون، إلى المنطقة، إنهم يزعمون أنهم يبحثون عن الماء. " ولكن ما عساهم يريدون؟ وأية أشياء في هذه الفلاة غير الجوع والرمل والعجاج؟ والأسئلة التي يسألونها خبيثة ملعونة، وتؤكد أنهم ليسوا مثل الذين جاءوا من قبل: هل جاء أجانب غيرنا ؟ هل سمعتم عن أجانب.. عن إنكليز وفرنسيين جاءوا إلى هنا؟ هل بقوا فترة طويلة ؟ .. وقد قالوا أنهم يريدون أن يتجولوا (**).. أن يذهبوا ويرجعوا .. وبعدها سيأتي غيرهم.. وقالوا انتظروا سوف يصبح كل واحد منكم غنيا"(12). لقد أخطأ البدو حتى في توصيف التمارين الرياضية الصباحية التي مارسها الأمريكيون واعتبروها شكلا غريبا من الصلوات. ومثل موران(***) فإن الرياض تحولت من مدينة صحراوية مغبرة إلى مدينة بالغة الاتساع بما تضمه من الكثير من الأجانب وترف الحياة الحديثة، والثقافة الأجنبية. ولصراحته، وتصويره بشكل سلبي دور الحكام السعوديون في تطوير البلاد بالتحالف مع أمريكا تم سحب الجنسية السعودية من منيف لأكثر من أربعة عقود إلى أن مات في المنفي بدمشق عام 2004.

وفيما يشير إلى هذا التطور أنه لم يكن لدى آل سعود مجلس للوزراء حتى عام 1953 وكذلك نحو 27 مدرسة فقط تديرها الدولة وعشرين مدرسة خاصة، وقد كان الجزء الأكبر من ميزانية الدولة مهما تكن ضآلتها يذهب إلى دعم الأسرة الحاكمة الواسعة من أجل تعزيز الحكم السعودي وتكامل أراضي المملكة المعرضة للانقسام. وقد تم ترك الأمر لأرامكو نفسها لبناء معظم البنية الأساسية للدولة، بما في ذلك الطرق

---

* هو وادي العيون في ملحمة منيف وهو حسب وصف الراوي في مستهل عمله بقعة خضراء وسط الصحراء القاسية العنيدة وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها

** هذه الكلمات إضافة غير موجودة في النص الإنجليزي وواردة في النص العربي رأينا وجوب إيرادها لصعوبة فهم المعنى في السياق العربي بدونها

*** إسم المدينة في مدن الملح لعبد الرحمن منيف التي ترمز للرياض وشهدت التطورات التي تعكس ما حدث على الواقع في المملكة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وخطوط الأنابيب والموانئ والمطارات والمدارس والمستشفيات وحتى السكك الحديدية. وقد أدار رؤساء الشركة العملية من مخيم أمريكي معزول , كان بمثابة جزء صغير من أمريكا في مدينة النفط الرئيسية "الظهران" على الشاطئ الشرقي، وكان الآلاف من السعوديين من مختلف أنحاء الدولة يحلمون بإيجاد عمل مربح مع الأجانب.

وكان تدفق الأمريكيين الأجانب يتم تبريره على الدوام من قبل الملك عبد العزيز نفسه من خلال الآية القرآنية الشهيرة " "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين"(13).. وإن تقاطع ذلك مع تطبيق المساواة بالنسبة إلى العرب الآخرين والأفكار المشاغبة التي يمررونها مثل الأيديولوجية القومية العربية والشيوعية –التي وصلت المملكة عبر معسكر آرامكو في المنطقة الشرقية والراديو.

وترد الإشارة إلى آرامكو كثيرا في قصة الروائي تركي الحمد "شرق الوادي" التي تروي قصة العلاقات السعودية الأمريكية. في هذا الامتحان للصدام الثقافي بين السعوديين والأمريكيين يجد جابر الشخصية المحورية عملا في آرامكو ويتعرف على أيديولوجية القومية العربية وكان قد أقام علاقة مع زوجة المدير الأمريكي قبل أن تحصل على وظيفة في أوستن بتكساس. ففي إطار علاقتهما راحت تقول له : "احلق لحيتك وأحلق عانتي"(**). فغضب من قولها وقال وقد جحظت عيناه وانتفخت عروق وجهه ومنع نفسه من لطمها في تلك اللحظة وهو يقول: هل تقارنين لحيتي بشعر عانتك؟ .. يا لك من عاهرة وضيعة. وغضبت إيثل من نعتها بالعاهرة فطردته من المنزل بغضب وهي تقول : "عامل حقير .. عربي قذر" (14). وفي إطار التكيف مع الحياة الأمريكية حلق لحيته وشاربه حسبما طلبت محبوبته، أن يفعل في السعودية.

وحسبما كتب حمد: " تأمرك بشكل كامل. فيما تمنت إيثل لو أنه حافظ على مظهره العربي.. فلقد أسفت على حلقه شاربيه وتمنت لو أنه أبقاهما فقد كانا يذكرانها بكلارك جيبيل وإيرول فلين ويتفوق عليهما بسمرته المغرية لم يكن يعلم ساعتها من هو كلارك جيبيل أو إيرول فلين وحرص على مشاهدة أفلامهما مما جعله يشعر بالبهجة من

** جاء الموقف في سياق لطلب جابر من إيثل حسب سياق الرواية في إطار علاقتهما.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تشبيه إيثل له بهما" وقد تم حظر رواية حمد في السعودية على غرار ما تم بالنسبة لرواية منيف "مدن الملح".

وقد خطت السعودية في ظل حكم الملك فيصل (1964- 1975) خطوات واسعة في فضاء السياسات الإقليمية، وقدمت أيديولوجية تتخذ من الإسلام أساسا وخيارا يعتمد عليه كبديل للقومية العربية الراديكالية التي مثلتها مصر في ذلك الوقت ، والتي استمرت تمثل تهديدا لحكم الملوك السعوديين أنفسهم. وتعرض الملك فيصل لمحاولة اغتيال كبرى لم يتم الكشف عنها عام 1969 ومع وفاة ناصر في عام 1970 تمكنت السعودية من أن تبرز باعتبارها لاعبا رئيسيا في المنطقة يتمتع بتأثير سياسي يوازي ثروتها النفطية واستطاعت أن تقدم أموالا طائلة لمنظمة التحرير الفلسطينية حديثة النشأة، كما قدمت دعما كبيرا لكافة القضايا الإسلامية الأخرى في أسيا وأفريقيا.

وانتهى الأمر بتحول السعودية ومصر إلى حليفين قريبين في ضوء إتباع مصر ذات السياسة السعودية لجهة الدوران في الفلك الأمريكي خلال السبعينات حيث أدى استبعاد السادات للمستشارين العسكريين السوفييت عام 1972 إلى دفع العلاقات بين الدولتين قدما. وفي الوقت ذاته ازدهرت الجماعات الإسلامية في كلا الدولتين، في الأولى – مصر– عبر التسامح من قبل الدولة وفي الثانية – السعودية - عبر التحالف مع الأسرة الحاكمة. ونالت السعودية إعجابا كبيرا بفعل استخدامها لسلاح النفط عام 1973 لمساندة الجانب العربي في الحرب المصرية السورية ضد إسرائيل وإن أضرت قليلا بالعلاقات القوية مع الولايات المتحدة. وكما كتبت مضاوي الرشيد لقد كان الجدل بشأن الصدام الذي حصل بشأن أزمة النفط والصراع العربي الإسرائيلي يخفي شراكة تم تطويرها من خلف الستار (15)..

وفيما قبل أزمة الخليج وخلال عامي 1990 – 1991 فكرت السعودية في اللجوء إلى المساعدة الأمريكية لحماية وضعها القلق والهش. وقد اشترت المملكة بضائع أمريكية بمليارات الدولارات شملت عقود تسلح وفرت المليارات التي استخدمت في مجالات أمنية للحكومة الأمريكية ، فضلا عن استثمارات أخرى وكذا بناء ثلاث مدن عسكرية قرب الحدود مع العراق والأردن واليمن. غير أنه ورغم علاقاتها القريبة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

والفريدة مع الولايات المتحدة ورغم ثروتها وموقفها في العالم الإسلامي ليس للسعودية تأثير يذكر على السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل.

الأزمة في المملكة بعد 11 سبتمبر

شهدت العلاقات الأمريكية السعودية أزمة حادة إثر وقوع هجمات 11 سبتمبر. لقد كانت في الواقع أسوأ أزمة في حياة المملكة ، المثيرة للدهشة والطويلة، في ضوء أنها تمتد إلى جانب أساسي وحيوي يتعلق ببقاء الدولة :علاقاتها النفطية المتوترة مع واشنطن. لقد تعجبت الولايات المتحدة من أن تتصرف واحدة من أفضل أصدقائها – وبدت جيدة إلى درجة أنها لم تبذل أى جهد للتأثير على السياسة الأمريكية تجاه النزاع العربي الإسرائيلي –بشكل بالغ العدائية ضدها. كان نحو 15 من الخاطفين مواطنين سعوديين، يعملون لصالح شبكة إسلامية معادية للأمريكان يرأسها سعودي آخر. ولكن الأسوأ كان في الاشتباه بأن الأموال كانت من مختلف المستويات المجتمعية السعودية التي وجدت طريقها إلى صناديق تنظيم القاعدة، ممولة خطتها لطرد الولايات المتحدة خارج الشرق الأوسط.

بالنسبة للدولة السعودية كان ذلك التطور ينذر بخطر احتمال تحقق السيناريو الكابوسي المتمثل في تدخل أمريكي في المنطقة الشرقية لتأمين حقول النفط – من خلال إزاحة الأسرة الحاكمة السعودية أو احتلال حقول النفط وهو السيناريو الذي تم التطرق له في واشنطن عندما حظر الملك فيصل النفط عام 1973. وطبقا لوجهة النظر هذه فإن الشيعة سيتم تحويلهم بليل من طابور خامس لإيران إلى طابور خامس للولايات المتحدة، وهو ما استتبعه تحركات استهدفت التخفيف من اضطهاد الشيعة لتفويت الفرصة على محاولة أمريكية لاستغلال قضيتهم باعتبارها قضية حقوق إنسان.

كان حدث 11 سبتمبر يؤرخ لعصر جديد من الاشتباه بالسعوديين في الغرب والولايات المتحدة بشكل خاص والتشكك في أي شخص يحمل جواز السفر السعودي. وكان ذلك في الوقت ذاته يشير إلى بداية الشعور المشترك بالهوية السعودية بين مختلف السكان للمرة الأولى في تاريخ المملكة الحديث(16).، حيث لم يبدأ نظام التعليم السعودي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يشجع الناس على الشعور بالفخر بالهوية السعودية، سوى مع بدايات السنوات الأولى للقرن الحادي والعشرين فيما كان يتم التعاطي مع قضايا من هذا النوع من قبل باعتبار أن الهوية تعكس الإسلام السني في دولة وهابية.

جاءت النتيجة المباشرة لهذه الأزمة بعد نحو عامين. فبعد نحو شهر من سقوط بغداد، وفي ليلة 12 مايو 2003 قام تسعة رجال قسموا أنفسهم إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة تضم ثلاثة منهم من خلال ثلاث عربات منفصلة بالدخول في ثلاث مجمعات سكنية للأجانب تسمى بأسماء مدن أندلسية هي قرطبة، أشبيلية، وغرناطة، وفجروا أنفسهم مما أدى إلى مصرع 26 شخصا ، يضمون خليطا من الأجانب والمواطنين السعوديين. وقد صدمت الهجمات السعوديين العاديين والسلطات. لقد كانت هناك هجمات من قبل راديكاليين إسلاميين في الدولة من قبل، وبشكل ملحوظ ضد القوات الأمريكية في الخبر عام 1996، ولكن لم يكن الأمر يتم على الإطلاق على هذا النطاق في العاصمة نفسها، أو حتى ضد مدنيين أو حتى بهذه الطريقة العشوائية التي تستهدف قتل سعوديين أيضا. بالنسبة للحكومة كانت الهجمات أكبر مؤشر على الحاجة إلى علاج مشكلة «الظلامية» التي تمثلها المؤسسة الوهابية الدينية، رغم توجيه بعض رموز الأسرة الحاكمة اللوم لحركة الإسلام السياسي المصرية على تثوير الوهابية خلال عقد السبعينات عندما قام عدد من رموز الإخوان المسلمين بالتدريس في السعودية. وكانت حملة القاعدة ضد العائلة الحاكمة في السعودية علامة على أزمة شرعية وهوية يواجهها البلد.

كما كشفت الهجمات في الوقت ذاته عن مخاطر ومزايا التحالف مع الولايات المتحدة، ذلك أنه إذا لم تستطع السعودية مواجهة تحدي القاعدة فإنها تواجه احتمال، التدخل الأمريكي. وإذا ما بدت الحكومة تحاربهم بقوة، فإنه بالمساعدة الأمريكية، يمكن لها أن تحصل على التأييد الأمريكي.

كان هذا هو ما حدث في الواقع فيما بعد، فشن الحرب على القاعدة أدى إلى تحسن ملحوظ في علاقات الرياض مع واشنطن، حيث لقيت مساعدة جراء الكارثة الأمريكية في العراق، الأمر الذي أدى إلى ارتفاعات كبيرة في أسعار النفط العالمية، كما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كشف عن خطورة العمل العسكري المباشر مع خريطة الشرق الأوسط. وقد أبدى وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز معارضته لتكرار هذا النموذج بالتدخل الأمريكي في شؤون بلاده، فيما بدا رد فعل فوري على اعتماد البلد المكثف على قوة خارجية – غير أن مزيجا من الضغط الأمريكي والصدمة من الحرب الداخلية ضد العائلة الحاكمة السعودية عملت على تغيير ذلك، فمع حلول 2005 راحت وسائل الإعلام الأمريكية تمتدح المسئول عن الأمن السعودي محمد بن نايف (ابن الأمير نايف) وحرب الاستخبارات السعودية على القاعدة بشكل عام باعتبارها واحدة من أفضل العمليات الدولية ضد الإرهاب(17)..

وبعد سبتمبر 2001 انفتحت السعودية على وسائل الإعلام الدولية، واتخذت خطوات تجريبية تجاه توسيع نطاق المشاركة السياسية في المملكة – كلا التحركين عززا صورة الدولة وعلاقاتها مع العالم الخارجي. وساعدا على إثناء أية أطراف خارجية عن أفكار تتعلق باتخاذ مواقف سلبية تجاه الدولة السعودية أو تقسيمها أو استبدال الأسرة الحاكمة هناك. وفيما أعلنت السلطات علنيا معارضتها للغزو الأمريكي، فإنها كانت بهدوء تسهل الحرب من القواعد الجوية التي كان يستخدمها الأمريكيون في المملكة خلال العقد الأخير.

وخلال العقد الماضي، هاجم متشددون سعوديون مثل منصور النقيدان أهدافا على نطاق صغير في حملة ضد ما وصفوه بالانهيار الأخلاقي. وكمثالي يبلغ من العمر 21 عاما، تملؤه التقوى البالغة والغضب كوهابي ورع فإن النقيدان شارك في هجوم بالقنابل على محل للفيديو في الرياض. وحسبما قال في معرض تفسير ذلك : "لقد كنا صغارا وكنا بالغي الغضب. وقد كان العلماء البارزون يساندوننا. ولذلك فإنه بعد قضاء سنة جزءاً من حكم بالسجن لمدة 16 عاما فإننا اعتذرنا للملك فهد(18).. إن الموقف بالغ الجدية والخطورة اليوم والاختلاف الكبير يتمثل في أن الغضب الديني يوجه ضد الدولة نفسها والأجانب. ومن السهل لشباب صغار أن ينخرطوا في مجموعات متشددة تؤمن أن الدولة تابعة لأمريكا. إنهم يعتقدون أننا يجب أن نتخلص من هذا النظام الحاكم من أجل ضرب الأمريكان".

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ورغم أن هذه الأفكار كان معتادا عليها في العالم العربي ، حيث ظهرت في مصر خلال الستينات، فإنها كانت جديدة في العربية السعودية حيث حالت التعاليم الإسلامية المتشددة في المنزل والتمويل السخي للقضايا الإسلامية الخارجية دون انقلاب الشباب الراديكالي على أسرة آل سعود. وقد ذهب المعارض السعودي المعارض محمد المسعري الذي يقيم في لندن إلى أن " الشباب السعودي الراديكالي ركزوا في النهاية على دولتهم، على الرغم من التطبيق الكاسح في الداخل للشريعة الإسلامية بشكل لا يوجد في أي من مناطق العالم الأخرى، نظرا إلى أن النظام على خلفية تحالفه مع واشنطن لا يمارس ما يدعو إليه على مستوى السياسة الخارجية. إن السبب الأساسي هو أنه لا يوجد عمل متشدد في السعودية خلال السنوات العشر الأخيرة ينطلق من أساس أيديولوجي، ويمثل القيام بقتل مسلم، تجاوزا لهذه القاعدة(19).

في فبراير 2006 أطلقت القاعدة أولى هجماتها المباشرة على محطة نفط رئيسية هائلة في بقيق بالمنطقة الشرقية تنتج ثلثي صادرات السعودية من النفط يوميا. بعد ذلك، أصدرت بيانا يستخدم اسم القاعدة وتم الإعلان فيه : لقد اتخذنا قرارنا بالقضاء على القوات الصليبية والطغاة، وأن نوقف سرقة ثروة المسلمين والتي سمح بها الطغاة لأسيادهم من الصليبيين وسهلوا لهم مهمتهم بهذا الخصوص"(20). وقد أشاروا إلى أنهم تحركوا بناء على اتصال من بن لادن من خلال رسالة مسجلة قبل نحو شهور من مهاجمة المصالح النفطية في المملكة.

لقد نبعت فكرة قتال الأسرة الحاكمة في السعودية من حرب الخليج الأولى، وهو ما تشير إليه الرواية التي تحولت إلى أسطورة والتي تذكر أن بن لادن عرض الدفاع عن حقول النفط في المملكة ضد غزو عراقي محتمل بعد أن قامت قوات صدام حسين بالاستيلاء على الكويت في 1990(21).. ولكن أفراد الأسرة الحاكمة رفضوا العرض وقدموا وعدا كاذبا بأن القوات الأمريكية لن تبقى بعض انتهاء الحرب. وقد عزز هذا الموقف فقدان بن لادن الأمل في تغيير نهج النظام حيث أكد له أن السعودية ربطت نفسها تماما بالتحالف مع الغرب على حساب قضايا العرب والمسلمين.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

واتهم البيان الذي أعلنه مع أيمن الظواهري بشأن الجبهة الإسلامية العالمية من أجل الجهاد ضد اليهود والصليبيين في فبراير عام 1998 الولايات المتحدة بالبحث عن وسيلة لتدمير العراق والدول المتصدعة في المنطقة على شاكلة العراق، والسعودية ومصر والسودان وتحويلهم إلى دويلات ورقية بالغة الصغر ، وأنه عبر تفكيك هذه الدول وضعفها يتم ضمان بقاء إسرائيل واستمرار الاحتلال الوحشي الصليبي لشبه الجزيرة العربية(22).

لقد كانت فكرة أن "السعودية هي المقبلة" تحظى بالإنتشار في وسائل الإعلام العربية مع بدء غزو العراق في 2003. فقد أعلن بعض الدعاة بشكل واضح على تليفزيون سعودي أن السعودية هي الهدف الحقيقي من الحرب على العراق، كما أن كتاب الأعمدة ومقالات الرأي في الصحف القريبين من الدولة ذهبوا إلى أن المخاوف مبالغ فيها، مع حرصهم في الوقت نفسه على تجنب ذكر المملكة بالاسم. وقد أشارت صحيفة الوطن السعودية اليومية في إحدى افتتاحياتها إلي مخاوف من أن هذه الحرب لن تنتهي في العراق وأنها سوف تتضمن أقطارا أخرى في المنطقة طبقا لإستراتيجية أمريكية يرى هؤلاء الناس أنها تستهدف إعادة رسم خريطة المنطقة. نحن لا نعتقد أن هذا التحليل صحيح في ضوء أن إعادة رسم خريطة المنطقة لا يمكن أن يتم عبر الإجراءات العسكرية فقط (23).

كما انتشرت تقارير مختلفة في وسائل الإعلام العربية بأن جانبا من النقاش بهذا الخصوص كان يجري داخل الدوائر الأمريكية الضيقة قبل حرب العراق عام 2003. وذكرت تقارير لمراكز أبحاث أن الهدف الحقيقي في الحرب على الإرهاب هو السعودية ومصر وأن الحكومة الأمريكية على ما يبدو سربت هذا التفكير لبعض مستشاريها السياسيين متعمدة. وأشارت مؤسسة راند في تقرير للبنتاجون خلال عرض يتعلق بهذا الجانب إلى أن : " العراق هو الهدف التكتيكي، وأن السعودية هي الهدف الاستراتيجي، وأن مصر هي الجائزة"(24).. وكانت ندوة على الإنترنت جرت قبل ذلك بشهور قدمت محللين موالين لإسرائيل وأكاديميين مثل دانييل بايبس ولورنت موريس (محلل سابق في راند) ودانييل برومبيرج من جامعة جورجتاون، أثاروا خلالها جوانب مشابهة(25).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ووفق ما ذهبت إليه راغدة درغام مديرة مكتب جريدة الحياة في نيويورك في ذلك الوقت فإن القاعدة تتمنى أن ترى النظام الحاكم في المملكة قد تداعى، حتى لو أن هذا الأمر كان يعني الانهيار الكامل للمملكة وتنصيب نظام إسلامي راديكالي على جزء من الأرض. إن الفوضى هي سلاح القاعدة (26). إن زمرة من المتطرفين الأمريكيين والإسرائيليين يعملون أيضا على مثل هذا الانهيار، وتفكيك السعودية. وتعد السيطرة على حقول النفط الغنية في المنطقة أحد أهدافهم. ومن بين الأهداف الأخرى تقسيم المنطقة العربية بشكل عام من أجل القضاء على أي تهديد أو تحدي يواجه إسرائيل. إن القاعدة وهذه الزمرة المتطرفة الأمريكية الإسرائيلية توافق على قطع العلاقات السعودية الأمريكية حتى لو أن ذلك جاء على أرضية أسباب مختلفة".

أمريكا وحركة الإصلاح السعودية

لم تحصل حركة الإصلاح السعودية من الأمريكيين على شيء يماثل ذلك الذي حصلت عليه نظيرتها في مصر بعد غزو العراق عام 2003. كان هناك جهل تام وعلى نطاق كبير بجماعات المعارضة، على وتيرة ما كان بخصوص مصر، على مدار عقد التسعينيات. وقد أثارت أزمة الخليج الأولى، مثل الثانية، انشقاقا سلميا في المملكة. فالدعاة ذوو التأثير في المملكة، مثلما الحال في مصر، تحدوا شرعية التحالف مع الولايات المتحدة ضد العراق، على الرغم من أن علماء الدين الموالين للدولة ذهبوا إلى أن خيارات حكومتهم مبررة. وعلى خلاف مساندة الحرب من قبل أكبر سلطة شرعية دينية في المملكة ممثلة في مفتى السعودية – الراحل – الشيخ عبد العزيز بن باز، أكد العلماء الوهابيون المستقلون والمتشددون أن العدو الحقيقي هو الغرب، والذي أصبحت المملكة تعتمد عليه بشكل كبير، وليس العراق.

وفي جهد لتخفيف التوتر، أقام الملك فهد هيئة استشارية ممثلة في مجلس الشورى عام 1992 من أجل تقديم المشورة بشأن القوانين المقترحة غير أن الكثير من المواطنين جرى القبض عليهم، بما في ذلك علماء معروفون مثل سفر الحوالي، وسلمان العودة بسبب انتقاداتهم المباشرة للنظام السياسي السعودي الذي نعتوه بالفاسد والمتحالف مع

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الولايات المتحدة. وقد تم إطلاق سراح معظم من جرى اعتقالهم بعد عدة أعوام. بعد وعد بالكف عن مهاجمة الأسرة الحاكمة ذاتها، رغم أن أحد هؤلاء وهو سعيد بن زعير، بقي معتقلا حتى 2003 وألقي القبض عليه فيما بعد ذلك بعام بسبب تعليق له على قناة الجزيرة قدم خلاله تقييما إيجابيا لابن لادن. (ما جعل زعير بمثابة رمز للحركة الإسلامية الجديدة التي بدأت تقاتل الدولة بعد حرب العراق عام 2003، وشخصية مثار نقاش وجدل على مواقع الإنترنت الإسلامية).

وبعد حرب 2003، تحالف الليبراليون الديمقراطيون مع بعض الإسلاميين المعتدلين ما أدى إلى ظهور دعوات بإصلاح ديمقراطي، غير أن الانقسامات الحادة برزت بين المجموعة الليبرالية – الإسلامية والدعاة من أصحاب دعوات الإصلاح. وكان من بين قضايا الخلاف الأساسية طبيعة الدور الأخلاقي الذي تقوم به الشرطة السعودية" هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" الاسم الرسمي والمعروفة في العامية العربية بلفظ "المطاوعة" والتي تتجول في الشوارع والمراكز التجارية من أجل التأكد من ارتداء المرأة العبايات والحجاب الشرعي، وأن الرجال المرافقين للنساء يمتون لهم بصلة قرابة ومن إغلاق المحلات خلال أوقات الصلاة، كما يتمتعون كذلك بسلطات واسعة لجهة التحري عن استعمال الخمور والمخدرات ولهم حق اعتقال الأفراد. وفيما يرى الدعاة الإصلاحيون أن تكون المؤسسة الدينية حرة في الحديث عما تراه صحيحا، يرى الليبراليون الديمقراطيون أن يتم تقييد سلطات الهيئة.

لقد كان موقف الولايات المتحدة من الموجة الثانية من الاحتجاج والانشقاق في السعودية فاترا في أفضل الأحوال، فبعد أعوام من التعامل الهادئ بشأن انتهاكات حقوق الإنسان في تقاريرها السنوية، بدأت الخارجية الأمريكية تولي انتباها أكبر للموضوع في السعودية بعد 11 سبتمبر. ومع الأخذ في الاعتبار الأسباب التي جمعت الطرفين معاً في تحالف خلال المرحلة الأولى من علاقتهما – عائدات النفط –كان الأمر مسألة وقت فقط قبل أن تعود الأشياء إلى طبيعتها. ولكي تواجه الضغوط مرة ثانية، نظمت السعودية انتخابات بلدية في أواخر 2004 وأوائل 2005، ولكن منعت المرأة من التصويت، ولم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يتم التصويت سوى على نصف المقاعد فقط، كما أن الإسلاميين المنظمين جديا والأحرار في العمل، حظوا بالسيطرة على معظم المجالس.

كما قدمت مجموعة من العرائض لولي العهد السعودي الأمير عبد الله – الملك منذ أغسطس 2005- من قبل أكاديميين وكتاب تطالب بانتخابات برلمانية وحقوق المرأة ووضع حد للتمييز ضد الأقليات مثل الشيعة والحكم الجيد والتوزيع العادل للموارد بين أنحاء القطر الشاسع.

وقد تم القبض على ثلاثة من مقدمي العرائض ، وحكم عليهم بالسجن لمدد تتراوح بين ست إلى تسع سنوات في مايو عام 2005 بتهمة استثارة الناس في وقت حرج من تاريخ البلاد حيث أعداءها يكمنون لها ويبحثون عن مبررات للتدخل باسم الإصلاح في إشارة إلى الولايات المتحدة(27). وقد ألقي القبض عليهم في مارس 2004 بعد كتابة العرائض ونشرها على العامة. وانتقد عدد من القضاة إحدى هذه العرائض نظرا لتوجيهها اللوم لحملة القاعدة في السعودية على أساس أنها تنطلق من المدرسة الوهابية الإسلامية.

وقد تطرقت واشنطن علنا للمحاكمة وفي ذلك قالت كوندوليزا رايس في مصر وقبل زيارة لها إلى الرياض في يونيو 2004 أنه يوجد في السعودية مواطنون يتسمون بالشجاعة يطالبون بالمساءلة الحكومية. كما أن ثلاثة أفراد بشكل خاص يجري احتجازهم في الوقت الراهن بسبب عرائض قدموها للحكومة ، الأمر الذي يجب ألا يكون جريمة في أي دولة (28). غير أنها لم تتعرض لهذا الأمر من داخل السعودية ولا يوجد ما يشير إلى أنها تطرقت إليه مع قادة المملكة خلال لقاءاتها الخاصة معهم. وفي ذلك كتب ليبرالي سعودي مشيراً إلى إن مركزية قضايا سعر النفط أوجدت منطقا بسيطا يتمثل في احتلال النفط مركزا محوريا في الأجندة السعودية الأمريكية وهو ما ألقي بتأثيره على صعيد تراجع الديمقراطية، والحرية الدينية، واحترام حقوق الإنسان إلى المستوى الذي تصبح معه دوما بمثابة هوامش (29). وقد اعتذر مقدمو العرائض بعد تولي الملك عبد الله العرش في أغسطس 2005.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وخشية تقدم الليبراليين، شن الدعاة الإصلاحيون حملة مضادة بمساندة وزارة الداخلية، وعلى ذلك تم إيقاف برنامج حسين شبكشي التليفزيوني الذي كان يتم بثه على قناة "العربية" التي تملكها السعودية. كما تم سحب مقالاته الأسبوعية في الصحف العربية والإنجليزية التي تصدر في السعودية، ونشر الإسلاميون شائعات بأنه زعم لوسيلة إعلام أجنبية أن الأمير عبد الله ساند رؤاه الإصلاحية. لقد كان واحدا من حوالي مائة كاتب منعت مقالاتهم بعد الحرب طبقا لمعارضين مؤيدين للديمقراطية يقيمون في واشنطن. وحسبما يقول شبكشي نفسه إنهم يلوثون سمعتك، ويشهرون بك، وهذا جهد منتظم ومنظم. إنه ليس عشوائياً فهم يستخدمون الإنترنت والهواتف الخلوية، وأوراق الإعلانات تسلم باليد خارج المساجد. يوجد عدد كبير من الدعاة طالبوا بحظر ما يكتبه كتاب ليبراليون وهم يضغطون من أجل ذلك. هؤلاء الدعاة مروعون. ولمدة طويلة كان لهم امتيازات حصرية ولكن صدموا الآن من أن القنوات الفضائية، والصحافة والإنترنت تعمل على تقديم آراء أخرى (30).

وعندما دعا المعارض السعودي سعد الفقيه المقيم في لندن لمظاهرات في ديسمبر 2004، ملأت الشرطة السعودية شوارع الرياض وجدة للحيلولة دون أي معارضة معلنة، وقد تم القبض على 15 شخصاً حاولوا التظاهر وصدرت بحقهم أحكام بالسجن تتراوح بين شهرين إلى ست شهور وما يتراوح بين 100 إلى 250 جلدة. (يذكر أن الهلع السعودي بشأن التجمعات العامة الكبيرة والاحتجاج يذكر مرة أخرى بالخلافة العباسية الكبرى المضطربة أيضا) (31). لقد ربطت السعودية بشكل متصلب بين الفقيه وحملة القاعدة وفي ديسمبر 2004. وبعد نحو أسبوع من الاحتجاجات تم وضعه على قوائم الأمم المتحدة كأحد أعضاء القاعدة الذين يجب تجميد أرصدتهم من قبل الدول الأعضاء في المنظمة الدولية، بتوصية من السعودية والولايات المتحدة وبريطانيا.

وقد اتهمته وزارة الخزانة الأمريكية بعد ذلك بالانتماء إلى القاعدة منذ منتصف التسعينيات، وكذلك بإقامة علاقة مع شخص متهم بتفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998. ورغم أن الفقيه لم ينكر معرفته بالشخص المذكور – خالد فواز – إلا أنه أشار إلى أن معرفته به جاءت نتيجة قيام هذا الشخص بزيارة جماعته الحقوقية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

"الحركة الإسلامية للإصلاح" في المملكة، والتي تتخذ من لندن مقرا لها وأنه ينحدر من نفس قبيلته(32).

وقد أدت سطوة الملك عبد الله في النهاية إلى إيجاد حقل سياسي جديد، حيث تبدو السعودية الآن وكأنها تمثل ظاهرة فريدة تتمثل في وجود نخبة حاكمة ليبرالية ومجتمع محافظ على مستوى القاعدة الواسعة وتحول الموقف الآن بشكل تخشى معه المؤسسة الوهابية ، بما في ذلك العلماء الذين تساندهم الدولة، والدعاة الإصلاحيون المستقلون من استحواذ الليبراليين على آذان الملك، حيث يعتقد أن مستشاريه الأساسيين ليبراليون، كما يتم النظر للحكومة باعتبارها تتآمر تدريجيا لعلمنة الدولة والحد من سلطة الدعاة من الوهابيين – أو تشجيع جيل جديد من الشباب من الدعاة المعتدلين الوهابيين، دون استثارة معارضة الوهابيين الحلفاء. وقد وضع جهاز التليفزيون الحكومي في أيدي وزير الإعلام الليبرالي إياد مدني. كما أن قناة العربية التي تملكها السعودية وتعمل على تعزيز الاعتدال سواء في العلاقات مع الغرب وفي الدين، يجري السخرية منها من قبل أنصار القاعدة أو الموالين للقاعدة بوصفها بـ "العبرية".

الاتجاهات الشعبية السعودية تجاه أمريكا

لقد ساءت الاتجاهات الشعبية في السعودية تجاه الولايات المتحدة بشكل كبير بعد أحداث 11 سبتمبر، في توافق مع اتجاهات النبرة الشعبية العربية والمسلمة تجاه الولايات المتحدة في دول المنطقة. وكان المجتمع، يسوده حالة من الاشتباه، بشكل كبير، مشوبة بالامتعاض بشأن الصداقة الرسمية معهم . وعارض السعوديون العاديون حرب العراق، كما هو حال العرب على مدار المنطقة. كما نشرت الصحف السعودية صورا لمدنيين عراقيين ملطخين بالدم جراء القصف الأمريكي خلال الحرب. وعندما تم قصف سوق بغداد في 28 مارس 2003 صدرت صحيفة الرياض اليومية صفحتها الأولى بعنوان مذبحة أخرى من قبل قوات تحالف الغزاة. إن السعوديين وبشكل خاص أولئك الذين لديهم مصالح وأعمال في الولايات المتحدة وكذلك الذين أرسلوا أبناءهم إلى هناك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يشعرون بالعداء تجاههم في الولايات المتحدة من كل ركن في المجتمع باستثناء البيت الأبيض.

كما ان الثلث من معتقلي القاعدة في خليج جوانتامو كانوا سعوديين . فضلا عن أن ضحايا أحداث سبتمبر رفعوا دعوى يطالبون فيها بـ 100 تريليون دولار عام 2002 ضد بنوك سعودية، وجمعيات ومؤسسات خيرية إسلامية وأعضاء بارزين في الأسرة الحاكمة السعودية، الأمر الذي انعكس في حركة هجرة لرؤوس الأموال في ضوء قيام السعوديين بسحب ما يقدر بنحو 500 إلى 700 مليون دولار إستثمارات عبر البحار. تتمركز في الولايات المتحدة، بتشجيع من الحكومة السعودية لاستثمارها في سوق الأسهم السعودية التي صعدت اعتبارا من 2002 (33).

وفي يونيو 2004 اختطف متمردوا القاعدة مواطنا أمريكيا يعيش في الرياض وقتلوه وساقوا عمله كمقاول بشركة لوكهيد مارتن لشؤون الدفاع والتي تقوم على تصنيع طائرات الأباتشي المقاتلة مبررا لذلك، وحسبما ذكرت المجموعة فإن هذه الأعمال تشفي غليل قلوب المؤمنين في فلسطين وأفغانستان والعراق وشبه الجزيرة العربية. إن هذا من أجل جعله يذوق المعاناة التي يواجهها المسلمون جراء استخدام طائرات الأباتشي وصواريخها. إن الأمريكي القتيل المتطفل كان يعمل في صيانة وتطوير أنظمة الطائرات في السعودية (34). وقد أطلقت المجموعة على نفسها "فرقة الفلوجة" للقاعدة في شبه الجزيرة العربية في إشارة إلى المدينة العراقية والتي كانت في طليعة وصدارة التمرد السني المسلم ضد الاحتلال الأمريكي في العراق.

ومع ذلك ما زالت السعودية تقدم صورة مربكة بشأن الحب والكراهية لأمريكا. فحتى السبعينيات كان معظم السعوديين يشعرون بالتقدير والاحترام العميق للولايات المتحدة على مساعدتهم على تحويل أرضهم الصحراوية الشاسعة والمتنوعة إلى دولة حديثة من خلال تنميتهم لحقول النفط. وكما أصبحت الدولة أكثر ثراء على مستوى الثروة وأكثر وعيا على المستوى السياسي، فقد أصبحت أكثر قدرة على التمييز وبدأت الاتجاهات تتغير. ومنذ السبعينات، أصبحت المؤسسة الدينية أكثر قوة ولم يعد الخطاب العام للإسلام السياسي منذ ذلك الوقت أقل معاداة للأمركة في السعودية عما هو عليه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الوضع في أي مكان آخر في العالم العربي. وقد شجعت الحكومة بشكل جزئي هذا الأمر بعد استيلاء متعصبين وهابيين على المسجد الحرام عام 1979.

ولاحظ المحللون أن السعوديين من الجيل الذي سبق عقد الثمانينيات كان أكثر تقبلا للأمريكيين أكثر من الجيل الذي تبعه، عندما عززت المناهج المطورة كراهية الأجانب ومشاعر العداء للغرب.

وتوجد علامات أو مظاهر التأثير الثقافي الأمريكي في كل مكان. فـ "أمريكانا" تهيمن حتى في مدينة مكة المقدسة، حيث سلاسل الوجبات السريعة، والمراكز التجارية والتنمية العقارية الأخرى تعكس طبيعة الحياة اليوم. ووفق ما ذكر المعماري سامي أنجاوي إن مكة والمدينة تمثلان المدينتين الأكثر ضجيجا في العالم بكل المعاني. فهما مدينتان فقدتا توازنهما، حيث تقام مبان جديدة وناطحات السحاب في مكة سوف تصبح مثل نظيرتها في نيويورك (35). كما أنه يوجد في مكة فندق فريد يسمى برج زمزم – ذو ارتفاع شاهق في مواجهة المسجد الحرام وتبث قناة العربية إعلانات كثيفة بشأنه حيث يوفر رؤية متميزة للكعبة قبلة المسلمين خلال الصلاة. باختصار إن تاريخ إقلاع التنمية في السعودية يعني بالنسبة للسعوديين أن الحداثة هي أمريكا وأمريكا هي الحداثة.

وقد ذكر كثيرون بأنه من المعروف أن أغنياء السعودية ، بما في ذلك أفراد من العائلة المالكة كانوا يقدمون أموال الصدقات والزكاة لابن لادن قبل 11 سبتمبر، الأمر الذي يأتي في أحد جوانبه لإراحة ضمائرهم وتكفيرا عن عيشهم وفق نمط الحياة الأمريكي، والتعليم الأمريكي لأطفالهم، والشراكة في مجال الأعمال مع الأمريكيين، والحماية الأمريكية للحكومة وهكذا. والآن فإن الكثير من السعوديين يفضلون الذهاب إلى لبنان أو حتى القاهرة، أو دمشق أو ماليزيا، بنفس القدر أكثر من الذهاب إلى الولايات المتحدة، حيث قصص الاضطراب بشأن ما يدور هناك تحتشد في العالم العربي. ويعد النمط الاستهلاكي الأمريكي هو أفضل ما يقضي فيه السعوديون وقتهم، الأمر الذي يأتي في الأهمية بعد شعائرهم الدينية التي تحتل المرتبة الأولى.

ويتعجب الكثير من السعوديين بشأن ما حدث لهم مع التحديث المفاجئ والأمركة خلال العقود الأخيرة، ويقدمون قصصا بشأن كيف أن آباءهم وأجدادهم يتذكرون كيف

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أن حياتهم كانت أكثر سهولة وأكثر صحية وأكثر أخلاقية فيما قبل. لقد وصل الأمر بهم إلى الشعور بالحسد تجاه أولئك الناس الذين يعيشون في المناطق الجبلية الفقيرة والبعيدة. وفي ذلك يقول سائق شاب يدعى فهد من الصحراء قرب شمال الرياض بشأن عادات الناس في الأكل أن له خمسة أخوة وأخوات. ويضيف وفي كل أسبوع نقرر أن نطلب شيئا من الخارج. إن "كودو" هو المفضل بالنسبة لي، فأنا يجب أن أكل يوميا في "كودو" ولكن في جازان وأبها يتمتع الناس هناك بصحة أفضل وهم يأكلون العسل والزبادي والبلح. بينما الناس هنا لا يأكلون من الطعام سوى الوجبات الجاهزة السريعة حتى في المنزل. إن كثيرا من الناس يقولون أن الأمور لم تعد كما كانت(36).

وتعد الرياض مدينة من مراكز التسوق مصنوعة من الأسمنت والزجاج بشكل يبعث على الرتابة، أما جدة فيوجد بها منطقة قديمة هي منطقة الإقامة الحقيقية حيث توجد المباني بين الأزقة الضيقة التي تتلوى يمينا وشمالا وغربا وشرقا بشكل تجذب معه رياح البحر. وفي إطار كل زقاق تم تشييد المنازل على شكل زوايا من أجل توفير ظلال تقلل بقدر كبير تأثيرات حرارة الصيف والشمس. كما أن الشبابيك الصندوقية مع أعمال خشبية معقدة تسمى منغور (المشربية في مصر) تسمح بشمس كافية لكي تضئ المنازل من الداخل بدون حرارة زائدة وتسمح للمرأة بأن ترى الشارع بدون أن يتم رؤيتها هي ذاتها. وقد تم إقامة أو تشييد المباني بأحجار من كتل كبيرة من أجل التبريد الطبيعي. إنه عالم متكامل تم إقامته على أعلى المستويات من حضارة عصور ما قبل الصناعة.

وخلال عدة عقود كان هذا العالم على موعد مع الحداثة. ومع ارتفاع سكانها وما يمثل جيش من ستة ملايين من الوافدين العاملين هناك، تحتاج السعودية وحدات سكنية حديثة وفيلات بالغة التأنق مزودة بأحدث تكنولوجيا التكييف، ولم يعد أحد يهتم بناء على ذلك بالاتجاه الذي يولي المبنى نفسه تجاهه، أو المواد المستخدمة في بناء أو حتى نمط وشكل الشبابيك. وحسبما يقول سامي أنجاوي: "نحن نأكل من الفريزر، نحن نعيش في الفريزر، ونكتب في الفريزر، ونركب في الفريزر"(37).

بالنسبة للعقل السعودي هذه هي أمريكا، النمط الأمريكي والفعل الأمريكي. وقد أعرب أحد الكتاب على موقع إسلامي إلكتروني عن ذلك في يونيو 2005 وراح ينعي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

شأن حكام بلاده في يوليو 2005 قائلا هل وضعوا حدا للرؤى الغربية بشأننا كشعب استهلاكي يبيع لهم النفط الذي لم يتعب في الحصول عليه أو إنتاجه من أجل أن يشتري أشياء أنتجت من قبل الغرب والشرق الأقصى. هل حسنوا بحق تعليمنا بشكل نستثمر ما نحن فيه من أجل أن نكون الأفضل وليس فقط الأغنى؟ هل أقاموا جيشا قويا يستطيع أن يحمي البلد ويدافع عن حدودها؟ ما استطاعوا القيام به بعد كل ذلك لا يعدو أن يكون دعاية خالصة، فالدولة لم تحقق أي شئ يمكن أن تفخر به (38). هذا التقييم القاسي قدم من قبل مستخدم أطلق على نفسه شخص سعودي يمكن بشكل مماثل أن يأتي من قبل ليبرالي أو إسلامي.

إن السعودية هي الهدف الرئيس للمشاهدة لقنوات التلفزة العربية التي تقدم الترفيه الأمريكي، والكثير منها مثل "ام بى سى" ، و"أوربت" و "أيه أر تي" و"روتانا" يملكها أشخاص من الأسرة الحاكمة السعودية ورجال أعمال سعوديون مقربون من النظام الملكي الحاكم. ولم يتوقف العلماء الوهابيون عن التحذير من هذه التطورات لجهة تأثيرها على العادات. وقد أدانوا الفائز السعودي ببرنامج ستار أكاديمي النسخة العربية من برنامج pop idol وكل من شاهدوه أو صوتوا له عام 2005. وأصدر نحو 63 داعية بيانا يصف البرنامج بأنه مجموعة من الشباب والفتيات في وضع مخز يقومون بإيحاءات جنسية معاً ويعرضون أنفسهم ويغنون ويرقصون. وذهب البيان إلى القول بأن أجساد النساء يتم المتاجرة بها عبر الرقص والإثارة الجنسية، والكشف عن الأجساد واستغلال المراهقين من أجل كسب ثروة من المال على حساب الشباب والفتيات الصغيرات، وهو ما يعد ضد الشريعة الإسلامية (39).

ولكن الشاب هشام عبد الرحمن والذي كان سنه 24 عاما في ذلك الوقت استقبل استقبال الأبطال لدى عودته إلى السعودية في أبريل 2005. وقد نشرت الصحف عن أن المعجبين به في المراكز التجارية كانوا يسعون للمس يديه أو تقبيله، داعية الشرطة الدينية إلى وضعه في طائرة إلى "سدوم وعمورية" جدة. وخلال البرنامج المذكور شاركت مجموعة من صغار الموسيقيين من مختلف أنحاء العالم العربي في منزل وتم تصويرهم على مدار 24 ساعة كيوم في إطار تنافسهم على تسجيل العقد. وكان يتم بث

www.ibtesama.com/vb Exclusive

البرنامج الذي يحظى بنسبة كبيرة من المشاهدة في المنطقة بالتعاون بين الإل بي سي وروتانا.

وطبقا للأديبة السعودية الشابة رجاء الصانع، تتسم السعودية بحالة من الإزدواجية .. فالمجتمع يعيش مجموعة من الأمراض النفسية والنزاع بين التقاليد والحداثة هو السبب في ذلك حسبما تقول(40). ومن الإزدواجية الشبيهة بذلك تلك التي يمكن لمسها على مستوى السياسة الخارجية، فالسعودية تعد مصدر نحو 15 من بين الـ 19 شخص الذين نفذوا الهجوم على نيويورك وواشنطن في 11 سبتمبر 2001 إذا لم نذكر معلمهم أسامة بن لادن. ومع ذلك فإن لديها تحالفاً وثيقاً مع الولايات المتحدة منذ الأربعينيات من القرن الماضي، ولم تفعل فيما بعد شيئا من أجل تحدي السياسة الخارجية الأمريكية والتي أصبح ينظر إليها بشكل موحد عبر العالم العربي منذ 1967 على أنها ضد المصالح العربية والإسلامية. وخلال اللغط الذي ساد بشأن الرسوم الكارتونية الدانماركية المسيئة للنبي محمد في أوائل 2005، هاجم المدونون السعوديون الحكومة السعودية بشدة متسائلين عن دوافعها بشأن إذكاء نار الأزمة من خلال سحب سفيرها من الدانمارك.

وحسبما كتب شخص أطلق على نفسه جو قائلاً:" إنني لا أتذكر مثل رد الفعل هذا عندما تم غزو أفغانستان والعراق، والأكثر أهمية من ذلك فإنني لم أر أي شئ تم فعله من أجل القضية الفلسطينية باستثناء المساندة المالية (41). فيما كتب آخر أطلق على نفسه "صوت العناد" أنه من الغريب أننا الآن عرفنا كيف نصبح أكثر غضبا بشأن قضية الرسوم أكثر مما فعلنا بشأن الفقر الاحتلال، الإرهاب، والإرهاب والقمع(42).

الرؤى العربية للعلاقات السعودية الأمريكية

" إن الشعب الفلسطيني أدرى بشعابه" عبارة مشهورة قالها ذات مرة الملك المقاتل عبد العزيز مستعيرا من خلالها مفردات آية قرآنية (*). وقد وسمت هذه العبارة على مدى طويل الرؤى العربية بشأن الالتزام تجاه القضية الفلسطينية(43). إن ابن

* ليست آية ، بل هي مقولة مشهورة " أهل مكة أدرى بشعابها " .

www.ibtesama.com/vb Exclusive

سعود لم يكن يريد أية مشاكل بشأن تحدي النظام المفروض من قبل الغرب على مستوى المنطقة.

وبشكل مشابه كانت المملكة سعيدة بمساندة منظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطيني ولصراع قومي في ضوء أن ذلك يبقي المشكلة الفلسطينية بمنأى عنها.. المشكلة التي يمكن التعامل معها عبر المنح النقدية السخية مقابل القليل من النشاط على المستوى السياسي. كما أنها أيضا حيدت دور مصر الناصرية باعتبارها مدافعا عن القضية الفلسطينية، وقد صاغت السعودية كل تلك المواقف وفق ظروف التوتر مع الغرب والضغط الواقع عليها من الشارع. لقد كان ينظر إلى آل سعود بين منتقديهم العرب باعتبار أنهم يستخدمون عنصرين من أجل الحفاظ على بقاء المملكة: تحالف وثيق مع الولايات المتحدة، يقوم على النفط مقابل الحماية، وكذلك التحالف مع أتباع المدرسة الوهابية للإسلام السني الذين كان لهم الحرية في تطبيق رؤيتهم بشأن الإسلام التطهري والدولة الإسلامية المثالية في السعودية.

لقد ارتجلت القيادة في الدولة بشكل متواصل تمكنت معه من تجاوز الأزمات والتحديات المختلفة لهذا النظام القديم الذي يعود إلى عقود مضت وبشكل تمكنت معه من تجاوز تناقضاته الموروثة. فيما عبر علماء الدين عن عدم رضاهم عن التغريب وتأثيراته الحتمية التي تتسم بالمذاق الأمريكي للسعوديين، كما عبروا عن استيائهم من فتح القيادة مأوى للقوات الأمريكية لحماية المملكة خلال عقد التسعينيات وتسهيل الخطط العسكرية الأمريكية لضرب العراق بعد 11 سبتمبر. وأدى التحالف مع أمريكا إلى نوع من العنف السعودي المضاد قاد في النهاية إلى أحداث سبتمبر، وأدت هذه الأحداث ذاتها إلى ضغط أمريكي على الحكومة لتخفيف تحالفاتها الدينية الداخلية، بشكل يسمح بشجب العلماء الموجة الشريرة الجديدة والمتزايدة من الثقافة الكافرة، وخططها العلمانية والليبرالية من أجل الديمقراطية.

لقد قامت السعودية بجهد كبير من أجل الحد من التأثيرات المحتملة للانتقادات التي توجه للدولة عبر العالم العربي من خلال الهيمنة على وسائل الإعلام العربية. حيث تميزت فترة القومية العربية التي قادت خلالها مصر النضال ضد الاستعمار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بسيطرة مصر على وسائل الإعلام العربية، فيما اتسمت فترة التوافق والتحالف مع الغرب بسطوة الصديق العربي المقرب للولايات المتحدة .. السعودية.

وعلى هذا يمكننا تفهم أن العشرات من كتاب الأعمدة ومقالات الرأي البارزين في العالم العربي الذين يظهرون بانتظام في جريدتي "الحياة" و"الشرق الأوسط" سيتجنبون توجيه انتقادات قوية إلى السياسة السعودية سواء الداخلية أو الخارجية. إن العلاقات القريبة مع الحكومة المصرية وكذلك مع الإخوان المسلمين والانتشار التدريجي للتدين المحافظ منذ الستينيات تراجعت بمستوى الانتقادات البالغة الحدة في مصر للدولة والمجتمع السعودي بشكل أصبحت معه تكاد تقتصر على صفحات صحف المعارضة، حيث بدا الليبراليون وحيدين في الساحة خلال التسعينيات يشجبون "سعودة" مصر. وعندما أمرت المحكمة العليا المصرية في 1996 بطلاق الدكتور نصر حامد أبو زيد الأستاذ بجامعة القاهرة من زوجته على خلفية كتابات بشأن القرآن تثبت أنه مرتد عن الإسلام وأنه لذلك لا يمكن له أن يتزوج مسلمة، رفض التليفزيون المصري الرسمي دعوة أبو زيد إلى مناقشة عامة مع خصومه. وفي ذلك الخصوص أكد عبد العزيز محمد محامي أبو زيد في ذلك الوقت أن الحكم ليس معزولا عما يحدث في الدولة، فالتيارات المحافظة تسود المجتمع وتنمو ولها سلطة التأثير.. إن رياح الأصولية تهب من السعودية والخليج"(44).

لقد عمل الكثير من القضاة المصريين في السعودية خلال فترة الفورة النفطية في عقد السبعينات ووجهوا الكثير من مدخراتهم في استثمارات البنوك الإسلامية عندما بدأت تظهر لأول مرة في أواخر عقد الثمانينيات(*). ويعبر كتاب الكاتب الفلسطيني سعيد أبو الريش "صعود وفساد وأفول أسرة آل سعود" تعبيرا جيدا عن هذا السخط الكبير من قبل الحضريين العرب وشعورهم بشكل خاص تجاه السعودية بثروتها وأصوليتها، وعدم اكتراثها تجاه القومية العربية. لقد مثل الكتاب هجوما لاذعا على الإنفاق الطائل الذي لا مبرر له، والحكم الديكتاتوري الإقطاعي، والفساد الأخلاقي(45).

* ربما يقصد المؤلف الإشارة إلى انتشار ظاهرة البنوك الإسلامية وليس نشأتها، حيث من المعروف مثلا أن بنكا مثل فيصل الإسلامي المصري تأسس عام 1977.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كما أن السعودية لم تكن تغيب عن ذهن الدبلوماسي المصري تحسين بشير لدى توصيفه الشهير للأقطار العربية بأنها ليست أكثر من قبائل وأعلام، دول مصنوعة تقوم على الأسر والقبائل وينقصها أي قناعات أيديولوجية حقيقة أو تماسك يتجاوز بقاءها.

إن الابن الأعظم لهذا السخط هو أسامة بن لادن. ففي واحد من شرائطه التي تم بثها على قناة الجزيرة أو عبر المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت في أكتوبر 2004، وجه بن لادن لوما عنيفا إلى جورج بوش على عدد الناس الذين قتلوا في العراق."أكثر من 15 ألف من شعبنا قتلوا وعشرات الآلاف أصيبوا وأكثر من ألف شاب من شعبكم قتلوا وعشرات الآلاف أصيبوا، إن يد بوش ملطخة بدماء أولئك لا لشئ سوى النفط من أجل توظيف وتسيير أعمال الشركات الأمريكية".

وحينئذ، بوعي أو بدون وعى ، استخدمت عبارة شهيرة في الخطاب السياسي العربي من جانب جمال عبد الناصر: "تذكروا أن لكل فعل رد فعل"(46).. ومرة ثانية يتم توظيف واستخدام اللغة الناصرية من قبل الإسلاميين: "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة" وهى عبارة صكها ناصر، وغالبا ما يتم الاستشهاد بها في الحياة العامة، في ضوء انتشارها والإلمام بها من قبل أي متعلم عربي.

لقد انتهت الأمور ببن لادن إلى التحول ضد الدولة السعودية ، الأمر الذي بدا مع عرضه على الأسرة المالكة الدفاع عن حقول النفط، وهو العرض الذي تم تقديمه في وقت كان يمثل فيه صورة البطل بالنسبة للكثير من السعوديين على خلفية دوره في القتال ضد السوفييت في أفغانستان، والذي انتهى بحلول 1989، حيث تحول ابن لادن إلى الجهاد ضد أمريكا. وإزاء النجاح الذي حققه في أفغانستان قررت مجموعة من المجاهدين العرب هناك بعد ذلك العام أن تدشن جهادها خارج تلك الدولة. لقد ساعد خبراء أمريكيون وباكستانيون في تدريب المجاهدين، وكان من بين أكثرهم بروزا الظواهري وبن لادن وعالم دين فلسطيني يدعى عبد الله عزام.

إن مساندة أمريكا للإسلاميين يجب ألا تثير أية دهشة. لقد كانت في الحقيقة امتداد لمساندة السي أي أيه للدعم السعودي للإخوان المسلمين ضد ناصر في الخمسينيات والستينيات. لقد كان قادة الجهاد الثلاث تنتابهم حال من الرفض والسخط

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السياسي وبشكل خاص تجاه الولايات المتحدة . أولهم فلسطيني من دولة لم يعد ممكنا له العيش فيها، يعيش في السعودية، فيما أن الآخر إسلامي مثالي حوكم وعذب بعد اغتيال السادات. أما بن لادن الرجل الذي يملك المال، والمكانة والوسائل في السعودية، فقد انفصل عن دولته بعد اختيارها الأجانب للدفاع عنها. وقد تم سحب الجنسية منه عام 1994 عندما كان يقيم في السودان. ومستخدما الجزيرة كمنبر والتي لم يكن لديها خط تحريري يعارض بث رسائله بعد 11 سبتمبر، وخلال تبعيات غزو أفغانستان، بدا بن لادن لفترة بشكل مقنع للكثير من العرب، على غرار أسلوب البطل الشعبي، روبين هود وتشي جيفارا، يواجه الإستعمار أو الإمبريالية الغربية، حيث يتحدث في أردية المقاتل ممسكا بالكلاشينكوف من داخل كهف فيما أن بوش الأنيق يتحدث من مكتبه بالبيت الأبيض.

وفي استطلاع شامل للرأي أجرى عام 2003 ، في عدد من الأقطار العربية والإسلامية عبر 55% من الأردنيين عن ثقتهم في بن لادن، كما حاز كذلك ثقة 49% من المغاربة و 14% من اللبنانيين(وكانت الأرقام 60% عام 2005 للأردن و26% بالنسبة للمغرب، واثنان في المائة للبنانيين) (47). وقد أقر معظم المعلقين السعوديين والدعاة بشكل عام بوجود تعاطف كبير مع بن لادن بين العامة إلى أن شن عدد من المتشددين الذين زعموا انتماءهم إلى بن لادن هجماتهم لإسقاط النظام السعودي الحاكم من خلال استهداف المقيمين في مجمعات سكنية في الرياض مايو 2003 ينظر إليها على أنها غربية ، وهي العمليات التي أدت إلى مقتل سعوديين وعرب ومسلمين. وقد أدى الهجوم الذي وقع في فبراير عام 2006 على حقل للنفط في بقيق إلى تأثير سلبي على طبيعة نظر الرأي العام لابن لادن.

وجراء الانزعاج من تأثير "الجزيرة" وعلى وقع القلق من أن القنوات السعودية "إم بي سي" و "أوربت" لا تقدم أخبارا كافية تغوص في قلب الأحداث أقام متنفذون سعوديون قناة "العربية" في 2003 في ذات الوقت الذي كان يتم فيه غزو العراق، في وقت كانت تنتشر فيه مشاعر معادية للسعودية في المنطقة ترتبط بالمشاعر المعادية للأمريكيين في المنطقة العربية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ووسط حالة من القلق جراء شائعات انتشرت آنذاك بشأن أفكار تتعلق بتقسيم المملكة أو احتلال المنطقة الشرقية والتي جرى، مرة أخرى، إثارتها في واشنطن، أرادت السعودية أن تقدم نموذجا إعلاميا معتدلا يعكس الصداقة مع الغرب لاحتواء الصداع الناجم عن "الجزيرة". لقد كانت "الجزيرة" حرة في بث الانتقاد والتغطية الحرة للأخبار بشأن المملكة على خلفية استقلالها الأساسي في عمليتها التحريرية، في ضوء عدم وجود رغبة لدى ملاكها القطريين في إيلاء مكانة خاصة للسعودية ، وكذلك نظرا لاستقلالهم عن الضغط المالي السعودي جراء الاحتياطات القطرية الهائلة من الغاز الطبيعي، والذي يضعها متفردة خارج علاقة الاعتماد التي تسم العالم العربي تجاه الرياض. فيما أن قنوات أخرى في العالم العربي سواء كانت تدار من قبل الدولة أو تخص رجال أعمال أو أحزاب سياسية،حرصت على أن تلتزم قواعد المنطقة الحمراء بالغة الاتساع التي تمكنت السعودية من فرضها حول نفسها في الإعلام العربي.

بدأت هذه السياسة في الحقيقة، بعد حرب الخليج عام 1991، وخلال ذلك العقد، أطلق أفراد من العائلة الحاكمة السعودية ورجال أعمال قناة أوربت وإم بي سي وشبكة أيه أر تي. كما أن قناة أوربت وخدمة بي بي سي العالمية العربية أفسدتا خططا لإقامة محطة تليفزيون عربية عام 1995 تغطى أخبار المعارضين في لندن،ولهذا شكل صحفيو بي بي سي العربية ما يمثل جوهر فريق "الجزيرة" عندما تم إطلاقها فيما بعد ذلك بنحو العام.

فحيثما يوجد انتقاد، يفعل التأثير السعودي فعله. ففي يونيو 2003، قطعت السلطات اللبنانية الإرسال الدولي على "إن تي في"، والتي يملكها رجل الأعمال تحسين خياط من أجل وقف البرنامج الذي كان يجري الإعداد له بشأن تأثير غزو العراق على السياسات الداخلية في السعودية. وقد استأنفت الـ إن تي في بثها بعد ذلك بأيام بعد أن وافقت على عدم بث البرنامج. حدث ذلك عندما كان رفيق الحريري والذي كون ثروته في السعودية، وحصل على جنسيتها وحافظ على علاقات قريبة مع الأسرة الحاكمة، رئيسا للوزراء في لبنان. وعندما تم سجن طبيب مصري في السعودية عام 1994 بسبب شكواه إلى السلطات بأن ابنه تم اغتصابه من قبل مدرس سعودي، تجنبت معظم الصحف

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المصرية القصة خشية إهانة المملكة (*). كما أن السعوديين الذين يظهرون على الجزيرة ينتقدون المملكة يواجهون خطر التعرض للعقاب. لقد تم منع معارض سعودي بارز من مغادرة الدولة عام 2002 بعد أن انتقد موقف السعودية تجاه الأزمة العراقية خلال ظهور له على القناة.

وفي عام 2002 استدعت السعودية سفيرها في الدوحة، وكانت واحدة من كثير من الدول العربية قامت بهذا العمل، في مرحلة محددة منذ أن بدأت الجزيرة بثها عام 1996. ولا تقوم الشركات السعودية بالإعلان عبر قناة "الجزيرة" بسبب ما تراه السلطات هناك من أنها معادية للسعودية – ما يشكل خسارة كبيرة في ضوء أن عدد السكان السعوديين يقدر بنحو 24 مليون نسمة فضلا عن ارتفاع معدل دخل الفرد (أكثر من 14 ألف دولار عام 2005 وزيادة ارتفاع أسعار البترول العالمية). لقد جعلها ذلك السوق الواقعي لمعظم قنوات التليفزيون التي تبحث عن إشباع رغبات الجماهير العربية، والأكثر أهمية من مصر بسكانها الذين يتجاوزون 70 مليون نسمة(48). وقد حكم على الداعية سعيد بن زغير بالسجن لمدة خمس سنوات عام 2004 بعد حديثه في برنامج على "الجزيرة" يناقش عرض بن لادن هدنة مع الدول الأوروبية.

وعندما حكمت السعودية بالسجن على ثلاثة مصلحين لم تكن هناك مناقشة خاصة في العمق بشأن حالتهم على قناة "العربية" أو "إم بي سي" أو القنوات السعودية الأخرى، ولكن هذا الأمر تم مناقشته على قناة "الجزيرة". كما أن انتقادات الكاتب القومي الكبير الصحفي محمد حسنين هيكل ورؤاه التي يحاول من خلالها تسليط الضوء على التاريخ العربي منذ الحرب العالمية الثانية – تمثل إرباكا مستمرا للنظام السعودي.

---

* يبدو من واقع هذا التناول محدودية خبرة المؤلف الحقيقية بالواقع العربي بالشكل الذي قد يقوض من مصداقية الكثير من الآراء التي بنى عليها كتابه حال كونها تقوم على هذا النهج في التعامل مع الأشياء، حيث من المعروف أن قضية الطبيب المصري المشار إليها أثارت أزمة كبيرة في العلاقات المصرية السعودية، وأنه على خلاف ما ذكر همند فإن الصحف المصرية شنت حملة إعلامية شديدة تبعتها حملة مماثلة من الإعلام السعودية وفي ذلك الصدد أشير إلى أنه كان هناك ما يمكن وصفه بالكتاب الأسود لدى وزارة الإعلام السعودي ويجمع كل ما نال السعودية من هجوم الصحف المصرية على المملكة على خلفية القضية وقد كان كتابا ينوء المرء بحمله من كثرة ما حواه من مقالات وكتابات هجومية على خلفية القضية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفيما تبث "الجزيرة" مثل هذا البرنامج الذي يسمى مع هيكل، فإن قناة "العربية" لا تجرؤ على ذلك.

لقد أولت السعودية، على شاكلة الكويت، ثقة أكبر في أصدقائها الأمريكيين أكثر من أي دولة أو حاكم عربي آخر. لقد كانت تخشى خطط السياسات العربية الحضرية من دولة مثل مصر على نفطها، فما زالت الذاكرة السعودية تختزن كيف أن حاكم مصر محمد علي وضع نهاية دموية للدولة السعودية الأولى عام 1818. كما خشيت الدولة السقوط في أيدي مصر مرة ثانية عندما كان ناصر في الحكم، ناصر الذي كان من بين شعاراته شعار" نفط العرب للعرب". وبدءا من العدوان الثلاثي في 1956 إثر شن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانا عسكريا من أجل استعادة قناة السويس، انغمست القوى الغربية في مشاريع عدة من أجل إسقاط حكم ناصر بسبب دعمه للاستقلال ومعارضة الأنظمة والحكام التي كان يراها خاضعة للغرب ضد رغبات شعوبها.

وإزاء الدور الذي لعبه النفط في ازدهار الدولة خلال السبعينيات فإن الخوف من حسد الجيران العرب استمر في وضع قيود على رغبات السعودية الانخراط في أي تحالف سياسي ذي معنى مع العرب الذين كان لديهم توجهات أكثر ثورية بشأن النزاع الفلسطيني الإسرائيلي. وقد ساندت المملكة الولايات المتحدة في جهودها من أجل التيقن من عدم امتلاك إيران القدرة على إنتاج السلاح النووي رغم المشاعر العامة الإيجابية بين العرب في المنطقة. وربما كانت باتخاذها هذا الموقف تريد إضعاف حركة حزب الله الشيعية اللبنانية.

وقد ذكر رسميون بشكل واضح أنهم يعتبرون إيران لا إسرائيل تهديدا للمنطقة ، وأعربوا عن أملهم وثقتهم في أن الصراع العربي الإسرائيلي يمكن أن ينتهي بشكل مرض عبر المفاوضات. ومن بين الأفكار الممقوتة على مستوى الدولة السعودية الوهابية أن يصبح الشيعة في الإسلام في طليعة المقاومة العربية للغرب، وفي ذلك فإن الكثير من العلماء السعوديين واجهوا شعورا بالتمزق خلال القتال بين حزب الله وإسرائيل في 2006 بشأن أي الطرفين إسرائيل أم حزب الله يحظى بالكراهية الأكبر. وانعكس ذلك في العمل على الإيحاء للمسلمين بتصور أنه من المؤكد أن إيران تحرك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حزب الله، من أجل أسبابها الخاصة. إن مثل هذه الاتجاهات كانت مؤلمة وتصل حد الإهانة بالنسبة للإسلاميين والقوميين العرب.

ومع أن السعودية تعد مركز العالم الإسلامي ومحل ميلاد الإسلام ومقر الحرمين الشريفين، ولديها أكبر اقتصاد في الشرق الأوسط وأكبر سوق مالي، فضلا عن كونها أكبر مصدر للنفط في العالم، بنسبة 25% من إجمالي الاحتياطي العالمي المؤكد، فإنها لم تقدم غير المال. إن المساعدات السعودية للفلسطينيين منذ عام 1970 وحتى عام 2005 تقدر بنحو 20.83 مليار ريال أو 5.55 مليار دولار ومنذ عام 2000 قدمت ما يتراوح بين 500 و 550 مليون دولار سنويا ما يجعل من السعودية أكبر دولة مانحة. وفي المتوسط تقدم السعودية ما يتراوح بين مليار ومليار ونصف المليار دولار سنويا للأقطار المسلمة حول العالم (49). وقد أدت المساعدة التي تقدمها السعودية للفلسطينيين، مع ذلك ، إلى جعلها عدواً بشكل خاص للجناح اليميني الإسرائيلي وهدفاً لجماعات اللوبي الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة.

هذا الاختلاف الأساسي في التوجه يفسر العلاقات السعودية السيئة ليس فقط مع ناصر بل مع معمر القذافي أيضا، وحافظ الأسد، وصدام حسين. ففيما قبلت معظم الحكومات العربية قرار إدارة بوش بإعلان الحرب على العراق، في 2003، سادت الشبهات على نطاق كبير بأن الولايات المتحدة تستغل حكام السعودية بشكل سري وهستيري باعتبارهم رأس الحربة في مواجهة صدام حسين كعدو ثوري وأيديولوجي (صدام العلماني القومي البعثي في مواجهة السعودية الإسلامية الوهابية).

وقد كتب صحفي مصري منتقدا المملكة بشدة متحدثا عن أكبر عملية نهب في التاريخ حدثت في الصحارى العربية حيث نفط الخليج .. هذه الدويلات، الإمارات والممالك تعاني من أزمة تنمية بسبب مواردها التي أصبحت تستهدف تحقيق تنمية الولايات المتحدة من ناحية، ومحاربة وهم يدعى صدام من ناحية أخرى (50). وقد كتب عن ذلك الروائي عبد الرحمن منيف بشكل دقيق أكثر عمقا قائلا :،"إن النفط الذي وجد صدفة في بعض أجزاء المنطقة العربية كان سببا في أن تتعامل الدول الكبرى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى مع المنطقة على أساس وجود هذه المادة فتحدد الطبيعة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجغرافية والسياسية للدول التي أقامتها وتحدد أيضا طبيعة الأنظمة التي يجب أن تحكمها ونوعية العلاقات فيما بينها أو بينها وبين الآخرين... وهكذا أصبح النفط أداة للتخريب والتناحر وإلى سبب في استعباد الشعوب وإخضاعها وإلحاقها وربما أيضا قطع الطريق على إمكانيات تطورها في المستقبل(51).

لقد أصبحت السعودية لاعبا قويا في السياسات العربية والإسلامية، ولكن تأثيرها أصبح معتدلا وسلاميا، وهو ما يعني في السياقات السياسية الغربية، أو وفق الشروط السياسية الغربية أنها تكيفت مع التأثير الأمريكي في الشرق الأوسط. وحسب زعيم إقليمي، فإن السعودية على مدى الجيل الأخير استمرت ليس من النقطة التي توقف عندها ناصر، ولكن من تقليد حلف بغداد الذي كانت تتزعمه الأسرة الهاشمية العراقية. وقد وصلت معظم الدول العربية إلى مرحلة التصديق بأنه طريق بالغ الحصافة. فالسعودية كانت دائما هناك، فيما أن مصر التحقت بها بعد فترة غير طويلة.

وقد أشار رئيس الوزراء العراقي الأسبق نوري السعيد الذي اغتيل بوحشية في 1958 بسبب سياساته الموالية للغرب، إلى ما اعتبره حمق المقاومة في تعليقاته على ناصر مشيراً إلى أنه فشل في فهم أن الغرب لن يمنح العرب رفاهية الحياد، وأن هذه المنطقة بالغة الحيوية أيضا بشكل لن يسمح بهذا النوع من الحماقة . لقد فشل في فهم أن الشرق الأوسط يرتبط بعلاقات معقدة مع الغرب اقتصاديا – حيث لا يوجد سوق أخر أكبر للنفط العربي، على سبيل المثال. وعلى الرغم من خلفيته كجندي تجاهل ناصر الحقيقة العسكرية بشأن عدم قدرة روسيا على الدفاع عن العرب إذا ما دخلوا في عداوة مع الغرب (52).

وبعد 11 سبتمبر شعر الأمريكيون، بشكل غير مثير للدهشة، بالخيانة جراء صداقتهم مع المملكة السعودية، فهم لم يدركوا كيف أن القيادة السعودية غير الأمينة فشلت في استخدام نفوذها وعلاقاتها الودية مع البيت الأبيض من أجل تحد عادل ومفتوح للسياسة الخارجية الأمريكية، سواء علنا أو على المستوى الخاص. وبدلا من ذلك اختار النظام أن يكون صديق أمريكا وأخفي حقيقة أن شعبه يغلي. لقد كانت تلك فجوة تقليدية بين المحكومين والحاكم أصابت المنطقة العربية خلال معظم فترات ما بعد تصفية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاستعمار. القادة الموالين للولايات المتحدة ، الرأي العام المعادي للولايات المتحدة ، لأسباب تتعلق بنقص الشجاعة لدى قادتهم الذين يشعرون بالخذلان والتكبر والعجز عن التفسير.

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل السابع

الورقة السودانية

السودان: الامتداد عبر أفريقيا والعالم العربي

أصبح السودان مثالا نموذجيا بشأن الخصومة العربية مع السياسة الأمريكية، ومادة غنية للمثقفين الذين تحدثوا عن محاولة غربية، يقودها الساسة والصحفيون والناشطون الأمريكيون، لتفكيك العالم العربي في ضوء ما يعيشه من أوضاع جعلته رهنا للانقسامات والتمزق بين هويته العربية والأفريقية منذ استقلاله. وصارت الولايات المتحدة عاملا في هذا الصراع الكبير،بعد هيمنة الإسلام السياسي على الأوضاع في السودان، الأمر الذي عزز هويته العربية الإسلامية ومواقفه بشكل بدا أنه يتعارض مع المصالح الأمريكية. وينظر إلى الحكومة الأمريكية على أنها تعارض انتشار العروبة والإسلام في السودان، وأنها تعزز قوة الأفارقة السود التى لا تستند إلى الهوية الإسلامية أو العربية.

أما الإسلاميون والقوميون العرب فيرون أن واشنطن تتعامل مع السودان باعتباره كعب أخيل العالم العربي، ويشيرون في معرض التدليل على وجهة نظرهم، إلى الاهتمام الأمريكي بحقوق السود الأفارقة في المنتديات الدولية، وغياب مثل هذا الاهتمام على صعيد الحقوق الفلسطينية. على الجانب الآخر يعتبر الديمقراطيون في العالم العربي السودانيين ضحايا كلاسيكيين للخطاب المناهض للاستعمار، الذي يستخدم للتغطية على الوحشية والتسلطية في إطار السودان. ولم تتزايد هذه الانقسامات بشأن طبيعة الأوضاع هناك ، كما هي عليه اليوم بسبب النزاع في إقليم دارفور الشاسع والقاحل في غرب السودان، حيث تؤكد أمريكا على ارتكاب القبائل العربية جرائم إبادة ضد السود الأفارقة في حملة اغتيالات، والقيام بعمليات اغتصاب ونهب، لإرغامهم على التخلي عن أرضهم في إطار الصراع على الموارد المحدودة في الإقليم. وقد اشتبكت مختلف وسائل الإعلام العربية مع هذا الاتهام الأمريكي، معتبرة أن ذلك يمثل عدوانا وتدخلا أمريكيا في الشؤون العربية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تطور العلاقات الأمريكية السودانية

يقع السودان في قلب العلاقات الصعبة بين أمريكا والعالم العربي. وإزاء امتداده في العالم العربي وأفريقيا السوداء، يشغل منطقة تجعله في حال دائم من التوتر، حيث تتباين الرؤى بشأن هوية الدولة والعرق وهو ما ينعكس في حالة من الاحتكاك الداخلي نتيجة الاختلاف على طبيعة الأوضاع القائمة ، سواء من قبل أولئك الذين يقطنون في السودان نفسه، أو الذين يعيشون في الغرب ، ويعملون على المساهمة في تشكيل هويته. لقد أعلن السودان، على شاكلة ما جرى في الأقطار العربية الأخرى، استقلاله عام 1956 عن واحدة من أقدم القوى الأوروبية. كان ذلك في الوقت الذي بدأت فيه الولايات المتحدة تتسلم الراية الاستعمارية من بريطانيا العظمى، وطورت علاقات قوية مع السودان حيث كان ينظر إليها بشكل إيجابي كدولة تساند وتؤيد الحرية والاستقلال لدول العالم النامي من مستعمريه التقليديين.

غير أن موقف السودان تعقد من خلال علاقاته مع مصر، فالدولتان تتمتعان بعلاقات ثقافية متقاربة، حيث حرصت مصر، التي كانت جزئيا شريكا لبريطانيا في احتلال السودان، وتحتفظ بقوات هناك، على التأكيد بشكل دائم على أن القطرين دولة واحدة. أو حسبما تذهب إحدى العبارات الوحدوية "من الإسكندرية في الشمال إلى جوبا في الجنوب". وقد جاء شعار وحدة مصر والسودان من قبل سياسيين مصريين وسودانيين عديدين في فترة القضاء على الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية. وكان محمد نجيب أول رئيس جمهورية مصرياً نصفه سوداني . ولكن على خلاف الموقف مع المغرب عندما انسحبت أسبانيا من الصحراء الغربية المتنازع عليها في السبعينيات، خففت مصر قبضتها على السودان. وقد وقع نجيب اتفاقية مع السودان عام 1953 تمنحها الحكم الذاتي، بعد ثلاث سنوات. ومع ذلك، حظي ناصر النجم الصاعد في الثورة المصرية بقدر من السخط والرفض من قبل كثيرين ينتمون إلى الطبقة السياسية السودانية ، بسبب حملته على الشيوعيين والإسلاميين في مصر، الممتدين في الأوساط السياسية السودانية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفي عام 1955، طالب البرلمان السوداني قوات مصر وبريطانيا بمغادرة البلاد، وهو ما تم بالفعل مع ترك الأمر بيد البرلمان السوداني ، لإعلان سيادة الدولة الجمهورية الديمقراطية بحلول نهاية ذلك العام. غير أن التوتر انتاب علاقات البلدين على خلفية مطالب مصر الواسعة بشأن مياه النيل, وكذلك بسبب الشعور المتواصل في مصر بأن قادة الثورة أخطأوا في التعامل مع الملف السوداني وسمحوا للسودان بأن يمضي قدماً في الطريق الذي يختاره - الاستقلال. وفي جنوب السودان، حيث توجد القبائل الأفريقية السوداء، والتي قاومت التعريب والأسلمة، ساد شعور بأنه قد جرى خيانتهم من قبل البريطانيين جراء عدم حمايتهم من الدولة السودانية العربية الإسلامية التي ظهرت إلى الوجود إثر الرحيل السريع لبريطانيا ومصر. وكانت بريطانيا، خلال الفترة الاستعمارية، قد وضعت نظام التعليم في الجنوب أوائل القرن الماضي في أيدي بعثات أجنبية بشكل استهدف تعزيز مسيحيته والنفوذ الغربي في مواجهة المسيرة التاريخية الواسعة للتعريب والأسلمة. وبعد 1956 عملت السلطات المستقلة في الخرطوم على عرقلة وتعطيل المهمة البريطانية، بشكل انتهى باستبعاد كل البعثات عام 1964.

ومع حلول 1963 بدأت حركة حرب عصابات جنوبية ضد السلطات في الشمال، في رد فعل على ما اعتبره الجنوبيون معاملة من الدرجة الثانية ، وكذا محدودية الموارد هناك مقارنة بما يتوافر للحكومة المركزية. وقد تواصلت هذه الحرب إلى أن تم توقيع اتفاقية في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا وضعت حدا للقتال وأقامت حكما فيدراليا جنوبيا(*). غير أن الخلاف بين السياسيين الجنوبيين والمجازفة بالتدخل من قبل الخرطوم، والشعور المتواصل بالتهميش قاد كل ذلك إلى الجولة الثانية من القتال التي اتسع نطاقها إلى مستوى حرب أهلية عام 1983 أريقت فيها كثير من الدماء، وقد تواصلت الحرب على مدى 22 عاما حتى عام 2005. بدأت الحرب كنزاع على تقاسم السلطة والموارد بين المركز العربي الإسلامي، الذي استمر في الهيمنة على الحياة السياسية الاقتصادية، وبين المحرومين السود الأفارقة بقيادة نخبة مسيحية في أقصى

* وقعت الاتفاقية عام 1971

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجنوب، شعرت بصعوبة أن يظل السودان على وضعه القائم ، ومن ثم بضرورة التخلي عن الأيديولوجية العربية الإسلامية.

ومع ذلك، فقد وجد الجنوبيون خلال مسيرة الحرب، أن بحوزتهم مجموعة من المزايا لم يكونوا يتمتعون بها من قبل: فحقول النفط التي يجري العمل على استغلالها تقع بشكل أساسي في الجنوب، فضلا عن أن الموقف الحرج في الجنوب أصبح قضية محل شد وجذب في المجتمع الأمريكي، بشكل أكسبهم مساندة سياسية واقتصادية كبيرة. وفضلا عن هذا وذاك، فإن حكومة الخرطوم التي غرقت في تبني سياسات راديكالية إسلامية خلال التسعينيات، فقدت المساندة الأفريقية والعربية والأوروبية. وقد منح اتفاق السلام الذي عقد في 2005 الجنوبيين، الذين يقدر عددهم بنحو عشرة ملايين نسمة من بين 30 مليوناً، عدد سكان السودان(*) الحق في التصويت على الانفصال عن السودان وتشكيل دولة مستقلة في 2011.

بدأت الحرب الأهلية خلال حكم الرئيس جعفر النميري(**) الذي تولى السلطة عبر انقلاب عسكري عام 1969 متبنيا خطا علمانيا مماثلا لذلك الذي تبناه ناصر. وعندما تم إقصاؤه من الحكم عام 1985، كان نظام نميري يعكس الطبيعة الدينية الجديدة لتلك الفترة على مستوى المنطقة. فقد كان الإسلام السياسي خيارا جديدا في السياسات العربية، ولم يكن السودان أقل تأثرا بهذه التطورات من أي دولة أخرى في المنطقة. وكان قرار نميري فرض الشريعة الإسلامية بما في ذلك تطبيق الحدود على مختلف أنحاء البلاد، حتى على أبناء الجنوب غير المسلمين، بمثابة شرارة الحرب الأهلية هناك(***). وقام نميري في موقف استهدف الإيحاء بتدشين تحولاته الأيديولوجية الجديدة، بسكب ويسكي الخرطوم في النيل. غير أنه تمت الإطاحة بنميري من قبل ضباط ساخطين من مسيرة النزاع في الجنوب، وبعد نحو أربع سنوات أخرى جلب

---

* أظهرت إحصائية رسمية أجريت لاحقا ونشرت نتائجها رسميا في يونيو 2009، أن عدد سكان السودان يقدر بنحو 39 مليون نسمة وأن عدد سكان الجنوب يقدر بنحو 20% من إجمالي السكان.

** توفي 30 مايو 2009 عن عمر يناهز 79 عاما إثر صراع مع المرض.

*** تشير القراءة الدقيقة لتطورات الموقف في السودان في هذا الشأن إلى أن اندلاع التمرد بقيادة جارانج سبق تطبيق الشريعة، وإن كان إعلان التطبيق ساهم في اشتعال الحرب.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

انقلاب عسكري آخر نظاما إسلاميا إلى الحكم يختلف بشكل كبير عما هو متعارف عليه في هذا الخصوص.

وفي ظل حكومة جبهة الإنقاذ، لعب الأيديولوجي الإسلامي حسن الترابي دور العقل المفكر خلف قائد الانقلاب الجنرال عمر البشير الذي كان بمثابة أداة لتنفيذ مخططاته. وخلال الفترة الانتقالية التي سبقت انقلاب البشير – الترابي، كانت تحكم السودان حكومة يقودها الصادق المهدي، الديمقراطي الليبرالي الذي يتزعم حركة سياسية تعود أصولها إلى الثورة المهدية التي قاتلت الاستعمار البريطاني قبل قرن مضى وقتل خلالها الجنرال البريطاني غوردون عام 1895. وقد أعلن قائد هذه الثورة وقتذاك محمد أحمد ابن عبد الله أنه المهدي وأنه مرسل من الله لهداية الناس في نهاية الزمان. وتطورت الحركة المهدية فيما بعد إلى حزب سياسي هو حزب الأمة وأصبح الصادق المهدي الذي ينحدر من المهدي الأول قائدها منذ الستينيات.

كانت الحرب الأهلية مدمرة بشكل يصعب تصديقه، فقد أودت بحياة أكثر من مليوني شخص وشردت أكثر من أربعة ملايين آخرين، وهى أطول حرب أفريقية في العصور الحديثة وأصبحت أكثر تعقيدا بمرور الوقت، في ضوء استغلال حقول النفط ، وتحول الخرطوم إلى معقل للإسلام السياسي، وفي ضوء تنامي المصلحة الأمريكية من التدخل في النزاع. وفي ظل توجهات الترابي، اجتذب السودان أوائل التسعينيات أعلام ورموز الحركة الإسلامية المتشددة وقوى العالم الثالث الثورية. فقد عاش أسامة بن لادن في الخرطوم نحو خمسة أعوام، وكان أيمن الظواهري زائرا منتظما هناك، كما استخدم الإسلاميون المصريون السودان كنقطة انطلاق في حربهم ضد حكومة مبارك العلمانية المسنودة أمريكيا. وقد نجح الترابي في ضوء تحولاته السياسية، في أن يبرز كرمز للفصيل السوداني لجماعة الإخوان المسلمين، التي انطلق نشاطها من مصر وتعد محور الإسلام السياسي في العالم العربي.

وقام السودان لاحقا بتسليم كارلوس (ابن آوي) إلى فرنسا عام 1994 الفنزويلي الثائر المساند للفلسطينيين، والذي وجد ملاذا هناك عام 1991، فيما يبدو تبرما من نمط حياته كفتي لعوب. كما أن رجال حرب العصابات الفلسطينيين من اليساريين ذوي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

القناعات العلمانية القومية وجدوا في الخرطوم كذلك مأوى لهم. وقد احتشد الكثير من هؤلاء في مؤتمر نظمه الترابي عام 1994 تحت رعاية "المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي". كانت هذه المنظمة بمثابة قاطرة الحلم الإسلامي للترابي لتحقيق ما تستطع منظمة المؤتمر الإسلامي أو الجامعة العربية تحقيقه: أن تكون نقطة جذب حيوية في العالم النامي يمكنها أن تحشد القوى ضد النفوذ الغربي. لقد اجتذب المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي أفرادا من كل صوب وحدب من اتجاهات ومشارب مختلفة بدءا من الفلسطيني اليساري جورج حبش، مروزا بأعضاء من حماس، والإسلاميين الجزائريين الذين دخلوا في تحد مع الحكومة آنذاك، وبعثيين عراقيين، فضلاً عن أسامة بن لادن والظواهري. لقد شرع الترابي في تحويل السودان إلى حقل للإسلام السياسي تمنته الجماعات الإسلامية طويلاً عبر العالم العربي دون أن يكون بإمكانها إيجاده في دولها، لم تنجح في ذلك بسبب تحالف حكومات هذه الدول مع الولايات المتحدة. وفي هذا الإطار أيضا كان القادة الإسلاميون في مصر مثل عادل حسين من حزب العمل، ومأمون الهضيبي والكاتب فهمي هويدي زائرين منتظمين للخرطوم خلال تلك الفترة.

لقد كان اتساع نطاق نفوذ الإسلاميين الراديكاليين من العالم العربي إلى أفريقيا عبر السودان، هو بالضبط ما لا تريد واشنطن تحققه، فقد كان ذلك يكسب أي نصر شمالي في الحرب الأهلية مذاقا خاصا، بشكل عزز من مصلحتها في مساندة الجنوبيين ، الأمر الذي لم تخفه مادلين أولبرايت أواخر التسعينيات، حين راحت تمتدح بشكل بالغ جون جارانج ، الاقتصادي ذا الانجليزية السلسة والتعليم الأمريكي الذي قاد الجنوبيين في الحرب الأهلية منذ عام 1983، كقائد للجيش الشعبي لتحرير السودان. وبعد لقاء في نيروبي في أكتوبر 1999 وصفت أولبرايت الضابط السوداني السابق في عبارات فياضة بأنه: " متمرس ومتفان، وصاحب عزيمة.. إنه زعيم بالغ النشاط لديه هدف (استقلال الجنوب) يبدو صعب المنال، نظرا لكونه قائدا بدون اعتراف دولي"(1). وعلى ذلك قررت إدارة كلينتون تقديم مساعدة غذائية مباشرة لحركة التمرد – قامت عملية الأمم المتحدة لإنقاذ السودان لمدة عقد بمهمة تزويد كلا الطرفين في مناطق النزاع

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بالمساعدات الغذائية – بشكل اتهمت معه حكومة السودان واشنطن بتسليح الجيش الشعبي لتحرير السودان.

في الوقت ذاته، عملت جماعات الضغط ، التي تتركز بشكل رئيسي في الولايات المتحدة على أن يكون السودان من أولويات السياسة الخارجية الأمريكية. وتتراوح هذه الجماعات من ناشطي الحقوق المدنية السود الذين أبدوا صدمتهم بالتقارير الصادرة عن العبودية، إلى الأصوليين المسيحيين، الذين أبدوا تعاطفا لمساندة إخوانهم في الدين في الحرب الجارية مع الإسلام بالقارة الأفريقية ، إلى أنصار إسرائيل الذين رأوا فيما يحدث في السودان نشرا لمزيد من الغسيل العربي القذر بشكل يصرف الاهتمام الدولي عن المشاكل التي تواجهها في الأراضي المحتلة. وتزايد عدد هذه المجموعات مع أزمة دارفور التي اندلعت في 2004.

وتتضمن القائمة: معهد الولايات المتحدة للسلام الذي يموله الكونجرس، منظمة التضامن المسيحي الدولية (مقرها سويسرا)، الاهتمام الدولي المسيحي international Christ concern ، المجموعة الأمريكية ضد العبودية، محفظة ساماريتان Samaritan's purse (التي تدار من قبل الأصولي المسيحي فرانكلين جراهام) لوثرن للإغاثة العالمية Luthern World relief(LWR) ، العمل معاً من خلال الكنائس action by churches together، اللجنة الأمريكية اليهودية (AJC) المؤتمر المركزي للأحبار أو المدرسين الدينيين الأمريكيين the central rabbis conference of American rabbis، مكتب نيويورك للأحبار New York board of rabbis، مجلس الأحبار the rabbinic assembly، مجلس أمريكا للأحبار the rabbinical council of America و رابطة إعادة بناء الأحبار the reconstructionist rabbinical association. بالطبع فإن جماعات حقوق الإنسان الدولية المعروفة جيدا كان لها اهتمام كبير بما يجري في السودان.

وتمكنت الجماعات الحقوقية من التأثير على شركات النفط الغربية التي تأمل بالعمل في السودان، حيث كانت العديد من شركات النفط الأمريكية تريد أن تلتحق بمنافسيها من الدول الأخرى في استغلال ثروات النفط الجديدة في السودان، والتي بدأ

www.ibtesama.com/vb Exclusive

استخراجها في 1999. ومن هذه الشركات "تاليزمان" الكندية للطاقة، و"لوندين" للنفط السويدية، ومجموعة النفط النمساوية "أوه إم في" حيث تعرضت هذه الشركات لضغط من الجماعات الحقوقية للانسحاب من السودان. وقد تحقق ذلك بالنسبة للشركات الثلاث بين عامي 2001 و 2003. ولكن هيئة النفط الوطنية الصينية وبتروناس الماليزية كانتا بمأمن من هذه الضغوط، حيث لم تكن القضية السودانية قضية سياسية في أي من الدولتين، فكانت الصين ترى أن السودان على شاكلتها دولة تعاني من مساع أجنبية للتدخل في شؤونها الداخلية، فيما كانت ماليزيا تحافظ على دفع علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع الأقطار الإسلامية الشقيقة بكل السبل. وقد أنهت شركة النفط والغاز الطبيعي الهندية "أو إن جي سي" أعمالها هناك بعد شرائها من قبل غربيين.

وعلى مدى سنوات الحرب الأهلية كان الاهتمام العربي بالمعاناة الناجمة عن استمرارها محدودا، رغم أنها كانت النزاع الأكثر دموية في العالم العربي على مدى العقود الستة الماضية نظرا لارتفاع عدد الضحايا . فيما تلقت فلسطين والنزاعات المرتبطة بها دوما نصيب الأسد من اهتمام وسائل الإعلام العربية. وفي موقف له دلالة يشار إلى أنه لدى استقلال السودان عام 1956 أبدت سوريا اعتراضها على حصوله على عضوية الجامعة العربية، باعتبار ما رأته آنذاك من أن السودان ليس عربيا بشكل كاف. وقد ألبس النظام الإسلامي العسكري الذي أتي إلى السلطة عام 1989 السودان هوية عربية إسلامية بشكل ملحوظ كانت مغرقة في التعريب والأكثر من ذلك أنه خارج نطاق سيطرة المصريين والأمريكيين، فإن اتجاهاته الإسلامية بدت تقريبا مصممة بشكل خاص من أجل هذا الغرض.

وقد نجح النظام في توسل مساندة الأقطار العربية الخليجية النفطية له ماليا وبدا مبتهجا لنجاحه في تجاوز تأثير حلفائهم الأمريكيين على قضاياه وحصر هذا التأثير على الموقف في الشمال مع مصر التي نشطت مدعومة من الولايات المتحدة في فرض عقوبات على السودان إثر محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أثيوبيا عام 1995، حيث وجهت التهمة على الفور للترابي والبشير بالوقوف وراء تلك المحاولة. وتجدد إثر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ذلك النزاع على الحدود بين الدولتين. غير أن مصر رغم ذلك عملت على تنحية هذا الخلاف جانبا، مبدية اهتماما على شاكلة دول الخليج ببقاء السودان جزءا من النادي العربي وسط مخاوف من أن يهدد استقلال الجنوب ، الذي ربما يدور في الفلك الأمريكي والإسرائيلي، إمداداتها من مياه النيل.

وبشكل مشابه، عندما بدأت أزمة دارفور تستحوذ على الاهتمام العالمي عام 2004، لم يكن هناك اهتمام كبير من قبل وسائل الإعلام أو الحكومات العربية بمعاناة الأفارقة السود، الذين يبدون مختلفين إلى حد كبير عن بقية العرب، مقارنة بالاهتمام بالتأثيرات السياسية للأزمة خاصة على صعيد ما توفره للولايات المتحدة من ذريعة للتدخل ضد السودان. كان العالم العربي يرى تناقضا حادا في نقص اهتمام واشنطن بالأزمة الفلسطينية، ومواقف إسرائيل التي تتسم باللامبالاة تجاه قرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بالحقوق الفلسطينية – فعلي سبيل المثال حكمت المحكمة الدولية بعدم شرعية الحائط الأمني . (نظرا لعدم بنائه بطول الحدود الإسرائيلية قبل 1967، ولكن على الأراضي الفلسطينية المحتلة) – وهو الحكم الذي جاء حسبما أشار مراقبون، في نفس العام الذي تحولت فيه دارفور إلى قضية دولية. ورغم هذا الحكم، حرصت واشنطن على التيقن من أنه لن يتم اتخاذ أي إجراء بشأن الحائط. وسط ذلك كان الاهتمام المفاجئ بالسودان مثلا آخر على المعايير المزدوجة الفجة تجاه العالم العربي منذ زمن الاستعمار المباشر قبل خمسة عقود مضت.

على غرار هذا الفهم كتب المعلق الصحفي محمد الفارسي في جريدة الوفد المصرية أن الأمم المتحدة انصاعت للأجندة الأمريكية بشأن السودان، كما فعلت بشأن سوريا، حيث تم توظيف واشنطن للحصول على قرار من الأمم المتحدة في سبتمبر 2004 لإرغام سوريا على سحب قواتها من لبنان على الرغم من أن سوريا سحبت قواتها من لبنان قبل الموعد المحدد في نهاية أبريل فإن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان قال في تقريره أن بعض الالتزامات في القرار الدولي 1559 لم يتم تطبيقها. ثم دعا المجتمع الدولي إلى التدخل في السودان من أجل وقف الممارسات الوحشية واللا إنسانية ضد السكان في دارفور. ولكن من غير المقبول التركيز على المواقف في

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السودان ولبنان وتجاهل الجرائم التي ترتكبها الحكومة الإسرائيلية ضد الفلسطينيين والانتهاكات الأمريكية لحقوق العرب والمسلمين في العراق وأفغانستان. في رأيي أن قرار الأمم المتحدة رقم 1559 يستهدف نزع سلاح حزب الله من أجل مصلحة إسرائيل (2).

وعندما تدخلت الولايات المتحدة كوسيط بشأن اتفاق السلام السوداني التمهيدي في 2002، جاء ذلك وسط الكثير من السخط في العالم العربي بشأن حق تقرير المصير للجنوب الذي يضمنه هذا الاتفاق. ووفق ما كتب صلاح عطية في جريدة الجمهورية الحكومية فإنه يوجد اتفاق عام على أن نفط السودان هو الدافع الحقيقي وراء الاتفاق بين الجيش الشعبي لتحرير السودان والحكومة. ويمكننا توقع أن تحظى الشركات الأمريكية بنصيب الأسد فيما يتعلق بنفط السودان، وهى تنتظر الضوء الأخضر من الإدارة الأمريكية من أجل ذلك الأمر الذي كان يعكس السخرية المنتشرة في المنطقة تجاه النوايا الأمريكية(3) . وعندما جمد الرئيس الأمريكي جورج بوش أصول عشرات الشركات السودانية وهدد بعقوبات في 2002 خلال محادثات ماشاكوس في كينيا والتي أسفرت عن اتفاق سلام مؤقت فإن جريدة الخليج الإماراتية رأت فيها حملة أمريكية ضد كل ما هو عربي وإسلامي (4). وحسب الصحيفة فإن التهديد بالعقوبات أو التلويح بها كان محاولة ظاهرة لإجبار الخرطوم على التنازل لصالح الجيش الشعبي في المحادثات. وهى رؤية تعتبر في الواقع صحيحة إلى حد كبير.

وقد عكست وجهات نظر السودانيين السخرية السائدة في تلك الفترة بشأن دوافع الولايات المتحدة. وحسبما قال مزمل من أقصى الشمال، ويبلغ من العمر 38 عاما ويعمل موظف استقبال بأحد الفنادق :"نحن لا نعرف شيئا بشأن الاتفاقية، أو عن ماذا سيتحدثون غدا. لقد مضى وقت قبل نشر الحكومة التفاصيل بشأن تلك الاتفاقية، ومعظم الناس يشعرون بأنهم لا يعرفون بما يجري. السودانيون لا يشعرون بالفرحة جراء هذا السلام نظرا لشعورهم بأنهم دفعوا إليه من قبل الأمريكيين". أما عبد الهادي وهو رجل قبلي من شمال السودان ولديه نزعة دينية فقد قال:"إن هذا السلام خطر، إن أمريكا تريد تقسيم السودان. الحياة السياسية يجب أن تكون متوافقة مع الدين". (5)

www.ibtesama.com/vb Exclusive

شماليون آخرون كانوا يشعرون بأن الأمر ليس أكثر من اتفاق بين رجلين البشير وجارانج، بشكل يضمن استمرار السلطة لجماعاتهم السياسية على حساب المجتمع ككل. ولكن كان من الواضح أن الجنوبيين أكثر تحمسا للاتفاق الذي يمكن في تصورهم أن ينهي النزاع الذي دمر الجنوب أكثر من الشمال.

التعريب والأسلمة

شهد السودان على مدى العقود الخمسة الماضية منذ الأستقلال تحولا ثقافيا أساسيا أكد تطوره السياسي عبر تلك الفترة، وهو التحول الذي يفسر الأسباب التي تقف خلف مشاكل السودان التي واجهها مع الولايات المتحدة. وهنا وعودة إلى موقف السوريين بشأن السودان عام 1956، ورغم اقتراب هذا الموقف من العنصرية، إلا أنه كان يضع أصبعه على الجرح. لقد كانت هوية السودان تميل إلى العروبة، ليس بسبب اللون ولكن بسبب اللغة والثقافة. وعلى شاكلة المغرب، حيث نحو 50% من السكان في الحقيقة من البربر، فإن السودان كان واحدا من أسرار العالم العربي البائسة الأخرى، حيث يصل تعداد من يتحدث العربية من سكانه إلى 50%. كيف تغيرت الأشياء؟ لقد انغمس السودان في عملية تحول لغوي أو تعريب على مدى الخمسين سنة الماضية منذ تأسيس الدولة العملية التي تواصلت إلى اليوم وسط جهود لاستكمال التعريب المتواصل في الواقع منذ نحو ألف عام. ويعني التعريب نشر اللغة العربية بما ينجم عنه من تحول في الهوية، حيث تزايدت الأجيال الجديدة من غير العرب التي أصبحت تتحدث العربية وتعتبر نفسها عربية. وأصبح التعريب دوما مصاحبا بتلك العملية الملازمة له وهي الأسلمة.. انتشار الدين الإسلامي بين المجتمعات والأفراد الذين كانوا يدرجون أنفسهم من قبل في عداد المسيحيين أو الروحانيين.. الخ. ومن هنا كان التأكيد على أن العمق والتنوع الثقافي – الأمر الذي يمكن تلمسه في الشعور الواسع النطاق السائد في العالم العربي – إنما يتحقق نتيجة الاختلاط الكبير للهويات السابقة.. أو التقاليد الأدنى مع التقاليد الأعلى مرتبة - العربية الإسلامية بشكل يعزز في النهاية من تماسك العالم العربي.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وتحتكر مجموعات عرقية قبلية تعيش في الشمال حول نهر النيل السلطة في السودان وهم نوبيون بشكل أساسي، وتعتبر قبيلتا الشايقية والجعلية الأكثر بروزا من بينهم، وتعتبران نفسيهما عربيتين خالصتين . ويعتبر النوبيون أنفسهم مجموعة عرقية قديمة، تنحدر من جنوب مصر، حيث نافسوا vied تاريخيا على السلطة مع الفراعنة المصريين، واستولوا على السلطة في بعض الأحيان، ولكنهم فقدوا في القرون التي تحولوا فيها إلى الإسلام لغتهم بقدر كبير لصالح العربية. ومع إسلامهم ولغتهم العربية شكلوا أساس دولة السودان الحديث. ويتحدث وزير الخارجية المخضرم – السابق - مصطفى عثمان إسماعيل لهجة دنقلاوية جيدة، لغة النوبة في منطقة دنقلة التي ينحدر منها، ومع ذلك فإنه يحتل مكانة مركزية في النظام العربي الإسلامي، وهو النظام الذي يعني الإسلام والعروبة بالنسبة له الوحدة والتقدم. إن السودان الحديث يعتبر بشكل أو بآخر دولة نوبية، ولكنه على شاكلة مصر، تحول إلى العروبة. ولا يحظى من يوصف بـ "نوبي" بمكانة كبيرة في السودان اليوم.

ووفق تقديرات اللغوي السوداني الأمين أبو منقا فإن نحو 65% على الأقل من السودانيين يتكلمون اللغة العربية اليوم، مقارنة بنحو 51% عام 1956 (6). وفي ضوء حقيقة أن العربية لغة الوحي الإلهي حسب الاعتقاد الديني للمسلم ، فإن الحديث بهذه اللغة هدف مرغوب من قبل كل المسلمين، إلى حد إهمال لغة المرء الأساسية. وتواصلت هذه العملية عبر التاريخ، حتى في العصر الحديث، عصر الدول - الأمة ووسائل الإعلام الحديثة والتفاعل الدولي، ويعتقد أن الكثير من اللغات الصغرى في السودان اندثرت على مدى العقود الخمسة الماضية أو أنها مهددة بالاندثار. ويستشهد أبو منقا بمثال من سكان جول الذين يستقرون في منطقة جبلية جنوب شرق الخرطوم، فقد اندثرت لغتهم على الرغم من أنهم في الحقيقة مؤسسو سلطنة فونج الإسلامية في القرن السادس عشر الميلادي. وحسب ما يقول أبو منقا إنهم يقولون الآن أنهم عرب. أنها مطمح اجتماعي أن تكون من العرب وتنتسب لبيت النبي (7).

وقد أصبحت اللغة العربية والإسلام عاملي توحيد كبيرين لحكومات ما بعد استقلال السودان على النحو الذي كانت عليه اللغة الإنجليزية والبروتستانتية للسلطات

www.ibtesama.com/vb Exclusive

البريطانية بعد الإتحاد بين سكوتلندا وإنجلترا في 1707. وقد حققت أيديولوجية التعريب ذلك بشكل واضح ولكن بقدر من التكلفة بشكل خاص بالنسبة لأولئك الذين في الجنوب أو الذين انحصروا في المنطقة الرمادية بين الشمال والجنوب. فشعب جبل النوبة، على سبيل المثال، مسلمون ولكنهم لا يتكلمون العربية. "أي لغة لديها أيديولوجية ولكن مع العربية فإن الأمر ضروري ولازم ، حسبما يقول إسماعيل على سعد الدين، وزير الدولة لشؤون جبل النوبة(8).:"إنها الآن مشكلة نفسية، حيث نشعر الدونية، وهم يعتقدون بأن كونهم عربا يجعلهم أسمى. إن الخطوة الأولى هي اتفاق سياسي من أجل بناء ثقتنا بشأن من نكون؟ إن هذه هى الخطوة الأساسية. وقد يستغرق الأمر جيلا من أجل تغيير الناس الذين الآن يعتقدون أنهم عرب". وفي مسعى لتعزيز عملية التجانس في إطار الإسلام والعروبة اضطهد النظام الإسلامي مرارا ودوريا أنظمة حلقات الصوفية ومنظمي طقوس الزار – وهو احتفال تقليدي يتم بغرض الشفاء من الأمراض ويقوم على الاعتقاد في الأرواح وينظر إليه على أنه خرافة.

وينظر إلى عملية التجانس على أنها مفتاح عملية بناء الأمة ليس فقط في السودان ولكن على مستوى كل دولة عربية فعليا (عزز لبنان تقليديا التنوع كعامل محفز في إطار نظامه الذي يقوم على التعددية في مسعى للتوافق بشأن توزيع السلطة بين الطوائف المسيحية والمسلمة المتعددة). وهنا فإنه ينظر إلى التأييد الأمريكي للتعددية وعدم التجانس بنوع من الشك- حيث يتم الحكم على السياسة الأمريكية في العراق وتعزيزها لنظام الطائفية الفيدرالية بالسلب لهذا السبب بالتحديد –على أنه صيغة لإضعاف وتقسيم وتفكيك الوحدة السياسية من أجل مصالحها الأنانية.

لقد نجحت حكومة السودان الإسلامية على الصعيد الفعلي في جعل العربية لغة تستخدم كلسان مشترك للجنوبيين حيث التنافس مع الانجليزية كلغة النخبة الجنوبية – وهى السياسة التي تم تعزيزها في البداية من خلال حكومة الاستقلال في 1956. فيما لم يعد جنوب السودان اليوم هو نفس الجنوب الذي حمل السلاح في عام 1983، في ضوء حقيقة أن نحو ثلاثة أو أربعة ملايين جنوبي يعيشون كنازحين في مدن كوخية تطوق العاصمة، ويشير ناشطو حقوق الإنسان في الخرطوم إلى دلائل على أن ظاهرة ختان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

البنات انتشرت من المجتمعات المسلمة في المدن الشمالية إلى الجنوبية المجاورة للمجتمعات غير المسلمة، في ضوء تبني الجنوبيين عادات الطبقة الاجتماعية المهيمنة(9).

وتعد هذه التجربة السودانية جزءا من تطور تاريخي أوسع في العالم العربي، فمعركة تعريب المنطقة تتواصل اليوم كما كانت دائما منذ الأيام الأولى للغزاة العرب الأولين منذ نحو 1300 سنة مضت. فقد انتشر مفهوم أن العرب يمثلون أصل الإسلام وأنهم هم الذين اليهم ومن خلالهم أتم الله رسالته للبشرية – شعب مختار على غرار اليهودية – منذ الغزوات العربية الأولى والتي استهدف القائمون عليها كسب مزيد من الشرعية لإمبراطوريتهم الشاسعة التي تطوق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ووفق رؤية علماء إسلاميين جدد فإن الإسلام كان ينظر إليه في الأصل باعتباره دين العرب وأنه فقط بمرور الوقت أصبح دينا لكل الشعوب، بغض النظر عن العرق أو الطبقة الاجتماعية.

وفي النهاية، فإن الإسلام الكلاسيكي خلال فترة الخلافة العباسية في بغداد استقر على فكرة اعتبار العربية اللغة المختارة من الله، بينما تم رفض ومعارضة فكرة أن العرب هم الشعب المختار من الله. ومن المتصور أنه ربما لم يكن عرب اليوم عربا لو لم يتم الاستقرار على فكرة اعتبار العربية "اللغة المختارة "، انطلاقاً من نظرية إعجاز القرآن غير المخلوق في هذه اللغة ، والذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من الوحي الإلهي منذ الأزل – وهى الفكرة التي تطورت في العصور العباسية وأغلقت الباب بشكل كبير أمام أي محاولات لترجمة الكتاب إلى لغات أخرى.

وقد تطلب التعريب قرونا من الغارات الشاملة بين الشعوب التي تم غزوها بعد الغزوات العربية في منتصف القرن السابع الميلادي. وتكشف وقائع التاريخ أن شعوب المجتمعات التي جرى غزوها في هذه العقود الأولى أصبحت في الغالب أعضاء بالاسم في القبائل العربية وأن هذه العضوية في المجتمع الإسلامي الديني الجديد كانت جاذبة حيث كانت تعني تجنب دفع المزيد من الجزية التي يتم تحصيلها من المسيحيين واليهود والزرادشتيين و الفئات الأخرى غير المسلمة في المجتمع. وكان هناك عوامل أساسية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أخرى في انتشار الدين الجديد، فأصوله العقائدية كانت قائمة بشكل جعله بمثابة استكمال للعقائد اليهودية والمسيحية وإعجازها وهى العقائد التي كانت تؤمن بها معظم الشعوب التي تعرضت للفتح العربي. كما كان من بين عوامل الانتشار تحويل الحكام العرب لغة الإدارة إلى العربية في المناطق التي تم غزوها.

وقد عززت وسائل الاتصال الحديثة والترفيه والإعلام والسياسات والتبادل التجاري اليوم الوحدة اللغوية والتفاهم المشترك على المستوى العربي بشكل أكبر عما كان عليه الوضع من قبل. وفي هذا الصدد تسود اللهجات المحلية العربية كل قطر عربي على حدة مع وضع متميز للهجة العواصم. وتتأثر هذه اللهجات الوطنية بدورها باللهجات الأخرى والعربية الفصحى. وينعكس هذا الوضع المتميز في أن اللغة العربية الفصحى والعامية تتفاعلان في الثقافات الشعبية والسياسات في العالم العربي اليوم بطريقة حيوية لصالح انتصار التعريب "في العالم العربي". ولقد أكد التعاون في مجال تعزيز التفاعل الثقافي بين أقطار المنطقة نفسها منذ الاستقلال، وبين هذه الأقطار وبقية العالم على التماثل والتجانس والشعور الأكبر برابطة قوية بينها هي العروبة أو الهوية العربية. كما عززت وسائل الإعلام والاتصال وضع أولئك الذين يشتركون في العناصر الثقافية وهمشت بشكل كبير تلك الأجزاء من الوجه الثقافي التي لم تعد مناسبة مع هذه التحولات على صعيد الإطار العام في المنطقة.

وفي ظل هذا النوع من التفاعل على خلفية قضية التعريب يوجد اليوم ما يمكن اعتباره نوعا من التمازج بين الهوية العربية – التي تعتبر الهوية الأسمى – والهويات الأخرى غير العربية، في ظل مسعى هذه الأخيرة للتأكيد على أنها تنبع من الأصل العربي الأسمى. وهو ما يتماثل إلى حد كبير مع ما سلكته العملية التاريخية للتعريب في الشرق الأوسط والتي بدأت مع الغزاة العرب في القرن السابع الميلادي وصلت إلى ما يمكن اعتباره قدرا من الانغلاق الثقافي. ويتناقض هذا التطور مع التقييم العربي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

للسياسات الغربية فيما يتعلق بالأقليات بشكل يؤكد أنه تقييم غير صحيح تماما ويجب إعادة النظر فيه.(*)

تدهور علاقات السودان مع الولايات المتحدة

مع حلولها محل بريطانيا عززت الولايات المتحدة التصورات القائمة بأنها ستحل محلها كذلك على مستوى المهام المنتظرة منها كقوة غربية، وفي هذا الإطار مدت يدها إلى السودان بعد الاستقلال مباشرة. وقبلت حكومة الخرطوم المساعدة الأمريكية في الوقت ذاته الذي كانت فيه الاتجاهات الشعبية تجاه أمريكا بدأت تتدهور بسبب علاقات مصر المضطربة مع واشنطن خلال فترة حكم ناصر. وقد تواصلت العلاقات الدبلوماسية لنحو خمس سنوات بعد الحرب الإسرائيلية العربية في 1967. وعندما قتل ثلاثة دبلوماسيين أمريكيين بمن فيهم السفير من قبل فلسطينيين في 1973، رفضت حكومة النميري تسليم مرتكبي هذه العملية إلى الولايات المتحدة حتى بعد ادانتهم . ولكن في ضوء تحرك مصر للتقارب مع الولايات المتحدة والابتعاد عن الإتحاد السوفييتي في عقد السبعينات، خطا السودان خطوات مماثلة في ظل حكم النميري الذي انتابه القلق آنذاك بشأن المساندة السوفيتية للأنظمة المجاورة في إثيوبيا وليبيا. وقد ساند النميري السلام المصري مع إسرائيل وتعاون عام 1985 في نقل يهود الفلاشا الإثيوبيين إلى إسرائيل رغم عدم وجود علاقات للخرطوم مع الدولة اليهودية. وأدى الاصطفاف الأمريكي المصري القائم على النأي عن بعض سياسات النميري إلى انتكاسة ما زالت متواصلة حتى اليوم، حيث تحول السودان بهدوء إلى التشدد الإسلامي، مثلما هو الحال في بقية العالم العربي الأمر الذي انتهى بتولي الإسلاميين السلطة.

---

* يشير المؤلف هنا إلى ان الواقع في العالم العربي يؤكد تسيد مفهوم العروبة سواء على مستوى الهوية أو مستوى اللغة وهو ما يراه يتناقض مع الرؤى التي تطرح من قبل الكثيرين من العرب بشأن دور الإستعمار أو السياسات الغربية عموما في تقويض العروبة، وإن كان يمكن الرد على ذلك بأن تقويض العروبة مثل هدفا أصيلا للسياسات الغربية وهو هدف حالت دون تحققه الكثير من العوامل من بينها تطور وسائل الإتصال الحديثة بشكل عزز من حالة العروبة، رغم ان الأطروحة الخاصة بأن العروبة تحيا حالة من الإزدهار في الوقت الراهن تبقى في أي الأحوال محل جدال.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وإثر ذلك تدهورت علاقات السودان مع الولايات المتحدة بشكل سريع بعد 1989. فوضعته على قائمة الدول المساندة للإرهاب في 1993 وفرضت عليه عقوبات عام 1997، وكان أسامة بن لادن قد غادر الخرطوم في ذلك الوقت إلى أفغانستان. وفي أغسطس 1998، أمرت إدارة كلينتون بقصف مصنع للأدوية خارج العاصمة الخرطوم اتهمته "السي أي ايه" بأنه ينتج موادا تستخدم في صنع أسلحة كيمائية إثر تحليل عينة تم جمعها بالقرب من المصنع كشفت عن وجود مواد كيماوية تستخدم في تصنيع غاز الأعصاب "في إكس". جاء الهجوم الأمريكي على مصنع الشفاء كرد فعل على الهجوم الانتحاري على سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام وصاحبته هجمات مماثلة على معسكرات تدريب للقاعدة في أفغانستان. وكان الهجوم على السفارة في الواقع نقطة البداية لحرب مفتوحة من "القاعدة" ضد الولايات المتحدة ومصالحها في المنطقة.

وأسفرت الهجمات الأمريكية على السودان، رغم ذلك، عن نقاش مكثف في الغرب بشأن الدوافع الأخلاقية والسياسية للسياسات الأمريكية، فيما أنها في العالم العربي أكدت بشكل كبير ما كان يعتقده الناس هناك بالفعل. وكشفت وسائل الإعلام في سخرية عن أن المصنع لم يكن يقوم بنشاط محظور وأن الهجوم عليه لم يكن سوى محاولة لإفلات الإدارة الأمريكية من مشاكلها بشأن فضيحة الرئيس كلينتون مع متدربة البيت الأبيض مونيكا لوينسكي. وقد كان الموقف يشبه الفيلم الذي أنتجته هوليوود في العام نفسه " هز ذيل الكلب wag the dog " وفيه استخدمت وسائل الإعلام لتوفير الانطباع بأن حربا تتم في أرض نائية من أجل تشتيت انتباه المواطنين الأمريكيين عن فضيحة جنسية تورط فيها الرئيس. وقد زعم كلينتون أن ملكية مصنع الشفاء تعود لأسامة بن لادن. ووصف المفكر اليساري الأمريكي نعوم تشومسكي الهجوم بأنه فظيع في ضوء كونه "دمر نصف إمدادات الأدوية لشعب أفريقي فقير وقضى على الإمكانيات التي تسد النقص في هذا الصدد من خلال خسائر بشرية هائلة" يمكن مقارنتها بهجمات 11 سبتمبر، أو أنها تعد أسوأ ، نظرا لعدم اهتمام الإدارة الأمريكية بالنتائج(10).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد أدان معلقون غربيون آخرون الهجمات على السودان، غير أنهم لم يروا فيها سوى أنها دليل على أن الولايات المتحدة "قوة حميدة" وأن المرء قد يرتكب أخطاء في بعض الأحيان، مستشهدين بمئات الآلاف من الضحايا الأفارقة جراء سياسات النظام الإسلامي في الخرطوم خلال الحرب الأهلية كدليل على أن ديكتاتورية العالم الثالث تعد أسوأ.

وقد وضعت ردود الفعل العربية، والتي تتميز إلى حد كبير بنوع من الثبات السودان في سياق أوسع بالنسبة للسياسة الأمريكية تجاه المنطقة، ولم يتم النظر إلى السودان على أنه حالة خاصة تستحق الدراسة سوى بشكل محدود، وعلى ذلك وفي إطار الاحتجاج على الهجوم خرج متظاهرون فلسطينيون يحملون ملصقات عليها صور بن لادن في مسيرة احتجاج في مدينة نابلس بالضفة الغربية بعد أن أصبح هذا المعارض الإسلامي للمرة الأولى معروفا بشكل كبير للشعوب العربية والإسلامية. كما انتشرت الاحتجاجات العنيفة في الخرطوم لعدة أيام كرد فعل على الهجمات وتم خلالها دوس أعلام الولايات المتحدة وبريطانيا بالأقدام أمام مقري سفارتي الدولتين، وعزز البشير صورته كزعيم عربي مسلم يقف في مواجهة مع واشنطن مع المشاركة في احتفالات عامة يسودها الغضب يمسك فيها الحضور بنسخ من القرآن ويحملون شعارات تحمل مطالب على شاكلة " كلينتون أقصف مونيكا وليس السودان".

وفي مقابلة على "الجزيرة"، قال البشير إنه لم يكن يتوقع مساندة كبيرة من القادة العرب في ضوء خشيتهم مهاجمة الولايات المتحدة. كما تحدث عن التحالف الصهيوني الصليبي في واشنطن – لغة الحركة الإسلامية المتشددة وكانت تتشكل حينئذ والتي كانت الهجمات تستهدف إسقاطها. وحسب قوله آنذاك:"لقد قلنا أن ردود الفعل العربية ضعيفة، ومع ذلك فقد تلقينا العديد من المكالمات الهاتفية من الكثير من الزعماء العرب يعبرون خلالها عن مساندة السودان ويستنكرون العدوان. ونحن نقدر هذه المواقف الأخوية. فهناك عدد كبير من الأطراف لا تريد أن تغضب الولايات المتحدة، على الرغم من أننا نعرف أنهم مقتنعون بأن ما تم القيام به من قبل الولايات المتحدة إرهاب. فإذا كان الإرهاب إلقاء قنبلة لقتل الناس الأبرياء، فإن الإرهاب سيكون أكثر خطورة عندما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يرتكب من قبل دولة تعتبر قوة عظمى وعضو دائم في مجلس الأمن ومسئولة أخلاقيا عن أمن وسلام المجتمع الدولي" (11). وأضاف أنه يوجد قدر كبير من العداء تجاه السودان في الإدارة الأمريكية. نحن نعرف أن الولايات المتحدة حاليا يقودها تحالف صهيوني صليبي، وأن الإدارة الأمريكية وهيئات صنع السياسة الأمريكية مسيطر عليها كليا الآن من قبل اليهود .

ومكررا نفس الطرح قال البشير في مؤتمر صحفي في المغرب مشيرا الي ان الاعتداء الأمريكي جاء بسبب وقوع الولايات المتحدة تحت السيطرة الكاملة من قبل القوى الصهيونية.. وفي الحقيقة فإن اليهود يسيطرون على كل مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة. وزير الخارجية، وزير الدفاع، مستشار الأمن القومي ، زعماء اللجان الخارجية والأمن والسي أي أيه، كلهم يهود(12).

وتركز انتقاد وسائل الإعلام الأوسع على حقيقة أن مصنع الشفاء كان مصنع أدوية في دولة من العالم الثالث، كما تركز على مشاكل كلينتون بشأن قضية لوينسكي، رغم حقيقة أنه بالنسبة لهذه القضية الثانية – كلينتون لوينسكي – فإن وسائل الإعلام العربية كانت تهتدي فيما تنشره وتبثه بما تلتقطه من وسائل الإعلام الغربية.

ويعكس تناول وسائل الإعلام العربية للأمر على هذا النحو فرضيتين شائعتين لديها بشأن الغرب تتمثلان في أنه يريد أن يوقف العالم النامي عن اللحاق به وأنه توجد دوافع خفية لانغماسه في المنطقة، تتجاوز المبررات المعلنة على الملأ. وحسبما قالت جريدة الشرق القطرية (13) فإن الولايات المتحدة ارتكبت خطأ – حيث طبقت قانون الغابة مستهزئة بوجهات نظر المجتمع الدولي. ومن خلال قصفها لمواقع في السودان وأفغانستان، فإنها لم تدرك أنها تكرر أعمالا تتسم بقدر أكبر من الطبيعة الإرهابية لا توازيها أعمال إرهابية أخرى .

كما أن صحفا مصرية ذات توجهات شبه حكومية أشارت إلى أن الحكومة يجب ألا تشارك الإسلام المتشدد تفكيره. وفي ذلك ذهبت صحيفة الأهرام المسائي المصرية إلى القول (14) أنه شئ مخجل أن تتصرف الولايات المتحدة على هذا النحو من العنف والبربرية، مضحية بحياة أناس أبرياء. ولكن اللوم على الأمة الإسلامية التي لم تعترض

www.ibtesama.com/vb Exclusive

على أولئك الذين يأوون القتلة والمجرمين المتنكرين في صورة مقاتلين من أجل العقيدة. وجاء رد الفعل الأكثر تطرفا من القاعدة نفسها، فقد اتصلت بعدة صحف للتأكيد على أنها ستعمد إلى الانتقام من الهجوم المزدوج على السودان وأفغانستان حيث توجد القاعدة. وقد اتصل الظواهري بنفسه بجريدة "ذي نيوز" الباكستانية للإدلاء بتصريح أشار فيه إلى أن الحرب بدأت مضيفا أن الأمريكيين يجب أن ينتظروا الرد. كما أن صحيفة القدس العربي التي تتخذ من لندن مقرا لها ذكرت أنها تلقت مكالمة تعد برد أشارت فيه إلي أن الحرب بدأت ، مضيفاً أن بالأفعال وليس الكلمات (15).

وبعد 11 سبتمبر، تعرض السودان لضغط أمريكي من أجل إنهاء الحرب والتعاون مع واشنطن ضد المتشددين الإسلاميين الذين استضافهم ذات يوم. وأرسل بوش، مستجيبا لدعوات من المسيحيين المحافظين في الولايات المتحدة، جون دانفورث الكاهن والأسقف الكنسي والسناتور السابق من ميسوري، ومبعوثه الخاص إلى السودان عام 2000، حيث تمكن من التفاوض على وقف لإطلاق النار بين حركة التمرد والخرطوم. ومع هذا النجاح، عززت واشنطن ضغطها من أجل مفاوضات شاملة تنهي القتال بشكل تام مع التلويح بعواقب وخيمة إذا رأت أن الخرطوم غير جادة في مواقفها، ما أدى إلى اتفاق سلام مبدئي في 2002 أطلق عليه "بروتوكول ماشاكوس" ولاحقا إلى نهاية رسمية للحرب عام 2005.

وقد أقر مشروع قانون السلام السوداني الذي وافق عليه بوش في أكتوبر 2002 إنفاق نحو 100 مليون دولار سنويا لمساعدة المناطق التي تقع خارج سيطرة الحكومة السودانية. كما حدد مشروع القانون قائمة من الإجراءات يمكن اتخاذها ضد الخرطوم اذا لم تواصل المفاوضات مع الجيش الشعبي لتحرير السودان بنوايا طيبة بما فيها بحث الأمم المتحدة حظر السلاح على الحكومة السودانية والإيعاز للمسئولين الأمريكيين بالمعارضة القوية لأي قروض أو عمليات ائتمان أو ضمانات للسودان من المؤسسات المالية الدولية، ورفض حق السودان في عوائد النفط وتخفيض أو وقف العلاقات الدبلوماسية معه. ولم يكن لدى واشنطن وجود دبلوماسي دائم في السودان منذ عام 1996 عندما انسحب الدبلوماسيون على خلفية أمنية. (مسؤول بعثة دبلوماسية ربما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يتحرك بين نيروبي والخرطوم) . وحقق الجهد الأمريكي من أجل السلام في السودان هدفه، على خلاف جهود مماثلة لإنهاء الحرب قادتها الهيئة الحكومية للتنمية لدول شرق أفريقيا (الإيقاد)، فضلا عن محاولة عربية أخرى جاءت متأخرة استهدفت إنهاء الحرب بشروط عربية قادتها مصر وليبيا.

وكانت الدول العربية، بإيعاز من مصر، اشتبهت في اتفاق السلام الانتقالي بسبب وضعه إطارا للحكم الذاتي في جنوب السودان مدعوما من قبل الولايات المتحدة، حيث يريد العالم العربي الحفاظ على وحدة السودان وعدم تفككه أو قيام دولة جنوبية. وقد أصبح نظام البشير متجاوبا مع الضغط الأمريكي الذي يستهدف وضع نهاية للحرب نظرا لما لحقه على شاكلة عدوه الجيش الشعبي لتحرير السودان من إنهاك، فضلا عن أماله بأنه عبر السلام، يمكن أن يستبدل عداوة واشنطن بدعمها له. ورغم الجدل الذي دار بشأن أغسطس 1998، فإن البشير نفسه رأى من أين تهب الرياح فجرد الترابي من سلطاته الكثيرة في انقلاب مصغر في إطار الزمرة الحاكمة في 1999. وقد فتحت تنحية الترابي الطريق أمام التقارب مع مصر والولايات المتحدة. ويسر توقيع اتفاق السلام النهائي في 2005 من تجنب الضغط الأجنبي على الحكومة في ذلك الوقت بشأن أزمة دارفور(انظر تاليا) وعلى هذا النحو شعر النظام بالحماية والأمان الأمر الذي يمثل هدفه النهائي، والمتمثل في الحفاظ على بقائه.

وكانت نهاية الحرب الأهلية على أرض الواقع والإبقاء على نظام الجبهة القومية الإسلامية في السلطة، وإيجاد ما وصفه الصادق المهدي بـ " الحكومة الثنائية" بين الحركة الجنوبية المستقلة والنظام العسكري والذي حول الحرب الأهلية بشكل كبير الى نزاع ديني عندما أتي الى السلطة عام 1989(16). وقد قسم اتفاق السلام السلطة بين الحكومة والحركة مخصصا عددا صغيرا من المقاعد في البرلمان للشماليين والأحزاب الجنوبية بشكل يماثل إلى حد ما النظام الطائفي في النموذج اللبناني.

ووفق رأي المهدي فإن ما وصل إليه السودان تقريباً ليس سوى دولة فاشلة، فدور الأمم المتحدة في السودان الآن أقرب إلى الوصاية. أنت يجب أن تسمي الأشياء بأسمائها. إن السودان هو تحت وصاية الأمم المتحدة الآن. لقد انتهت بنا الديكتاتورية إلى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

هذا الموقف، حيث خسرت الدولة معظم سيادتها (17). ومن الصحيح أن النزاع تم تدويله خلال حكم النظام الإسلامي، كما تم البدء في فرض عقوبات دولية على السودان، ووضعت بعض المجتمعات السودانية تحت حماية الأمم المتحدة، ومع ذلك فإن عملية الأمم المتحدة لإغاثة السودان وتزويدها بمساعدات غذائية بدأت في ظل حكومة المهدي.

وقد واجهت الخرطوم احتمال أن يسمح مجلس الأمن الدولي باستخدام القوة ضد الحكومة بشأن أزمة دارفور غرب السودان، ولكنها قبلت بتدخل قوات من الإتحاد الإفريقي لمراقبة وقف النار بين الأطراف المتحاربة في المنطقة، والتي تعادل مساحة دولة مثل فرنسا. ووفق تحذير لجنة الأزمات الدولية التي تتخذ من بروكسل مقرا لها في تقرير صدر في أكتوبر 2005 (18) فإن القائمين على عملية التطهير العرقي في دارفور يتمتعون بنفوذ في حكومة الوحدة الوطنية الجديدة، وهو ما يجعلها ترفض اتخاذ الخطوات العسكرية والسياسية المطلوبة لحل النزاع : تحييد مليشيا الجانجويد، وإقامة سلطة حقيقية والمشاركة في الثروة بين دارفور والخرطوم .

فقبل عام 1989، لم تكن هناك مشكلة إنسانية تتعلق بترحيل المواطنين واللاجئين، كما لم تكن توجد جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، ولم تكن قضية العرقية مسيسة كما هو عليه الأمر اليوم، فيما أن حكومة الخرطوم الآن تلتمس مساعدة الولايات المتحدة لتتخلص من مشاكل ما بعد الحرب، سواء كانت تعويضا أو بدلا من أجل صنع السلام مع الجنوب. وحسبما ذكر السفير السوداني في الولايات المتحدة خضير هارون فإن الولايات المتحدة قامت بجهد في عملية السلام على النحو الذي يجب معه الآن إنهاء العقوبات وإلزام المانحين في أوسلو بتنفيذ تعهداتهم والتزاماتهم للمساعدة في تحقيق السلام الدائم. ويوجد أكثر من نحو أربعة ملايين شخص في الشمال نازحين من الجنوب (19).

وحسب رؤية الكثيرين لم تكن الحرب تتطلب انغماسا أمريكيا فيها خلال عقد التسعينيات، وأن الأمر يشير إلى أنه من منطلق المعارضة الأيديولوجية للخرطوم، دعمت الولايات المتحدة المتمردين الجنوبيين سواء عسكريا أو سياسيا، بشكل لم يشجع الجيش الشعبي لتحرير السودان أن ينشد تحقيق السلام. كما تلقى السودان في الوقت

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ذاته، مساعدات عسكرية من مجموعة من الدول لها عداوات مع الولايات المتحدة تشمل إيران والعراق وماليزيا. أما الممولون الآخرون فمن بينهم فرنسا (وهى الوحيدة من بين الدول الغربية)، جنوب أفريقيا، ودول الكتلة السوفيتية السابقة(20).

وقد ذكر الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في أبريل 2001 أنه على مدى السنوات الثماني الأخيرة، انتهجت الولايات المتحدة سياسة تجاه السودان كنت أرفضها بقوة، تقوم على مساندة الحركة الثورية وعدم العمل من أجل اتفاق سلام شامل (21). وقد جاء الدعم الأمريكي للجنوبيين رغم الحقيقة الماثلة في أن جماعات الحقوق الدولية كانت توجه نفس الانتقادات الشديدة إلى الجيش الشعبي لتحرير السودان الذي وصفته منظمة "هيومان رايتس ووتش" بأنه ارتكب انتهاكات بشعة لحقوق الإنسان. وكان ينظر إلى السياسة الأمريكية في العالم العربي أنها تلتزم بشكل غير عادل جانب أحد الأطراف وأنها متأثرة بشكل واضح بالبعد الأيديولوجي: فالمسيحيون والأفارقة جيدون والمسلمون والعرب سيئون.

اللوبي المعادي للسودان

بعيدا عن التوجه الإسلامي المتشدد للخرطوم، يعتبر اللوبي السرطاني الخبيث المعادي للسودان أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في تحديد الموقف الأمريكي مما يجري في السودان، وهو لوبي يحظى بالكراهية في العالم العربي، بشكل تجنبت أحزاب المعارضة الشمالية أي اتصال معه. وهذا اللوبي كبير ويتسم بالتنوع، حيث يضم منظمات وجماعات ضغط من مختلف ألوان الطيف – بدءا من الجماعات الأصولية المحافظة المسيحية إلى الليبراليين والمنظمات اليسارية للأمريكيين الأفارقة، وقد علت أصواتهم وقويت خلال عقد التسعينات وسط تزايد النقاش الذي اتسم بالغضب في الغرب جراء ما يحدث في السودان. وكانت بعض عناصر هذا اللوبي يعيبها نقص المصداقية ومن هؤلاء الناشطة السودانية الجنوبية المستقلة التي تسمى كولا بوف مؤلفة كتاب "القطار الطويل إلى الخطيئة المغفورة: قصص نساء أفريقيات" والتي ذاع صيتها إعلاميا في الولايات المتحدة بشكل سئ من خلال الزعم بأنها لم تتعرض لصدور فتوى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ضدها في 2002 بإهدار دمها بسبب حملتها ضد العبودية وظهورها عارية وارتدادها عن الإسلام (ولدت لأب مسلم) فحسب ، ولكنها أرغمت على علاقة غرامية مع بن لادن في المغرب عام 1996 وفي مرحلة أخرى مع الترابي(22).

ومن بين الحالات البارزة التي حظيت باهتمام وسائل الإعلام الغربية، ميندي نازر والتي ذكرت في كتابها الصادر عام 2004 بعنوان "عبدة" أنها اختطفت في عمر 12 عاما من جبال النوبة وتم اقتيادها إلى الخرطوم ثم من هنالك إلى لندن حيث عملت كخادمة لدبلوماسيين سودانيين (*) من الطبقة الراقية (23). وقد راحت جماعات الحقوق المدنية وجماعات الحقوق المسيحية توجه اللوم بشكل أساسي للسلطات السودانية بشأن اضطهاد وتهميش السودانيين الجنوبيين المسيحيين وإغماض عينها عن ممارسات العبودية وانتهاكات أخرى أساسية لحقوق الإنسان.

وقد أشارت وسائل الإعلام العربية إلى وجود روابط بين جماعات الضغط تلك والمنظمات المناصرة لإسرائيل والأصولية المسيحية في الولايات المتحدة، واعتبرت أن الحملة ضد العبودية في السودان تعكس بشكل جزئي تنامي اللوبي المناصر لإسرائيل. ومن بين هذه الجماعات "المجموعة الأمريكية ضد العبودية والتي أقامها عام 1993 تشارلز جاكوبس صاحب التاريخ الطويل في مساندة سياسات الجناح اليميني الإسرائيلي. وقد عمل تشارلز عن قرب مع الجناح اليميني، التحالف القومي الليكودي الموحد من أجل إسرائيل وكان رئيسا للجنة تمثل أصدقاء إسرائيل تؤيد ضم الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل عام 1967.

وقد أصبح جاكوبس عام 2000، رئيس الحملة السودانية ، وهو تحالف من الحركات المناهضة للحكومة السودانية وتسعى إلى الربط بين أحداث السودان في عقول الأمريكيين وصور عبيد المزارع في القرن التاسع عشر، لتقديم القضية بشكل أكثر عرقية وفي سياقات دينية وخلق انطباع بوجود تجارة عالية التنظيم للرقيق تمارس من قبل الدولة السودانية نفسها. ويرى جاكوبس كذلك وجه شبه بين معاناة السودانيين غير

* خاض أحد هؤلاء الدبلوماسيين وهو عبد المحمود نور الدائم الكرنكي معركة قانونية انتهت لصالحه ضد صحيفة بريطانية شهيرة ورضي بتسوية مالية.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العرب اليوم ومعاناة اليهود في الأزمنة التوراتية. ومع حلول عام 2004 وفيما يبدو نجاحا لجهوده وجه الشكر للضغوط التي تمت من قبل تحالف لم يكن محتملا وشمل جماعات مسيحية ويهودية، وتكتلا من الأعضاء السود في الكونجرس، وزعماء الكنيسة السوداء والناشطين العلمانيين، والتي جعلت من وقف عمليات الرعب الجارية في السودان الآن سياسة أمريكية (24)

وقد سببت اتهامات الاسترقاق والاضطهاد الديني، خسارة كبيرة للحكومة. وكان مركز الحريات الدينية الذي يدار من قبل "فريدوم هاوس" ومقره واشنطن، من بين الجهات المتعددة التي وقفت في قلب الحملة ضد الحكومة وزعم في عام 2001 أنه " لا يوجد مكان على الأرض يمارس فيه اضطهاد ديني بشكل أكثر وحشية .. من السودان"(25). وفي 2003 أطلق "معهد الأخدود العظيم" وهو منظمة بريطانية كينية غير حكومية، قاعدة بيانات عن المختطفين في السودان، مع تفاصيل عن 11 ألف حالة اختطاف لجنوبيين من المناطق التي يسودها التمرد. وقال المعهد أنه وثق آلاف الحالات لتحرير العبيد الذين أرغموا على التعرب والتأسلم من قبل خاطفيهم (26). وتعمل الحملات على اكتساب التأييد لمواقفها. وقد استضاف برنامج إذاعي ناشطين ضد السودان منهم والتر .إي . فوتوري عضو وفد الكونجرس السابق عن منطقة كولومبيا وجو ماديسون ومايكل هورووبتز من معهد هدسون حيث ربطوا أنفسهم بجدار أمام السفارة السودانية في 2001 بهدف القبض عليهم من أجل جذب لفت الأنظار إلى "الاسترقاق في السودان".

على المستوى السياسي، ساهمت هذه الجماعات في ضغط إدارة بوش على الخرطوم من أجل تنفيذ الشروط المتفق عليها مع الجنوبيين. وفي ذلك أشارت منظمة التضامن المسيحي التي توجد في سويسرا عام 2005 إلى أنها اعادت بالتعاون مع الحكومة نفسها، 880 إلى منازلهم في منطقة بحر الغزال جنوب السودان كجزء من برنامج المجموعة الخاص بتحرير العبيد على الرغم من أن هذه الأرقام تعتبر أقل بكثير من عشرات الآلاف الذين جرى اختطافهم لعدة سنوات وتحريرهم جميعا. ويعد السودان وفقا لما ذكرته الأمم المتحدة عام 2004 واحد من بين 15 دولة تستخدم فيها الحكومة و/

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أو الجماعات المتمردة الأطفال كجنود. وخلال نزاع دارفور كان يتم اختطاف واغتصاب النساء باعتبار ذلك من بين أسلحة الحرب(27).

في مقابل ذلك حاولت الخرطوم أن تتحرك لرد اللطمات الموجهة لها، فعملت على إنشاء جماعة ضغط مكونة من عدة منظمات تطلق على نفسها "مجلس الشؤون العامة الأوروبي السوداني" حاولت أن تقدم رؤية مخالفة بشأن خصوم للعرب والمسلمين يتسمون بالجنون انخرطوا في حملة تقوم على المبالغة المتعمدة وتعمد إلى احتكار الرأي العام في الولايات المتحدة في ضوء الوضعية الخاصة للحديث عن العبودية نظرا لما للمفهوم من صدى عاطفي لأسباب تاريخية. وحسبما ذكر المجلس: "لقد دمر السودان بفعل الحرب الأهلية التي استمرت عقودا. ومنذ 1983 فإن الحرب في الجنوب كانت قتالا ضد الحكومة السودانية من قبل الجيش الشعبي لتحرير السودان. إنه نزاع تم تشويهه من خلال الاستخدام المتعمد للدعاية. ومن بين أساليب هذه الدعاية طرح الأمر على أنه عبودية"(28).

وقد وثق المجلس حالات لمنظمات إغاثة جرى خداعها من خلال الاعتقاد بأنهم يحررون "عبيدا"، فيما أن هؤلاء لم يكونوا يقومون على المستوى الفعلي سوى بخداعهم من اجل المال أو شن حملة تحت دعوى "تحرير العبيد" بتواطؤ محلي، حيث يتم شراء هؤلاء العبيد من قبل الجماعات الحقوقية التي تمنحهم حريتهم من أجل الحصول على أموال من المنظمات المانحة الغربية الساذجة(29).

ويشير بعض الناشطين الحقوقيين إلى أن النقاش الجاري بين الغرب – الولايات المتحدة بشكل أساسي – والعالم العربي بشأن حقوق الإنسان في السودان تم تسييسه إلى حد أن بعض الحقائق بشأن العلاقة التاريخية بين المجتمعات في السودان تم حجبها أو إدخالها في طي النسيان. وطبقا لأحمد مفتي السوداني الذي يترأس لجنة القضاء على اختطاف النساء والأطفال التي تساندها الأمم المتحدة والحكومة فإن العبودية ممارسة تقليدية تدهور وضعها جراء انتشار الأسلحة الحديثة في الحرب الأهلية(30). لقد كان الاختطاف شائعا لأجيال فيما بين القبائل البدوية التي كانت تلعب على الانقسام الثقافي بين الشمال والجنوب في جنوب غرب السودان حيث المنافسة على رعى الماشية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وموارد الماء في الصحراء القاحلة. وحسب قول آل مفتي الذي ينحدر من شمال دنقلة فإنه قبل 1999، لم تكن هذه القبائل تتحدث إلى الأخرى، بل إنها لم تكن تعترف بأن تلك مشكلة. إذا قلت لهم أن هذا "اختطاف" فإنهم لن يفهموا.. إن إستراتيجيتنا هي الحديث إلى القبائل بأنهم إذا تعاونوا معنا فإنه لن يكون هناك إجراء قانوني يتخذ بحقهم. إذا سلكنا طريق القانون والنظام ، فربما واجهنا مشاكل كبيرة.هؤلاء الناس مقاتلون (31).

أزمة دارفور

في ظلال حرب العراق، بدأ عام 2003 تمرد في دارفور، تلك المنطقة شاسعة المساحة في غرب السودان. وفي رد فعل على ذلك، دعمت الحكومة المليشيات القبلية، والقبائل البدوية المسلحة. وعلى الفور ارتسمت خطوط التقسيم : حركة التمرد التي تسمى جيش تحرير السودان وتمثل المقيمين الدارفوريين الذين سميت المنطقة نسبة إليهم (بالعربي : أرض الفور). وقد ساندت الحكومة القبائل العربية البدوية، فيما كان جيش تحرير السودان يقاتل إلى حد كبير على نفس خلفية مجموعة القضايا التي حمل الجنوبيون السلاح من أجلها : الفقر والتهميش. كما أنه كان يقاتل أيضا بسبب النزاع القائم بالفعل مع القبائل العربية، فقد أجهز التصحر على علاقة التعايش بين المزارعين العرب والقبائل المهاجرة، في ضوء سعى كل مجموعة حماية مواردها على حساب الأخرى. وتسبب الجفاف الذي لحق بالمنطقة منتصف الثمانينات في توجه مئات الآلاف من الدارفوريين إلى الخرطوم.

غير أن ما أشعل شرارة الوضع في دارفور منذ 2003 تمثل في درجة الدمار الذي عانى منه المقيمون الدارفوريون وطبيعة تلك المعاناة – فالقبائل البدوية لم تكن فقط مسلحة جيدا، ولكنها كانت تطبق ما يبدو أنه سياسة منظمة لاقتلاع السكان، أو ما أصبح يطلق عليه في الوقت الراهن التطهير العرقي. وقد جاء الجنجويد، كما يشير إليهم الضحايا في دارفور، بـ "أسلحة خفيفة ومتوسطة وبنية اتصال داخلية فضلا عن الحصانة"(32). كان الأمر تكرارا لسياسة الأرض المحروقة بشكل اتهمت معه جماعات حقوقية نظام الخرطوم باستخدامها من أجل تطهير القرى الأفريقية في المناطق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الواقعة في إطار خط الحدود الوعر بين شمال وجنوب السودان حيث بدأت شركات النفط الدولية تستكشف وتستخرج النفط منذ التسعينات.

كما كان النزاع يعكس التحول في أيديولوجية السودان منذ بدء الحرب الأهلية، حيث يحظى "العربي" و"المسلم" بوضع يفوق "الأفريقي"، فسكان دارفور، سواء الرحل أو المقيمين مسلمون ولكن بعض الكتاب ذهبوا إلى أن المتعصبين للعرقية العربية شنوا غارات على القبائل في دارفور منذ الثمانينات، معززين من ليبيا. ومنذ الانتخابات الإقليمية في 1981 تجمعت القبائل العربية سويا في "التجمع العربي" يحكمها هدف أساسي هو انتزاع السيطرة على دارفور من قاطني القرى والمدن بالإقليم الأكثر عددا، الذين لا يعتبر معظمهم من الناطقين بالعربية(33). واستخدمت القبائل المقولة التقليدية في السياق السوداني، بأنه في ضوء كونهم ينحدرون من قبيلة قريش التي ينحدر منها النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة المكرمة فإنه من حقهم أن يكونوا في موقع الحكم. كما تم تقديم أطروحات أخرى لشرح موقف الحكومة تشمل: أن الحفاظ على الجيش منهمكا في عمليات، وتوفير مصادر جديدة للانتفاع ، وإضعاف مساندة حزب الأمة في دارفور.. يوفر ذريعة من أجل العمل بقوانين الطوارئ وسياسات القمع في وسط وشمال السودان.

وأسفر النزاع منذ 2003، عن مقتل عشرات الآلاف من الأشخاص وأجبر أكثر من مليوني شخص على الفرار من منازلهم، حيث يقيمون في معسكرات بائسة ويواجهون احتمال وقوع هجمات عليهم في أغلب الأحوال. وتتباين التقديرات بشأن عدد الذين لقوا حتفهم جراء القتل والجوع والأمراض بشكل كبير – مع نهاية 2004، كان رقم الـ 70 ألف شائعا ويتم الاستشهاد به. ومع أوائل 2005، تحدثت بعض المنظمات عن 400 ألف شخص. وارتقت أزمة دارفور إلى احتلال مرتبة متقدمة في أجندة الأخبار العالمية منتصف 2004. وبعد ذلك بقليل أعلنت إدارة بوش عن عمليات إبادة تجري هناك. غير أن لجنة من الأمم المتحدة أشارت في يناير 2005 إلى أن الحكومة ليست جانية بشأن الإبادة ، وأن بعض الأفراد ربما يكونون تصرفوا بنية الإبادة.. وقدمت

www.ibtesama.com/vb Exclusive

اللجنة تفاصيل عن فظائع واسعة تم السماح بها من قبل الحكومة السودانية ونفذت من قبل ميليشيا الجنجويد.

وحسبما ذكرت اللجنة: " لقد وجدت اللجنة أن القوات الحكومية والميليشيا قامت بهجمات عشوائية، تشمل قتل المدنيين، وتعذيبهم وإجبارهم على الاختفاء، فضلا عن تدمير القرى وعمليات اغتصاب وأشكال أخرى من العنف الجنسي، والنهب وعمليات إجبار على الرحيل من دارفور. هذه الأعمال تم ارتكابها على نطاق واسع وعلى أساس منظم ولذلك ربما تعد جرائم ضد الإنسانية (34). وتعتبر الإبادة، وفق القانون الدولي، جريمة تتم بنية محددة – ولتوجيه التهمة بالقيام بالجريمة يجب أن يتوافر لدى الأطراف المتهمة بها اعتزام الإجهاز على كل أو جزء من مجتمع عنصري أوعرقي أو قومي أو ديني معين. خرج هذا التصنيف إلى الوجود على نطاق واسع بفضل جهود يهودي بولندي يدعي رافائيل ليمكين كان يعمل من أجل صياغة قانون يحدد ذلك النوع من الإرهاب الذي يتم ممارسته عبر حملة متواصلة ويستهدف إنكار حق مجموعة محددة في الوجود.

وقد لعب ليمكين دورا أساسيا في صياغة معاهدة 1948 الخاصة بحظر الإبادة الجماعية. ولكن تقرير الأمم المتحدة بشأن دارفور خلص إلى أن القبائل المختلفة موضوع الهجمات والقتل، لا يبدو أنها كانت تقوم بتمييز مجموعات عرقية عن المجموعة التي منها مهاجموها. وقد أرسل الإتحاد الأفريقي قوة إلى دارفور، غير أنه لم يتم نشر قوات دولية(*)، ولم تتخذ الأمم المتحدة عقوبات ضد الخرطوم.

وفي 2005، قدم مجلس النواب الأمريكي قانون محاسبة السودان بشأن دارفور دعا من خلاله إلى تعزيز قوة الإتحاد الأفريقي، وفرض منطقة حظر طيران، وفرض حظر مشدد على تصدير السلاح. ولعبت حكومة الخرطوم فيما بعد بـ "ورقة القاعدة" في محاولة منها لمواجهة المحاولات المتزايدة لتدويل النزاع. وقال البشير إن مثل هذه القوة يمكن أن تكون عودة إلى الاستعمار، في الوقت ذاته الذي أعلن فيه الإسلاميون من

* تقرر لاحقا بعد جولات من المفاوضات بين الخرطوم والأمم المتحدة حشد قوة مشتركة من المنظمة الدولية والإتحاد الأفريقي قوامها 26 ألف جندي من المفترض أن نشرها قد اكتمل.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خارج الحكومة أنهم سيقاتلون مثل هذه القوة. كما كان أنصار بن لادن كذلك، على ما يبدو، يعدون أنفسهم لاحتمال نشر قوات غير أفريقية في السودان. وفي رسالة مصورة بالفيديو بثت على قناة "الجزيرة"، دعا أيمن الظواهري المسلمين إلى قتال القوات الأجنبية التي ترسل إلى دارفور.

غير أن هذه الإجراءات التي تضمنها قانون مجلس النواب بدت مثل رشاوى للرأي العام الذي كان يميل، إزاء متغيرات عديدة، إلى الاعتقاد بأن الإدارة الأمريكية ربما تأخذ خطوات كبيرة بشأن دارفور، بعد المذبحة التي راح ضحيتها 800 ألف شخص في رواندا و200 ألف في البوسنة خلال التسعينيات. وقد قاومت الإدارة الأمريكية الضغوط التي استهدفت تحويل القضية إلى المحكمة الجنائية الدولية بسبب معارضتها المبدئية للكيان الجديد الذي أقيم عام 1998 على خلفية خشيتها من أن يمثل المواطنون الأمريكيون أمام هذه المحكمة في قضايا تتعلق بدوافع سياسية. وقد منحت المحكمة في النهاية السلطة للأمم المتحدة لبدء تحقيقات جرائم حرب في دارفور في يونيو 2005.

ومن المثير للسخرية، من المنظور العربي ، أن هذه الحالات ذات الدوافع السياسية التي وردت في ذهن واشنطن يمكن أن تتضمن النزاع العربي الإسرائيلي والسياسات الأمريكية في العراق. وقد أوصى تقرير الأمم المتحدة بمثول مسئولين من الحكومة السودانية وقادة ميلشيا لم يحدد أسماءهم أمام المحكمة الجنائية الدولية(*). وفي الوقت ذاته، اعترض مجلس الأمن على اقتراحات بفرض عقوبات على صناعة النفط السودانية. كما اندلعت نزاعات في شرق السودان كذلك ، حيث تعيش قبائل شعوب البيجا في فقر رغم استقرارها في المنطقة التي لا يوجد بها سوى الميناء السوداني الوحيد ، وخط النفط الرئيسي الذي يحمل الصادرات من الخام وأكبر منجم للذهب في الدولة.

على الصعيد العربي جرى تأييد موقف السودان بشأن مختلف هذه القضايا من قبل الدول العربية، في الوقت الذي راح فيه معظم المراقبين السودانيين يبدون شكوكهم

* يقف الكتاب عند هذه المرحلة مع ما هو معروف من تطور القضية إلى مرحلة أكثر درامية انتهت بصدور مذكرة من المحكمة الجنائية الدولية باعتقال الرئيس السوداني البشير على خلفية إتهامه بالضلوع بدور في جرائم الحرب التي ذكرت المحكمة أنها جرت في دارفور وبرأته من تهمة الإبادة.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بشأن أبعاد دور الولايات المتحدة في المنطقة. وفي تحليل يعكس هذه النظرة ، يشير أحمد نقد إدريس الكاتب في صحيفة "أخبار اليوم" السودانية الموالية للحكومة إلى وجود تشابه في السياسة الأمريكية تجاه العراق والسودان – مساندة الأقليات بما يساعد على إضعاف الحكومات المركزية التي تعارض واشنطن.. وحسب قوله فإنه بسبب خسارة الكاوبوي الأمريكي المعركة على الأرض، فإنه كالعادة ذهب إلى إثارة الحزازات المدنية بين أبناء الدولة والدين الواحد، الشيعة والسنة، عبر ذلك القانون الكارثي الذي كتب في البيت الأبيض بتسرع ليس له ما يبرره"(35). وواصل قائلا إن المخابرات الأمريكية في تحديدها لطبيعة المجتمع السوداني، تفعل ذلك بشكل يقوض من عمق هويته العربية، فموقع السي أي إيه يذكر أن السودان يضم 39% من العرب و25% من السود، 6% من البيجا، و20% أجانب و10% آخرين، وحتى هؤلاء المشمولون ضمن نسبة الـ 39% الذين يقولون أنهم عربا ينحدرون من أصول سوداء وليست العربية سوى لغتهم فقط مهما كانت كراهيتهم للأمريكيين.

وقال إدريس إن الإدارة الأمريكية تحاول منذ 1967 سنة الحرب العربية الإسرائيلية أن تغير وضع السودان في العالم العربي. " إنهم يريدون تغيير هويتنا، الأمر الذي يمكن أن نلمسه من ذلك العنوان الذي نشرته جريدة "أخبار اليوم" في 12 مايو 1968 وأشارت فيه إلي ان متحدثاً باسم الحكومة يقول أن السودان لن يستأنف علاقاته الدبلوماسية مع أمريكا ويتهم أمريكا بالسعي لإلحاق هزيمة بالأحزاب الحكومية في الانتخابات الأخيرة من أجل تغيير موقف السودان تجاه القضية العربية (إسرائيل والفلسطينيون) . كما أشار إدريس كذلك إلى أن الجنوبيين الذين لا يتكلمون العربية لا يجب أن يتولوا الوزارات السيادية في الدولة. " نحن أعطينا جنوبنا أكثر مما يستحق في الأرض، المال والسلطة، بدون طلب فاتورة التضحيات، الدم والمال، نحن ولدنا في الشمال حيث نواجه الأسلحة الأمريكية التي استخدمها ضدنا حليف الولايات المتحدة، الجيش الشعبي لتحرير السودان.

على المنوال ذاته، أشار الروائي المصري المشهور جمال الغيطاني إلي ان مصر لديها مقوماتها الخاصة، وكذلك المغرب، اليمن، العراق، سوريا، السودان، ولكن كلهم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

متحدون من خلال رابطة ثقافية تقوم على اللغة، وهذه اللغة المقدسة تواجه خطرا كبيرا من قبل عوامل عديدة، رغم وجود القرآن الذي يحميها ويشكل أحد أسس تماسكها. هناك ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية تضعف من هذه اللغة، وأنا أخشى أن نجد أنفسنا يوما ما نقرأ القرآن بدون فهمه، مثل الأتراك والمسلمين في جنوب شرق آسيا (36). حتى الترابي، الرجل الذي دافع عن إيديولوجية يرى الكثيرون أنها كانت سببا في حدوث أزمة دارفور قال لمحطة تليفزيون عربية انظر كيف يرانا العالم الآن، فسواء كنا نحب ذلك أم لا، فإننا نمثل العروبة والإسلام. وأنا لا أريد أن تكون تلك صورتنا(37).

كما أبدى معلقون سودانيون يكتبون في وسائل إعلام عربية، حذرهم من حركات المعارضة التي تتمتع بمساندة أجنبية رغم تأكيدهم على معارضتهم للنظام الإسلامي القائم في السودان. وفي ذلك كتب عبد الوهاب الأفندي في جريدة "القدس العربي" أن الوقت لم يعد في صالح متمردي دارفور والولايات المتحدة بعد توصل الحكومة إلى السلام مع الجنوبيين. مفاوضو دارفور فوتوا فرصة اشتداد الضغوط الدولية على الحكومة وعدم نضج اتفاق الجنوب للحصول على شروط تفاوضية أفضل. وعلى مفاوضي دارفور أن يدركوا أن الخيار العسكري بالنسبة لهم قد انتهى فالمجتمع الدولي لن يسمح لهم بشن الحرب على حكومة الوحدة الوطنية أو أن يهددوا اتفاق السلام (38).

أما المعلق السياسي حسن ساتي(*) الذي يظهر كثيرا على شاشات التلفزيون العربية فقد كتب انتقادا مماثلا أشار خلاله إلى استهداف الحكومة الإسلامية في السودان من قبل واشنطن بسبب التغير الكامل في أيديولوجيتها، الأمر الذي يخضع للمتابعة الدقيقة، على شاكلة الوضع بالنسبة لما يجري على صعيد طالبان. ولكن بينما يشترك الطرفان، الحكومة الإسلامية وطالبان في الكثير من الجوانب، فإن المشروع الإسلامي في السودان، حسبما يرى ساتي، له جذوره مقارنة بالوضع في أفغانستان وستجد الولايات المتحدة صعوبة في أن تقتلعه. ووفق رأي ساتي أنه بينما تعود نشأة طالبان إلى باكستان، فإن وضع الحكومة الإسلامية في السودان مختلف. فقد بدأت مع الحركة الإسلامية المصرية، ثم سلكت طريقها عبر مجموعات عديدة، من الإخوان المسلمين إلى

* توفي 30 نوفمبر 2008 إثر أزمة قلبية

www.ibtesama.com/vb Exclusive

جبهة الميثاق الإسلامي والجبهة القومية الإسلامية، ثم المؤتمر الوطني الحاكم. .. إن الحركة الإسلامية في السودان لها قواعدها في الصفوة والتكنوقراط ، وليس المدارس الدينيـــة (39).

ولكن لن يكون هناك حسبما قال ساتي طريق مختصر إلى الديمقراطية والحرية وإنما يجب تضافر مجموعة من الظروف مجتمعة من أجل الوصول إلى مستوى من النضج يسمح بانطلاق الديمقراطية من تلقاء نفسها، رغم إمكانية تسريع الأشياء في بعض الأحيان من خلال محفزات، وهذا هو بالضبط ما يحاول العم سام أن يفعله، من خلال الضغط المكثف لتحقيق الإصلاح السياسي وخطط مثل مشروع الشرق الأوسط الكبير. لذلك فإننا يمكن أن نحلم بانتشار الديمقراطية في هذه الألفية، سواء عبر عصا العم سام أو عبر اختيار الناس الذين يعنيهم الأمر. وقد حصلنا على المثال الأفغاني اليوم وربما المثال السوداني غدا .

أما على صعيد النخبة المثقفة الجنوبية فإنها تتواجد بشكل محدود في وسائل الإعلام العربية في السودان – وتعد "خرطوم مونيتور" التي تصدر بالإنجليزية واحدة من نوافذهم القليلة في العاصمة ، وتواجه في الغالب خطر الإغلاق بسبب الرقابة الحكومية. ورغم ما أبداه القوميون العرب من شدة تجاه الكثير من الأقليات فقد كانت اللغة العربية رغم ذلك تمثل أحد الأسس التي توفر أساسا للاندماج في القطاع العريض للمجتمع، على نحو ما فعله أقباط مصر ومسيحيو لبنان بحيوية بالغة بشكل سمح لهم بأن يكونوا ناقلين للأدب.

غير أن الوضع مختلف بالنسبة للمثقفين الجنوبيين في ضوء أن الأدب العربي يقع خارج نطاق دائرة اهتمامهم، وفي ضوء استعمالهم للغة الإنجليزية بما يجعلهم في تناقض مع الشماليين وبقية العالم العربي. وقد نفذ عمر شركيان من هذا الجانب فيما يتعلق بهذه القضية من خلال ما كتبه على موقع www.sudanesonline.com بعد مصرع جارانج في أغسطس 2005 في حادث طائرة هيلوكبتر حيث قال(40): "من المؤكد، أنه عندما تسود القناعة لدى أكثر من 12 مليون شخص بأنهم ملفوظون في الدولة التي يعيشون فيها، وأنه لم يعد هناك أي أساس للوحدة بينهم وبين المجموعات

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأخرى، فإن الوحدة حينئذ لا يمكن لها أن تجد طريقها إلى الوجود. لا يمكن أن تقتل آلاف الأشخاص، وتواصل قتل المزيد، باسم الوحدة. لا توجد وحدة بين الأموات، وأولئك الذين يقتلونهم، وما زالوا للأسف يقتلونهم. لا توجد وحدة في ظل العبودية والهيمنة. إن المجتمع السوداني يبدي انزعاجه من الحوادث التي لا يمكن حصرها من الأمراض الاجتماعية بما فيها العنصرية والقبلية والتعصب الديني الأعمى والطائفية والاستغلال والاستعلاء الثقافي، والتمييز على أساس النوع، وهلم جرا. وقد لمس جارانج، قدرا كبيرا من هذه الممارسات الخاطئة في المجتمعات الشمالية والتي كانت تبدو واضحة في النكات العربية، الفلكلور، العلاقات بين الجيران، وسائل الإعلام، فرص العمل، والسياسات الحكومية".

ومع الاهتمام الدولي المكثف، الأمر الذي انعكس في تزايد وتيرة استخدام توصيفات مثل الإبادة، والتلويح بعقوبات من الأمم المتحدة ، وإجراء محاكمات في لاهاي، بدأت وسائل الإعلام العربية تولي أزمة دارفور المزيد من الاهتمام الجاد بالأزمة بشكل ربما يتجاوز ما أولته من اهتمام بالحرب الأهلية. فقد واجه مسئولون حكوميون أسئلة بدا مضمونها شديد اللهجة على قنوات التلفزة العربية بشأن السياسات التي لفتت الانتباه الدولي السلبي ليس فقط للسودان بل لكل العالم العربي، بشكل أدى في الوقت ذاته إلى صرف الاهتمام الدولي بالقضايا الأساسية في العلاقات العربية الغربية خاصة تلك المتعلقة بالعراق وإسرائيل. لقد كان التوجه العام السائد أن السلطات السودانية، سواء عن عمد أم بدونه، سلكت طريقا منح العدو فرصة لتحقيق مكاسب كبرى. وطبقا لتقرير منظمة العفو الدولية عام 2004 " الاغتصاب كسلاح في الحرب" فإن الحكومة السودانية والميليشيا التي تساندها "استفادت من المساندة أو الصمت من قبل دول الشرق الأوسط".

وقد رصدت جولي فلنت عضو منظمة "هيومان رايتس ووتش" ، التي زارت دارفور لإعداد تقرير بشأن الأحداث هناك، أجواء الاتجاهات العربية تجاه أزمة دارفور في ندوة بنقابة الصحفيين في بيروت عقدت في يوليو 2004 بحضور السفير السوداني. ففي تقرير عن اللقاء، كتبت على لسان السفير السوداني تأكيده أن الحديث عن التطهير

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العرقي من قبل القوات الحكومية في دارفور ليس سوى اختراع من قبل أولئك الذين وقفوا وراء فضيحة معتقل أبو غريب والذين كذبوا بشأن أسلحة الدمار الشامل التي يحوزها صدام حسين، (تصفيق عال). إنها مؤامرة ضد العرب. (تصفيق حار) يتحدثون عن اغتصاب؟ وهو أمر يفتقد الصدق، فليس هناك أكثر من حالتين" وحسب تعليق فلنت، فإنه تغافل بذلك عن أنه إزاء تكشف المزيد من الحقائق عن الوضع في دارفور وجدت حكومته نفسها مجبرة على تشكيل لجان للتحقيق في اتهامات الاغتصاب هناك ومساعدة الضحايا الذين تعرضوا لهذه الجرائم (41). وقد أقر الصحفيون اللبنانيون وناشطو المجتمع المدني الذين حضروا اللقاء – حسبما كتبت فلنت - أن أزمة دارفور إنما يشتم منها رائحة مؤامرة أمريكية ضد العرب .

كان ذلك بعد أشهر من فضيحة أبو غريب مباشرة ونحو عام من الغزو الأمريكي للعراق. ولكن فلنت أشارت إلى نماذج من ردود فعل غربيين آخرين عرضوا للمأساة في إطار العالم العربي قائلة أن الصمت العربي بشأن دارفور يذكر بالصمت الذي ساد إثر استخدام الغاز ضد العراقيين الأكراد من قبل النظام السابق للرئيس صدام حسين. فقد أدارت الدول العربية ظهرها للموقف، في وقت تتعاون فيه حكومة عربية مع قوات عربية تعمل بالوكالة لتنفيذ ما وصفه مسئولو إغاثة بأنه أكبر كارثة إنسانية في العالم اليوم. إن صمتهم هو الصدمة الأكبر نظرا إلى أن ضحايا تلك الكارثة، رغم أنهم ليسوا من نفس الأصل العرقي لمن يقومون على اضطهادهم، إلا أنهم مسلمون مثلهم (42).

وفي الواقع، فإن اتجاه المشهد العربي لم يكن مفاجأة على الإطلاق، فهو يعكس مجتمعا يعتقد أنه ليس لديه القدرة على التحكم في تحديد ما سيؤول إليه مصيره، مجتمع تعود على الوحشية، مجتمع ضاعت فيه الخطوط بين المعلومة والدعاية ، إلى حد أصبح من الصعب معه التمييز بينهما. لقد حاول عدد محدود من المغلقين الحديث بصراحة بشأن دارفور، رغم أنهم في أغلب الأحوال يظهرون في وسائل إعلام انجليزية أكثر من العربية.

وقد كتبت صحيفة "ديلي ستار" التي تصدر في لبنان : "ما زالت الحكومة في الخرطوم في حالة إنكار لما يحدث في دارفور. وقد رفضت الضغط الدولي، معتبرة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأزمة اعتداء غربياً على الثقافة العربية والإسلامية. ولكن الحقيقة لا تتطلب قيام مفت أو عالم اجتماعي بشرح أبعاد الغضب العالمي بشأن مذابح الأبرياء هناك. كما لم يعد في إمكان الثقافة أن توفر مبررا كافياً لمثل هذه الجرائم، وقد تجاوزت الجرائم الثقافة وجوهر الإنسانية. ولذلك فإن العالم أثار القضية نظرا لأن السودان ببساطة يقتل أطفاله بوحشية".

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الخاتمة

لقد ورثت أمريكا خلال فترة القضاء على الاستعمار العباءة الاستعمارية من بريطانيا وفرنسا، وأقامت علاقات سياسية واقتصادية قوية حيثما استطاعت، كما عملت على وقف النفوذ السوفيتي المنافس في الشرق الأوسط. وكان حليفها الأول والرئيسي في ذلك هو الدولة السعودية، التي ساعدتها على التطور لخدمة مصالحها النفطية. وقد اكتسبت إسرائيل أهمية محورية للسياسة الخارجية الأمريكية في المنطقة بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967. فيما فضلت مصر التي سلكت سياسات غير منحازة تحت حكم ناصر، المحور العربي الأفقي الذي يقوم على علاقات طيبة مع القوى الغربية بدلا من العمودي الذي يتقاطع معها، وكان من نتيجة ذلك أن التحقت بالمظلة الأمريكية خلال رئاسة أنور السادات، بشكل تعزز من خلال معاهدة السلام المصرية مع إسرائيل عام 1979.

ومع ذلك، كشفت هجمات 11 سبتمبر عام 2001 عن أن العلاقات الحسنة على المستوى الرسمي كانت بعيدة عما كان يجري داخل المجتمعات العربية التي كانت تتسع داخليا بشكل سريع. وعلى مدى عقود، وبشكل خاص بعد الهزيمة المخزية على يد إسرائيل عام 1967، حيث أبدى طيف واسع من الدوائر السياسية الإسلامية والعلمانية سخطهم العميق على تكيف حكوماتهم مع السياسة الخارجية الأمريكية. وقد عززت العلاقات القائمة على هذا المستوى فقط ، والتي كان من المستحيل تجنبها ، تحول المجتمع ضد الولايات المتحدة. إن القوتين الرئيسيتين واللتين تعكسان معكسري السياسيين والمثقفين في العالم العربي اليوم، الإسلام السياسي والقوميين العرب، كانتا معارضتين للأمريكيين بشكل كبير، فيما لم يبد قدراً كبيراً من الحماسة لهذه العلاقات سوى الديمقراطيين الليبراليين الذين كانوا يعيشون حالة من الحصار.

وعززت ثورة الإعلام العربية التي بدأت في أوائل التسعينيات تأثير المجتمعات العربية في مواجهة الدول والحكومات العربية، ما ساهم في تعقيد الأوضاع مع الولايات المتحدة. وزاد غزو العراق، والذي قدمته الحكومة الأمريكية على أنه جزء من حملة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أوسع لنشر الديمقراطية في العالم العربي، من الإضرار بالموقف الأمريكي في المنطقة، رغم حقيقة أنهما – الغزو وتحقيق الديمقراطية - كانا يعتزمان تحسينه.

وفي الوقت ذاته، بدا العالم العربي بدوره معجبا، ومفتونا بالشعب الأمريكي والثقافة السياسية وعالم أمريكا الداخلية، في ذات الوقت الذي كان يبدي فيه قدرا من الرفض للسياسة الخارجية الأمريكية، الأمر الذي جعله يحدد نمط تعامله مع الولايات المتحدة وفقا للزاوية التي ينظر إليها من خلالها .

وقد اتخم التليفزيون العربي نفسه بالسير على نهج التليفزيون الأمريكي، حيث حشد بثه بالبرامج الحوارية، والمسرحيات الهزلية، وحتى البرامج الإخبارية الحية، فيما تجتهد الموسيقى والموضة وعناصر الثقافة الشعبية العربية الأخرى لتقليد ومحاكاة نظيراتها الأمريكية قدر ما تستطيع بشكل يتسم بالمرونة يثير الدهشة ويفتح المجال بقدر كبير لمن يرفعون راية القيم الدينية والإسلامية.

ويعمد العالم العربي بشكل شامل إلى تفسير مواقف الولايات المتحدة وتحديد ردود فعله تجاهها من خلال نظرته لمسار النزاع العربي الإسرائيلي ومأزق الفلسطينيين، الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي المحتلة، كمواطنين من الدرجة الثانية في الدولة التي تحدد نفسها باعتبارها " دولة يهودية خالصة ". وعبر النظر لقضية اللاجئين غير المرغوبين في الأقطار العربية (على الرغم من أن عددا كبيرا منهم يعيش كمواطنين كاملي المواطنة في الأردن). وتعد الصهيونية في الخطاب العربي، حركة عنصرية وأيديولوجية ذات أصول تربطها بالاستعمار الذي يشوه سمعة العرب ويسلبهم حقوقهم ويعمل على تعزيز هيمنته على الفضاء السياسي والثقافي العربي.

ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة تقدر الصهيونية اليوم إلى حد التقديس كما كانت على الدوام، بل قد يكون أكثر مما كان عليه الوضع من قبل. وقد تزايد التصور في المجتمع العربي، وبين وسائل الإعلام والنخب المثقفة العربية في السنوات الأخيرة بأن الولايات المتحدة وإسرائيل نظرا للعديد من التأثيرات الثقافية الأمريكية يعدان توأما. ويناضل العالم العربي للوصول إلى استراتيجيات التعامل مع هذا الواقع. وتذهب النخب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السياسية العربية إلى أن إسرائيل استطاعت مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام 2000 اجتذاب الولايات المتحدة إلى صفها في المرحلة المقبلة والدقيقة من النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.. الحرب السكانية، وأنها تواصل بناء المستوطنات ومصادرة الأراضي وسط استبعاد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة من العمل أو الانتقال إلى إسرائيل. وفي المجمل، فإن الفلسطينيين والعرب اليوم يعملون على تكييف وموائمة استراتيجياتهم السياسية طبقا لذلك، ويبدو أن حل الدولتين المدعوم من واشنطن منذ 1993 يواجه خطر الانهيار.

ولطالما ساد الزعم من قبل حكومات عربية ، فضلا عن المعارضة والمثقفين، بأن حل النزاع الفلسطيني الإسرائيلي سيقضي على الدعامات التي تستند إليها الأنظمة التسلطية السياسية في العالم العربي حيث تحكم الأجهزة الأمنية والجيش فيها قبضتها على المجتمع. غير أن مشروع واشنطن بغزو العراق قلب هذا التصور رأسا على عقب، في ضوء أن مغزاه كان أن العرب لن يحصلوا على دولة فلسطينية سوى لدى انفتاح المجتمعات العربية اقتصاديا وديمقراطيا وسياسيا والتراجع عن معارضة السلام الأمريكاني. أما بالنسبة للعالم العربي فإن المشروع العراقي يعد فجر عصر استعماري جديد تلتزم فيه الأنظمة العربية في عصر الاستقلال بتأمين المصالح الأمريكية وإلا سيتم الإطاحة بها حال ثبوت عدم أهليتها للقيام على تلك المهمة. بالنسبة للكثيرين من الطبقة السياسية العربية، فإن الأسلوب الرأسمالي الأمريكي يعمد إلى تبخير بنوك الذاكرة لحضارة مجروحة.، وهى الأداة التي تستخدم ببراعة من قبل الغرب ضد العرب بشكل يساعدهم على نسيان أخطاء الماضي والتكيف مع المستقبل .

الأكثر من ذلك، أن النظرة العربية تعتبر السلوك الأمريكي في العراق - الغزو ومحاولة تحطيم المقاومة ضد الاحتلال – شبيهاً بالمعاملة الإسرائيلية الوحشية للفلسطينيين في الأراضي المحتلة، وقد بدا أن فضيحة التعذيب في أبو غريب تؤكد ذلك، وعززت الصورة السائدة بشأن القوة الاستعمارية الجديدة المتغطرسة والذي لا يعتبر خطابها بشأن حقوق الإنسان سوى غطاء من أجل أهداف جيو سياسية. وذهب مثقفون ملهمون بأطروحة ادوارد سعيد بشأن "الإستشراق" إلى أن المعاملة الأمريكية للعراقيين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كانت تحكمها عقود من الخطاب المهين بشأن الثقافة العربية في الولايات المتحدة، والذي تغذيه الصهيونية.

ونجح التحالف الأمريكي مع مصر في القضاء على أي سياسة عربية استهدفت النظام الصاعد الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وكذا أي محاولة لإعادة تأسيس المشروع الناصري الذي يقوم على توجيه الأولوية للعلاقات الإقليمية وليس الغربية. كما أفسد التحالف الأمريكي الحياة السياسية المصرية، في ضوء احتماء الزمرة الرأسمالية في الدولة بالنظام غير الديمقراطي والذي يعيش حالة اغتراب في ظل المد الإسلامي وعملية أسلمه المجتمع وكذا دعمه سياسيا وماديا من قبل واشنطن. وفي ظل هذا الوضع الذي مثل قيدا على تحركها، تحولت مصر لتصبح كيانا سياسيا مشوها في ضوء اتساع الفجوة بين الحكومة والمجتمع إلى مستوى يتسم بالمرارة دون أن يكون في مقدور أحد فعل شئ حيال ذلك. ومقيدة بتحالفها مع الولايات المتحدة، فإن الأوضاع فيها تواصل مواجهة حالة من الاضطراب وعدم الانسجام مع النفس.

وينطبق الأمر ذاته بالنسبة للمملكة السعودية. فقد ظلت هذه الأخيرة، ككيان سياسي جديد، معتمدة بقدر كبير على المساندة البريطانية، ثم الأمريكية من أجل بقائها في مواجهة تهديدات إقليمية عديدة.. من حركة ناصر العربية إلى الشيوعية إلى الطموحات التوسعية لعراق صدام حسين. وكان الذعر ينتاب الحكام الملكيين بشكل كبير بشأن إمكانية تفكك الدولة مع أي تدخل أجنبي أو حدوث معارضة داخلية. كما ظلت هناك مشكلة الشرعية تواجه الأسرة الحاكمة، غير أن المساندة الأمريكية المتواصلة، رغم صدمة 11 سبتمبر – ساعدت على تجنب الحاجة إلى التعامل مع هذه القضية بطريقة تنسجم مع بناء الدولة الحديثة. (حكومة تمثيلية، مشاركة شعبية، انتخابات، الخ). وبدت حاجة السعودية إلى حماية الولايات المتحدة خلال أزمة الخليج 1990 – 1991 عندما توجهت القوات الأمريكية إلى هناك وبقيت حتى 2003. وكان ذلك مما زاد السخط في العالم العربي جراء التيسير السعودي للمصالح الأمريكية في المنطقة، فيما تتلقى السعودية لطمة لا تتوافق مع وزنها في السياسة الخارجية وبشكل أساسي على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد اصطف العالم العربي لتقديم الدعم السياسي والاقتصادي والأخلاقي للنظام الإسلامي في الخرطوم في مواجهة مساندة الولايات المتحدة للمتمردين في الجنوب خلال الحرب الأهلية 1983- 2005 ولمساندة النظام بشأن قضية دارفور، رغم المعاناة الكبيرة التي نجمت عن القضيتين بسبب سياسة النظام. وينظر العالم العربي إلى الولايات المتحدة بشكل عام باعتبار أنها تساند تقسيم السودان وتفكيكه وإضعاف هويته العربية والإسلامية في ضوء أن الفخر بهذه الهوية يعد مصدر قدرة الدولة على مواجهة النفوذ الأمريكي.

ومن بين الفرضيات التي ثبتت صحتها من خلال هذا الكتاب أن روح الاستقلال ، سواء من أجل شئ يستحق أم لا ، تنبض عبر العالم العربي. وربما يكون من المفيد الإشارة إلى أن تطور الإسلام نفسه يعود إلى رفض النفوذ الأجنبي. فعلى مدي فترة كبيرة من الحكم الأموي، أول أسرة حكمت في الإسلام من خلال عاصمتها دمشق من 661 إلى 750 ميلادية، لم يكن ينظر إلى الإسلام في الواقع على أنه دين قائم بذاته، سواء من قبل المسيحيين الكثيرين الخاضعين له ، أو من قبل الطبقة الحاكمة العربية. وقد كان للمسيحيين العرب وجه إغريقي واضح مميز، وكانت المسيحية دين الإمبراطورية البيزنطية التي هزمها العرب في غزوات منتصف القرن السابع، كما كانت الكنيسة المسيحية في كل الأحوال منقسمة إلى أجنحة، وطوائف وكيانات سياسية متصارعة، فيما كانت اليهودية مغلقة بقدر كبير أمام الآخرين.

ما قامت الإمبراطورية العربية على تيسيره آنذاك، تمثل في إعادة صياغة التراث التوحيدي القائم سواء في إطار اليهودية أو المسيحية، في صيغة عربية ومنح عرب شبه الجزيرة العربية دورا مركزيا في الطبوغرافية المقدسة للعالم السامي. لقد كانت اليهودية والمسيحية قائمتين في شبه الجزيرة العربية بطولها وعرضها، ولكن الغزاة العرب لم يكونوا راضين عن أن يختاروا ببساطة واحدا بدلا من الآخر، وعلى ذلك عملوا على

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجمع بينهما في دين توحيدي جديد يتسم بالتفوق على ما كان قبله. ولم يكن ذلك ليتحقق إذا لم يتم من خلال تقديم إطار مذهل من القوة الثقافية والاستقلال(*).

لقد كانت الضفاف الثقافية والدينية والتاريخية التي توجب على العرب رسمها في مواجهة التهديدات المدركة واسعة. ومن الصحيح أنه في كل من التراث السني والشيعي ، يتعمق علماء الدين في معارف وتراث الماضي الذي يحمل سلطة تفسير الإسلام وصياغة قواعد جديدة كما في بناء التيار المحافظ الذي يعكس تماسك الثقافة العربية الإسلامية. وبالطبع فإن بداية تاريخ العالم العربي التي تعود إلى فترة تصل لنحو 1400 عام مضت، عندما امتدت السيطرة القبلية على الصحراء من حافة الأطلنطي إلى سفوح جبال زاجروس في آسيا جعلت، من الممكن لهذه الهوية السياسية الثقافية الواسعة المتضامنة أن تشير إلى ما جرى، باعتباره فيما بعد من قبل المؤرخين، الحضارة العربية الإسلامية.

وقد أعادت التطورات التكنولوجية في العصر الحديث، ترتيب الخريطة الجيوبوليتكية، وربما يجد شمال أفريقيا اليوم أنه من الأكثر منطقية تطوير علاقاته مهما تكن طبيعتها مع شبه الجزيرة الأيبيرية، على سبيل المثال أكثر من الشرق الأوسط. وبشكل مماثل، تعتقد الولايات المتحدة أنه من خلال مشروع الغزو يمكنها أن تدفع العراق بعيدا عن المدار العربي. غير أن هناك شيئا واحدا، يتمثل في أنه عبر العقود، كشفت ردود الفعل العربية تجاه الحركة الصهيونية وكذلك الخبرة العراقية الجارية الطبيعة الصلبة والشديدة للثقافة العربية الإسلامية ورغبتها العنيدة التي لا تتغير في مقاومة هؤلاء الذين يحاولون اختراقها.

---

* يقدم المؤلف هنا رؤية مثيرة للجدل تنبع من إطار إستشراقي قد لا يكون المجال هنا للخوض في أسسها والرد عليها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

Preface

1- As witnessed by auther in Mecca,January 2004.
2- Transcript of speech ,New York Times, 6 October 2005
3- Interview with auther, July 2005
4- Kaplan, Robert D.1993.The Arabist: The Romance of an American Elite, New York: The Free Press.
5- Taking THE Arabs Seriously, "Foreign Affairs, September /October 2003,P.83

Chapter 1 : America in the Arab World

1- Mackintosh – smith, Time.1999. Yemen, Travels in Dictionary Land": Picador.
2- Abdel – Magid, Wahid.1998.Camp David 20 Years on. Cairo: al Ahram Publishing.
3- "Clinton,s Works in Gaza: Citing the Waste of War'. Associated Press,15 December 1998
4- Zakaria, Farid, Newsweek, 1 October 2001
5- New York Times,27 November 2001.
6- Transcript of Speech, New York Times, 6 October 2005
7- Commentary on Alarabia,7 September 2005
8- Forum of " The Arab World: Between the Relations of Today and the promises of Tomorrow," 14 December 2004.
9- "UAE Uerges Radical Arab Reform from Within ," Reuters, 13 December 2004.
10- "US Troops Fire on Anti- American Protesters," Associated Press, 30 April 2003
11- Commentary, Daily Star, 8 February 2005
12- Said, Aburish.2001, pp297 – 298. Saddam Hussein .London :Bloomsbury.
13- www.salammegypt.org (cited I April 2006)
14- "US Senator: Israeli Security US' Top Mideast Priority," Associated Press, 21 May 2005, quoting Republican Senator Gordon Smith.
15- al-Arabiya seminar, aired on the channel on 21 May 2005.
16- Newsweek, 15 October, 2001.
17- Al Ahram Weekly, 20-26 May 2004.
18- Said, Edward. 1979. A Question of Palestine. London: Vintage Books.
19- " The Roots of Muslim Rage," Atlantic Monthly, September 1990.
20- Lewis, Bernard. 2002. What Went Wrong?: The Clash between Islam and Modernity in the Middle East. London: Phoenix.
21- Commentary, al-Hayat, 18 July 2003.
22- Qutb, Sayed. 1973 pp. 29-91. Milestones, Beirut: Dar al-Shurouq.
23- " Iraq Qaeda says to Spare Anti-US Sadr Group – Web," Reuters, 19 September 2005.
24- Qutb, 8-25.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

25- Polk, William. 2005. Understanding Iraq: The Whole Sweep of Iraqi History, of Qutside Rule from Genghis Khan to the Ottoman Turks to the British Mandate to the American Occupation. New York: Harper Collins.
26- al-Bukhari's hadith collection Sahib al-Bukhari, No. 3090, al-Jihad.
27- Maalouf, Amin. 1998. p. 74. Les Identites meurtrieres, Grasset: Paris.
28- "A Dialogue with Abdul Rahman Al-Rashed," Transnational Broadcasting Studies, Spring/Summer 2005: 119.
29- Editorial comment, Daily Star, 16 September 2005.
30- " Zarqawi backs Killing civilian 'infidels' – Web," Reuters, 7 October 2005.
31- Eid al-Adha sermon, www.alhesbah.org (cited January 2005).
32- Programme al-Mashhad al-Iraqi (The Iraqi Scene), al-Jazeera, 29 May 2005.
33- Articl, Akhbar al-Adab, 8 September 2002.
34- Al-Jazeera, 12 February 2005; the book is Seize the Moment: America's Challenge in a One-Superpower World, New York: Simon & Schuster, 1992.
35- Middle East Times, December 1995.
36- Lacouture, Jean. 2005. Gamal Abdel Nasser. Paris: Bayard.
37- Schivelbusch, Wolfgang. 2003. The Culture of Defeat: On National Trauma, Mourning, and Recovery. Trans. Jefferson Chase. London: Granta Books.
38- Polk, 140.
39- Bilal Hassan, in Thaqafat al-istislam (The culture of defeat), exines the writings of Kanan Makiya, Hazem Saghiya, Saleh Bashir, Al-Afif Lakhdar and Amin Al-Mahdi.
40- Mustafa Bakry, al-Osboa, 25 September 2000.
41- Commentary, Asharq al-Awsat, 26 July 2005.
42- Commentary, Asharq al0Awsat, 24 August 2005.
43- "Director's Testimony in Congress," Institute for Gulf Affairs, 20 March 2006>

Chapter 2: Domestic America

1- Article, al-Qahira, 13 June 2000.
2- Ibid.
3- Newsweek, 1 October 2001.
4- "US public diplomacy falls short of reaching English-speaking Arabs," Daily star, 8 November 2004.
5- Interview with author, July 2005.
6- Clip of Egyptian actor Mohammed Sobhy shown in al-Jazeera promotional slots.
7- Interview with author, July 2005.
8- Press conference, 9 December 2004.
9- Interview with author, July 2005.
10- Interview with author, September 2005.
11- Dhaher was speaking on LBC shows in February 2004; Alabbar revealed his The Apprentice plan at press conference on 27 February 2004.
12- " Look Who's Rocking the Casbah: The revolutionary implications of Arab music videos," Reason, June 2003.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

13- commentary, al-Hayat, 20 April 2004.
14- Press conference in Dubai, 14 May 2004.
15- Commentary, al-Hayat, January 2002.
16- Interview with author, December 1999.
17- Interview with author, July 1999.
18- Ibid.
19- Mursi Attallah, al-Ahram al-Messai, 16 May 2004.
20- Ramsay Short, "The six faces of Osama according to Kaabour," Daily Star, 23 March 2005.
21- al-Sharia wal-Hayat (Sharia Law and Life), al-Jazeera, 19 December 2004.
22- Interview with author, June 2005.
23- al-Qa'ida in Iraq statement, www.ansarnet.ws/vb (cited 1 February 2005).
24- Forum string, www.yaislah.net (cited 2 February 2005).
25- "The Party's Over," Al-Ahram Weekly, 1-7 September 2005.
26- Commentary, Akhbar al-Khaleej, 4 August 1998.
27- Article, al-Khamis, 23 November 2000.
28- al-Ghaity, Mohammed. 1996. A Scandal Called Saida Sultana. Cairo: Dar al-Gumhouriya.
29- al-Fiki, Mustafa. 2002. Al-Arab, al-Asl wal-Sura (Arabs, the Image and the Reality).
30- Saar, Erik. 2005. Inside the wire: A Military Intelligence Soldier's Eyewitness Account of Life at Guantanamo. New York: Penguin Press HC.
31- Ibrahim, Sonallah. 2003. p. 69. Amrikanli. Cairo: Dar al-Mustagbal al-Arabi.
32- Ibid., p. 266.
33- Statement, www.muslimwakeup.com (cited 13 March 2005).
34- "A crotoqie pf the argument for women-led Friday prayers," alt.muslim, 18 March 2005.
35- " Erudition as dead-end: Hina Azam and the perils of legal dogmatism," www.muslimwakeup.com (cited 25 March 2005).
36- al-Mesaa, 19 March 2005.
37- Zainab Abdallah, al-Osboa, 19 March 2005.
38- Nomani, Asra. 2005. Standing Alone in Mecca: An American Woman's Struggle for the Soul of Islam. San Francisco: Harper Collins.
39- "Nourished by the waters of indigenous Islam," www.muslimwakeup.com (cited 19 October 2005).
40- "Our Mission," www.muslimwakeup.com (cited 2 April 2006)/
41- "Saudi prince tutors 'noble' Bush on Mideast-paper," Reuters, 14 May 2002.
42- Article, Saudi daily Okaz, 15 May 2002.
43- Arab Strategy Forum, Dubai, 14 December 2004.
44- "New York mayor rejects Saudi prince's donation," Reuters, 11 October 2001.
45- Editorial, al-Khaleej, 14 October 2001.
46- al-Jazeera, 14 October 2001.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

47- Commentary, al-Hayat, 5 January 2001.
48- Samir Ragab, al-Gomhouriya, 13 January 2001.

Chapter 3: The Palestinians

1- Raban, Jonathan. 1979. p. 11. Arabia: A Journey Through The Labyrinth. London: Picador.
2- Shlaim, Avi. 2000. p. 310. The Iron Wall: Israel and the Arab World London: penguin Books.
3- Figures compiled by the Jewish Virtual Library using US State Department and United States Agency for International Development (USAID) statistics (www.jewishvirtuallibrary.org).
4- "US sees Arafat, aides hand in arms shipment," Carol Giacomo and Jonathan Wright, Reuters, 9 January 2002.
5- "US Anglicans eyeing divestment criticize Israel," Reuters, 12 May 2005.
6- "Israeli settlers proliferate in the West Bank," Associated Press, 26 August 2005; European Union report on East Jerusalem, 25 November 2005.
7- Pipes, Daniel. 1996. p. 159. The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy. London: MacMillan.
8- Ibid., p. 160.
9- Polk, William. 2005. p. 188 Understanding Iraq: The Whole Sweep of Iraqi History, of Outside Rule from Genghis Khan to the Ottoman Turks to the British Mandate to the American Occupation. New York: HarperCollins.
10- " Powell calls US 'Judeo-Christian', then amends," Reuters, 23 September 2003.
11- "Under the gun: a Palestinian journey," The Guardian, 18 December 2000.
12- Huntington, Samuel p. 2005. p 54. Who Are We?: The Challenges to America's National Identity. New York: Simon & Schuster.
13- Commentary, Akhbar al-Adab, 21 April 2002.
14- "Survival of the Fittest? An interview with Benny Morris," Ari Shavit, Haaretz Magazine, 9 January 2004.
15- Huntington, 247.
16- Commentary, al-Hayat, 3 August 2002.
17- Hroube, Khaled. 2000. p. 248. Hamas: Political Thought and Practice. Washington: Institute for Palestine Studies.
18- Israeli human rights group B'Tselem, www.btselem.org (cited 2 April 2006)
19- www.btselem.org; by February 2006, the Palestinian Red Crescent Society reported.
20- "World Bank – almost half of Palestinians in poverty," www.palestinercs.org.
21- "Foreign investment in Israel hits record $9.7 bln," 8 January 2006.
22- Bil-Arabi, al-Arabiya, 17 July 2005.
23- Hardtalk, BBC World, 9 May 2002.
24- al-Arabiya, 28 May 2005.
25- Commentary, al-Hayat, 14 May 2005.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

26- Pape, Robert. 2005. Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism. New York: Random House.
27- Ben Gurion's opinions have been studied and quoted in number of works, including those of Israel historian Benny Morris and Peter Rodgers Herzl's Nightmare: One Land, Two Peoples, New York: Nation Books, 2005.
28- "Mubarak voices Palestinian fears of explusion," Reuters, 26 March 2002.
29- Morris, Benny. The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949. Cambridge: Cambridge University Press, 1989. First published 1987, revised edition in 2004.
30- "Survival of the Fittest? An interview with Benny Morris," Ari Shavit, Haaretz Magazine, 9 January 2004.
31- Commentary, Al Ahaly, 7 March 2002.
32- "Survival of the Fittest? An interview with Benny Morris," Ari Shavit, Haaretz Magazine, 9 January 2004.
33- Min Washington (From Washington), al-Jazeera, 29 August 2005.
34- Huntington, Samuel. 2002. pp. 20-21. The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order. London: Simon and Schuster.
35- "Mubarak voices Palestinians fears of expulsion," Reuters, 16 March 2002.
36- Commentary, al-Ahram, 5 August 2002.
37- Interview, Akhbar al-Adab, 4 June 2000.
38- Ajami, Fouad. 1999. p. 275. The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Vintage Books.
39- Ibid., p. 287.
40- "Arab report sees little reform, faults U.S. action," Reuters, 5 April 2005.
41- "The time has come: A call for freedom and good governance in the Arab world," UNDP, 5 April 2005.
42- Istithmar al-Fawaz (Utilizing Victory), Kuwait Union of Palestinian Writers and Journalists 1983, (cited in Hroub).
43- Interview on ABC's "This Week," 29 May 2005.
44- Commentary, Asharq al-Awsat, 30 May 2005.
45- Address to members of Egyptian parliament, reported in al-Ahram, 12 December 2000.
46- Interview with author, September 2002.
47- "Egypt official says Arabs should cultivate Europe," Reters, 22 January 2001.
48- Editorial,al-Ahram, 18 April 2004.
49- "Abbas says redress for refugees is key to peace," Reuters, 15 May 2005.
50- Mouin Rabbani and Chris Toensing, "Mahmoud Abbas' Mission Improbable," Middle East Report, 1 June 2005.
51- "Barghouti at his closing trial: I do not recognize Israel's jurisdiction or court authority over me," www.amin.org (cited 20 September 2003).
52- "Marwan Barghouthi's Scarecrow," www.avnery-news.co.il (cited 4 October 2003).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

Chapter 4: The Iraq Project

1- "Iraq strike would 'open gates of hell': Moussa,' Reuters, 7 September 2002.
2- "Mubarak says Iraq war will produce '100 bin Ladens'," Reuters, 31 March 2003.
3- Briefing depicted Saudi's as enemies: Ultimatum urged to pentagon Board," The Washington Post, 6 August 2002.
4- News commentary on al-Arabiya, 9 April 2003.
5- Commentary, al-Ahram, 10 April 2003.
6- Commentary, al-Quds al-Arabi, 10 April 2003.
7- "A eulogy for the Arab state system," Daily star, 6 October 2003.
8- Cartoon, al-Wafd, 31 March 2003.
9- Shafiq Ghabra, "An Arab house, openly divided," The Washington Post, 9 March 2003.
10- "Tempers flare as Saudi-Libya spat erupts at summi," Reuters, 1 March 2003.
11- London Review of Books, 23 April 2003.
12- Commentary, al-Hayat, 18 July 2003.
13- Khalidi, Rashid. 2004 Resurrecting Empire: Western Footprints and America's Perilous Path in the Middle East. Boston: Beacon Press.
14- Ian Frazier, "Destroying Baghdad," The New Yorker, 25 April 2005.
15- Text of speech, www.news.bbc.co.uk (cited 2 May 2003).
16- Text of speech, al-Hayat, 12 June 2000.
17- US general says met Israeli interrogator in Iraq," Reuters, 3 July 2004.
18- Commentary, al-Hayat, 8 July 2004.
19- Tahiya Abdel-Wahhab, in live commentary on al-Arabiya, 9 April 2003.
20- Commentary, al-Watan 11 April 2003.
21- Bogdanos, Matthew. 2005 Thieves of Baghdad. London: Bloomsbury.
22- Sanaa al-Said, al-Wafd, 25 May 2003.
23- Interview with author, November 2003.
24- "Sunni neighbours dread spectre of Shi'ite Iraq," Reuters, 19 January 2005.
25- Conversation with author, August 2005.
26- "Ambush Kills 15 Iraqi troops north of Baghdad," Reuters, 3 December 2005.
27- Liqaa Khaass (Special Interview), al-Jazeera, 4 October 2005.
28- "Iraq's marginalized Sunnis rally for Saddam," Reuters, 26 August 2005.
29- "Popstar's love life takes Iraqis minds off war talk," Reuters, 13 January 2003.
30- Conversation with author, January 2003.
31- Interview with author, January 2003.
32- Interview with author,November 2003.
33- Interview with author, December 2003.
34- Interview with author, December 2003.
35- Makiya, Kanaan. 1993. Cruelty and Silence. London: Jonatahn Cape.
36- Ajami, Fouad. 1999. The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Vintage Books.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

37- Wolfowitz speaking via video phone at a special ceremony held in Tel Aviv to honour historian Bernard Lewis in March 2002.
38- Photo caption, www.alshaab.com (cited 21 May 2005).
39- "Indelible images of Iraq abuse leave bitter legacy," Reuters, 10 May 2004.
40- al-Ittijah al-Mu'akis (The Opposite Direction), al-Jazeera, May 2004.
41- Article, Daily Star, 24 May 2004.
42- Commentary, al-Arabi, 23 May 2004.
43- Commentary, al-Quds al-Arabi, 20 May 2004.
44- Editorial, al-Gomhourya, 3 May 2004.
45- Commentary, al-Hayat, 16 May 2004.
46- Interview with author, 31 August 2003.
47- al-Qa'ida in Iraq posting, forum, www.inn4news.net (cited 20 April 2005).
48- News commentary, al-Jazeera, 8 October 2004.
49- "In their own words: Reading the Iraqi insurgency," International Crisis Group, 15 February 2006.
50- Interview with author, November 2003.
51- Commentary, al-Osboa, 28 February 2004.
52- Commentary on www.alshaab.com (cited 22 February 2005).
53- Commentary, Afak Arabia, 17 February 2005.
54- "The war in Iraq: civilian casualties, political responsibilities," The Lancet, 20 November 2004 (print)/ 28 October 2004 (online).
55- "39.000 Iraqis killed in fighting, new study finds," Reuters, 11 July 2005.
56- Online magazine www.Brandchannel.com (cited 41 January 2005).
57- This account and the quotes contained are based on the author's first-hand experience of the operation on 3 December 2003.

Chapter 5: Peace with Egypt

1- "US discussing aid cuts with Egypt, aid chief says," Reuters, 19 March 1995.
2- Ibid.
3- Interview with author, October 1997.
4- Fawzy, Wa'il. 1995. Hiwarat Mamnu'a (Forbidden Conversations). Cairo: al-Khuloud.
5- Coldwell, Dominic. Egypt's Autumn of Fury: The Construction of Opposition to the Egyptian-Israeli Peace Process between 1973 and 1981. PhD thesis, University of Oxford.
6- Shlaim, Avi. 2000. The Iron Wall: Israel and the Arab World. London: Penguin Books.
7- Henry, Clement and Robert Springborg. 2001. p. 150 Globalization and the Politics of Development in the Middle East. Cambridge: Cambridge University Press.
8- "Breaking the silence," Cairo Times, 1-14 October 1998.
9- Ibid.
10- Ibid.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

11- Ibrahim, Sonallah. 2003. p. 324 Amrikanli. Cairo: al-Mustaqbal.
12- Samia Nakhoul, "Moslem militants rule Cairo slum," Reuters, 20 November 1992.
13- The New Yorker, 22 January 1995; also, "Egyptian Moslems condemn arrests as election ploy," Reuters, 32 January 1995.
14- Jhon Walsh, "Egypt's Muslim Brotherhood: Understanding Centrist Islam," Harvard International Review, Vol. 24(4), Winter 2003.
15- The New Yorker, 22 January 1995; "Egyptian Moslems condemn arrests as election ploy," Reuters, 23 January 1995.
16- Interview with author, August 1998.
17- "Court blow for Brotherhood lawyers," Middle East Times, 3 February 1996.
18- "Veiled voices protest at Egypt raids, detention," Reuters, 5 February 1995.
19- Interview with rights activist Hisham Kassem, June 2005.
20- Interview with author, January 1996.
21- Interview with author, September 1996.
22- Interview, al-Arabiya, 26 April 2005.
23- Commentary, al-Haqiqa, 22 September 2001.
24- Al-Aswani, Alaa. 2002. p. 139. Emarat Ya'qubian (The Yacoubian Building). Cairo: Madbouli.
25- Fawzy, Forbidden Conversations.
26- Interview with author, June 2005.
27- Fawzy, Forbidden Conversations.
28- See note 2.
29- Interview with author, October 2001.
30- al-Arabi, 12 February 1998.
31- Interview, al-Arabi, 27 February 2005.
32- Interview with Hisham Kassem, who was asked to translate the paper.
33- "White House report, June 1: Egypt, Afghanistan, Venezuela, Watergate," US Department of State, 1 June 2005.
34- Interview with author, June 1997.
35- News report on al-Jazeera, 8 May 2005.
36- Headline, al-Osboa, 9 May 2005.
37- "In Egypt, the 'thrill of defying tyranny', Daily Star, 7 September 2005.
38- "US sees problems, progress in Egypt elections," Reuters, 8 December 2005.
39- "Mubarak says Egypt won over Rice on democracy," Reuters, 1 March 2006.
40- New look, new methods," Cairo Magazine, 1 September 2005.
41- "The Egypt Game," New York Times, 1 August 2000.
42- Commentary, Akhbar al-Youm, 5 August 2000.
43- Interview with author, June 2005.
44- Ajami, Fouad. 1999. p. 243. The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Vintage Books.
45- Adab al-Sujoun (Prison Etiquette), al-Jazeera, 22 July 2005.
46- Interview with author, June 2005.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

47- Interview with author, June 2005.
48- Interview in Afak Arabia, 10 April 2005.
49- Samir Ragab, al-Gomhouriya, 12 June 2005.
50- "Interview: The Prospect for Democracy in the Middle East," Logos Journal, Issue 4.2 Spring 2005.

Chapter 6: The House of Saud

1- Al-Rasheed, Madawi. 2002. p. 100. A History of Saudi Arabia. Cambridge: Cambridge University Press.
2- Ibid., p. 116.
3- Interview with author, April 2003.
4- Commentary, www.arabtimes.com (cited 21 February 2006).
5- Conversation with author, April 2003.
6- These themes are discussed in Crone, Patricia, and Martin Hinds. 1986; God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam. Cambridge: Cambridge University Press, Crone. Slaves on Horses: The evolution of the Islamic polity. Cambridge: Cambridge University Press, 1980.
7- "Khobar Towers," Air Force Association Magazine 'Air Force,' 81 (6) (June 1998).
8- Interview with author, June 1996.
9- Interview with author, June 1996.
10- Al-Rasheed, 117.
11- Dawisha, Adeed. 2003. p. 9. Arab Nationalism in the Twentieth Century: from Triumph to Despait. Princeton, N.J.: Princeton University Press.
12- Munif, Abdel-Rahman. 1992. pp. 33-34 Mudun al-Malh (Cities of salt, part one). Beirut: Arab Institute for studies and publishing.
13- Al-Raheed, 96.
14- Al-Hamad, Turki. 2000. pp.221-223. Sharq al-Wadi (East of the Valley). London: Saqi Books.
15- Al-Raheed, 140.
16- Glosemeyer, Iris. 2005. "The Saudi Political System," p. 223 in Saudi Arabia in the Balance. Edited by Paul Aarts and Gerd Nonneman, London: Hurst.
17- "Saudi Arabia's ambitious al-Qaeda fighter," posted on NBC's website, www.msnbc.com (cited 24 June 2005).
18- Interview with author, August 2003.
19- Interview with author, August 2003.
20- Statement, published on www.hesbah.com (cited 25 February 2006).
21- Prince Turki bin Faisal, quoted in Arab News, 7 November 2001.
22- Text of statement, al-Quds al-Arabi, 23 February 1998.
23- Editorial, al-Watan, 21 March 2003.
24- "Briefing depicted Saudis as enemies: Ultimatum urged to Pentagon Board," The Washington Post, 6 August 2002.
25- "The Future of US-Saudi Relations," FrontPageMagazine.com (cited 11 July 2003).

www.ibtesama.com/vb Exclusive

26- Commentary, al-Hayat, 25 June 2003.
27- "Saudi reformers to appeal jailing during Rice visit," Reuters, 20 June 2005.
28- Ibid.
29- Mohamed Nabhan Swelam, "A Saudi nemesis in the U.S. Congress," Daily Star, 13 July 2005.
30- Interview with author, October 2003.
31- "Saudi to jail, lash 15 for anti-monarchy protests," Reuters, 12 January 2005.
32- "UN Council adds tow Saudis to al Qaeda list," Reuters, 23 December 2004.
33- "Saudis sit tight on US assets, but fear future," Reuters, 21 August 2002.
34- "Qaeda beheads American in Saudi then chief killed," Reuters, 18 June 2004.
35- Interview with author, April 2003.
36- Interview with author, August 2003.
37- Interview with author, April 2003.
38- Forum, www.alsaha.net (cited 10 July 2005).
39- "63 Saudi preachers say 'Star Academy' is a crime against the Islamic nation," al-Arabiya.net (cited 14 May 2005).
40- Interview with author, January 2006.
41- "Saudi bloggers attack Saudi over cartoon row," Reuters, 14 February 2006.
42- Ibid.
43- Al-Rasheed, 103.
44- Interview with author, August 1996.
45- Aburish, Said. 1996. The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud. London: Palgrave MacMillan.
46- al-Jazeera, 24 October 2004.
47- Pew Research Center; "Support for bin Laden falls in Muslim countries," Reuters, 14 July 2005.
48- Robert Looney, "Development Strategies for Saudi Arabia: Escaping the Rentier State Syndrome," Strategic Insights, Volume III, Issue 3 (March 2004).
49- "History of Saudi aid to Palestinians," Saudi National Security Assessment Project, 2005; interview with Nawaf Obaid, managing director of the Project, in Bitterlemons – international.org (cited 2 March 2006), Edition 8, Voume 4.
50- Commentary by Ahmed Taha, Akhbar al-Adab, 27 August 2000.
51- Munif, Abdel-Rahman. 2003. p. 26. Bayn al-thaqafa wal-siyasa (Between Culture and Politics). Beirut: al-Mu'assasa al-Arabiyya lil-Dirasat wal-Nashr.
52- Cited in Adeed Dawisha. Arab Nationalism in the Twentieth Century. New Jersey: Princeton University Press, 2003: 162.

Chapter 7: The Sudanese Card

1- "Albright Vows to Discourage Ties With Sudan Africa: Secretary of State, Meeting with rebel leader, backs sanctions against brutal dictatorship," Los Angeles Times, 24 October 1999.
2- Commentary, al-Wafd, 28 May 2005.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

3- Commentary, al-Gomhouriya, 23 August 2002.
4- Editoria, al-Khaleej, 24 October 2002.
5- Interview with author, August 2002.
6- Interview with author, August 2002.
7- Ibid.
8- Interview with author, August 2002.
9- "Sudan peace may help end female circumcision," Reuters, 21 August 2002.
10- "Noam Chomsky: Reply to Hitchens," The Nation, 1 October 2001.
11- Interview, al-Jazeera, 22 August 2005.
12- "Sudan's Bashir says US dominated by 'zionists'," Reuters, 10 September 1998.
13- Editorial, al-Sharq, 21 August 1998.
14- Editorial, al-Ahram al-Messai, 21 August 1998.
15- "War has just begun, says bin Laden," The Hindu, 23 August 1998.
16- Interview, www.sudaneseonline.com (cited 10 October 2005).
17- ibid.
18- "Unifying Darfur's Rebels: A prerequisite for Peace," International Crisis Group, 6 October 2005.
19- Interview, al-Rai al-Aam, 8 October 2005.
20- Human Rights Watch report; www.hrw.org/reports98/sudan/Sudarm988-02.htm.
21- "Carter Says Wrong Time for Mideast Talks," Reuters, 24 April 2001.
22- See her Web site, www.kolapress.icolony.com (cited 3 April 2006); Long Train to the Redeeming Sin: Stories of African Women. California. Door of Kush, 2004.
23- "Sudanese woman rises from slave to author in UK," Reuters, 15 January 2004; Slave. London: Time Warner Books, 2004.
24- "In Sudan, a modern-day story of slavery," The Forward Forum, www.forward.com (cited 9 April 2004).
25- "Center for Religious Freedom Fact Sheet: Sudan," Center for Religious Freedom, Freedom House, Washington – DC; www.freedomhouse.org (cited 3April 2006).
26- "880 slaves freed in Sudan but many left, group says," Reuters, 4 February 2005.
27- "Rights groups fault UN steps on children in wars," Reuters, 20 January 2004.
28- "The Sudan Abductee Datebase: Yet More Questionable Propaganda," ESPAC, 30 May 2000.
29- On Web site: www.espac.org/usa_sudan_pages/raspberry.html (cited 3 April 2006).
30- Interview with author, August 2002.
31- Ibid.
32- Flint, Julie and Alex de Waal. 2005. Darfur: A Short History of a Long War. London: Zed Books.
33- Ibid.
34- Executive summary, "Report of the International Commission of Inquiry on Darfur to the United Nation Secretary-General," 25 January 2005.
35- Commentary, Akhbar al-Youm, 30 August 2005.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

36- Commentary, Akhbar al-Adab, 31 December 2000.
37- al-Ain al-Thalitha (The Third Eye), al-Arabiya, 17 March 2006.
38- Commentary, al-Quds al-Arabi, 20 September 2005.
39- Commentary, al-Rai al-Aam, 20 September 2005.
40- Article, http://www.sudaneseonline.com/earticle2005/sep15-82069.shtml (cited 15 September 2005).
41- "Aconspiracy of silence on Darfur.. in Beirut," Daily Star, 23 July 2004.
42- Ibid.
43- Editorial, "The culture excuse for Darfur atrocities no longer holds water," Daily Star, 7 June 2005.

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المؤلف في سطور :

- صحفي اسكتلندي عمل كبير مراسلي وكالة «رويترز» في السعودية
- أمضى فترة طويلة في العالم العربي تنقل فيها بين بلدانه المختلفة
- عمل في مصر في جريدة «ميدل ايست تايمز» كمحرر، وأسس مع هشام قاسم جريدة «كايرو تايمز»
- صدر له من قبل كتاب حول العالم العربي بعنوان Culture of Arab world ركز فيه على الجوانب المضيئة في الثقافة العربية بناء على خبرته وعمله في الصحافة في السودان والعراق ومصر والشام والخليج.

المترجم في سطور :

- كاتب وباحث مصري متخصص في دراسات "الإسلام والغرب"
- حاصل على ماجستير في العلوم السياسية
- صدر له من قبل أربعة كتب هي :

- الإنفجار السكاني الوهم والحقيقة
- قراءات في الدين والسياسة والأدب
- آليات الإختراق الإسرائيلي للمنطقة العربية
- الحرب غير المقدسة .. الإرهاب بإسم الإسلام (ترجمة)

- تحت الطبع:

- الإسلام والغرب في عالم متغير
- الإسلام في الفكر الأمريكي

رقم الإيداع بدار الكتب : 2010/21492

دار الرفاعى للطباعة

Adel_ elrefaie@hotmail.com

هل يكره العرب أمريكا؟ ولماذا؟ هذا هو السؤال المحوري الذي يحاول الكتاب الذي بين يديك الإجابة عليه من خلال تناول تحليلي يقوم على رؤية موضوعية جديدة من قبل كاتب غربي. وعلى مدى صفحات الكتاب يسعى المؤلف أندرو هنذ مستفيدا من خبراته بالمنطقة التي عايشها كمراسل صحفي إلى تقديم صورة دقيقة بشأن رؤية العرب ــ على كافة المستويات ــ سواء أكانوا حكاما أم محكومين، هيئات رسمية أم غير رسمية ، دينية أم غير دينية .. للولايات المتحدة على صعيد أوضاعها الداخلية والخارجية.. تقدمها ونمط حياتها وسياساتها.

وينطلق المؤلف في مسعاه من محاولة لبحث صحة ما جري الترويج له أمريكيا، خاصة من قبل أركان إدارة الرئيس السابق بوش بشأن كراهية العرب والمسلمين للأمريكيين ونمط حياتهم وهي المقولة التي ازدهرت وراج الكثير من رموز الحكم الأمريكي يرددونها بكثافة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

والإجابة التي يقدمها هنذ من خلال الغوص في القضايا العربية التي تتماس مع اهتمامات الولايات المتحدة ومواقف هذه الأخيرة منها أن العرب لا يكرهون الولايات المتحدة لذاتها أو في العموم، بل يكرهون إزدواجية أمريكا وكيلها بمكيالين وذلك رغم الإعجاب والحضور الطاغي لها في العالم العربي.

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
IWSC
www.ibtesama.com/vb Exclusive